مكتبة

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

فطر سعيد
1 ب

ابتسام تريسي

بنات لحلوحة

(الرّواية القاتلة)

بنات لحلوحة

(الرّواية القاتلة)

مكتبة | ١١٢١
t.me/soramnqraa

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2021 م - 1443 هـ

ردمك 978-9948-471-22-6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution LLC.

كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص. ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢١ ٤ ٢٠٢٣

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

ابتسام تريسي

بنات لحلوحة

(الرّواية القاتلة)

مكتبة | ١١٢١
t.me/soramnqraa

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution LLC.

الإهداء

باسل خرطبيل،

نوّار الكيلاني،

ورامي الهناوي[1]

---

(1) باسل خرطبيل: فلسطيني سوري أعدم بعد اعتقال دام سنتين.
رامي الهناوي: شاب درزي من شباب الثورة مات تحت التعذيب في معتقلات الأسد.
نوّار الكيلاني: من شباب الثورة أصيب أثناء معارك الغوطة وغادر سوريا إلى مصر، وخرج منها عن طريق البحر قاصدًا إيطاليا ومات غرقًا.

الفصل صفر

مكتبة
t.me/soramnqraa

... في هذا الوقت من السّنة تهدأ الحركة في طرقات "الحيرانة" وتبدو البيوت الخالية في الليل مهجورة ومنتزعة من حكاية مرعبة؛ حين تهبّ رياح الخريف العنيفة فتجلد الأشجار بغضب منتزعة الأوراق الضّعيفة الهشة مائلة بها الأرصفة والشّرفات الخالية. صخب البحر القريب لا يقلُّ رهبة في الليالي الموحشة، يجبرني على الصّحو حتّى الصّباح.

تنقسم البلدة إلى قسمين، قسم البيوت القديمة المتوغلة في عمق الجبل، وقسم البنايات الحديثة القريبة من البحر. يتشبّث سكّان الجبل بخصوصيتهم وكأنّهم معزولون تمامًا عن الأحياء الحديثة في القسم الآخر من البلدة، فهم يحافظون على لباسهم الشّعبي، ونساؤهم لا يظهرن في الأسواق والشّوارع كثيرًا ولا يتحدّثن إلى الأغراب، كما تحافظ الفتيات على حشمتهن في اللباس والتّصرفات. معظم سكّان القسم الثّاني أغرابٌ عن البلدة يغادرونها إلى العاصمة والمدن الكبيرة في الشّتاء فتبدو خالية أحيانًا وتنعدم فيها حركة البيع والشّراء؛ لذا لا تفتح المحلات قبل الثّانية عشرة ظهرًا.

بعد ليلتين من القلق والتّرقب والفراغ الذّهني الكامل قرّرت حزم حقائبي والعودة من حيث أتيت، لكنّ ضوءًا ضعيفًا في البناء المقابل يقاوم العتمة حتّى السّاعات الأولى من الصّباح استوقفني واستنفر مخيلتي فعدلت عن السّفر.

مرّ أسبوع وأنا أراقب الحيّ الهادئ وثلاث نساء يسكنّ فيه من خلف زجاج شرفتي الواسع.

في صباح اليوم الأوّل من الأسبوع الثّالث نقلت أريكتي ووضعتها خلف الباب، كي أراهنّ بوضوح وأنا جالس أشرب قهوتي الصّباحية، أستمتع بذلك الحديث الصّامت الذي يستمرّ قرابة ساعة معهنّ. أطلقتُ عليهن أسماءً تتناسب مع وضعهنّ الظّاهر لي.

سيدة الورد تخرج إلى الشّرفة الغربية عند الضّحى بثوب النّوم الخفيف وبيدها إبريق ماء، ترش نباتاتها وتغني لها.. "يا فل يا روح، يا روح الرّوح...".

"يا ورد يا أحمر قولي، قولي مين جرّحك، جرّح خدودك وخلّى على شفايفك دمك!".

"يا ساحر القلوب يا قرنفل...".

بين أغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم تتراوح طبقات صوتها ارتفاعًا وانخفاضًا، واختناقًا وتلاشيًا، مختتمة جملتها بالدّمع! تلمس بأصابعها النّباتات الخضراء وهي تناديها بأسمائها، وتهمس لها بكلمات لا تصل إلى مسمعي.

سيّدة اليمام:

في السّاعة الثّامنة بالضّبط تبدأ أسراب اليمام بالتّحليق في الفضاء الواسع ما بين البنايات الثّلاث وتحطّ على شرفة الطّابق الثّالث.

أسمع موسيقا الفصول الأربعة تتسلّل من النّافذة المفتوحة على شرفة ضيّقة عرضها لا يتجاوز نصف متر وطولها متران.

سيّدة القطط:

في الثّامنة وثلاثين دقيقة تنزل من البناء الثّالث سيدة نحيلة طويلة تسحب وراءها ثلاث قطط، تغيب نصف ساعة وتعود وبيدها لفافة ورقية كبيرة.

وفي مشهد غرائبي تتوافد القطط من كلّ الأنحاء وتنضمُّ إلى القطط التي تنتظر أمام الباب!

تضع لها الطّعام وتصعد إلى منزلها، وتغلق الباب!

يسيطر السّكون على الحي حتّى السّاعة الرّابعة عصرًا.. تخرج **سيّدة الورد** لترش النّباتات بالماء وتنظّف الشّرفة.. تفتح **سيّدة اليمام** نافذتها لاستقبال اليمام بصحاف الماء، وتخرج **سيّدة القطط** من البناء المقابل لتضع وعاءً نظيفًا فيه ماء وآخر فيه حليب وفتات خبز ثمّ تغلق الباب!

في الواحدة ليلًا ينوس ضوءٌ في الشّقة الشّرقية من الطّابق الرّابع، ترتفع ستارة لتظهر سيّدة تجلس وراء طاولة خشبية، أمامها كدسة من الأوراق، تضع نظارتها، ترشف ببطء من فنجان على يمينها، وتبدأ الكتابة.. أكاد أشمّ الرّائحة المنبعثة من الكتب المرصوفة بعناية خلفها على الرّفوف الخشبية مختلطة برائحة القهوة التّركية المنكّهة بالمسكة وحبوب الهال.

السّاعة السّابعة صباحًا تسدل السّتارة ويختفي كلّ شيء!

كان عليّ أن أجد طريقة أستطيع من خلالها التقرّب منهنّ، شيءٌ خفي يوحي إليّ أنّي سأدخل عوالم غريبة وأكتشف من خلالها أسرارًا وحكايات مثيرة.. أنا بطبعي أحبّ الحكاية، أسرتني مذ كنت طفلًا وما زلت حتّى الآن سجينًا داخل أسوارها، أمتطي قلاعها وأغوص في دهاليزها وأخرج دائمًا من أنفاقها المظلمة إلى حيث لا تغيب الشّمس.

لاحظت أنّ السّيدة الكاتبة لا تخرج مطلقًا من بيتها، وأنّ شخصًا ما يطرق باب منزلها في مواعيد محددة كلّ يوم، عرفت أنّه عامل يقوم بتوصيل أشياء تطلبها منه. أمسكت رأس الخيط، لا يحتاج الأمر إذن سوى البحث عن عملٍ مشابه! لكن كيف سأصل إلى سيدة الورد وهي لا تغادر المنزل مطلقًا؟

بعد مراقبة دقيقة اكتشفت أنّي خدعت، فسيّدة الورد ترتدي عباءة وخمارًا حين تغادر المنزل وأنا أنتظر سيدة ترتدي ملابس أنيقة عصرية كما تفعل في شرفتها!

الوحيدة التي كان من السّهل معرفة تحركاتها "**سيدة القطط**" فهي تخرج مرتين يوميًا، المرّة الثّانية لا تبتعد فيها عن بيتها لكنّها أحيانًا تدخل البناء المقابل لمدّة لا تزيد عن السّاعة.

قرّرت أن أستأجر بيتًا في البناء الذي تسكنه سيدة القطط كي أكون قريبًا منهنّ.

السّمسار أخبرني أنّ السّيدة المالكة لا تؤجر رجلًا عازبًا، لكنّها ستتجاوز الشّرط في حال التزم المستأجر بما تطلبه منه.

ظننت أنّها ستطلب مبلغًا كبيرًا، لكنّي فوجئت أنّ الطلبات لا علاقة لها بالعائد المادي وإنّما هي طلبات قد لا يوافق عليها أيّ مستأجر غيري!

لم أجد صعوبة في إقناع صاحب المطعم القريب بالعمل عنده فقد أنهى لتوه التّوسعة التي ألحقها بمطعمه البسيط وأضاف إليه أصنافًا من الأطعمة الحديثة التي يُقبل عليها الشّباب بنهم. حين تذوّق طبق البيتزا الذي صنعته على الطّريقة الإيطالية وافق مباشرة.

لم يكن يعرف أنّ الإيطاليين لا يضعون فيها كلّ تلك الأشياء المربكة من الخضار واللحمة والسّجق وشرائح الدّجاج وأيضًا حبوب الذّرة!

أبديت رغبتي مباشرة في توصيل طلبية السيّدة الكاتبة، نظر إليّ باستغراب وقال: "ولكن هذا ليس عملك". والتفت يطلب الفتى الذي يقوم بتوصيل الطّلبات فلم يجده، لم ينتبه للمؤامرة الصّغيرة التي قمت بها لأبعده عن المطعم في هذا التّوقيت، هزّ كتفيه استغرابًا وأومأ لي لآخذ الطّلب.

لوهلة شعرتُ بشيءٍ حار تدفق في فقرات ظهري وجعلني أغتسل بالعرق، تصبّب من جبيني وتعرّقت يداي.. رهبةٌ غير عادية تلك التي اعترتني وأنا أقف على عتبة الباب وأسترق النّظر إلى الدّاخل، حدّقتْ فيّ بدهشة، كانت نظرتها تحمل لومًا لطيفًا واستنكارًا واضحًا، ارتبكتُ تحت وقعها وقلت مبررًا فضولي: "تذكرت أمّي، كانت ترتدي شالًا مشابهًا تلفُّ به شعرها الكستنائي وتتركه ينسدل بإهمال

هكذا على كتفيها.. في الواقع كانت مثلك تعشق زهر البنفسج!".

التفتتْ إلى الخلف حيث وضعت مزهرية من الفخار ملأى بزهور بنفسجية ناعمة هشة يكلّلها النّدى.. قالت: "أتريد بعضها؟". لم أفوّت الفرصة، قلت بسرعة: "يا ليت!". تراجعتْ بضع خطوات، وضعتْ علبة الكرتون الفضية فوق الجاردينير، وتقدّمت من طاولة الطّعام في الصّالة، سحبتْ بعض الأعواد الغضة، وعادت. ناولتني إياها وهي تبتسم، شكرتها متلعثمًا: "كيف تحصلين على البنفسج في غير موسمه؟". ابتسمت: "ذلك سرّي الخاص".

نظرت إليّ باهتمام وتساءلت: "منذ متى تعمل عند عبد الصّمد أفندي؟". قلت: "منذ يومين فقط". حين أبدت استغرابها، أخبرتها أنّي صنعت فطيرة البيتزا، وأتمنّى أن تعجبها.

لم أستطع الوقوف أكثر، اندفعتُ هابطًا الدّرج وكأنّي أهرب من عينيها بل من أسئلتها، كنت أخشى أن تكتشف ما أبحث عنه.

حين وصلتُ الشّارع حاولت ضبط إيقاع ضربات قلبي، ما الذي جرى؟ لماذا هربت؟ ألم أنتظر هذه الفرصة بفارغ الصّبر؟ سؤال مختلف غافلني وأنا أراقب سيّدة القطط التي خرجت في تلك اللحظة من باب البناء وفي مشهد مثير تدافعت القطط من أنحاء الحي والشّارع المؤدي إلى الزّقاق الضّيّق لتتمسّح بقدميها.. كنت أقف مذهولًا أنظر إليها وأفكّر ما الذي يجمع هؤلاء السّيدات؟ لماذا يسكّنّ هنا في تقاطع الشّوارع داخل أبنية تطلّ على البحر من بعيد وخلفها تقع حديقة العمال بأشجارها التّاريخية الضّخمة! لم أفكر قبل الآن في معرفة الصّلة بينهن، لكنّي في هذه اللحظة أشعر أنّ هناك شيئًا خفيًا يجمعهنّ.. لاحظت أنّ سيدة القطط حدّقت إليّ بالطّريقة نفسها التي رمقتني بها السّيدة فريدة.

المثير بالنّسبة إليّ لون العينين الأزرق المائل إلى البنفسجي، وزهرة البنفسج التي تزيّن شعرهما!

حتّى ذلك الوقت لم أكن قد رأيت سيّدة اليمام تلك التي تمدّ يدًا بيضاء تشع مع انعكاس شمس العصر فتبدو ذراعاها كقوس قزح، لم أستطع تفسير الظّاهرة الغريبة إلا بعد زمن ليس بالقصير.

فاجأني صاحب المطعم بعد يومين وهو يناديني: "مكالمة لك، تريد أن تصنع لها فطيرة بالسّبانخ". خفق قلبي وأنا أتساءل: "من؟". قال وهو يغمز بعينه: "السيّدة فريدة، يبدو أنّك خطفت قلبها، أقصد معدتها، نادرًا ما تطلب أحدًا بعينه ليصنع لها فطيرة، إنّها المرّة الأولى، حدثٌ جلل جدير بالتّسجيل!".

* * *

لم يسعفني الوقت ولا الحظّ للتّقرب من السّيّدة فريدة كما كنت آمل...

خيّمت رائحة الموت الكئيبة على الحيّ في الصّباح التّالي لطلب السّيّدة فريدة مني أن أحضّر لها أنواعًا كثيرة من الفطائر المالحة والمعجنات الحلوة والبيتزا، وقالت لي مازحة إنّها تنتظر ضيوفًا من العاصمة إن أعجبهم ما سأصنعه سيكون واسطة لي لأصبح الشّيف رقم واحد في الدّولة أو الشّيف الخاص للقصر.. وصمتت قليلًا قبل أن تكمل بجدية: "ابذل جهدًا مضاعفًا، الضّيوف رجالٌ مهمّون".

لم أنم تلك الليلة، بقيت حتّى ساعات الصّباح وأنا أحضّر الكميات الكبيرة من الفطائر التي طلبتها السّيدة، بذلتُ جهدًا استثنائيًا، عملت أنواعًا لم تطلبها، وتفننت في تزيين البيتزا وأكثرت من التّوابل كما طلبت!

لكنّ شيئًا غير مألوف أربكني وأحبطني في آن؛ اتّصلت السّيّدة بي قبل طلوع الشّمس بساعة لتقول لي بلهجة رقيقة تحوي الكثير من الارتباك والاعتذار: "يمكنك أن توزع ما صنعته بالمجان وأنا سأدفع ثمنه، لقد تأجّل الموعد".

إذن ضاعت الواسطة ولن يأتي الضّيوف! بقيت مذهولًا لدقائق والسّماعة بيدي ولم أنتبه إلى انقطاع الاتّصال مباشرة.

حتّى ساعة الضّحى كنت أفكّر بتصريف الكمية الكبيرة من الفطائر والمعجنات التي صنعتها، بعد ذلك جلست لأستريح فلمع في رأسي خاطر سيئ جعلني أنهض وأستأذن من صاحب المطعم بحجة أنّي بحاجة للنّوم والرّاحة بعد ليلة مرهقة في العمل.

وصلت البيت.. وضعت ركوة القهوة على النّار، فارت لارتباكي واستعجالي.. حملت الفنجان وجلست على الأريكة وعيناي تحدّقان إلى نافذة السّيّدة فريدة. لاحظتُ أنّ يدي ترتعش وأنّ القهوة لوّثت ملابسي.. وضعتُ الفنجان جانبًا وتابعت التّحديق إلى الفراغ الذي أظهرته النّافذة المواربة بعد أن أزاحت الرّيح السّتارة في حركة مفاجئة.. أمرٌ مريب استنفر حواسي كلّها وجعلني أفتح الباب وأخرج إلى الشّرفة مغامرًا بمخالفة أحد الشّروط التي وافقتُ عليها حين استأجرت البيت. صرت على مقربة من النّافذة، كانت الشّمس تتسلّل داخل الغرفة باستحياء مضيئة المساحة التي تقع في حيزها المكتبة والمكتب، أثار انتباهي عدم وجود الكرسي خلف المكتب، كان من الممكن أن أرى المكان بشكل أوضح لو وقفت على رؤوس أصابع قدميّ وتطاولت بقامتي فوق سور الشّرفة، لكنّي خجلت أن يراني أحد أتلصّص على بيت جارتي.

حان الوقت لتظهر السّيّدة فريدة في شرفتها الغربية لتسقي الزّرع وتقرأ الجريدة، لكنّها لم تظهر! باب الشّرفة مغلق والنّباتات أحنت رأسها في مشهد غريب زادته الرّيح كآبة؛ فقد عصفت بزهور القرنفل المعلّقة في أصص صغيرة على جدران الشّرفة واقتلعت بعضها. لم أدرك ما الذي دفعني إلى الخروج بسرعة من المنزل، قصدت المدخل الأمامي للبناء، دخلت المصعد - وهي ثاني مخالفة لشروط العقد - ضغطت زر الطّابق الرّابع، انفتح الباب عن فوضى مريبة في المدخل.

الطّابق الرّابع عبارة عن شقتين مفتوحتين على بعضهما تخصان السّيّدة فريدة وقد فوجئت حين عرفت أنّ سيّدة الورد التي تظهر على الشّرفة الغربية هي نفسها

السّيّدة الكاتبة. باب إحدى الشّقتين مغلق والثّاني يخدع النّاظر لأوّل وهلة، اقتربت منه وقلبي يخفق بشدّة، لم أكن بحاجة لدفع الباب للتأكد من أنّه مفتوح!

رائحة البنفسج تغلغلت في رئتيّ بقوة لا تتناسب مع رقته وخفته، توقفت للحظات متهيبًا الدّخول، الرّائحة كانت مصحوبة بدفقة هواء عطن مشبع برطوبة خانقة! تنحنحتُ وهمست: "يا ستنا، هل أنتِ هنا؟". صدمني سؤالي الغبي، من الواضح أنّ السّيّدة ليست موجودة فليس من عادتها أن تترك الباب مفتوحًا بل تغلقه من الدّاخل بعدّة أقفال. خطوت خطوتين داخل الممر المعتم وانتظرت ريثما استطاعت عيناي استكشاف ملامح الصّالة المضاءة بخيوط الشّمس التي اقتحمت فرجة النّافذة. كلُّ شيء صامت وهادئ وكئيب.. على الطّاولة فناجين قهوة وركوة وفوضى أوراق، الطّابعة مكشوفة الغطاء، على شاشة الحاسوب ملف فارغ يحمل اسم رواية! اقتربت أكثر حتّى حاذيت المكتب، هناك في الفسحة ما بين المكتبة والكرسي المقلوب تكوّم جسد السّيّدة فريدة، كانت في وضعية الجنين، تحضن بطنها بيديها ويغطي شعرها المشعث وجهها، كتمتُ صرخة خوف في صدري، تقدّمت ببطء، حدّقت إلى الجسد السّاكن، كانت يدها اليسرى تمسك ورقة منتزعة من كتاب، سحبت الورقة بصعوبة فتمزّقت. كلمتان فقط جمدتا جسدي وارتعشت يدي وهي تمتدُّ إلى الأوراق، جمعتها بسرعة، سحبت الكيس الذي وضعته السّيدة في سلة مهملات صغيرة تحت المكتب، لملمت الأوراق من الأرض والطّاولة، حشرتها فيه، وسارعت بالخروج من البيت.

دخلت شقتي وقلبي يخفق بشدّة. فتحت الكيس، أخرجت الأوراق، تصفحتها على عجل، لم أفهم منها شيئًا، فواتير، عقود إيجار، كمبيالات، أوراق ملكية سيارة، وصفات طبية، تحاليل، ورسائل...

يبدو أنّ أحدهم كان يبحث في أدراج السّيّدة عن شيءٍ ما وبعثر أوراقها، وربّما كان الهدف من بعثرة الأوراق جعل مقتلها يبدو بهدف السّرقة! أعدت قراءة

الورقة (الحاوية.. الرّواية). الكلمتان مكتوبتان على الصّفحة الأولى لرواية مطبوعة تحتوي على عنوان دار النّشر ورقم هاتفها، تصنيف الكتاب، اسم الكاتب، وكلّ المعلومات التي تضعها دور النّشر في الصّفحة الأولى من كتبها. الرّواية كما هو مدوّن على الورقة من تأليف السّيّدة فريدة التي لم أسمع بها من قبل، وفشلت كلّ محاولاتي في البحث على جوجل للحصول على معلومات تزيل الغموض المحيط بها أو تترك في يدي خيطًا يوصلني إلى تلك المعلومات.

بحثت عن دار النّشر في محرك البحث جوجل لكنّي لم أصل إلى نتيجة. الشّارع والمكان لم أسمع بهما من قبل! اقتنعت أخيرًا أنّ الدّار جديدة وليس لها وجود على الإنترنت.

إذن، ماذا أفعل الآن؟ أنا على يقين أنّ السّيّدة فريدة كتبت الورقة لي. فهي تعلم سبب وجودي في البلدة.

...(يوم السّبت الماضي حين أحضرت لها ما طلبته، تناولت الكيس وقالت لي ببرود: "انتظر قليلًا ريثما أحضر لكَ الثمن". وقفتُ دقائق بالباب ولم تعد، انتابني القلق فتنحنحتُ منبّهًا إياها لوجودي، مرّت دقائق وسمعت صوتها من الدّاخل تقول: "تفضل، انتظرني في الصّالة". لا أعرف بالضّبط ما الذي أخّرها، لكنّي دخلت، توقفت أمام المكتبة، استغرقت زمنًا في قراءة العناوين ولمس أغلفة الكتب ولم أنتبه أنّها عادت ووقفت ورائي تراقبني حتّى أخرجت أحد الكتب وتصفحتها، سمعتها تقول: "السّوريون الأعداء، آخر رواية لفواز حداد، هل أنتَ معنيٌ بما كُتب عن الثّورة السّورية؟". اضطربتُ قليلًا واعتذرت لتطفلي، لم أخبرها أنّ ما حدث في سورية ليس ثورة وأنّ من خرجوا في وجه النّظام مجرد رعاع يريدون إعادة سوريا إلى عصور الظّلام بأفكارهم السّلفية، تريثت ريثما أعرف رأيها.

ابتسمت وقالت: "لا عليك، أتشرب قهوة؟". كانت دعوة مفاجئة بالنّسبة إليّ، المعروف أنّ السّيّدة فريدة لا ترتاح للغرباء، وليس لديها أصدقاء، ولا يزورها

أحد، فأيّ منحة إلهية أفاضت عليّ بشرب القهوة معها!

حدّثتها بارتباك عن محاولاتي الفاشلة السّابقة لطباعة أعمالي واستغلال دور النّشر، ولم أكد أنتبه إلى الوقت الذي مرّ بسرعة والسّيّدة تنصت إليّ باهتمام من دون أن تقاطعني. سكبت لي فنجان قهوة آخر، وسألتني عدّة أسئلة، أهدتني بعدها مجموعة من الكتب وكي تبعد عني الإحراج قالت بأنّها تمتلك منها نسختين، أكّدت لي أنّها ستعجبني وأنّها ربّما تثير مخيلتي وتلهمني فكرة رواية مختلفة! ثمّ ناولتني رواية فواز حداد:

- يعزّ عليّ أن أتنازل عن نسختي فهي هدية من الكاتب، لكن أريدك أن تعرف ما جرى، في الرّواية خلاصة المأساة السّورية.

حملتُ الكتب وخرجت، ولم يفارقني ارتباكي حتّى بعد أن أغلقت باب شقتي واستلقيت في الفراش أفكّر كيف سأبدأ الرّواية؟ في ذهني احتمالات كثيرة وبدايات متعددة لكنّها كلّها غير مقنعة ولا تحقّق ذلك الإدهاش الذي أبحث عنه).

كان عليّ الآن البحث عن الرّواية التي لا شكّ أنّ السّيّدة فريدة أرادت أن أجدها، فهي تعرف أنّي سآتي إلى شقتها لأخذ النّقود كالمعتاد.

تردّدتُ في العودة إلى شقّتها، الخوف هيمن عليّ، كان قلبي يخفق بعنف وأنا أقترب من باب الشّقة الموارب..

تجنبت الدّخول إلى غرفة المكتب حيث ترقد السّيّدة في عزلتها الأبدية، لا شكّ أنّ الحاوية المقصودة موجودة في المطبخ، لكنّ خيبتي كانت كبيرة حين نبشت أرجاء المطبخ ولم أجد حاوية! هل يعقل أن يكون القاتل اكتشف أمرها وأخذها؟ إن صح الاحتمال فمعنى ذلك أنّ للرواية علاقة وثيقة بمقتل السّيّدة.

بحثت في غرفة الضّيوف والصّالة ولم أجد شيئًا، انتبهت فجأة للرّيح المتسلّلة من فرجة باب الشّرفة، فتحت الباب ببطء وفكرت بالطّريقة التي تُمكّنني من سحب الحاوية الموجودة في الخارج، كانت بعيدة عن الباب ومليئة بالأوراق

اليابسة والزّهور الذّابلة.. إن خرجت إلى الشّرفة سيراني الجيران وسأقع في ورطة حقيقية. بحثتُ في المطبخ عن عصا يمكنني استخدامها في سحب السّلة.. وجدت أخيرًا المسّاحة التي تستخدم في التّنظيف، العصا كان طولها مناسبًا، كان عليّ أن أزحف على الأرض كي لا يراني أحد من خلف الزّجاج، مددت العصا، علّقت طرفها بيد السّلة وسحبتها ببطء.

تحت الزّرع اليابس كانت هناك نسخة الرّواية المطبوعة، المنسقة، الجاهزة للنشر!

* * *

"لا أحد يملك الحقيقة من حيث هي بل يملكها من حيث هو".

الطّيب تيزيني

عقابيل[1]

رواية بقلم "فريدة الرّيْدَةُ[2]"

مقدمة:

أنا فريدة، الفتاة التي أحبّها الأصدقاء الخمسة ولم تتزوج أحدهم. علاقتي بالرّواية علاقة عشق وانصهار وتمازج، أستطيع القول إنّ هذه الرّواية هي الأولى بين رواياتي التي لم يتدخل الرّقيب القابع في رأسي في مجريات أحداثها ولم يستطع أن يفرض عليّ التّحايل في الكتابة خوفًا من الاعتقال أو القتل.. هنا ستكون شخصياتي عارية تمامًا، لن أدعها تتجمّل أو تتخفّى وراء أسماء وهمية، ولن أفتعل أحداثًا لأخلطها بالحدث الواقعي كي يبدو مجرد حدث روائي.

أنا التي أطلق عليها صديقها نضال يومًا لقب "الحية الرّقطاء" التي قتلت الكلب السّلوقي وحرقت قلب أبي نواس. صحيح أنّه قال ذلك مازحًا، لكنّ الزّملاء صاروا يهمسون به حين يتضايقون مني بكلّ جدية حتّى كاد أن يصبح لصيقًا بي ومعبّرًا عن شخصيتي من وجهة نظر بعضهم. حتّى أنا تصالحت مع اللقب لدرجة بتّ أشعر أنّ بإمكاني أن أنفث السّم من جلدي إن أساء إليّ أحد.

---

(1) الدّواهي، الشدائد، وما يبقى على طرف الشّفة إثر الحمى.

(2) الرّيْد: الحرف الناتئ من الجبل.

لا أعرف بالضّبط عدد المرّات التي اضطررت فيها لتغيير جلدي كي أبقى بعيدًا عن سيطرة أمّي. الهيمنة العاطفية التي مارستها عليّ مذ كنت طفلة وحتّى بعد هروبي منها أثّرت سلبًا على سلوكي ومواقفي من الآخرين.

تلك السّلبية التي دفعت بي بعيدًا نحو العزلة وكراهية الرّجال ورفض الارتباط بأحدهم. عشت علاقات عاطفية كثيرة انتهت كلّها بالفشل ولم تستمرّ إحداها أكثر من أشهر.. لم أملك الاستعداد النّفسي والرّوحي لأكون أمًّا أو زوجة، وانتهيت وحيدة في بيت تركه لي أبي بل أختي منحته لي. قالت: "لم يربِّني أبي على أكل مالٍ حرام، وإلى الآن لم أستطع استيعاب تصرفه تجاهكما! على كلّ حال أنا فعلت ما يمليه عليّ ضميري، وأرجو أن تسامحيه".

المسامحة لم تكن شأنا ذا قيمة بالنّسبة إليّ، فإن فعلت فأنا أسامح شخصًا لم تربطني به علاقة روحية أو ذكريات مشتركة، وإرضاء لأختي التي ذرفت دموعًا حارّة وغزيرة بعد تلك الجملة نطقتُ بكلماتٍ حيادية تقول "إنّي سامحته في الدّنيا والآخرة!".

الحيرانة أواخر كانون الأوّل 2018

* * *

الفصل الأوّل

قرار إزالة

أوّل قرار اتّخذه فور تعيينه في منصبه الجديد كان الخطوة الأولى في سلسلة مهام أسّست لفترة رئاسته للمخابرات العامة في المنطقة الشّمالية. في الحقيقة لم يكن قرار الإزالة فكرته الشّخصية بل جاء من القصر الجمهوري بختم الرّئاسة. قرارٌ حكيم سيشكّل نقلة مهمة في سياسة التّغيير والتّطوير للبلد.

المُستخدم منصور سهّل عليه الكثير من المهام الشّائكة كونه من سكّان المدينة القديمة وعمل في أسواقها وخاناتها وأوتيلاتها ولم يترك مهنة لم يفشل في العمل فيها! الفشل الذي لازمه بسبب كسله وأحلامه بعمل سهل ذي دخل مادي جيد زيّن له الانخراط في سلك المخابرات مُستخدمًا بالمعنى الشّعبي الأدق "كَتِيب تقارير"!

منصور أحضر للعميد "جاد الله المُزيّن" الملفات الكاملة لكلّ العاهرات اللواتي عملن في الحي منذ تأسيسه حتّى إزالته. ضحك العقيد ومازح منصور وهو يقلّب أوراق التّقارير:

- يبدو أنّك كنت تعمل قوّادًا في المنزول[1] حتّى استطعت جمع كلّ هذه المعلومات.

لمس منصور صلعته بأصابع مرتعشة وكشّر عن أسنان متآكلة، ابتسامته الصّفراء لم تعجب العقيد الذي رمقه بازدراء. انتبه منصور إلى نظرة العقيد،

(1) المنزول: بيت الدّعارة حسب اللهجة المحكية في الشّمال السّوري.

واستعاد هيئته الصّارمة ووقفته المنتصبة، لم يكن يجرؤ على توضيح الأمر للعقيد ولا مشاركته بمشاعره الملتبسة حول ملاحظته المازحة التي تحوي جزءًا كبيرًا من الحقيقة بالمصادفة البحتة. ولم يكن العقيد يعرف طباع منصور بعد، فلم يمضِ سوى أسبوع واحد على استلامه العمل في الدّائرة التّابعة له.

أشرف منصور بأمرٍ من العقيد على تنفيذ قرار هدم حي بحثيتا، وكان بانتظاره مهمة أخرى.. تتبع أثر النّساء اللواتي أمره العقيد بجمع معلومات عنهن وإبلاغهن أمر الحضور إلى مكتبه.

عاد منصور من مهمته بعد أسبوع وقد جمع كلّ المعلومات اللازمة حول السّيّدات اللواتي أُمر بمعرفة مصيرهن. جاء في تقريره:

نادرة الشّريف: وضع جانب اسمها خطًّا بالقلم الأحمر. "يصعب إحضارها فهي تقيم في القاهرة".

لحلوحة: توفيت سنة "1963".

حلوة الشّخشرلي: متزوجة من بائع متجول يبيع أدوات الخياطة والزّينة على عربة صغيرة، تقيم في قبو بناية أوّل حي صلاح الدّين.

حسنية الحلّاقة: غادرت حلب منذ سنوات وتقيم في مدينة الحيرانة. متزوجة ولديها ولد.

وسيلة سيّد الكار السّبّاك: تقيم في الحيرانة، أرملة وعندها ولد، غير اجتماعية، لا تحتكّ بالنّاس، تظهر في مناسبات قليلة، تشاهد فقط أيام البازار في السّوق وفي الأعياد.. عملت مستخدمة في روضة أطفال قبل زواجها الثّاني.

بدرية الخيّاطة: تقيم في الحيرانة لديها ولد، اجتماعية ويحبّها السّكّان، تعمل على تعليم البنات الخياطة من دون أجر. بيتها مقصد معظم نساء البلدة.

صفية الرّيدة: تعمل في الحيرانة لديها ابنة لا تقيم معها ولا تعرفها، تبنّتها عائلة صديقة لمدير المخابرات السّابق بدر، تقيم في الحيرانة.

وحيدة الرّيدة: مُعلّمة مدرسة ابتدائية، تقيم في الحيرانة، غير متزوجة، لديها ولد! وتقيم علاقات مشبوهة مع نساء من البلدة وبعض المعلّمات في المدرسة، يخافها معظم سكّان البلدة ويتجنبون الاحتكاك بها، لديها ميول سلطوية وشخصية قيادية.

وهيبة العايقة: تعمل في حمّام الوسطانية ببلدة الحيرانة متزوجة من رجل يعمل في قميم الحمّام، عندها ولد، لا تحتك بأحد خارج الحمّام وليس لديها أيّ نشاطات اجتماعية.

فضّة العرموطية: تداوي النّاس بالأعشاب، نشاطها الاجتماعي واسع، تزور معظم نساء البلدة في اجتماعاتهن سواء في البيوت أو "السّيبانة". تفتح بالفنجان وتبصّر بالودع، يحبّها النّاس عمومًا، عندها ولد ينسب لجماعتنا.

ارتاح العقيد للتقرير المفصّل الذي أرفقه منصور بالمعلومات المختصرة الأولية عن كلّ واحدة مع مكان وجودها.. وأمر بتحويل ملفات اللواتي يقمن في الحيرانة إلى العقيد "أبو فراس" رئيس فرع مخابرات المنطقة الشّرقية الشّمالية التي تتبعها الحيرانة. وأرفق التّقارير بتوصيات حول المهام المطلوبة من كلّ سيّدة جاء اسمها في الملف، وتوصية خاصة بابن فضّة!

* * *

من غير ميعاد

كأنّهن على موعد، نظراتهن أفصحت عن الدّهشة والاستياء والقلق. بعد ربع ساعة من الانتظار في غرفة المساعد تسلّل الخوف إلى قلوبهن. تجرّأت صفية وسألت المساعد المتشاغل بقراءة ملفات أمامه وشرب الشّاي:

- زكاتك قل لنا، رح يتأخر النّقيب ليوصل؟

رفع المساعد رأسه ببطء، تأمل صفية، أجاب بحركة تنم عن الضّيق:

- لا أعرف، عندما يقرّر سيستدعيكن.

همست حسنية: "يعني هو هون". ارتجف قلب بدرية واصفرّ وجهها، تأملتها وحيدة وقالت بصرامة:

- حضرة المساعد، أحضر كأس ماء للسيّدة بدرية فهي متعبة كما ترى.

انتفض حضرة المساعد وكأنّ أحدًا صفعه، لكنّ نظرات وحيدة الحادّة والواثقة أعادته إلى رشده وكرسيه. ضغط الجرس أمامه وطلب من المستخدم إحضار إبريق ماء للسيّدات.

لم تكد بدرية تنهي الكأس حتّى فُتح بابٌ جانبي ونادى المستخدم عليهن ليدخلن غرفة النّقيب.

ابتسم النّقيب بعذوبة ورحّب بهنّ:

- قيل لي إنّكنّ كنتنّ خائفات، أنتنّ في ضيافتي، سندردش قليلًا لا أكثر.

ردّت وحيدة:

- لم نقترف إثمًا لنخاف.

قال النّقيب بتهذيب:

- سيدة وحيدة هل تعتقدين أنّ المخابرات حين تريد اعتقال شخص ما بحاجة إلى دليل وإثبات أنّه فعل شيئًا؟ مع هذا يمكننا فتح ملفات "حقيقية" لا تزوير فيها لكلّ واحدة منكن ونستضيفها في الزّنزانة بدل مكتبي.

اصفرّ وجه بدرية وأُغمي عليها. رنّ صوت وحيدة كما لو أنّها في باحة المدرسة، قالت بوضوح:

- لا أظنّ تهديدك ضروري حضرة النّقيب، ستفقد إحدانا حياتها من دون اعتقال كما يبدو.

نهضت فضّة وساعدت بدرية على الاستيقاظ وطلبت كأس بابونج ساخن.

قال النّقيب حين استعادت بدرية وعيها:

- لستن بحاجة للدّفاع عن أنفسكنّ ولسنا بحاجة لاعتقالكنّ بتهم ملفقة أو حقيقية. بالعكس، أنا واثق أنّنا سنتفاهم ونتفق قبل أن يستدعيكن العقيد. لنتفق هنا على كلّ التّفاصيل وتكون زيارتكن للعقيد من أجل التّعارف وشرب فنجان قهوة مع سيادته فقط.

* * *

العقيد "أبو فراس" لم ينظر في التّقارير المرسلة إليه فقد اتّصل النّقيب به هاتفيًا وقال له عبارة واحدة فقط "كلّ شيء على ما يرام".

حين دخلت السّيدات غرفته نهض من وراء مكتبه واستقبلهنّ بحفاوة ومدّ يده وصافحهنّ جميعًا. ثمّ عاد إلى مكانه وراء المكتب واتّصل بالنّقيب أمامهنّ وسأله:

- هل العدد كامل؟

جاءه الردّ:

- كامل سيدي.

قال بهدوء:

- أراه ناقصًا، أريد دعوة السّيّدة ناهدة إسماعيل لشرب فنجان قهوة في مكتبي.

والتفت إليهنّ:

- أهلًا وسهلًا، أنا على ثقة أنّكنّ ستفهمن جيدًا المهمة الموكلة إليكنّ، ولن تبخلن على الوطن بخدمته ولو على حساب راحتكنّ.. أليس كذلك سيّدة وسيلة.

ارتعدت وسيلة، لماذا يخصّها بالكلام، ابتسم مشجعًا:

- يبدو أنّك لا تعرفين أنّنا أقارب وأبناء محافظة واحدة.. ملفك عندي يقول إنّ جدتي لأمّي ابنة عم جدتك لأمّك.

وضحك العقيد، فلم تجد وسيلة بدًا من الابتسام للطرفة التي أطلقها، وإن لم تفهم مغزاها إلّا بعد زمن طويل.

* * *

- ناهدة الأغا "لو سمحت حضرة العقيد".

ردّت ناهدة بانزعاج على مناداة العقيد لها "مدام ناهدة إسماعيل" ابتسم العقيد وغمز بعينه:

- أنا أُفضّل - في الحقيقة - أن أناديكِ ناهدة الشّريف، أليس هذا حقيقيًا أكثر يا صديقتي؟

احمرّ وجه ناهدة، واختنق صوتها، فاتها أنّها في حضرة مدير المخابرات، هنا يجب ألا تبدي تكبرًا وغرورًا زائفًا، وهنا لا وجود لأسرار. إنّها في حضرة العقيد "أبو فراس" وليست في مخدع "حكمت" آغا! عاجلها "أبو فراس" وهي في قاع التّيه:

- باختصار ناهدة خانم، أردت دعوتك للتعارف والاتّفاق على خطّة عمل، أعرف أنّك ذكية ومصلحتك تهمك، لا داعي للعبة القط والفأر والتّهديد والوعيد والتّلميحات التي لا طعم لها. أنا أتحدّث إلى إنسانة ناضجة وواعية وتهمها مصلحة الوطن قبل مصلحتها لذا؛ قرّرت نقلك إلى المدرسة الإعدادية في البلدة وتعيينك أمينة سر، تدركين طبعًا دورك.. كما تدركين أهمية صداقتنا.. أراكِ قريبًا.

خرجت ناهدة من مكتب العقيد ورأسها يلف، لم تكن بحاجة لشرح مستفيض ولا لتعليمات هي تعرفها سلفًا لكنّها النّشوة، نشوة وجودها في الإعدادية، نشوة حصولها على السّلطة المستمدة من صداقتها لأبي فراس، لقد وضعت قدمها على أوّل السّلّم.

* * *

1978 الحيرانة

أفاقت الحيرانة على صوت أنين مكتوم في أحيائها، سمعه الرّجال الذّاهبون إلى صلاة الفجر، والنّساء اللواتي يُحضِّرن العجين للبدء بالخبيز..

عند عودة الرّجال ومع شقشقة الضّوء بدأ الهمس يعلو في الأزقة، وتسرّب إلى الشّوارع العريضة فالسّوق الرّئيس.. أصحاب الدّكاكين انزووا على شكل مجموعات صغيرة داخل دكاكينهم ولم يخرجوا بضاعتهم ليعرضوها للزّبائن في الهواء الطّلق.. الأولاد في طريقهم إلى المدرسة في السّادسة والنّصف كانوا يجرّون أرجلهم بتثاقل وعيونهم تحمل آثار سهر طويل.

أم علي التي تجمع الملابس المستعملة من البيوت وتشحذ بقايا القماش من خيّاطات البلدة لتصنع منها سجاجيد تبيعها يوم البازار قرعت باب فضّة بلهفة وما إن فُتح الباب حتى دلفت بسرعة وأغلقته وراءها:

- أكيد تعرفين ما حصل يا فضة، ليش ما نبّهتِ النّاس، حرام عليكِ، والله شباب مثل الوردة وما لهم علاقة بالسّياسة. يعني ابن أم ياسر جارتك، طالب بكالوريا الله يكون بعون أمّه، ربّته كلّ شبر بنذر من يوم ما صار يتيم الأب. يا حسرتي عليها، روحي شوفي حالها كيف صار.

بهتت فضة، لماذا يأخذون ياسر؟ هي متأكدة أنّ في الأمر لبسًا، لقد قرأت الفنجان لأمّه منذ أيام وأخبرتها أنّ أمامه سكة سفر، سفر وليس اعتقال. سفر كانت تأمل أمّه أن تراه طبيبًا وهي أيضًا عزّزت هذا الاعتقاد في نفس جارتها، كانت تراهن على فنجانها لتكسب شعبية أكبر!

ارتدت فضة ملابسها على عجل وقصدت بيت أم ياسر، البيت كان ممتلئًا بالنّساء من الأحياء المجاورة جئن ليعرفن التّفاصيل ويواسين أم ياسر. لم تسنح لفضة فرصة للانفراد بها، لكنّها سمعت الحكاية بكلّ تفاصيلها. هناك خطأ شنيع في اعتقال ياسر، بالتّأكيد هناك خطأ ويجب إصلاحه.

مـرّت في طريقهـا بالسّـوق، وتجـاوزت الجـامع الكبيـر ودلفـت إلـى زقـاق الجزماتية، قرعت باب بدرية، ودخلت وهي تلهث:

- سمعتِ ما حصل؟

ابتسمت بدرية:

- أي سمعت، اعتقلوا "أبو محسن" جارنا!

- ما قصدته، اعتقلوا ياسر ابن جارتي، أمر غريب ما كان بالحسبان؟

- يمكن هو مطلوب، من وين رح نعرف؟

أسقط في يد فضة، وتمتمت "يمكن".

خبر المـداهمات الليليـة للبيـوت انتشـر في البلـدة، وتناقـل النّـاس أسـماء المعتقلين وكـان بيـنهم الشّـيخ سـعيد جـار صـفية، والمحـامي أكـرم الصـبّاغ جـار وحيدة. أكثر الأسماء إثارة للجدل والتّكهنـات اعتقـال جميـل شـقيق حكمـت آغـا الكبير الذي تخرّج من الخسروية وكان إمام الجامع الكبير لفترة، ثمّ أصبح مدرّسًـا في المدرسة الشّرعية.

عاشت المدينة أسبوعًا من التّرقب والهواجس، تضخّمت حدّ امتناع الـبعض عـن السّـهر في مقهـى "المُعلَّقـة" أو فـتح دكـاكينهم، لكـنّهم مـا لبثـوا أن عـادوا إلـى أعمالهم وعادت الحياة طبيعية ونسي الجميع الحادثة ولم يعد أحد يـذكر هـؤلاء.. فقط قلوب الأمُّهات كانت تتفحّم ببطء.

في هذا الوقت من أواخر عام 1978 حصل شيء أنسى النّاس المعتقلين، زواج زهريّة الثّاني!

ظلّت البلدة تحكي عن العرس الأسطوري لزهرية على الشّاب الطيّار قاسـم السّعد بعد وفاة زوجها الشّيخ مبروك لمـدّة طويلـة؛ لأنّهـم بحاجـة إلـى مـا يشـغلهم عن الأحاديث السّريّة التي تجـري همسًـا وراء الأبـواب المغلقـة. وجدوا في سيرة زهرية المعلنة والمخفية ما نشّـط مخيلـتهم وأرضـى شـهوة النّميمـة وحاجـة البكـاء

والاحتجاج. زهرية الفتاة المسكينة المجهولة النّسب أصبحت فجأة ثرية إلى درجة أثارت الحسرة في نفوس صبايا البلدة، خاصة العوانس منهنّ، اللواتي لم يفكّرن يومًا بالارتباط بشاب أقلّ مستوى من طموحاتهن فكيف بشيخ تجاوز الثّمانين وعاش عيشة الزّهد في بيت للأوقاف فيه أثاث بسيط ولا تخرج من نوافذه رائحة طبخ ولا دخان! يكتفي بتلك الصّحون المغطاة بالقماش التي تصله من نساء البلدة إلى زاويته كطعام يحمد الله عليه ويشكره.

لكنّ زواجه من زهرية جعل أركان التّقشف تتزلزل فجأة، انفتحت النّوافذ وشرّعت الأبواب ودخلت الأجهزة الكهربائية. العروس ترتدي ملابس مزينة بالشّرائط، وفُرشت الأرضيات بالسّجاد ووضعت المدافئ في الزّوايا وحدث أمر غريب لأوّل مرّة منذ ستين سنة - الوقت الذي استلم فيه الشّيخ زاوية الرّفاعي وأقام فيها - لم يعد الشّيخ يسهر في الزّاوية وصار يغلق بابها دون الزّوار بعد صلاة المغرب. الأمر الأغرب أنّ الشّيخ اشترى قطعة أرض على طريق الجبل وبدأ ببناء فيلا كبيرة كانت فرجة للعابرين..

انتقل العروسان إلى الفيلا ولم يعد الشّيخ مبروك - بعد أن حلق ذقنه وخلع عمامته وجلبابه وارتدى طقم الجوخ الإنكليزي وحمل عصا من خشب الأبنوس في يده - يحضر دروس الزّاوية بل ألغاها وسلّم الرّاية لأحد تلامذته.

الأموال التي أغرق بها زهرية صارت مثار تقولات وأحاديث سكّان البلدة. ما جمعه خلال ستين سنة صرفه في أقلّ من سنة على إرضاء زهرية!

زهرية التي تزوجت ابن أخيه الشّاب بعد وفاته بخمسة أشهر. النّاس قالوا إنّ الشّاب طمع في الثّروة وإنّه لا يحبّ زهرية وسيطلّقها بعد أن يضع يده على ممتلكاتها.. لكنّ السعادة التي شعّت من جدران الفيلا كانت صادمة ومحبطة لمعظم الذين خاضوا في سيرة زهريّة وقاسم والشّيخ مبروك!

* * *

لم ينسَ سكّان الحيرانة ما أشيع من حكاية زهرية التي تناقلتها النّساء في السّهرات سرًّا وصارت الشّاغل الأكبر لهنّ معرفة الحقيقة بالقبض على دليل دامغ يدين ابن بدرية الخيّاطة التي كانت زهريّة تعمل عندها.

بدرية الخيّاطة 1977

كانت "بدريّة" في طريقها إلى التّواليت بعد منتصف الليل حين سمعت صوت لهاث وأنين صادرين عن غرفة "زهريّة" تلاه نشيج وكلمات مبعثرة، عرفت صوت "زهريّة" وهي تستجدي شخصًا ما أن يستر عليها. دفعت "بدرية" الباب بعنف وهي متحفزة لقتل الشّخص الذي تسلّل إلى بيتها وحاول الاعتداء على "زهريّة" التي تعتبرها بمنزلة ابنة لها.

وقبل أن تخطو صوب اللص هالها ما رأت.. كانت "زهريّة" مقيّدة إلى السّرير وقد أشبعت ضربًا وتمزّقت ملابسها.. ورأت بوضوح تحت الضّوء الشّحيح لقنديل الكاز قصاصات شعرها المتناثرة في أرض الغرفة.

- الله يوفقك معلمتي والله ما لي ذنب.

من الواضح أنّ "زهريّة" لا ذنب لها، فهي مقيّدة ومُعتدى عليها بوحشية، لكن كيف لقلب "بدرية "أن يقتنع أنّ من فعل هذا فلذة كبدها الذي يقف أمامها بكلّ برود وكأنّه قام بواجبه؟ أبعدها عن طريقه وتمتم:

- أنقذتك معلمتك هذه المرّة، المرّة القادمة إن لم تفعلي ما آمرك به سترين نجوم الظّهر.

توقف قلبها لثوانٍ وانهارت على السّرير بجانب "زهريّة".. دقائق فقط واستعادت "بدريّة" صلابتها، أمرت زهريّة بالاستحمام ومحاولة النّوم، وخرجت من الغرفة. لم تكن "بدريّة" تسمح لعواطفها بالتّغلب عليها مطلقًا، الولد ابنها وهو في سن المراهقة والفتاة جميلة وصغيرة وغبية، هي من أشعل الحريق في لحظة

غفلة، كيف لم تفكر بحتمية حدوث ذلك؟ الآن عليها معالجة الأمر وبسرعة قبل حدوث فضيحة هي بغنى عنها.

عليها أن تجد زوجًا لـ "زهريّة" بأسرع وقت، لكنّ الفتاة صغيرة لم تتجاوز الثّالثة عشرة وهي ليست أمّها، السّيّدة التي أعطتها إياها وعمرها أربع سنوات هي الوحيدة التي تعرف أمّها قالت لها بوضوح: "أمّها سيئة السّمعة، أنجبتها من رجل غير زوجها وضبطها زوجها بالجرم المشهود فطلّقها، وهي تستقبل رجالًا في بيتها ولا تريد للطفلة أن ترى ما يحدث وتكبر وتصبح مثلها.. بصراحة أنا التي لا أريد، أمّها ابنة صديقة لي توفيت منذ سنوات، وأنا لا أستطيع تأمين مصاريف الفتاة واستأذنت أمّها بأن أعطيك إياها، سنتين وتصبح قادرة على مساعدتك في كلّ أعمال البيت، تعلّمينها الخياطة وتكسبين فيها أجرًا".

نهضت "بدريّة" في الصّباح الباكر، أمرت "زهريّة" أن تلبس ملاءة وتغطي شعرها بمنديل، وفعلت هي ذلك أيضًا، سحبتها من يدها وقصدت زاوية الشّيخ مبروك. حكت له أنّ شخصًا اعتدى على الفتاة ليلًا وهي لا تعرفه وتريد أن يجد لها الشّيخ حلًّا قبل أن ينفضح أمرها.

نظر الشّيخ صوب زهريّة وقال:

- ارفعي المنديل يا ابنتي.

رفعت "زهريّة" منديلها فأضاء وجهها وظهرت الكدمات الزّرقاء تحت عينيها.. وأجهشت بالبكاء.

والشّيخ يدعوها لتجلس بجانبه، ربّت رأسها:

- توقفي عن البكاء يا ابنتي.

التفت إلى "بدرية" وقال:

- عودي إليّ بعد صلاة العشاء، إن شاء الله سأجد حلًّا.

* * *

ربّ صدفة!

انتظرت صفية دعوة وحيدة عدّة سنوات، لكنّ وحيدة لـم تكـن تميل لـدعوة صفية إلى سهراتها الخاصة؛ هناك شيء في أعماقها يمنعها كلّما فكّرت في الأمر. منذ التقت بها أوّل مرّة شعرت بقلبها ينتفض، أرادت أن تقترب منها، أن تحضنها، وتقبّلها، لم يكن ذلك الشّعور الذي جمعها بسميرة الصّعب، وروضة الورّاق ونجاة مكتبي.. شعور مختلف، مقلق وحَذِر، شعرت أنّها ترتبط بشيء حميم مختلف عن صاحباتها وفي الوقت ذاته هناك شيء أقوى منها يدفعها للابتعاد عن صفية مع أنّها من النّوع الذي تفضّله وحيدة؛ شعرها الأشقر، عيناها، لون بشرتها، لا تعرف بالضّبط أين يكمن السرّ. بحثت كثيرًا عن تفسير لحالتها ثمّ أراحها أن تجعل السّبب في العمر، وحيدة تفضّل الفتيات اللواتي لم يتجاوزن العشرين أو على الأقل يصغرنها بعشر سنوات، المشكلة في صفية أنّها من جيلها، وواضح أنّه ليس لديها ميول مثلية!

لكنّها الأوامر.. الأوامر التي لا يمكن التغاضي عنها، يجب أن تدعو النّساء اللواتي جاءت أسماؤهن في القائمة إلى سهرة في منزلها. لم تكن تحبّ بدريّة ولا ترتاح لفضة، وهيبة فقط تشعرها بالمودّة خاصة حين تستسلم ليديها في الحمّام وتتركها تفرك بالكيس الأسود ما علق بجسدها وروحها.. تشعر بالامتنان لأصابع وهيبة الخبيرة في إزالة الألم وتجديد شباب الرّوح.. طاقة غريبة على الحبّ تفجّر أحاسيسها وجسدها بعد خروجها من الحمّام.

- بيتك جميل ومريح، أنا أحبّ البيوت العربية الواسعة وشجر النّارنج، هل تسمحين لنا بالجلوس في أرض الدار ريثما يكتمل العدد؟

من دون أن تنتظر الردّ سحبت كرسي خيزران وجلست في ظلّ النّارنج، قالت وحيدة:

- سنشرب قهوة في العليّة ما رأيك؟

- هل أستطيع رؤية الغرف من الدّاخل؟

ضحكت وحيدة:

- تستطيعين، لكن من دون إبداء ملاحظات، لم تأتِ أم ديب اليوم لتنظّف البيت مع أنّها ملتزمة معي بموعد ثابت كلّ خميس.

ابتسمت صفية وهي تستعرض محتويات غرفة الضّيوف، أثاث فخم على الطّراز الفرنسي والسّجاد عجمي، وقد زيّنت الطّاولات بمفارش كروشيه جميلة التّصميم ووضعت تماثيل لنساء عاريات في الزّوايا! لفت انتباهها الكتب المرصوفة في "الكتبية"[1]، فتحت الباب الزّجاجي وأخرجت إحدى الرّوايات، "حتّى في انتقاء الرّوايات ذوق وحيدة جميل" قالت ذلك في سرّها، ومدّت يدها لتعيد الرّواية إلى مكانها، لمحت وراءها علبة من الكرتون واجهتها من النّايلون الشّفاف، داخل العلبة دمية من البلاستيك.. ممرضة برداء أبيض تعتمر قبعة صغيرة بيضاء!

خفق قلب صفية وارتعشت يدها.. العلبة مقسومة نصفين، القسم الثّاني فارغ! ارتعشت يدها وهي تتحسس جسد الدّمية البارد. مرّ في ذاكرتها بشكل ضبابي شكل فتاة صغيرة تجلس على الرّصيف وتبكي، ترى نفسها وهي تربّت شعرها وتقدّم لها دميتها لتتوقف عن البكاء.. الدّمية.. هذه بالضّبط.

همست لنفسها "أيُعقل هذا؟".

فاجأتها وحيدة، ضحكت:

- تحبين القراءة؟

- ليس كثيرًا، أتسلّى أحيانا بقراءة المجلات الفنية، لكن أنت ما شاء الله مثقفة من الطّراز الرّفيع.

---

(1) "كتبية" اسم يطلق على المكتبة المحفورة بالجدار، معظم البيوت العربية في المنطقة تؤسس مكتبتها ضمن الجدار أثناء البناء، وتستخدم لأواني الزّجاج الثّمينة في حال عدم الاهتمام بالكتب.

ضحكت وحيدة ثانية:

- لست أنا، إنّها أم وحيد المهووسة بالقراءة والتي ماتت دون أحلامها، هي صاحبة الكتب وصاحبة البيت وأورثتني عشقها للقراءة وذوقها في اللبس والماكياج. لكنّي لم أتعلّم منها بصراحة شغل الكروشيه ولا العناية بالزّرع ولا طهو الطّعام، كانت فنانة في كلّ شيء رحمها الله.
- أمّك؟
- نعم، أمّي أطلقوا عليها لقب أم وحيد "أي أنا" ألا أبدو لكِ شبيهة بالرّجال؟

احمرّ وجه صفية، أرادت أن تنفي لكنّ الكلمات توقفت في حلقها، انتبهت فعلًا إلى حركات وحيدة، جلستها، لباسها، طريقة إمساكها السّيجارة، وصوتها الخشن وطريقة كلامها. أنقذها من الموقف المحرج جرس الباب، ولم تستطع سؤال وحيدة عن الدّمية المُخبّأة وراء الكتب.

* * *

جميلة "أم وحيد"

إنّه قدر جميلة، التي لم تجد فرصتها في الزّواج والأمومة واضطرت لتحصيل لقمتها من فم السّبع، أن تعثر على طفلة ضائعة في سوق الأقمشة ببيروت عندما كانت تتسوق هناك. كانت جميلة تعمل لدى ظفيرة الخيّاطة التي منحتها فرصة عمرها بالذّهاب إلى بيروت وإحضار الأقمشة من هناك بعد أن كانت خادمة لديها تنظف وتطبخ وتفعل كلّ ما تؤمر به مقابل لقمتها. ومن حسن حظها أنّها تعرّفت إلى نساء ثريات عرضت عليها إحداهن أن ترافقها في رحلة إلى بيروت تتعرّف فيها على محلات بيع الأقمشة ولوازم العرائس لتشتري منها وتبيعها للخيّاطات. لم تكن جميلة تعرف شيئًا في التّجارة والتّعامل مع أصحاب

المحلات بالإضافة إلى أنها لا تملك مالًا للقيام بمثل هذا العمل، لكنّ ظفيرة شجّعتها وعرضت عليها أن تعمل لحسابها. وهذا ما حدث. الرّحلة الأولى كانت سهلة لأنّها برفقة سيدة خبيرة، في الرّحلة الثّانية وجدت جميلة صعوبة كبيرة، لكنّها مع الوقت فهمت السّوق وصارت ماهرة في الشّراء وارتفعت نسبتها من الرّبح الذي تحقّقه ظفيرة حتّى أنّها فكّرت في العمل وحدها لكنّ المبلغ الذي جمعته لم يكن كافيًا.

ولأنّ الأقدار شاءت أن تضع جميلة في مسار مختلف عمّا حلمت به، رأت في توقيت العودة من رحلتها الأخيرة طفلة تجلس على حافة الرّصيف وتبكي، الطّفلة الضّائعة لم تتجاوز الخامسة من عمرها، تشبثت بأذيال تنورتها وصرخت ماما. تفاجأت جميلة، لم تكن الطّفلة الخائفة تعرف شيئًا سوى أنّها كانت بصحبة جدتها وأنّها كانت تشتري لها تفاحًا ثمّ لم تجدها!

وقفت جميلة حائرة بين اللحاق بالحافلة والبحث عن أهل الطّفلة الضّائعة، حملتها بين ذراعيها، تأملت وجهها مليًا، أحسّت بشيء غريب يغزو أعماقها، أمومة كانت تحلم بها ولم ينصفها القدر بالحصول عليها بعد مقتل ابن عمها في البحر. ضمّت الطّفلة بقوة، شعرت بعد لحظات بجسدها يرتخي وغطّت في نوم عميق.. لم تفكر طويلًا، صعدت الحافلة وهي على يقين أنّ هذه الفتاة منحة من الله وهبها لها، وربّما يكون القدر قد وضعها في طريقها كي تحميها من مصير سيئ. حين قطعت الحافلة نصف المسافة فتحت الطّفلة عينيها وطلبت جرعة ماء شربتها وعادت إلى نومها الهانئ.

استقبل أهل الحي الطّفلة بحذر وهمس تكاثف وتبعثر واختلط ووصل أسماع جميلة. لم يطل الهمس شرفها فمن الواضح أنّ الطّفلة أكبر من أن تكون ابنتها فلم يمرّ على امتهانها السّفر والتّجارة أكثر من ثلاث سنوات، كما أنّ جميلة لا تحمل في ملامحها شيئًا من اسمها ليطمع بها الصّيادون.

مع الوقت كسرت الطّفلة حاجز غربتها وصارت تلعب مع أطفال الحارة ولفتت إليها أنظار العابرين بجمالها وحلاوة حديثها.

كان الوقت عصرًا حين مرّ علي أفندي في الحي قاصدًا بيت أخته ظفيرة بعد قطيعة دامت سنوات وانتهت الآن بعد موت زوجته.

ظفيرة كانت على موعد مع زبونة مهمة وقد تأخرت جميلة في إحضار القماش، فبدأت تنفث غضبها في وجوه العاملات.. وتشكو تحكّم جميلة في رزقها، فجأة التفتت نحو أخيها وسألته: "ألن تفكّر بالزّواج بعد المرحومة؟ مرّ على وفاتها سنة!". نظر علي بعيدًا، تأمل النّافذة والأشجار المثقلة بحبات الليمون وبقي صامتًا، لقد فكّر فعلًا بالأمر لكن من ترضى برجل عقيم لا ينجب؟ لم تفوّت ظفيرة الفرصة كانت تعلم مشكلة أخيها، أرسلت وراء جميلة لتسرع في الحضور، جعلت اللقاء يبدو مصادفة لكنّها لم تضع الوقت، حكت لشقيقها عن الفتاة التي أحضرتها جميلة معها من بيروت، وحكت عن ظرف جميلة الصّعب لكونها تعيش وحيدة من دون أهل، وأضافت مازحة بأنّها ولية أمرها إن وجد العريس فعليه أن يطلب يدها منها شخصيًا.

الظّروف كانت مواتية ورضخت جميلة لشرط علي أفندي بترك العمل نهائيًا فدخله من التّعليم يكفيه، وأيضًا وافقت على ترك اللاذقية والسّفر معه إلى الحيرانة.

فجأة دخلت السّعادة البيت الصّامت، فقد أصبح لعلي أفندي زوجة وابنة، عائلة يعود إليها بعد العمل، ويحتمي بظلّها من الوحدة والغربة والكآبة.

ووجدت جميلة نفسها سيّدة مدلّلة، طلباتها أوامر، وابنتها تكبر أمامها وتدخل المدرسة. لم تشعر جميلة أبدًا أنّ الطّفلة غريبة ولم يخالجها أيّ إحساس بالذّنب لأنّها لم تبحث عن أهلها.

تلك السّعادة لم تدم طويلًا فقد اختطفه الموت من بين يدي جميلة وتركها أرملة في بلد غريب مع طفلتها "وحيدة" بعد ثلاث سنوات من زواجها.

حرصت جميلة على إعطاء وحيدة مظهر صبي لحمايتها من تحرش الصّبيان، لكنّها لم تعرف أنّ هذا التّصرف سيؤثر على سلوك وحيدة وحياتها بالكامل.

حوّر سكّان الحي اسم وحيدة ونادوها وحيد بقصد تدليلها في الظّاهر لكنّ باطن الأمر انتقاص من أنوثتها. امتلكت هيئة صبي مشاكس لم تتخلَّ عنه حتّى بعد بلوغها، قصّت شعرها وأهملت تمشيطه وتركته أشعث أغبر، اكتسبت هواية غريبة هي الاحتفاظ بالبقع على ملابسها ويديها وإن وجدتهما نظيفتين بعد الحمّام - ألد أعدائها - تبكي بحرقة وتتناول قلم الرّصاص لتصبغ تحت أظافرها وترسم أشكالًا غريبة في باطن كفّها. ترسّخ لديها اعتقاد أنّ تلك القذارة والمنظر المنفر سيصنع منها ذكرًا!

مكتبة
t.me/soramnqraa

بنات العَشْرِة:

في الإعدادية تعلّقتْ بسميرة، كانت تغار عليها وتحميها من الصّبيان، تصحبها إلى المدرسة باكرًا، ترافقها في طريق العودة، تقف ساعات في البرد بانتظار أن تراها تطلُّ من الشّرفة. والدة سميرة انتبهت للأمر فمنعتها من مرافقتها، لم تعدم سميرة الحيلة للقاء وحيدة بعيدًا عن عينيّ أمّها.

تبادلتا الأسرار، وحكت سميرة لوحيدة عن لطفي الذي يقفز فوق السّور ويتسلّق السّطح يوميًا ليلتقي بها بعد أن ينام أهلها.

سألتها:

- ألا تخافين أن يستيقظ أحدهم ويكتشف غيابك؟
- لا، أنا أضع لهم منومًا في الشّاي بعد العشاء، الخوف ليس من أهلي بل منه، تجاوز حدوده معي.

بكت بحرقة وهي تروي لها كيف حاول الاعتداء عليها بعد أن رفضت منحه ما يريد، وطالبها أن تثبت حبّها له كي يفكّر بإقناع أهله بخطبتها.

لم يخطر لوحيدة أنّ سميرة تكذب وأنّ لطفي لم يمسها، ولم يتسلق الجدار أبدًا. مخيلتها كانت توحي لها بحكايات غير حقيقية ترويها على أنّها حدثت فعلًا لتثير اهتمام وحيدة وتعاطفها من دون أن تدرك رغباتها الدّفينة وراء تلك الأكاذيب ووراء دموعها التي تنسكب بغزارة بعد أن تنهي كذبتها، يصحبها ألم حقيقي على شيء تعتقد أنّه حدث حقًّا!

احتضنتها وحيدة، ووجدت نفسها فجأة تُقبِّلها، تحرّك شيء ما في جسدها، شعرت على إثره برغبة في تقبيلها ثانية، لم تمانع سميرة، استسلمت وكأنّها تنتظر وحيدة منذ تفتحت عواطفها!

افترقتا حين جاء تعيين وحيدة في قرية بعيدة تابعة لمحافظة اللاذقية وعيّنت سميرة في عين السّودا قرب الجسر.

في أوّل لقاء لهما صيف ذلك العام لاحظت سميرة فتور عواطف وحيدة وانشغالها بالفتاة الصّغيرة التي أحضرتها معها من القرية. عمّقت تصرفات وحيدة اللامبالية الهوة بينهما وجعلت سميرة تنقطع عن زيارتها طيلة الصّيف. حتّى حين أرسلت لها تدعوها لحفل صغير أقامته في منزلها لتعرِّف وسيلة إلى صديقاتها. رفضت سميرة الحضور ما أثار غضب وحيدة التي شعرت أنّ سميرة أصبحت خارج السّيطرة.

لم يكن من عادة وحيدة إطلاق الشّائعات أو التقوّل على صديقاتها أو النّميمة، كانت تكتفي في الحفلات بالرّقص والغناء والعزف وتستمع إلى القصص من أفواه النّساء بصمت، لكنّها تلك الليلة فتحت سيرة سميرة وسلّمت رأس الخيط للنساء اللواتي أكملن المهمة بنبش ما في صدورهن وتقديم وجبة نميمة أعادت البسمة إلى شفتي وحيدة وبردّت نار قلبها.

* * *

نجاة مكتبي

عُيّنت نجاة في الحيرانة فور تخرجها وجاءت مع أمّها وسكنت في غرفة ملحقة ببيت وحيدة التي غالبًا ما تؤجر غرف بيتها الكثيرة لمعلمات يجئن إلى البلدة لمدّة سنتين فيما يطلق عليه في نظام التّعليم "خدمة الرّيف". وكانت جارتها في الغرفة المجاورة روضة الورّاق، مُعلِّمة جاءت من دمشق.

روضة مُدرّسة اللغة الإنكليزية، ونجاة مُدرّسة الرّياضيات.

حدث تآلف بين روضة ونجاة بسرعة وأصبحتا صديقتين حميمتين، ما أثار غيرة وحيدة!

وحيدة التي انفصلت عن سميرة نهائيًا لم تستطع ترويض وسيلة، استعصت عليها الفتاة ونفرت منها. حين انفردت بنجاة للمرّة الأولى قدّمت لها هدية فتحتها نجاة وحدّقت إلى وحيدة مندهشة، الهدية ثوب نوم شفاف، أحمر قصير مزيّن بالدّانتيل ومعه ألبسة داخلية مثيرة. تضرّج وجه نجاة بالأحمر، اقتربت وحيدة منها وعانقتها وقبلتها.. جفلت نجاة وابتعدت بسرعة. وحيدة أفصحت بلطف عن رغبتها وتعلّقها بنجاة..

تملّصت نجاة من الأمر بصعوبة وادّعت أنّها تعاني من الصّداع وتريد الانفراد بنفسها.

ما لم تتوقعه نجاة انسحاب روضة التّدريجي من حياتها وانشغالها بوحيدة. لم تستطع استيعاب الأمر وكي لا تذهب بها الظّنون بعيدًا فضّلت مواجهة روضة.

* * *

كان والدها حانقًا على أمّها التي لم تنجب له ذكرًا فسجّلها في دائرة النّفوس باسم رياض. أخبرت نجاة بمأساتها المرتبطة بالاسم الذكوري منذ كانت طفلة وحتّى طلاقها ومجيئها إلى الحيرانة. تنهدت متحسرة على نفسها: "هذا ما جناه أبي عليّ".

كانت دائمًا ترد بشطر شعر أبي العلاء المعري على الذين يجرحونها من حيث لا يقصدون، حين يبدون استغرابًا أو استهجانًا، أو يسخرون من اسمها الذكوري.

حتّى حين تزوجت كان الأصدقاء يغمزون في سهراتهم متسائلين من منهما الرّجل؟ لأنّ رياض تصرُّ دائمًا على قصّ شعرها قصيرًا جدًا مثل الرّجال وهذا من مخلّفات الطّفولة! كان والدها يصطحبها إلى الحلّاق ليقصّ شعرها، ولم تكن تجربة كرسي الحلّاق تجربة لطيفة كما ظنّت أوّل مرّة، فقد تعرّضت خلالها للكثير من المواقف المزعجة التي لم تجرؤ على البوح بها لأحد خاصة عندما يميل أبو رشدي الحلّاق برأسه نحو وجهها وينفخ أنفاسه النّتنة فتغمض عينيها محاولة نسيان ما حولها ريثما تنتهي عملية التّعذيب تلك..

لم تخبر والدها أنّ أبا رشدي كان يمسّد عنقها من الخلف بأصابعه وهو يضرب المشط في شعرها بخفة ويقرصها وأنّه كان يلصق جسده الضّخم بظهرها فتشعر بذلك الشّيء يتحرّك ويخزها بقسوة..

كانت أولى تجاربها مع الرّجال في دكان "المبيّض" الذي يكشف عن ساقيه طيلة اليوم، ناداها "أبو سكينة" وأشار إلى الزّاوية في عمق الدّكان حيث تكوّمت القدور النّحاسية والأواني، وتابع رقصه داخل آنية نحاسية كبيرة، حين انحنت لتحمل قدر النّحاس شعرت بيدين قويتين تمسكان بعجيزتها وتدفعانها إلى الجدار، أفلتت الآنية من يدها، صوت قدور النّحاس التي ارتطمت ببعضها جعلت

الرّجال في السّوق يلتفتون ليروا ما يحدث، فرّت مذعورة ولم تجرؤ على إخبار أمّها بالسّبب الحقيقي لعدم إحضارها للقدر من دكّان المبيّض. وتكرّر ذلك عند الكندرجي واللحّام، وصار عالم الرّجال عالم وحوش. العالم المتوحش انقلب رأسًا على عقب حين تزوجت رياض من رجل مسالم، بسيط، وغشيم "لا يهش ولا ينش" على حدّ تعبير أمّها.

لكن لم يخطر ببالها أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه مثار استهزاء الصّغار الذين تجمّعوا تحت سيباط معتم ذات مساء وانتظروا مرورها ليفتحوا كتبهم المدرسية ويقرؤوا بصوتٍ عال: "عضّ الكلب رياض[1]" ويضحك أحدهم مضيفًا "من طيزه".

تلك التّجربة المريرة في التّعليم الابتدائي جعلتها تغيّر اسمها، وتستقيل من التّعليم وتتابع دراستها الجامعية.. ثمّ طلبت الطلّاق من الرّجل الذي كان صديقها طيلة عشر سنوات، سكنا معًا وتحملا غربتهما عن بعضهما تحت سقف واحد وكانت رغبته في الحصول على ولد السّبب في إنهاء زواجهما وصداقتهما.

وجدت روضة سلامها الرّوحي في علاقاتها بالنّساء، العلاقة التي ينبذها المجتمع ولكنّه لا يستطيع منعها أو تقييدها بقانون، فعالم النّساء محظور على الرّجال، ولن يستطيعوا اقتحامه ومعرفة ما يجري داخل الغرف المغلقة إن لم تقم النّساء أنفسهنّ بالتّحدّث عن تلك التّجارب وفضحها.

ما ساء روضة أنّ نجاة لا تملك ميولًا مثلية، وأنّها تبتعد عنها كلّما حاولت أن تقترب وتوضح فكرتها.. دخول وحيدة على الخطّ أسعدها لكنّها بقيت موجوعة من نفور نجاة منها حتّى نهاية الخدمة في الرّيف حيث انتقلت إلى مدينة أخرى وعادت روضة إلى دمشق.

* * *

---

(1) آخر درس في كتاب القراءة للصف الأول الابتدائي عن حرف الضاد، الكتاب الذي كان مقرّرًا على المرحلة الابتدائية في ستينيات القرن الماضي.

لم يدم زواج سميرة سوى أشهر عادت إلى بيت أهلها وأصرّت أن يطلّقها سعيد، رفض في البداية لكنّه رضخ من دون أن يفهم أحد الأسباب، فاحت رائحة غريبة في جوّ المدينة، قيل إنّ سميرة التقت لطفي في زيارة قامت بها إلى حلب واكتشف سعيد خيانتها، وقيل إنّ سميرة هي التي اكتشفت خيانة سعيد لها لذا؛ رضي بأن يطلّقها بعد تنازلها عن حقوقها.

الشّائعات لم تتوقف هنا، الرّائحة الغريبة التي ملأت الجوّ وأزكمت أنوف سكّان الحي الغربي رائحة علاقة مريبة بين سميرة ومديرة مدرستها وحيدة. سميرة جاهرت بتلك العلاقة ولم تخشَ تقولات النّاس وموقفهم منها، لم تعد زياراتها لوحيدة مقتصرة على السّهرات والاستقبالات بل أقامت سميرة عند وحيدة في خطوة جريئة لم يستطع أحد فهمها أو تقبّلها، مع ذلك لم يجرؤ أحد على الشّكوى العلنية أو على نقل ابنه أو ابنته من صفّها، فالخوف المعشِّش في النّفوس أكبر من الرّغبة في الدّفاع عن أيّ قيمةٍ أخلاقية. مع هذا كان الهمس يخزها كلّما مرّت في السّوق أمام الدّكاكين أو في الأزقة، الهمس يتحوّل إلى نحلات تلسع جلدها بعبارة "بنت عْشْرِة". في البداية كانت تغسل جسدها وتدهنه بالمراهم وهي تعتقد فعلًا بوجود ورم ينفخ الخلايا ويجعلها تحمر.. لكنّ الحساسية تلك قلّت مع الزّمن حتّى اعتادت عليها ولم تعد تزعجها.

الوحيد في البلدة الذي آلمه ما تفعله سميرة حدّ خجله من العودة إلى البلدة هو لطفي! في قرارة نفسها كانت سميرة تحتفظ ببقايا جمر علاقتها بلطفي وتحاول دائمًا ألا تنسى تخليه عنها لتغرق في عالم وحيدة انتقامًا منه ومن نفسها.

* * *

سقط سهواً

الزّمن الذي لم تعشه فتيات لحلوحة معها ولم تذكره نادرة الشّريف في مذكراتها سقط من ذاكرة المدينة وغمره النّسيان. كنت طفلة صغيرة في ذلك الوقت لكنّي أملك ذاكرة حيّة حدّ اعتقادي أنّي تكوّنت من ذاكرة الآخرين ولم آتِ إلى الدّنيا من رحم أمّي.

المدينة بملامحها البريئة في ستينيات القرن الماضي تشكّل حصارًا على روحي، تفرض نفسها عليّ أثناء النّوم والصّحو، أسير في شوارعها لأؤكد لنفسي بقاء تلك الملامح وثباتها، أنسف الأبنية الكرتونية المتطاولة إلى السّماء، أعيد الخانات إلى أسواقها القديمة، أُرجع الدّكاكين ووجوه أصحابها، أراجيح العيد الخشبية، روائح الخضار والفاكهة الطّازجة، وروائح تحميص القضامة وبذور عبّاد الشّمس وروائح اللحم بعجين؛ مياه السّواقي التي تقسم أزقتها إلى طرفين للسير أيام المطر، أعيد الأسواق إلى سابق عهدها وأعرّج على بساتين الخس والفول الأخضر والخيار، ألوّن الأشجار، أعيد بهاء الجامع الكبير، وحين أطمئن إلى أنّها هي وأنّني ما أزال طفلة، أعود إلى البيت... أصعد الدّرج، ألتقط أنفاسي أمام الباب، أدخل غرفتي، أسدل السّتائر، أضيء القنديل وأجلس لأكتب، تسبقني عبارات أبي وهو يعلّمني وضعية الحروف على السّطر بخطّ الرّقعة.

نهضت في إحدى الليالي الصّيفية من النّوم وأنا أشعر بالعطش، لم أعرف الوقت، مررت بالصّالة لأذهب إلى المطبخ، فاجأني خيطٌ من النّور ارتسم على أرضية الصّالة متسربًا من باب الغرفة الثّانية، لا أستطيع تسميتها غرفة نوم فهي تستخدم للضيوف والزّبونات في النّهار ولنوم أمّي وأبي في الليل.. توقفت قليلًا، سمعت اسمها يتداول همسًا "السّيّدة صفية" كانت نبرة أمّي حادّة وهي تتحدّث عنها، وأبي يحاول إنهاء الحديث برغبته في النّوم! صفية وحسنية الحلاقة! تردّد الاسم وانطفأ الضّوء.

خفق قلبي بعنف؛ لأنّي قمت بالتّنصت وهي عادة سيئة نبّهتني أمّي كثيرًا ألا أقوم بها، ولأنّ اسم السّيّدة وقع في نفسي موقعًا غريبًا لم أجد له تفسيرًا.

عدت إلى غرفتي، اندسست في فراشي، ولم أستطع النّوم.

* * *

حسنية الحلّاقة

لم تكن حسنية حلّاقة بل كانت تعمل في صنع التّنانير، يداها المبلولتان دائمًا لهما لون الطّين ووجهها المبتسم دائمًا يحمل رائحة الخبز، وتنتشر من ملابسها رائحة حطب رطب غير قابل للاشتعال. لم يعرف أحد من أين أتت وأين أهلها، كانت تعيش في بيت مهجور وسط بستان الخس الذي يملكه آل الحلّاق الذين لم يعملوا يومًا في مهنة الحلاقة بل هم رعاة غنم وماعز يتركون الأرض في عهدة حسنية نهارًا والطّرش في عهدتها ليلًا.

كانت حسنية تعمل منذ طلوع الفجر وحتّى ساعة ما بعد العشاء ثمّ تخلد إلى فراشها المصنوع من صوف الغنم المحشو والمنجد بشكل طبقتين تعلوان عن الأرض نصف متر، تحيط به وسائد القش القاسية المضغوطة بقوة. ويمتدّ أمامه حصير مضفور بطريقة جميلة يخترق لونه الأصفر الجميل لونٌ أخضر في وسطه على شكل هلال. صنعته بيديها.

في زاوية غرفتها صندوق خشبي ملون ومُطعّم بالصّدف ومشدود بأسلاك معدنية مُبسَّطة، لم يستطع أحد أن يغافل حسنية يومًا وهي تفتحه ليعرف محتواه!

كنت في العاشرة حين أرسلتني أمّي إلى بيت حسنية لأحضر دلوًا من الحليب الطّازج.. لم يزل غبشُ الصّباح والنّعاس يمنعان الرّؤية عن عينيّ.. اليوم جمعة وأنا أحبّ هذا اليوم؛ لأنّه يمنحني فرصة ذهبية للنوم حتّى الضّحى، لكنّ أمّي

قطعت عليّ أحلامي ودفعتني وسط البرد القارس وحرمتني دفء الفراش. كنتُ أتميّز غيظًا حين وصلتُ طرف البستان، ناديت على حسنية، لم يرد أحد.. خطوت داخل البستان، أشجار المشمش العارية كانت تنفض النّدى عن أغصانها وتفرش وجهي بالرّذاذ ولم يكن هناك سوى أوراق البصل الصّغيرة التي مدّت رأسها من التّربة بخجل. في الرّبيع يبدو البستان الغاص بالخس غوطة جميلة تكتسحها رائحة أزهار المحلب والمشمش والكرز التي تنثر وريقاتها البيضاء الغضة بسخاء فتتغلغل في أوراق الخس وتلتصق بها.

اقتربت من غرفة حسنية، خاطر غريب جعلني أتوقف وأتأمل الغرفة "ترى أين تستحم حسنية؟" ناديتها بصوت خافت وأنا أقف بالباب، كانت منحنية الجذع، استقامت والتفتت إليّ بكامل جسدها فلمحت الصّندوق، كان مفتوحًا! سألتني ماذا أريد؟ لكنّي لم أسمع، كنت أحدّق إلى الصّندوق الذي سمعت عنه حكايات غريبة من نساء الحي اللواتي يجتمعن كلَّ شهر عند أمّي ولا يتركن بشرًا ولا طيرًا في هذه المدينة الصّغيرة ينفد من ألسنتهن؛ فإذا انتهين من النّميمة على أكمل وجه انتقلن إلى الغناء والرّقص.

ضحكت حسنية فجأة وضحكتها كانت أكثر غرابة بالنّسبة لي فهي المرّة الأولى التي أراها تضحك فيها. "ادخلي، الجوّ بارد، اقعدي على الفراش، دقائق وأحضر لكِ الحليب". أخذت مني الدّلو وخرجت. كانت فرصة ذهبية لأرى محتويات الصّندوق، اقتربت بحذر، هل نسيت حسنية إغلاقه أم تعمّدت ذلك؟ نظرت داخل الصّندوق بسرعة لم يكن هناك أشياء غير اعتيادية، بقجة بيضاء مطرّزة بخيوط ملونة على شكل زهور، صندوق صغير من الفسيفساء، وكيس ورقي يبدو من شكله أنّه يحوي حذاءً. تراجعتُ بسرعة وجلست على حافة الفراش وقلبي يخفق بشدّة، سمعت حسنية تسألني وهي تقف بالباب:

- أنت مستعجلة؟ لسه ما حلبت البقرة، تعالي تفرّجي.

تبعت حسنية التي دخلت الزّريبة وجلست على كرسي صغير من القش، حلبت البقرة وهي تشجّعني على النّظر إليها لأتعلّم، منظر يديها البارعتين في حركتهما المتناغمة ولونهما الطّيني أثارا مخيلتي، رأيتهما تتحرّكان في الهواء بعيدًا عن ضرع البقرة.. تلك الحركة التي اختصت بها فريزة خانم بعد أن تنشد بصوتها العذب موال "بس ولعونا ومشوا" وتبدأ الرّقص في الاجتماع الشّهري عند أمّي.

رأيت حسنية وهي ترتدي ثوبًا قرمزيًا يكشف عن فخذيها الممتلئين وبطنها، تمدّ يديها لاحتضان الفراغ وتتكوّم على نفسها ثمّ تنتفض خارجة من زوبعة.. لم أسمع صوتها، ابتعدتُ خطوات في حلم اليقظة حتّى رأيتها تقف وتناولني دلو الحليب وهي تبتسم:

- إذا ثقيل عليكِ أوصلك حتّى البيت.

ارتبكت على الرّغم من كون بيتنا قريبًا جدًا، إلّا أنّي خشيت أن يندلق الحليب في الطّريق ورجوت حسنية بنظرة ضارعة أن ترافقني. حملتْ الدّلو عني وسارت حتّى باب غرفتها. وضعته أرضًا وخلعت حذاءها ودخلت. أغلقت الصّندوق، وأغلقت الباب، ونظرت إلى عينيّ، شعرت بشيء حار يخترق قلبي، في نظرة حسنية شيء أربكني، سألتني سؤالًا غريبًا: "كيف تتعامل معك أمّك؟ أهي حنونة أم عصبية؟". لم أعرف بمَ أجيب.. أمّي معروفة بأنّها سيدة صارمة تهتم بعملها أولًا وتنجزه على أكمل وجه. كلّ النّاس في البلدة يقصدونها؛ لأنّهم على ثقة بجودة العمل وسرعة الإنجاز، لم تكن تتذمر من زبوناتها حتّى وإن كنّ مخطئات، فهي تعيد تعديل الثّوب حسب الطّلب وإن أخذ منها وقتًا وجهدًا إضافيين من دون أن تزيد الأجر؛ لذا كسبت قلوب النّساء ومحبتهن وصارت الخيّاطة الأولى في البلدة. لا أستطيع أن أجزم بأنّ أمّي تعاملني بحنان إذ التبس المفهوم بالدّلال، سؤال حسنية لفت انتباهي إلى أمور جزئية وصغيرة لم أكن أهتم لها سابقًا، أمّي ليست من النّساء اللواتي يتصرّفن بطريقة حميمة مع أطفالهن، فهي لا تعانقني حين عودتي من

المدرسة، لا تضعني في حضنها في الأماسي الباردة، لا تسهر قرب رأسي وأنا مريضة بل تكتفي بإعطائي الدّواء وتغطيني جيدًا. لم تعلّمني حرفًا ولم تساعدني في واجباتي المدرسية ما عدا وظيفة الرّسم تقوم بها بالنّيابة عني بطيب خاطر. فكّرت أنّ ذلك يرجع لانشغال أمّي بالعمل، وقتها ضيّق لا يكفي لتخصيص ساعات لي، وكنت مكتفية باهتمام أبي وقيامه بكلّ تلك الأعمال؛ مساعدتي في فهم دروسي، السّهر قرب رأسي، إحضار المجلات لي، شرح القصائد الشّعرية المستعصية عليّ، حل مسائل الرّياضيات، سرد الحكايات، تعليمي وظائف النّباتات والعناية بها. تقريبًا لم تكن أمّي تعني لي الكثير، لكنّ محبتها لا تخفى وتعبّر عنها بخياطة ملابس مميزة لي وصناعة دمى من قماش الزّبونات الفائض، وإعطائي مصروفًا يوميًّا دون أن تفرض عليّ وضع نصفه في الحصّالة، تشتري لي الحصالة كلّ سنة وتترك لي الحريّة في التّصرف وبشكلٍ خفي توحي إليّ أنّ الاحتفاظ بالمال في الحصّالة تدريب جيد للمستقبل، وأمان من الفقر، والمبلغ الذي أجمعه تشتري لي به قطعة ذهب.

لم أكن أجمع الكثير لكنّها عندما تكسر الحصالة الفخارية تضيف دائمًا إليها مبلغًا يكفي لشراء خاتم أو سلسلة أو أسورة.

نظرتُ إلى حسنية مستفهمة عن سبب سؤالها، لكنّها تمتمت بعبارة مبهمة لم أسمع كلماتها بشكل صحيح، ثمّ أضافت:

- إن أحببتِ، تعالي لعندي عصرًا، سأعطيك رغيفًا ساخنًا، اليوم هو يوم الخبز.

كانت الدّعوة حارّة فرحت بها أكثر من صحن الرّز بالحليب الذي قدّمته لي أمّي ساخنًا بعد ساعة من عودتي إلى البيت مع كعك ساخن ليّن.

تحيّنت فرصة شرب الشّاي وطلبت من أبي أن يسمح لي باللعب مع بنات الجيران، لم أجرؤ على إخباره أنّي سأذهب إلى بيت حسنية، حدسي يقول إنّ أبي لن يوافق، وأنا متأكدة أنّ أمّي سترفض ذلك بشكلٍ قاطع.

شدّتني رائحة الوقيد المحترق في التّنور قبل وصولي إلى البستان. لم يكن الرّعاة قد عادوا من المراعي بعد وهو ما جعلني أطمئن قليلًا، فقد كنت أخاف من محمّد ديب الأب؛ شارباه هما اللذان يُدخلان الذّعر إلى قلبي، كانا مفتولين بشكلٍ مرعب. أتخيّل أنّه لم يقصهما طيلة حياته.

ناولتني حسنية الرّغيف السّميك الذي صنعته خصيصًا لي مدهونًا بالزّيت والفليفلة الحمراء وقد رشّت عليه السّمسم وحبّة البركة، وناولت ابنها زكّور رغيفًا. زكّور أصغر مني حجمًا وعمرًا، يجلس صامتًا طيلة الوقت يراقب أمّه ولا يلعب مع صبيان الحارة، حسنية تقول إنّه يخاف أن يتركها، ويخاف من النّاس، أنا الوحيدة التي يتجرّأ على الحديث معي والجلوس بجانبي.

أردت أن أسأل حسنية لماذا يلقّبونها "الحلّاقة" كنت أعرف أنّها ليست من أقرباء آل الحلّاق الذين تقيم عندهم، ولقبها لا يرتبط بكنيتهم، لكنّ أحدًا لم يقدّم لي تفسيرًا وخجلت أن أسألها، أدركت حسنية أنّي مترددة في سؤالها عن شيء، دندنت أغنية بدوية وهي ترشف الشّاي وتأكل الخبز السّاخن المدهون بالزّيت والزّعتر.

ابتسمت لي مرارًا وسألتني:

- شفتك وأنتِ تسمعين مسلسل في الراديو، كنتِ جالسة في قلب شجرة المشمش.

سألتها:

- أتحبين سماع المسلسلات؟

ردّت وهي تتنهد:

- ما عندي وقت، بس سمعت كم حلقة من قاسم وجليلة[1]، حلو كتير.

---

(1) مسلسل قاسم وجليلة أذيع في منتصف الستينيات من إذاعة دمشق بطولة منى واصف ورفيق السبيعي.

لا أذكر تفاصيل مسلسل قاسم وجليلة، في الغالب كانت أمّي تناديني لمساعدتها في ضخ الماء من الترمبة[1] وغسل أواني طعام الغداء؛ لأنّ النّساء بدأن بالحضور.

أخبرت حسنية أنّ مسلسل ممادو وفماتو[2] جميل أيضًا، لكنّ أمّي تخترع الكثير من الأعمال التي تمنعني من متابعة حلقاته.

علاقتي بحسنية فتحت عينيّ على عالم مختلف، الطّبيعة البكر التي تشبه حسنية، حين أقصد عين الماء مصطحبة معي علبة "التايد" والفرشاة والبسط القماشية الملونة لغسلها تأتي حسنية ومعها سكين صغيرة، تجوب التّل وتعود وقد حصلت على حزمة كبيرة من الخبيزة وباقات صغيرة من الحميضة وهدية خاصة لي "باقة حرصنين[3]"

أنزع السّاق والقشور وأحتفظ بالحبات البيضاء اللذيذة في جيبي. تساعدني حسنية في تنظيف البسط الكبيرة ونشرها، وأقوم أنا بتنظيف الصّغيرة، عمل يذهل أمّي أنّي قمت به في وقتٍ قياسي مع أنّي كنت أشكّ دائمًا بأنّها تعرف أنّ حسنية تساعدني؛ فقد رأتها وهي تحمل البسط عني حتّى باب الدّار وتغاضت عن ذلك.

فاجأتها كما فاجأت نفسي بالسّؤال:

- لماذا يطلقون عليكِ لقب الحلّاقة؟".

ضحكت حسنية وهي تنظر إلى الوادي الأخضر الممتد أمام أقدامنا ونحن نجلس تحت شجرة التّوت الضّخمة عند "عين التينة" وقالت:

---

(1) الترمبة: مضخة مياه يدوية كانت تستخدم في معظم البيوت في السّتينيات من القرن الماضي لعدم توفر تمديدات المياه في البيوت.

(2) أي محمد وفاطمة، مسلسل إذاعي كان يبث في السّتينات من إذاعة مونت كارلو ويتحدث عن اضطهاد المسلمين السود.

(3) عشبة تُقتلع من الأرض جذورها عبارة عن بصل مغطى بألياف بنية تُزال ويُؤكل قلبها الذي بحجم حبة البندق أو أكبر قليلًا.

- يمكن ما يكون حلو إنّي أحكي لك القصة، بس إذا وعدتني ما تقولي لحدا رح قلك.

طبعًا وعدت حسنية، كنت أنتظر هذه الفرصة الذّهبية منذ زمن بعيد. لم أصدّق أن تخصّني حسنية بهذه الرّحلة الفريدة إلى منطقة الرّادار، وتريني تفاصيل الجبل. تأملنا السّهول البعيدة معًا وقطفنا أزهار المحلب وحبّات المشمش الأخضر الصّغيرة التي لم تنضج بعد. كان الوقت أوائل الرّبيع، الوقت الذي يلتبس فيه الطّقس بين الدّفء والبرد الشّديد فيحتار المرء ماذا يلبس، كانت حسنية وقتها قد أتت إلى البلدة غريبة ووحيدة ولا تعرف أحدًا ولم يستضفها أحد، البيوت التي مرّت بها تكرّمت عليها ببعض الطّعام كما يفعلون مع الشّحاذة - هكذا أخبرتني -.

بدأ الخوف من النّوم في العراء يخيف حسنية، كانت متحفزة دائمًا، الرّيح التي تحرّك الأشياء وتجعل الأشجار تصدر أصواتًا غريبة عدوتها الأولى، دائمًا تكتشف في الصّباح تفاهة الأشياء التي أثارت الرّعب في قلبها ليلًا.

غالبًا تكون أكياس نايلون، مجموعة أغصان يابسة اصطدمت بالصّخور، أواني بلاستيكية وعلب سمنة فارغة ولا أثر للبشر المتوحشين الذين سيقومون بالاعتداء عليها!

في مساء أحد الأيام الباردة شاهدتْ محمّد ديب يعود بطرش الغنم ويدخله الزّريبة ويذهب للنوم.

باب الزّريبة لم يكن مقفلًا بشكل جيد، كان بابًا من الصّفيح سَمَّرَ عليه بضع مسامير ربطها بحبل إلى سكّة مغروسة في الجدار مطمئنًا إلى أنّ أغنامه لن تهرب.

خطر لحسنية فكرة غريبة وهي أن تنام في الزّريبة، حملت خرجها القماشي السّميك ودخلت، اندست بين الأغنام في الرّكن لكنّها فطنت إلى أنّ الباب بقي

مفتوحًا وخشيت أن تخرج الأغنام وتتسبب بمصيبة لصاحبها أو يكتشف أحد ما أمرها. حينها ألهمتها مخيلتها فكرة أخرى، فأخرجت مقصها وراحت تجزُّ صوف الأغنام وتحشوه داخل الخرج. بقيت تعمل حتّى الفجر، وضعت الصّوف داخل شرشف كبير وربطته وحملته على كتفها وأخذت أغراضها وخرجت.

كان الحمل ثقيلًا فاستعانت بحمار محمّد ديب المربوط بحلقة باب الدّار الحديدية. لجأت إلى مغارة رومانية، وأطلقت الحمار الذي يعرف درب عودته!

مدّت الصّوف في الأرض، وخاطت عليه الشّرشف، وحشت بعض الصّوف بوشاح لها وجعلت منه وسادة وتغطت بما معها من ملابس.

جن محمّد ديب حين رأى منظر الأغنام في الصّباح، وبقي أشهرًا طويلة يحرس "البايكة - الزّريبة" ليعرف مَنْ عدوه الذي تجرّأ على هذا الفعل من دون جدوى.

بعد أيام أسّست حسنية المغارة لإقامة دائمة، أحضرت حجارة وبنت ما يشبه الموقد وصارت تجمع "الوقيد" من البساتين وتجمع الخضار من البرية وصنعت تنورًا خارج المغارة...

في طريقهن إلى البساتين كانت النّساء يلمحنها وهي تشعل التّنور وتخبز بضع أرغفة، يتوقفن للحديث والسّلام، سألنها من صنع لها التّنور فأخبرتهن أنّها فعلت ذلك بنفسها. وبدأت سيرتها تنتشر في البلد، وجاء كثيرون لزيارتها وتلقت الكثير من العروض لصنع التّنانير، ومن ثمّ بدأت النّسوة يستدعينها لتساعدهن في الخبز، وكانت تلبي تلك الدّعوات راضية بالأجر الزّهيد.

حتّى جاء يوم ورأته بباب المغارة. كادت تموت من الرّعب وهي تنظر إلى قامته المديدة وشاربيه الضّخمين، قالت متلعثمة:

- ودين النّبي ما قصدت أسرق.

ارتبك محمّد ديب فلم يكن يعرف عمّ تتحدّث وهي ظنّت أنّه يعرف. بقي صامتًا، هزّ رأسه باستغراب فظنّت أنّه يحثها على الكلام، نهضت مرحبة به وقلبها يرتجف:

- تفضل، فوت، المكان ليس قدّ المقام، بس لازم تفوت لأحكي لك الحقيقة.

دخل محمّد ديب وجلس على حافة الفراش، وقدّمت له حسنية شايًا دافئًا وخبزًا وأخبرته الحقيقة. دارى ابتسامته:

- أنتِ الحلّاقة إذن؟

بهتت حسنية، لم تفهم قصده إلا بعد زمن طويل، الزّمن الذي جعل البلدة كلّها تلقّب حسنية بالحلّاقة، وجعل محمّد ديب يعرض عليها العناية بأرضه وأغنامه وأسكنها في غرفة بدل بقائها وحيدة في الجبل.

لا أحد حتّى حسنية استطاع أن يفسر ردّ فعل محمّد ديب الحلّاق الذي قدّم لحسنية العمل والسّكن بدل أن يعاقبها على ما فعلته بأغنامه. حتّى حسنية لم تتحدّث أمام أحد عن الأمر وكأنّه سرّ من أسرارها الكثيرة التي تتوق نساء البلدة لمعرفتها!

لكنّ إقامة حسنية في بيت الحلّاق لم تطل، عادت إلى المغارة التي حوّلتها إلى بيت صالح للسكن حين تزوجت قفل الباب!

* * *

قبل مجيء حسنية إلى الحيرانة كانت تعمل خادمة عند أسرة غنية في حلب. تذكر التّفاصيل وكأنّها تعيشها مجددًا، قبل ذلك يتوقف الزّمن بالنّسبة إليها حيث تنقطع ذكرياتها الواضحة للأماكن والأشخاص ويبدو كلّ شيء باهتًا وغير حقيقي. اقتنعت حسنية فيما بعد أنّها مجرد أحلام وربّما كوابيس رأتها وهي نائمة وظنّت أنّها حقيقة لفترة ما.

كان الوقت صيفًا حين أحضر عبد الرحيم بيك صفية إلى المنزل، اتّخذتها صديقة، في غياب رتيبة خانم عن البيت. كانتا تصنعان معًا عرائس من العجين وتتركانها في الشّمس حتّى تجف وتخفيانها في أقفاص الفاكهة الفارغة التي تحتفظ بها السّيدة على السّطح مع أشياء كثيرة مهملة. حسنية كانت بارعة في صنع العجين وتعرف كيفية خبزه على الصّاج لكنّها لم تجرؤ على إشعال الببور في غياب السّيدة والقيام بهذا العمل.

صفية كانت أكثر جرأة منها، كثيرًا ما تمنّت لو أنّها استطاعت مواجهة رتيبة خانم ومنعها من ضربها وإهانتها، كما فعلت صفية ذات يوم قبل أن تكتشف رتيبة خانم علاقتها بعبد الرّحيم أفندي وتطردها من البيت.

كانت حسنية تهرب من مواجهة أيّ مشكلة بالبكاء والعزلة، ألمها الخاص لا يعرفه أحد حتّى هي تجهل مرجعيته مهما حاولت فهم السّبب لا تعينها ذاكرتها على معرفة شيء. المشهد الوحيد الذي يرفد أحلام يقظتها باليقين هو سكّة القطارات والخلاء الشّاسع خلفها، وبساتين الليمون والبرتقال. لا تعرف الرّابط بين هذه الأشياء، وما ترويه رتيبة خانم عن طفولتها قليل ينقطع عندما رأتها لأوّل مرّة في محطة القطار وأحضرتها إلى بيتها، اعتنت بها وعلّمتها كلّ أعمال البيت من التّنظيف إلى الطّبخ والغسيل وكوي الملابس وترتيب المائدة.. وصار البيت برقبتها من بابه لمحرابه.

تعلّمت حسنية الطّاعة المطلقة وتحمل الإهانات كما تعلّمت كتم الأسرار، لم يكن مسموحًا لها أن تتحدّث إلى أيّ إنسان لا السّائق ولا صبي الفرن الذي يُحضر الخبز للبيت ولا صبي اللحام أو الخضرجي.. حتّى لقّبوها بالخرساء. الولد الذي يحضر الخبز كان يتحدّث إليها بالإشارة وهو مقتنع تمامًا أنّها خرساء، تكتفي هي بالابتسامة، وانحناءة الرّأس، حتى جاء يوم طرق فيه الباب وسمعها تسأل "مين؟" فقفز مفزوعًا ثمّ دار حول نفسه دورتين من الفرح ورقصت الكلمات على شفتيه وهو

يتغزل بصوتها.. حين عرفت رتيبة بالأمر منعته من الحضور إلى المنزل ثانية.

ليس هذا فقط ما جعل عبد الرحيم بيك يمنحها ثقته المطلقة ويعاملها بلطف، بل لأنّها ضبطته مع صفية في المطبخ في إحدى الليالي وانسحبت بهدوء وكأنّها لم ترَ شيئًا.

حسنية الوحيدة التي رأت كلّ شيء، رأت كيف اعتدى عبد الرّحيم على صفية، وكيف ضبطتهما رتيبة خانم.. لكنّها لم تجرؤ على البوح به لأحد حتّى بينها وبين نفسها كانت تبعده عن ذاكرتها.

* * *

بعد سنوات تركت حسنية بيت رتيبة خانم وسكنت في منطقة "الفيضّ" بأمر من عبد الرّحيم بيك، كان ذلك في نهاية الخمسينيات. أرسلت إليها رتيبة سائقها الخاص ليحضرها وهي في أوج غضبها، في البداية خاطبتها باستعلاء وهدّدتها إن لم تقل الحقيقة التي دفعت عبد الرّحيم لاستئجار بيت لها في منطقة الفيض. في تلك الأثناء وصل عبد الرّحيم بيك إلى المنزل. دخل من باب الدّار الموارب ولم يتنحنح، سمع همسًا في المطبخ، عرف صوت رتيبة، تقدّم بهدوء، سمعها تقول:

- إياك والكذب يا حسنية، لقد راقبك السّائق ويعرف أين تسكنين وبإمكاني طردك من البلد إن لم تقولي الحقيقة.. هل ماتت ابنة صفية حقًّا؟

خفق قلبه بشدّة، متى عرفت رتيبة أنّ صفية أنجبت بنتًا وكيف؟ أدرك أنّه كان في غفلة تامة وأنّ رتيبة لا تنسى:

- أعرف أنّه يزورها، وأنّها أنجبت طفلة أخبرها بأنّها ماتت في المستشفى وقام بدفنها. لكنّي لست ساذجة يا حسنية، حدسي يخبرني أنّ الطّفلة حية وأنّك تعرفين مكانها لا شكّ.

ارتجفت حسنية وقبل أن تفتح فمها تنحنح عبد الرّحيم من الصّالة مناديًا:

- يا جليلة..

ركضت جليلة من غرفتها، عانقت والدها وملأت ضحكاتها وثرثرتها فضاء البيت.

ختمت رتيبة الحديث همسًا:

- اذهبي يا حسنية، سأراك غدًا.

لم يترك عبد الرّحيم الأمور معلّقة للغد، خرج وراء حسنية بعد ساعتين، طرق باب بيتها، وطلب منها باختصار أن تجمع أغراضها وتغادر حلب إلى مكان لا تصله عيون رتيبة.

لم يكن طلب عبد الرّحيم مفاجئًا أو مزعجًا لحسنية فقد تمنّت الابتعاد عن حلب منذ زمن بعيد. لم تعش فيها بإرادتها ولم تحمل عنها أيّ ذكريات جميلة، لم تعرف من شوارعها سوى الطّريق من بيت عبد الرّحيم إلى مسكنها في الفيض إلى المستشفى حيث أخذت ابنة صفية!

* * *

بعد الاجتماع الذي تمّ في بيت وحيدة بأمر مباشر من العقيد "أبو فراس" كان على السّيّدات المجتمعات تقديم تقاريرهن بكلّ شفافية ودقة عمّا حدث أثناء اجتماعهن! وقد اتفقن أن يكون الاجتماع الثّاني في بيت وسيلة.

تداول سكّان البلدة أمر الاجتماعات المريبة همسًا، من الطّبيعي في البلدة أن تزور النّساء بعضهن بعضًا في ما يسمى "صبحية" أو "عصرونية" أو يجتمعن في البساتين في جلسات جماعية تُدعى "سيبانة" بلهجة أهل البلدة أو سيران كما يسميها الطّارئون على البلدة. لكنّ اجتماع الغريبات أثار تساؤلات أهل البلدة وشكوكهم، وصاروا يترقبون تلك الاجتماعات ويخمنون فحواها ويطلقون

الشّائعات حولها. وبدأوا يسترجعون القصص المنسية حول السّيّدات وخاصة السّيّدة وحيدة التي أثيرت حولها زوبعة لم تهدأ بعد حول ميولها المثلية وعلاقاتها المريبة بالمعلمتين القادمتين من العاصمة "روضة الورّاق ونجاة المكتبي".

كلّ واحدة منهن كانت تعرف تمامًا أنّها ستكون موضع التّقرير الذي ستكتبه الأخريات عن تفاصيل زيارتهن لها. وسيلة كانت بسيطة جدًا في استقبالها، لم تحضّر نفسها ولا جهّزت أشياء إضافية، ولم تعمل معجنات أو أطعمة خاصة. اكتفت بإحضار الفاكهة والضّيافة والقهوة. وهو ما أثار استياء الزّائرات. وحيدة أنقذت الموقف بإحضارها أصنافًا جاهزة من الطّعام والحلويات والفطائر فقد كانت تعرف أنّ وسيلة لن تدرك أهمية هذا الأمر وتأثيره على "التّقرير" الذي سيرفع إلى "أبو فراس" في اليوم التّالي للزّيارة.

دخلت وحيدة المطبخ، وضعت الأكياس جانبًا ونادت وسيلة "يا صهباء". لم يكن أحد ينادي وسيلة بهذا اللقب سوى وحيدة وهي تناديها به تحببًا منذ عرفتها وهي صغيرة.

وسيلة السّبّاك 1950

في قريتها كانوا ينادونها البرصاء ليس لأنّها مصابة بالبرص بل لكون رموشها بيضاء ولا تستطيع فتح عينيها في الضّوء مالم تظلّلهما بكفيها. - الأولاد نقلًا عن الكبار - كانوا يتندرون بلون عينيها المائل للأصفر وخوفها من الشّمس وتخفيها الدّائم داخل الأشجار فلقَّبوها "أبو بريص". رأتها وحيدة يومًا وهي في طريقها إلى المدرسة.. سقطت حبّات المشمش الأخضر من يديها وهي تحاول الفرار.. نادتها بصوت ليّن:

- تعالي يا صغيرة، لا تخافي، اقطفي لي حبّات مشمش، أنا أيضًا أحبّه أخضر.

قطفت وسيلة الحبّات وقدّمتها لها:

- أنا ذاهبة إلى المدرسة، اجلبي لي قليلا من الملح والحقيني إلى هناك.

شعرت بفرحة كبيرة وهي تخطو إلى غرفة المعلمات في المدرسة بكلّ ثقة وتضع أمام وحيدة صحنا صغيرًا من الملح وتقول بارتباك:

- أمّي تسلم عليكِ

- انتظري، لا تذهبي، كم عمرك؟

- عشر سنوات.

فوجئت وحيدة، تبدو الفتاة وكأنّها في السّابعة، سألتها لماذا لا تحضر إلى المدرسة، أخبرتها أنّها تخاف من الأولاد. أمسكت وحيدة يدها وخرجت إلى الباحة، قرعت الجرس، اجتمع الفتيان والفتيات سريعًا ووقفوا في صفوف عشوائية. رنّ صوت وحيدة عاليًا وحادًّا:

- وسيلة ستكون معكم في الصّف من يتعدّى عليها سينال عقوبة قاسية.

اشترت وحيدة لها دفترًا وقلم رصاص، وصارت وسيلة تأتي إليها يوميًا، تنظّف البيت وتحضر لها الأشياء من الدكان وتخصها ببضع بيضات وجبنة تصنعها أمّها كلّ أسبوع.

حين انتهى العام الدّراسي جاء أمر نقل وحيدة إلى المدينة، تعلّقت وسيلة بها، ولم تكن وحيدة أقلّ تعلّقًا بالفتاة الجميلة، فعقدت صفقة مع أمّها تنازلت بموجبها عنها مقابل مبلغ من المال.

في الحيرانة كانت أمّ وحيد سعيدة بوجود "الصّهباء" فقد أدخلت جوًّا من البهجة على البيت الكئيب البارد، صارت الشّبابيك ملونة بفضل فرشاتها، والأحواض الصّغيرة اكتظت بأنواع الزّهور والبحرة النّظيفة المليئة بالماء جذبت

العصافير. هكذا رأت أم وحيد البيت بحضور وسيلة، لكنّ وحيدة انتبهت إلى شيء بدأ يفور في عروقها، فقد شبّت الفتاة فجأة وطالت قامتها وامتلأ جسدها، وصارت تتفنن في تكحيل عينيها وصبغ حاجبيها بالبني الفاتح وشفتيها بالأحمر القاني.. ضبطتها ساهمة في النّافذة المفتوحة على الزّقاق أكثر من مرّة وفهمت مباشرة أنّ البنت وقعت في العشق وهو ما أوغر صدرها وسبّب لها نوبات ضيق تنفس وجب على وسيلة خلالها أن تعتني بها وتبتعد عن النّافذة!

انتبهت وسيلة إلى حيل وحيدة للانفراد بها وإبعادها المتعمد عن الخروج من البيت أو فتح النّافذة أو الصّعود إلى السّطح، وخشيت من عدم موافقتها على زواجها من صبي الفرّان العاشق الذي يحضر الخبز يوميًا إلى البيت بعد أن منعتها وحيدة من الذّهاب إلى هناك بحجة خوفها من تحرّش الرّجال بها.

دخلت وحيدة الحرب بكلّ أسلحتها، تسلطها، ملكيتها لوسيلة، إدراكها العميق لضعف الفتاة وهشاشتها وسلاحها الأقوى العشق. وقعت وحيدة في عشق الفتاة وهي تدرك تمامًا أنّها لن تصل إلى غايتها.

همس الفتى يومًا في أذنها أنّه يريد الزّواج منها، وسيرسل أهله.

كان يوم عزاء عند وحيدة، فاجأها المرض واشتدّ عليها، ورقدت في الفراش معصوبة الرّأس. أم وحيد لم يلن قلبها لوحيدة كما تعودت بل استغلت الفرصة وقابلت أهل العريس ووافقت على الزّواج وحدّدت موعد العرس.. تصرّفت بسرعة وهي واعية لأثر ذلك على وحيدة، لكنّها أرادت إنقاذ الفتاة وإنقاذ ابنتها من علاقة مُحرّمة جديدة.

تمّ زواج وسيلة خلال شهر بأبسط التّكاليف. لم يحضر أحد من أهلها. ولم تحضر وحيدة!

كان جمالها سببًا في إثارة الغيرة والشّائعات في البيت الجديد الذي حلّت فيه. فهي أصغر زوجة لأصغر شاب في العائلة المؤلفة من تسعة ذكور وأربع إناث،

الفتيات جميعهن بلا أزواج. الكبيرة مطلّقة، الصّغيرة أرملة، والوُسْطَيان لم تتزوجا بسبب عاهة خلقية ولدتا بها.

التّقاليد في العائلة جعلت الأخ الأكبر حاكم البيت بعد وفاة والده. عُرف بمهنته. بدأ بصناعة الحلاوة الطحينية والكسيب، ثمّ أضاف أنواعًا أخرى من الحلويات حتّى أطلقوا عليه لقب "أبو الحليوة" وصارت كنية لعائلته.

جمال وسيلة وخاصة عينيها الواسعتين اللتين تميلان للون الزّيت الفاتح الأصفر حين تقف في الضّوء أثار ريبة وقلقًا في نفوس نساء العائلة. زوجة الكبير صارت تخشى على زوجها ونفسها من العين وأشاعت عن سلفتها قدرتها العجيبة على فعل ذلك. البنات أخذن موقفًا سلبيًا منها وحاولن ممارسة سلطتهن بتحميلها الجزء الأكبر من أعمال المنزل حتّى بعد أن عرفن أنّها حامل.

زوجها كان ضعيفًا وهشًا وكلمته غير مسموعة وسط ذلك الجيش من الرّجال والنّساء والأولاد. أعطوها الغرفة الصّغيرة الرّطبة التي تقع في المدخل، لم يكلفوا أنفسهم حتّى بجلب سرير لها، اكتفوا بفراش ولحاف.. وهي أحضرت صندوقها الخاص الذي أهدتها إياه أم وحيد.

لم تجد أمامها بدًا في النّهاية من اللجوء إلى وحيدة. كان قلب وحيدة مكسورًا وروحها محتقنة بالغيظ، لم تحتمل منظر وسيلة وبطنها يتقدّمها، لكنّها تركت لها الباب مفتوحًا ودخلت غرفتها.

استقبلتها أم وحيد، ورعتها حتّى وضعت مولودها. حينها جاء زوجها يريد أخذ ابنه.. أقنعته أم وحيد بتركه يرضع من أمّه.. لكن ذلك لم يدم سوى أيام اجتاحت البيت أمّه وأخواته وزوجات أخوته في مظاهرة كبيرة يطالبن بالولد!

الموقف المشهود لوحيدة والذي حكت البلدة فيه سنوات طويلة ولم تنسه وسيلة أبدًا وظلّت ممتنة لها طيلة عمرها. خرجت من العليّة ووقفت أعلى الدّرج وصاحت بصوت حاد وحازم:

- اخرجن من البيت، معكن دقيقة واحدة، أرسلن إليّ حاكمكن لأتفاهم معه.

جمدت النّساء في أرض الدّيار ولم ينبسن بكلمة. انسحبن بهدوء، وركضن في الزّقاق ولم تهدأ قلوبهن حتّى وصلن البيت، وكأنّهن رأين الشّيطان تلك اللحظة متجسدًا بوحيدة.

الأخ الأكبر لم يخضع للنساء ولم يذهب لمقابلة وحيدة، نصح شقيقه بترك الولد لأمّه ريثما تفطمه حينها يأخذه منها.

ما كانت تخشاه وسيلة طيلة سنتين حدث. أرادت أن تستقلّ عن وحيدة فلم تعد تحتمل ملاحقتها لها وحصارها وسلطتها وتعنتها.. كان عليها أن تجد عملًا كي تستطيع الانفصال عنها ووجدته، مستخدمة في روضة أطفال. تأخذ ابنها معها وتخرج في الصّباح الباكر وتعود قرب العصر بعد أن توصل الأولاد إلى منازلهم. وجدت وسيلة في العمل حريّتها المفقودة، تعرّفت إلى النّاس في الحيرانة وأصبحت صديقة للكثيرات من أمّهات الأطفال في الرّوضة. ووجدت فرصتها الجديدة في الحياة حين اقترحت عليها المديرة أن تؤجرها غرفة في الرّوضة كي تتفرّغ أثناء الدّوام للعناية بالأطفال، وتقوم بأعمال التّنظيف بعد انصرافهم. الصّفقة لم تكن لصالحها فقد تضاعف العمل واستغرق نهارها كلّه. لكنّها كانت سعيدة بامتلاك بيتها الخاص بعد أن تقفل الباب وراء آخر طفل يغادر وتنهي التّنظيف تحسّ أنّ البيت العربي القديم بأشجاره وبحيرته الصّغيرة وعرائش ياسمينه ودفئه صار ملكًا لها.

لكنّ إحساسًا جديدًا داهمها حين خفت صوت الأطفال في الباحة، وأغلقت الأبواب دونهم مع قدوم الصّيف.. صار الحرّ ملازمًا للوحدة، أخرج وسيلة من البيت، صار النّاس يرونها تتمشى على طريق الجبل بصحبة ابنها الصّغير، يرونها في الأسواق كلّ يوم تشتري لوازمها، يرونها في استقبالات النّساء وفي الحمّام. ومع اقتراب الخريف جاءها عريس!

زارتها الدّلاّلة أم عمر وأخبرتها أنّ تحت يدها عريسًا غنيًّا ومن عائلة ويسكن في الزّقاق نفسه الذي تسكن فيه، كان يراقبها طيلة العام. هو كبير في السّن قليلًا، لكنّه راقد على ثروة، وأولاده تزوجوا وتركوه؛ بعضهم هاجر خارج البلاد وبعضهم في العاصمة. لم تترك أم عمر فرصة لوسيلة للتفكير، فقد وضعت أمامها مغريات لا تقاوم، أولها أنّها لن تبقى مستخدمة عند النّاس وسيعيش ابنها عيشة مرفّهة ويتعلّم مثل أولاد الأكابر وستسد الطّريق في وجه وحيدة نهائيًا.

في مساء الأوّل من أيلول طرقت أم عمر الباب وكان بصحبتها عدنان بيك. تنحنح:

- يا الله يا ساتر.

ارتجف قلب وسيلة وهي تراه من خلف السّتارة يعبر إلى الليوان، قامته طويلة نحيلة، شعره أبيض بالكامل، لكنّه أنيق جدًا ورائحة عطره اخترقت أنفها. خرجت مرتبكة، قدّمت له القهوة وجلست قرب أم عمر وكأنّها المرّة الأولى التي ترى فيها رجلًا.. الواقع أنّها التّجربة الأولى التي ستختار فيها من دون ضغوطات خارجية. أمامها حريّة الاختيار إما القبول بالزّواج، أو البقاء في عملها. تحدّث عدنان بيك عن أولاده وبيته والمرحومة زوجته ووجدت نفسها تنتبه لحديثه بكلّ جوارحها، لم تمرّ سوى ساعة حتّى قبلت عرض الزّواج الذي قدّمه بأسلوب لطيف، وأخرج من جيبه هدية قال إنّها متواضعة:

- أرجو أن تعجبك.

لم يسبق لأحد أن تحدّث إليها بهذا الاحترام. أخذت الهدية من يده، فتحتها، كانت خاتم ألماس باهظ الثّمن لكنّ خبرة وسيلة القليلة لم تسعفها في معرفة ذلك، شكرته بلطف وتضرج وجهها باللون الأحمر القاني، خطفت أم عمر الخاتم منها وشهقت:

- ما أجمله! يساوي ثروة.

بهتت وسيلة حين علمت القيمة الحقيقية للخاتم، وكان ذلك كافيًا كي تتغاضى عن كلّ رغباتها الخفية بزوج شاب تحبّه ويعشقها على طريقة الأغاني.

* * *

بعد زواجها من عدنان بيك بأشهر قليلة جاءها قرار الحكم في ورقة بالبريد، وقف الساعي أبو كامل أمام الباب المفتوح على مصراعيه واحتار كيف سيتعامل مع السّيدة التي أغمي عليها أمامه. لم يكن من الحكمة أن يدخل البيت ولا أن يسعفها تجنبًا لأيّ مشاكل قد تحدث هو في غنى عنها. قرع باب الجيران، خرجت فتاة صغيرة، طلب منها أن تنادي أمّها، جاءت سيدة على عجل وقد شمّرت عن ساعديها وبخار الماء يتصاعد منهما. مسحتهما بثوبها وعدّلت وضع غطاء رأسها، وسألته ماذا يريد، شرح لها أنّه أعطى للسيدة جارتها قرارًا من المحكمة يقضي بضمٍّ ابنها لعائلته فأغمي عليها.

الرّؤية ستتم في المحكمة هكذا جاء في قرار القاضي، أهل الولد يرفضون أن يذهب ابنهم إلى بيت زوج أمّه لتراه، ويرفضون أن تزورهم وهذا ما لن تفعله وسيلة حتّى وإن وافقوا عليه.

لم تلجأ وسيلة هذه المرّة لوحيدة كانت تأمل أن يستطيع عدنان بيك التّأثير على صديقه القاضي ليحكم لها بالحضانة لكنّه فشل في إقناعه "القانون فوق كلّ شيء، إن كانت لا تعرف أنّ الزّواج سيحرمها من ابنها فالقانون لا يحمي المغفلين".

لم تعد وسيلة تهتم بزوجها وبيتها كما فعلت في البداية، صارت تشعر أنّ الطّبخ والتّنظيف هما كلّ ما تستطيع فعله، أمّا واجباتها الزّوجية فقد أصبحت عبئًا ثقيلا أرادت التّخلص منه بكلّ الطّرق الممكنة.

لـم يكـن عـدنان بيـك مغفـلًا وقـد فهـم أنّ وسـيلة تتحاشـى النّـوم معـه بأعـذار واهيـة وإن فعلـت تفعـل مرغمـة، تبقـى بـاردة وذهنهـا منشـغل بـأمور أخرى.

في البداية تحمّل الوضع الجديد وقدّر قلقها على ابنها، لكـنّ ذلـك لـم يسـتمرّ طويلًا، انقلب مع الوقت ليصبح عصبيًا ومتطلبًا، ينتقد تصرفاتها، وطبخهـا، يمسـح بأصابعه الأشياء حين يعـود إلـى البيـت في إشـارة إلى أنّهـا لا تمسـح الغبـار.. يـترك الطّعام من دون أن يشبع متذمرًا مـن الملـح الزّائـد أو القليـل أو الـرّز المخبـوص أو النّاشف.. ووسيلة تقف كالتّمثال لا تتحرّك ولا تبدي انزعاجًـا أو احتجاجًـا. سـألته مرّة قاطعة سيل تذمره وانتقاداته:

- إن طلّقتني هل يستطيع صديقك القاضي أن يعيد إليّ ابني؟

بهت عدنان بيك:

- أطلّقك!

نهض وغادر المنزل من دون تعقيـب. تمنّـت وسـيلة لحظتهـا لـو يفعـل. لكـنّ عدنان بيك لـم يسمع سوى كلمة الطّلاق وقادته ظنونه وهواجسه إلـى تخيّـل رجـل آخـر عشـقته وسـيلة وتريـد الطّـلاق لأجلـه! لـم يصـدق حكايـة الولـد الـذي تريـد اسـتعادته. عـاد إلـى البيـت غاضـبًا، طرحهـا علـى الفـراش وقيّـد يـديها وضـربها بالكرباج.. ثمّ خرج وأغلق الباب بالمفتاح.

بقيـت وسـيلة محبوسـة في غرفتهـا عـدّة أشـهر وجـاء موعـد رؤيـة ابنهـا ولـم يسمح لها عدنان بيك بمغادرة المنزل.. كان يتصوّر أنّها ستخرج مع عشيقها ولن تعود.

* * *

وسيلة السبّاك 1965

أخيرًا فُتح الباب على مصراعيه وخرج عدنان بيك بلا عودة. امتلأ البيت بالمعزين، واستلمت الدلّالة أم عمر المهام المتعلّقة بالعزاء بأكملها، أحضرت الملابس السّوداء لوسيلة والسّبح وأجزاء القرآن وأوصت على الطّعام وجمعت كراسي الخيزران من بيوت الجيران، ولمّت السّجاد من الأرض كي لا يتسخ وأغلقت أبواب الغرف الأخرى بالمفاتيح ووضعتها في زنارها.

ما يتعلّق بدفن الميت وعزاء الرّجال أوكلته لزوجها.

لم تُخفِ النّساء حسدهن ولم يؤجلن تقولاتهن حول الصّهباء التي سترث أموالًا طائلة وستصبح بين ليلة وضحاها من سيدات البلد المرموقات. تهامسن في مجلس العزاء حول كلّ التّفاصيل وكانت همساتهن تصل سمع وسيلة. تسمع وتخزّن الكلمات مقرونة باسم صاحبتها من دون أن ترفع رأسها عن صفحات القرآن المفتوح بين يديها. فجأة رأت إحداهن تقف أمامها، لم تشأ أن ترفع رأسها، لكنّ اليد التي امتدت وربّتت كتفها جعلتها تنتفض:

- وحيدة! أهلًا.. حياتك الباقية.

وأجهشت بالبكاء. لم تعرف وسيلة لماذا كانت تبكي بالضّبط، فاجأتها دموعها، كما فاجأها حضور وحيدة.

اللافت للنظر الصّمت الثّقيل الذي خيّم على جوّ الصّالة لحظتها، كان صوت المقرئ عبد الباسط عبد الصّمد قد أصبح واضحًا وصافيًا وأعطى مسحة الحزن اللازمة للمناسبة.

بانسحاب آخر النّساء من الصّالة بعد أذان العشاء، نهضت وحيدة، كرّرت التّعزية، وصافحت وسيلة مودعة:

- إن احتجت أيّ شيء لا ترددي في المجيء، بيت أم وحيد مفتوح لكِ كما كان دائمًا.

تمتمت وسيلة:

- بيت أصل وكرم، سآتي لزيارتك حتّى لو لم أحتج مساعدة.

بعد أن خلعت وسيلة ثوبها الأسود وحذاءها ومنديلها وأرادت أن تخلد للنوم قُرع الباب. نهضت أم عمر عن الأريكة حيث استلقت بعد أن هدّها التّعب طيلة النّهار، فتحت الباب وشهقت، نادتها وسيلة:

- من؟

رأته يقف بباب الصّالة، طويل وأسمر بعينين سوداوين عميقتين وشعر أسود كثيف.. كم يشبه أباه! اقترب منها، قبّل يدها ورأسها وجلس قربها.. يا الله كم يبدو كبيرًا وناضجًا، كانت تتخيله أقصر قامة وأشدّ نحولًا..

كانت ترتعش، لم تستطع أن تنبس بكلمة. عقد حاجبيه:

- وسيلة، أعرف أنّك لم تتركيني بإرادتك، جدتي تعاملني بحنان ولا تسمح لأحد أن يتدخل في شؤوني، كوني مطمئنة أنّي لم أكرهك أبدًا، جدتي أخبرتني أنّ زوجك كان يمنعك من رؤيتي.

أتمانعين إن جئت وسكنت معك؟

أرادت أن تقول له إنّها كانت تتمنّى أن تراه وتملأ عينيها بصورته، فكيف ترفض أن يأتي ليسكن معها.. لكنّها لم تستطع النّطق، احتضنته وانخرطت بالبكاء.

* * *

رتّبت وحيدة المأكولات في الصّحون ونقلتها مع وسيلة إلى الصّالة التي تلاشى فيها الهمس وبدأ الأكل ومدح المضيفة والضّيافة.

سألت وحيدة وسيلة:

- هل عملك الجديد في السّنترال مريح؟

ردّت وسيلة بسرعة:

- جدًا، أحببته كثيرًا، فيه تسلية وطرافة.

وقعت وسيلة في غرام المسجل الأحمر اللون بحجمه المتوسط. أجمل ما فيه تمكّنها من حمله في حقيبتها مع عدّة أشرطة كاسيت وأخذه معها إلى العمل، هناك تصنع قهوتها الخاصة، تضع الشّريط المفضل لديها وتبدأ العمل.

لم يخطر لوسيلة قبل تلك المصادفة أن تفعل ما فعلته، الصّدفة قادتها إلى إعادة التّجربة، ثمّ أصبح لديها هوسًا استغنت به عن الورقة والقلم.

بعد عودتها إلى البيت ليلًا في أحد الأيام وضعت المسجل كعادتها على الطّاولة قرب السّرير، وبداخله كان شريط كاسيت "حاول تفتكرني" لعبد الحليم، كبست الزّر واستلقت في الفراش.. المفاجئ أنّ الأغنية انقطعت ليظهر صوت شخص يتحدّث على الهاتف مع حبيبته! اعتدلت وسيلة في الفراش وأنصتت، تذكّرت المكالمة جيدًا لقد كتبتها في تقريرها على الورق. كانت شبه نائمة حين رن الجرس وسمعت صوته يطلب رقم الهاتف 234 وصلته بالخط وأبقت السّماعة على أذنها كالمعتاد. اخترقتها التّنهدات وكلمات الغزل والشّعر والأغاني والوعود المدهونة بالعسل.

نهضت من الفراش أحضرت الأوراق وقرأت تقريرها، اكتشفت أنّه ناقص. عرفت أنّها كبست زر التّسجيل بدل زر التّوقف من دون انتباه حين طلب الشّاب رقم حبيبته.

أعجبتها اللعبة، مرّت في اليوم التّالي على عماد بائع الأشرطة وطلبت عددًا من الأشرطة الفارغة. صارت تسجّل المكالمات وتحتفظ بها وتعيد سماعها في البيت وتكتب تقاريرها على مهل وبتصرف أحيانًا. في البداية كانت تمسح الأشرطة بعد كتابة التّقارير ثمّ تعيد استخدامها ثانية، لكنّها مع الوقت لم تعد ترغب في مسح

أيّ شيء، وصار لديها أكوام من الأشرطة صنّفتها حسب أرقام أصحابها ووضعتها في صناديق الشّاي الخشبية الكبيرة التي يرسلها لها الحاج عبدو من مستودعه الكبير كلّما فرغت من الشّاي.

خصّصت وسيلة غرفة في منزلها رتّبت فيها تلك الصّناديق، لكنّ الأمر أصبح مربكًا لها وصعبًا عندما استُبدلت خطوط الهاتف بالخطّ نصف الآلي ومُدّت خطوط جديدة إلى منازل كثيرة، صار من الصّعب على وسيلة متابعتها كلّها.. الأمر الذي حزّ في نفسها أنّها كانت تداوم أحيانًا في الليل وأحيانًا في النّهار. زبائن النّهار مملون وعاديون وعمليون، ودوام النّهار يقطع عليها سلاسل الحكايات بين البشر فتقع في ورطة الرّبط بينها.. بعد دوام أسبوع في النّهار عادت ليلًا تنتظر مكالمات محمّد وفاطمة، لكنّ محمّد لم يعد يطلب رقم فاطمة، حتّى أنّه لم يعد يستخدم الهاتف ليلًا واتصالاته قليلة في النّهار ومحصورة بطلب أشياء تافهة من أمّه في المنزل حين يكون في مكتب المحاماة الخاص به!

ماذا حدث؟

وسيلة تقصُّ حكايات العشق تلك وتهمل ذكر الأسماء في مجالس النّساء.. في البداية كانت تلك الحكايات مصدر سعادة وبهجة مقترنة بالنّميمة، لكنّها مع الوقت أصبحت مصدر حذر تطوّر إلى خوف مقرون بالوعي الكامل لدور وسيلة في عملها بالسّنترال.

الخوف انتقل إلى وسيلة نفسها فقد جاءها تحذير من العقيد بكفّ لسانها عن التّحدث بما تسمعه من مكالمات على الهاتف، أصبح أمرها مفضوحًا إلى درجة قد تبعد النّاس عن استخدام الهاتف في شؤونهم الحميمة أو الحديث في السّياسة! هنا تفتّق ذهن وسيلة عن فكرة تسكب فيها خواطرها وأفكارها ومشاعرها المتأججة بعد سماع تلك المكالمات مرّات عديدة في ليل الوحدة القاسي. اشترت دفاتر بأغلفة جميلة ملونة لها أقفال ومفاتيح، واستخدمتها لكتابة أشياء خاصة لن

ترسلها في التّقارير.. كانت واقعة تحت سطوة هوس غريب كاد يتحوّل إلى يقين بأنّ هؤلاء العشاق كانوا يتحدّثون إليها وكلمات الغزل كانت لها.. أكّد يقينها أنّ الشباب يتحدّثون ولا يأتيهم ردٌّ من الطّرف الآخر على الهاتف.. تنهدات حارّة وخفيفة ومتوسطة وفحيح يعبّر عن هياج ويصمت كلّ شيء وأحيانًا تُغلق سماعة الهاتف فجأة من دون أن يشعر العاشق الذي يستمرُّ في بث لواعجه لمستمعة دائمة.. وسيلة!

* * *

في اجتماعهن الثّالث اخترن أن يكون في الهواء الطّلق، لم تكن حسنية تملك بيتًا مناسبًا لاستقبالهنّ فاقترحت وحيدة أن يخرجن إلى البرية المحيطة بمنزل حسنية وتحضر لهن بساطًا ووسائد وما يحتجن إليه يجلبنه معهن.

كنت يومها في البستان قرب بيت حسنية، اعتدت أن أنصب أرجوحتي في شجرة التّوت الضّخمة وألعب مع ابنها لبعض الوقت. رأيتهنّ قادمات، كنت أخاف وحيدة كثيرًا وأتوارى عن أنظارها حين تنزل إلى باحة المدرسة وفي يدها عصا طويلة من الخيزران، لم يسمح لي الوقت هذه المرّة بالاختباء، قفزت من الأرجوحة محاولة الهرب، لكنّها نادتني وهي تبتسم وسألتني عن صحة أمّي وأبي وأخبار أخوتي! لم أفهم السّؤال بالأحرى لم أفهم كيف تبتسم السّيّدة وحيدة وتسأل أسئلة ودية لتلميذة تموت رعبًا من رؤيتها فقط فكيف الاقتراب منها والتّحدث إليها؟ يبدو أنّ وحيدة عرفت سرّ الخرس الذي أصابني فلم أستطع الردّ على سؤالها، ربتت كتفي وقالت: "ابقي هنا، لا تذهبي، أكملي لعبك".

عدت للعب تحت شجرة التّوت، لفت انتباهي شريطٌ أحمر عالقٌ بين أشواك العكّوب، قفزت من الأرجوحة وقصدته، هبّت الرّيح وحملته بعيدًا، ركضت وراءه، أمسكت بطرفه، ملمسه مخملي، مزّقت الأشواكُ أطرَافه أثناء رحلته بين

البساتين. نفضته، لففته، وخبّأته في جيبي، نسيت الأرجوحة في حمى البحث عن "شِعب" يصلح كهيكل عظمي، عثرت أخيرًا على بغيتي؛ غطاء قنينة كازوز!

عدت إلى البيت فرحة بالكنز الذي حصلت عليه. جمعت بقايا القماش من سلة المهملات في غرفة الخياطة، فرزتها، طرت فرحًا حين عثرت على قطعة بيضاء صغيرة تناسب الوجه، لففت القماش الملون على الشُّعب حتّى صار مناسبًا، لففت غطاء القنينة بالقماش الأبيض وربطته أعلى الشُّعب، صنعت كرتين صغيرتين من القماش وجعلتهما نهدين.. أصعب مرحلة بالنّسبة لي كانت صناعة القدمين فهي تحتاج إلى خياطة القماش بدقة وقلبه وحشوه بالصّوف وتثبيته على الشّعب بشكل يخفي عيوب الخياطة. ألبست اللعبة ثوبًا من أثواب الألعاب القديمة، واستخدمت خيوط الصّوف الصّفراء لصناعة شعر كثيف يغطي العنق.

رسمت بقلم الرّصاص الأسود الحاجبين والعينين والأنف، المشكلة كانت في الحصول على قلم الحمرة الذي تخفيه أمّي في صندوقها فوق الخزانة. وضعت كرسيًا وصعدت، لم أصل لغايتي، أضفت وسائد كثيرة، كدت أقع، لكنّي أخيرًا استطعت الحصول على شفتين قانيتي الحمرة للعبتي.

في الحلم، صار بإمكان لعبتي أن تحرّك شفتيها وتخبرني الكثير من الأسرار، الأسرار المختبئة وراء الأبواب الزّرقاء ذات المقابض الحديدية المصنوعة على شكل تفاحة لتميزها عن باقي أبواب المدينة التي تطرق على صفيحها يدٌ تتدلّى من حلقة وتمسك كرةً نحاسية.

امتلكت لعبتي المقدرة على مراقبة الأبواب وإحصاء ثقوبها والهمسات الصّادرة من خشبها الذي تقشّر طلاؤه في أماكن متفرّقة.

في الحلم، كنت أرى سيدة - أعتقد أنّها أمّي لكنّها لا تشبهها - تشير إلى رجلٍ أنيق حلو الابتسامة يناولني دمية من البلاستيك وتقول: "لقد أتى لكِ بها هدية". حدّقتُ إلى الدّمية طويلًا، لمستُ شفتيها، كان ملمسهما ناعمًا وباردًا ليس له حرارة

الصّوف وخشونة قماش الخام الذي تصنع منه أمّي سراويل رجالية داخلية تغليها على النّار وتضيف صابون الغار فتصبح ناعمة وبيضاء، حاولتُ مرّة أن أدس قصاصات القماش في الماء المغلي كي أمنح دميتي وجهًا ناعمًا وأكثر بياضًا لكنّ أمّي انتبهت في الوقت المناسب وصرخت بي كي أبتعد عن برميل الماء المغلي.

في الحلم ثوب الدّمية من قماش الأورجانزا الأزرق، له كشاكش برتقالية وحول الياقة دانتيل أبيض لم أحلم يومًا أن أرتدي ثوبًا كهذا! لكن يبدو أنّ الدّمية أكثر ترفًا مني وكانت تعيش في عائلة غنية! حين وضعتها قرب فراشي ليلًا ولفظ القنديل آخر أنفاسه، سألتها أين كانت تعيش؟ وسمعت صوتها في الظّلام يحدّثني عن مدينة بعيدة وسط غابة فيها قصر كبير!

الحكاية التي كانت تتقنها عمتي وتتقنها حسنية وكلّ السّيدات اللواتي أعرفهن..

عاتبتني حسنية بعد يومين؛ لأنّي هربت من دون أن تراني وقالت إنّ السّت وحيدة سألت عني وهمست: "وحيدة تحبّك كثيرًا وتدرك أنّك تخافين منها، هل تكرهينها؟"!

* * *

لم أفكّر في مسألة الكراهية، أنا أخافها فقط وهذا الشّعور ليس حكرًا عليها، المرحلة الابتدائية كانت مرحلة إرهاب حقيقي بالنّسبة إليّ...

قد أشعر بالنّفور أو الحبّ أو التّعلق من دون سبب كما حدث لي عندما رأيت صفية للمرّة الأولى.

دخلتُ غرفة القياس وكانت أمّي مشغولة مع زبونة وحسنية تقوم بترتيب الأثواب في الخزانة:

- ماما سيدة غريبة بالباب تريدك.

التفتت أمّي إلى حسنية:

- شوفي مين..

لست أدري بالضّبط ما الذي دفعني للوقوف وتأمل السّيدة التي تنتظر في الخارج.. أناقتها؟ جمالها؟ كونها غريبة عن البلدة؟ لا، هناك شيء أقوى، إحساسي بانجذاب غريب نحوها، وارتباك حسنية حين رأتها أثار فضولي. اقتربت أكثر، همست حسنية:

- صفية!

مكتبة
t.me/soramnqraa

ردّت السّيّدة:

- فاجأتك؟ ما توقعتِ أعرف مكانك مع أنّ البلدة صغيرة؟ أنا ما نسيت يا حسنية، اختفاؤك المفاجئ جعلني أشكّ، دوّرت عليكِ كتير وتفاجأت أنّنا في بلد واحدة وما شفنا بعض غير عند العقيد! عبد الرّحيم أصابه الفالج، قاعد بالفرشة لا من تمه ولا من كمه، في الواقع أنا غبية، ما قدرت أعرف الرّابط بينك وبينه. ليش كذبتِ عليّ يا حسنية؟ ليش تركتِ حلب؟

أفسحت حسنية المكان لصفية وقالت:

- تفضلي، ادخلي، منحكي جوا.

في تلك اللحظة التي تجاوزت فيها السّيّدة عتبة الباب رأتني حسنية فشحب لونها، طلبت مني بلطف أن أصنع فنجان قهوة للسّيّدة، أخبرتها أنّي لا أعرف، رجتني:

- حبّابة[1]، حطي الرّكوة على النّار وأنا بجي بلقمها.

دخلت المطبخ، لم أشأ كسر خاطر حسنية مع أنّ رغبتها في إبعادي كانت واضحة.

---

(1) لفظ عامي يستخدم بدل كلمتي "عاقلة، شاطرة".

حين أحضرت القهوة صمتت النّسوة، نظرت إليّ أمّي باضطراب وقالت:

- فريدة اذهبي إلى السّوق واشتري لي بكرة خيطان سوداء وثلاث بكرات بيضاء وكباسات ولفة مطاط. ومري على الأقرع اشتري "نيلة"[1] وقولي له أريدها من أجود الأنواع، المرة الماضية لم تعطِ الغسيل اللون المطلوب.

فهمت أنّ أمّي تريدني أن أبتعد عن البيت وألا أسمع ما يدور بينهنّ من حديث.. فضولي دفعني للتوقف أمام الباب لبعض الوقت، ثمّ خطر لي أن أستغل الموقف كي تسمح لي أمّي بزيارة بيت جدتي:

- ألا تريدين أن أحضر لكِ شيئًا من بيت جدي؟

نظرت إليّ أمّي باستغراب، ثمّ ابتسمت موافقة.

أحبّ بيت جدي وأجد راحتي النّفسية في الاختلاء بنفسي في الشّقة الصّغيرة الخاصة بالمونة.

* * *

خطّة القدر

جاء عم أحمد اللّبون يسأل عن والدي، لم يكن موجودًا، سألته ماذا يريد منه، أخبرني:

- كتابة عقد بيع بيت الأغا، كلّفتني ناهدة خانم ببيعه؛ لأنّها ستبقى في دمشق، عقبال عندك نجحت مرّة ثانية بانتخابات مجلس الشّعب.

مشى صوب الزّقاق بضع خطوات ثمّ عاد فجأة:

---

(1) قرص أزرق يوضع للغسيل الأبيض ليمنحه لونًا جميلًا. يدعى في بعض المدن السورية "زراق".

- فريدة خانم، شو رأيك أعطيك كتب حكمت بيك؟ ناهدة خانم قالت لي بيع العفش، بتعرفي الكتب ما حدا بيشتريها.

غمرتني الفرحة:

- أكون ممتنة لك، أعرف أنّ حكمت بيك كان قارئًا نهمًا.
- متى تحبين أجلبها لك.
- اليوم لو أمكن، أنا موجودة في أيّ وقت.

في المساء قُرع الباب وجاء عم أحمد وعلى حماره خرجٌ مليء بالكتب، أذهلني المنظر، لم أكن أظنّ أنّي سأحصل على هذه الثّروة من دون ثمن، كتب المنفلوطي وجبران وميخائيل نعيمة وطه حسين ونجيب محفوظ ومحمّد عبد الحليم عبد الله كاملة، بعض روايات إحسان عبد القدوس وبضع دواوين لنزار ومحمود درويش، وما تبقى روايات عالمية ترجمة سامي الدّروبي!

المفاجئ وسط كلّ هذه الكتب التي قرأت بعضها سابقًا، عدّة دفاتر قديمة، مشروع رواية بخط حكمت أغا! دفتر حسابات الأراضي والعيادة وفواتير كثيرة ودفاتر ديون وشهادات تقدير وشهادة التّخرج من كلية الطّب، وشهادات حسن سيرة وسلوك وظرف أصفر سميك مغلّف بنايلون شفاف، عليه لاصق أسود.

رتبتُ الكتب على الرّفوف، وحسب نصيحة عم أحمد الذي لا يعرف القراءة والكتابة أحرقت الأوراق التي لا تعني لي شيئًا، وتركت الرّواية المكتوبة بقلم حبر سال في أماكن كثيرة فطُمست الكلمات واصفرّت جوانب الورق، يبدو أنّ الدّفتر حُفظ في مكان رطب جَعّدَ أوراقه وجعلها لينة في مواضع كثيرة.

حملت الظّرف الأصفر، شيء ما منعني من حرقه، وضعته في الدّرج وأقفلت عليه، ترددت كثيرًا هل أفتحه؟ ألا يعدّ ذلك تلصصًا على أسرار الآخرين؟ لكن لماذا تركته ناهدة خانم ما دام سريًّا؟

أخيرًا قرّرت الاطلاع عليه، ربّما بسبب كراهيتي لناهدة خانم وهي أوّل شخص اختبرت معه مشاعر الكراهية!

في أوّل يوم دخَلتْ صفنا وأنا في السّنة الثّانية من المرحلة الإعدادية كانت تحمل ابنتها وتضعها على الطّاولة أمامنا وتسخر من الطّالبات وخاصة مني. وتقول لابنتها:

"لا تبكي، هل خفتِ منهن، أخافتك فريدة البشعة؟ أظنّها فتاة وليست رجلًا.. اهدئي، تريدين أن أعاقبها؟ أم أطردها خارج الصّف؟".

فريدة البشعة! هكذا كانت تراني ناهدة خانم.. هكذا زرعت في نفسي أوّل بذرة كراهية لها ولنفسي، وعمّدتني بعدم الثّقة التي لم أستطع التّخلّص منها طيلة حياتي. فريدة البشعة التي قد تكون أنثى وليست رجلًا!

مزّقتُ اللاصق والنّايلون والظرف لأجد دفترًا بغلاف أزرق جميل مزيّن بالأزهار والفراشات، كتب عليه صنع في مصر!

في الصّفحة الأولى كُتِب بخطّ ناعم ومنمق (**مذكرات الفنانة نادرة الشّريف، القاهرة 1970**)

قلبت الصّفحات بسرعة لأكتشف أنّ الفنانة نادرة بوّبت مذكراتها من بداية عام سبعين وأنهتها عام 1940 عندما كانت طفلة، وختمتها بقولها "هذا آخر ما أذكره عن حياتي، ما قبل ذلك عبارة عن مشاهد غامضة ومحيرة تبدو لي وكأنّها مأخوذة من منام صامت لأشخاص لا أعرفهم، وشوارع وبيوت لم أرها في حياتي!".

ما علاقة ناهدة بالفنانة نادرة ولماذا تحتفظ بمذكراتها؟ السّؤال الأهم كيف حصلت ناهدة على تلك المذكرات؟

* * *

أوهام الحبّ

عدم الثّقة بالنّفس تعزّز لديّ حين صرت في الثّانوية، وأحسست أنّي أصبحت طاعنة في السّن، وأنّ الحبّ لن يطرق بابي كما حدث مع زميلاتي في المدرسة وصديقاتي.

من الصّعب جدًا أن أحوّل رغبتي في تجربة الحبّ إلى واقع، لجأتُ إلى الخيال، وجدته في مجلة "سمر" في صفحة تنشر للشباب قصائدهم ولهواة المراسلة صورهم.. لم يكن وسيمًا كرجل الحلم، لكنّي وجدت في نظارته السّميكة شيئًا محببًا لم أعِ بالضّبط ما هو، كان أقرب إلى الرّومانسية والرّقة خاصة حين قرأتُ أشعاره وسمعتها بصوت حكمت وهبي في إذاعة مونت كارلو. قرّرت أن أكتب له.. كان شيئًا صادمًا بالنّسبة إليّ أن تصلني أوّل رسالة في حياتي وتكون منه! رسالة حيادية بكلّ معنى الكلمة لكنّها مهذبة ولبقة، أعدت قراءتها مئات المرّات.. كنت بحاجة للتأكد في كلّ مرّة أنّه كتبها لأجلي! حين صدّقتُ أخيرًا كتبت إليه، صرت أكتب له رسائل طويلة كلّ يوم، اخترعت حياة خاصة، تحدّثت عن أشياء لا وجود لها حين حدّثني عن رأيه في الحياة والشّعر والشّعراء والرّوايات، عجزت عن الرّد، ماذا أكتب له؟ أحسست بوجود فجوة عميقة بين ثقافتينا؛ شاب يقرأ كتبًا في الاقتصاد والسّياسة والنّقد ويعرف كلّ الكتّاب السّوريين المعاصرين والمؤسسين، وفتاة انحصرت قراءاتها بشعر محمود درويش ونزار والرّوايات العربية والمترجمة. شعرت بأنّي أخوض سباق المسافات الطّويلة، عليّ أن أركض بكلّ قواي كي ألحق بقطاره السّريع. بدأت بكتبه التي أرسلها لي هدية في البريد، وصرت ألتهم كلُّ ما تصل إليه يداي من كتب أستعيرها أو أشتريها من منشورات وزارة الثّقافة واتحاد الكتاب، ومن الكتب والمجلات التي تصلنا من العراق ولبنان ومصر ودائمًا كنت أشعر بالتّقصير حين يناقشني في مسألة ما!

* * *

حماسي للذهاب في الرّحلة المدرسية كان بسبب موعدنا.

كتب لي: "أنتظرك لنشرب قهوتنا في الميماس" انتظرته أمام جامع خالد ابن الوليد ولم يأتِ!

غادرنا إلى "محردة" ومشاعري تختلط بين القهر، والحزن، والشّوق، والفضول. البنات تجمّعن حول فهيمة التي استلمت "الدربكة" وراحت تضرب عليها بحرفية وهنّ يغنين بحماس: "يا شوفير دوس دوس الله يبعتلك عروس شقرا بيضا من طرطوس".

التفت السّائق نحو البنات وقال:

- أنا ما بغيّر ولا بدّل، والله مرتي بتعلّق مشنقتي، الحلبية لا قبلها ولا بعدها. بعدين من وين أجا الشّقار والبياض للطرطوسيات؟

قلت ضاحكة:

- القافية تحكم عمي "أبو حلب".

قبل العصر كنّا في غابات (الفرلّق).. توقفنا لتناول الطّعام.. وجدت نفسي في الأرض الخلاء مقابل الغابة، شعور غريب غمرني بأنّ هذه الغابة تخصني، هي لي، سأصنع فيها أحلامي، في داخلي رغبة قوية في امتلاك النّهر المجاور، إنّه نهري أنا، هو لي، لم أقتنع أنّه مجرد حلم وإن استسلمت لفكرة تقول: "لا بأس أن يكون امتلاكي لتلك البقعة الغريبة من الأرض على مستوى حلم، فالواقع تنجبه الأحلام".

جلست صديقتي حورية على تل بعيدًا عنا تستمع إلى الرّاديو، ناديتها:

- حورية تعالي، التّبولة جاهزة.

أومأت بيدها إشارة إلى أنّها مشغولة. اقتربت منها، وأعدت الكلام:

- تعالي، لن نأكل من دونك.

وضعت يدها على فمي، وأنصتت، كان حكمت وهبي يقرأ رسالة من عاشقة إلى حبيبها م،م،م.

استنفرت حواسي كلّها، إنّها الرّسالة التي كتبتها لحورية يومًا وأعطتها لأحمد. لم تترك لي مجالًا للتساؤل، همست حين انتهى حكمت وهبي من قراءة الرّسالة:

- انتظري لتسمعي ردّه.
- مَنْ؟
- لا تسألوني ما اسمه حبيبي.

فتحت فمي مذهولة، حورية عاشقة ولا تريد أن تُفصح عن اسم حبيبها!

لم أكن أهتم للمجلات الفنية التي تتداولها زميلاتي حتّى عرفت بقصة عشق حورية التي أحدثت ضجة حين وصلتها رسالة بالبريد المضمون على عنوان المدرسة واستدعتها المديرة للتحقيق في الأمر. امتلكت حورية الجرأة لمواجهة المديرة بأنّه ليس من حقّها أن تفتح رسالة خاصة وصلتها من صديق. المديرة أرادت معاقبة حورية لجرأتها وقلة أدبها لكنّ معلمة الرّسم تدخلت وأعطت الرّسالة لحورية وصرفتها.

خرجت حورية من غرفة الإدارة وهي ترفع الرّسالة علامة النّصر. كانت حادثة استثنائية بالنّسبة لنا جميعًا، الأمور العاطفية غير مسموح بها، والعلاقة مع الشّباب تعتبر انحطاطًا أخلاقيًا. لكنّ معلمة الرّسم السّمراء الجميلة الآتية من مدينة حمص والتي تعاملت معنا كصديقة منذ أوّل حصة، تفاهمت بأسلوبها السّلس مع المديرة وأقنعتها أنّها ستتحمّل مسؤولية الأمر.

لم تتخذ معلمة الرّسم أيّ إجراءٍ بحق حورية بل اتّخذتها صديقة! ودعتها لزيارتها، وعادت من زيارتها أكثر ثقة بنفسها وجرأة مما جعل بعض زميلاتها يفصحن هنّ الأخريات عن عواطفهن ويخرجن رسائل المعجبين إلى العلن.

كانت صدمتي كبيرة حين عرفت أنّ العاشق الذي يكتب لحورية قصائد شعر ويرسلها لها عبر أثير مونت كارلو بصوت حكمت وهبي هو نفسه الشّاب المثقف الذي أتسابق معه في النقاشات الأدبية عبر الرّسائل!

كتب لي: "انتظرتكِ".

وكتبتُ له: "انتظرتكَ".

ولم أرَ الميماس أبدًا.. تلك الأحلام الصّغيرة على بساطتها لم يسمح لي الزّمن بتحقيقها.

علاقتي بحورية ورائدة، زميلتي الدّراسة، أثّرتا في تفتح عواطفي ورغبتي القوية في خوض تجربة أستطيع أن أحكي عنها بثقة كما تفعلان. اشتهيت الحبّ، وغرقت في القراءة أكثر وكنت أثناء ذلك آتي بهؤلاء الشّباب الوسيمين إلى غرفتي ليلًا، أغلق الباب جيدًا، أطفئ الأنوار، وأندس في الفراش، وأتهيّأ لبداية علاقة من دون مقدمات كما يحصل في الواقع. فأنا لم أخترع مسرحًا أوسع من حديقة بيتنا وظلال أشجارها، وغرفتي الصّغيرة المليئة بالكتب والأحلام.. هنا زارني بول[1]، وهثيكليف[2]..

لكنّي في كلّ مرّة أجد الحبيب أقلّ من طموحي ولا يحقق لي ما أحلم به فنفترق أحيانًا بألم وأحيانًا ببساطة ومن دون اهتمام، وأستعيض عنه بحبيب آخر ما ألبث أن أتركه لغيره. أحلام اليقظة التي كنت أغذيها بمخيلتي المتوقدة دائمًا لم تعد ترضيني، صرت أطمح لعلاقة حقيقية مع شاب من لحم ودم، ألقاه سرًّا فيعانقني وأقبّله وأبكي على كتفه. لا أفهم لماذا كان عليّ أن أبكي على كتف الحبيب في الحديقة ليلًا! الصّورة المثالية في ذهني لعلاقة الحبّ. السّنة الدّراسية مرّت ولم أجد حبيبًا ينتظرني أمام باب المدرسة ليدس في يدي ورقة مكتوبة يطلب فيها أن أسمح له بلقاء بعيد عن أنظار صديقاتي وأهلي.. وجاء الصّيف، وكانت لذتي الوحيدة معاناة ألم المعدة والقراءة، هذا الصّيف اقتنع أبي بأن أذهب إلى مركز الاتحاد النّسائي لأعمل دورة آلة كاتبة وكان المبنى البعيد عن بيتنا فرصة التّنفس الوحيدة لي، البيت

---

(1) بطل رواية تحت ظلال الزيزفون، ترجمة مصطفى لطفي المنفلوطي "بول وفرجيني".

(2) بطل رواية جين إير "مرتفعات وذرينج".

العربي القديم بغرفه الجميلة الواسعة والمكتبة المتاحة أمامنا.. اكتشفت كنزًا خفيًا في مكتبة الاتحاد! دواوين نزار قباني، وروايات إحسان عبد القدوس!

المتعة المضاعفة التي شعرت بها وأنا أقرأ الرّوايات كانت بسبب إحساسي بأنّي أقوم بفعل حر وإن كان بطريقة غير مشروعة بالنّسبة للآخرين، أقصد أبي وأمّي.. لكنّ إحساسي بالحريّة لم يكن صافيًا كان مقترنًا بالخوف والحذر واللصوصية، هيمن عليّ إحساس أنّي أسرق ما دمت أخاف أن أقوم بالفعل علانية. طالت أوقات جلوسي على الدّرج المؤدي إلى السّطح، تعلّمت أن أقرأ بسرعة كبيرة مصحوبة بالحذر والتّوتر، فصرت أنهي الرّواية في زمن قياسي وأخبئها في "النّملية" الموجودة على فسحة الدّرج، ثمّ أتصل بحورية لتأتي وتأخذها كي أنام بهدوء!

رغبتي في علاقة عاطفية لم تتحقق جعلتني أكتب عن علاقات محتملة مع الآخرين، علاقات أعيشها على الورق على أنّها حقيقة استطعت أن أقنع زميلاتي في المدرسة بحدوثها، لكنّ المشكلة إلحاحهن في معرفة أسماء أصحاب تلك العلاقات، ولم يكن في جعبتي اسم أستطيع تحميله وزر رغبات مخيلتي. فصرت أحرّض زميلاتي على عيش علاقات حقيقية بأن أوحي لهنّ بميل شاب معين إلى إحداهن، وادّعيت مرّة أنّ شابًا قال لي إنّه معجب بحورية، وكان عليّ بعد هذه الورطة أن أسير بالرّواية إلى نهايتها فقابلته وادّعيت أنّ صديقتي أرسلت له معي رواية "لا أنام". قصة الحبّ تلك التي خلقتها مخيلتي وحوّلتها إلى واقع لم تستمرّ بل فشلت فشلًا ذريعًا إذ سرعان ما اكتشف كلاهما أنّه لا يحبّ الآخر وأنّني السّبب في تلك الورطة!

ارتحت حين لم يلمني أحدهما على ما فعلت بل اعتبرا الأمر تجربة فاشلة وسوء فهم. واختار الشّاب فتاة أخرى واختارت هي شابًا آخر وبقيت أراقب قصص الحبّ ولا أعيشها حتّى جاء الصّيف!

* * *

عدت إلى سباقي اليومي مع نفسي لتحطيم الرّقم القياسي في القراءة، ساعدني على ذلك موسم الصّيف الحار، نهاره الطّويل والكسل.

أجمل ما في الصّيف روائحه المميزة، الرّوائح الفاضحة، حين تدخل البيت تهاجمك رائحة الجبس والبطيخ والعنب والعجور[1] والكندور، رائحة الطّبخ الذي لم تصبه التّوابل في مقتل!

تسلّلت إلى السّطح، وكان الباب الحديدي مواربًا. لم تنسَ أمّي إغلاقه، لكنّ يديها كانتا مشغولتين بحمل الصّواني الفارغة والأوعية المختلفة الأحجام والأشكال، قبل أن تهبط الدرج، دفعته بقدمها فانغلق وبقي القفل يتأرجح للحظات. كنت أهبط خلفها بتلكؤ وأفكّر بالعودة ثانية إلى السّطح لكنّ المساء أرسل جزءًا من العتمة التي غمرت قلبي بشيء من الخوف.. لم تستطع أمّي النّهوض بعد أن اصطدمت الصّواني الفارغة بالنّملية التي تأخذ نصف مساحة قرص الدّرج الأوّل وجعلتها تفقد توازنها وتقع. كانت ليلة كئيبة سمعت فيها أنين أمّي أكثر من مرّة وتأوهاتها وهي تحاول النّهوض والذّهاب إلى الحمّام، مع هذا نمت بعمق! ورأيتني في الحلم أصعد إلى السّطح في وضح النّهار وأنشر ملابس ملونة على الحبل كنت أدرك أنّها ليست ملابسنا، وفجأة تتلوّن السّماء بلون رمادي غامق تمنع عني رؤية الجبل، وأشعر أنّ الأمطار الغزيرة تغسلني، وتغيب الشّمس تمامًا فأسرع إلى صواني المربى المغطاة بشاش أبيض أحملها واحدة بعد الأخرى إلى فسحة الدّرج الأولى "كنّا نطلق عليها اسم "بيت الدرج" التي يعلوها سقف واطئ، كثيرًا ما كنت أتسلقه لأختفي عن عيون أهلي وهم يبحثون عني من دون جدوى.

---

(1) الجَبَس: البطيخ الأحمر. العجور: التسمية المحلية للقثاء، الكندور طعمه أقرب للقثاء والخيار أحلى قليلًا، يتراوح حجمه بين حبة البرتقال الصغيرة والبطيخ، أخضر اللون ومحزز.

أرمق الليل النّهاري العجيب من بيت الدّرج، لا يستمرّ الأمر طويلًا، يظهر بعدها قوس قزح، وتتسلّل الشّمس على استحياء، ثمّ تنير السّماء بأكملها ويتوقف المطر.. حتّى تلك اللحظة كان الشّارع خاليًا ثمّ امتلأ بالنّاس.. ورأيته!

كان مثيرًا وشهيًا كصحن الفستق الحلبي الذي انتقيت حبّاته من كلّ الصّواني التي رصفتها أمّي على السّطح لتجفّ قبل أن تضعها في أكياس القماش وتخبئها في سقيفة المونة.

كنت أحرص على تسوية سطح الصّواني بعد عملية الغزو آملة ألا تكتشف أمّي أمر النّقص، لكنّ تكرار العملية لا ينفع معه التّسوية فبعد أسبوعين بات جليًا أنّ أحدًا ما قد غزا الفستق ونهبه ولم تشكّ أمّي في الطّيور لكنّها برّأت ساحتي كما تفعل دائمًا!

في الحلم لم تعرف أمّي أنّ الفستق قد نقص كما لم أعرف معنى تلك الظّاهرة إلاّ حين حدثت في منتصف السبعينيات خارج الحلم وفهمت حينها أنّ الشّمس تخجل وتتوارى في ظاهرة تسمى الكسوف، الظّاهرة التي تتميّز بها الفتيات حين يكلّلهنّ الخجل من شيء ما، في الغالب يكون الحبّ!

جاء أخيرًا، اسمه الغريب جعل قلبي يخفق.. "ميّاس" قال وهو يحدّق فيّ بوقاحة وأضاف: "املئي لي الإبريق ماء، انقطعت الماء عندنا". لم يكن صحيحًا ما قاله، تواطأت معه، ملأت الإبريق وناولته إياه، سألني عن اسمي، لم أرد، أغلقت الباب ودخلت. من نافذة المطبخ المطلّة على بيت الجيران راقبته، ضيف أتى من دمشق، تخيّلت أنّ الدّمشقي سيكون مختلفًا تمامًا، رآني من حيث يقف في الحديقة، ابتسم ورمى لي علبة "شكليس" التقطتها، شكرته، وأغلقت النّافذة. كان عليّ أن أسيطر على دقات قلبي في تلك اللحظات.

لم يكن ما حدث حبًّا أو ربّما كان من طرفي فقط، أمّا هو فقد كان غرضه مني لا يحتمل الشكّ بعد تلك الليلة التي تسلّق فيها سور بيتنا ورمى لي حصاة على

النّافذة وحين فتحتها مذعورة أومأ لي لأنزل إلى الحديقة؛ نزلت يدفعني خوفي، ولأوّل مرّة أكتشف أنّ الحماقة والخوف والجرأة والشّجاعة سميات ملتبسة. اعتبر نزولي شجاعة وفي الواقع كان خوفًا من استيقاظ أبي واكتشافه لوجوده في الحديقة، واعتبر انقيادي له واستسلامي لذراعيه موافقة مني على امتلاكه لجسدي. تسلّل صوت عبد الحليم إلى سمعي من راديو الترانزستور "قدّك الميّاس يا عمري" أطرقت رأسي وتأملت أصابع قدمي، كان قلبي يرتعش، ما الذي حدث؟

في الواقع كنت خائفة ومرتبكة وحمقاء إلى حدٍّ لم أستطع تصديقه حين أصبح بيني وبين الحدث مسافة زمنية كافية لأخرج منه وأراه بوضوح.

* * *

أخبرت حورية بما حدث، أردت أخذ رأيها؛ لأنّها صاحبة تجربة وتعرف أكثر مني "ما هو الحبّ" لكنّ حورية جاءتني بطلب أطاح بالحديث الذي رتبته في مخيلتي الليلة الماضية وكرّرته في الصّباح، وراجعت العبارات المؤثرة التي حفظتها من الرّوايات.. انشغال حورية منعها من التّعليق بكلمة حول ما قلته لها عن "ميّاس"

حورية لا تعرف صياغة الجملة باللغة العربية بشكل جيد مع أنّها عاشت في بلدتنا منذ طفولتها، ودرسنا معًا في المرحلة الابتدائية وما زالت تواجه صعوبة في الكتابة.

طلبت مني أن أكتب لها رسالة لأحمد.. قلت لها إنّ كتابتي للرسالة لن تنقل مشاعرها هي بل مشاعري أنا، ألحت عليّ فقبلت..

كانت أوّل رسالة حبّ أكتبها، سهرت طيلة الليل وأنا أتخيّل أحمد ذاك الذي ادّعت حورية أنّه ابن عمها ويحبّها وسيتقدم لطلب يدها. مع ذلك استعنت بروايات إحسان عبد القدوس وأشعار نزار حتّى استطعت كتابة الرّسالة.

في اليوم الثّاني أثناء تحيّة العلم دسستها بيد حورية التي خبّأتها في طيات ملابسها الدّاخلية.

لم تكن حورية سعيدة، شكت لي أنّ أحمد لم يرد على رسالتها، كانت تنتظر أن يصلها الردّ حارًا ومليئًا بكلمات العشق والغزل لتتباهى أمام زميلاتها. لم تيأس حورية كانت تراسل أحمد بالأغاني عبر أثير إذاعة دمشق في برنامج "ما يطلبه المستمعون". لكنّ أحمد لم يبادلها الإهداء يومًا.

في رمضان من بداية العام الدّراسي غابت حورية عن المدرسة وطال غيابها أسبوعًا كاملًا مما أقلقنا فاتفقنا على زيارتها.. فتحت لنا الباب وهي ترتدي ملابس سوداء، عيناها متورمتان ولون بشرتها شاحب! صرخت حين رأتنا: "مات أحمد". وانخرطت بالبكاء، تخيّلت لدقائق أنّ أحمد قُتل في الحرب، ظلُّ السّواد في البيت كان خانقًا، السّتائر مغلقة والعتمة سائدة وفناجين القهوة متناثرة على الطّاولات الصّغيرة، فوضى لا تُطاق وصوت أم كلثوم ينطلق من مسجل صغير تغني "حطيت على القلب إيدي وأنا بودع وحيدي".

لم يكن سهلًا علينا إيجاد الكلمات المناسبة لنعزي حورية بالفقد العظيم، حورية العاشقة التي أقسمت في لحظة ألم أنّها ستبقى مخلصة لأحمد حتّى تلحق به.

لم يستشهد أحمد بالحرب، أخبرتنا حورية أنّه سُرِّح من سلاح الطّيران قبل أن يُنفّذ طلعة واحدة، ولم تعرف السّبب وأنّه كان يقود دراجته النّارية بجنون واصطدم بسيارة نقل كبيرة أطاحت به إلى مسافة بعيدة، لم تستطع حورية رؤيته فقد منعت أمّه النّاس من تعزيتها أو الدّخول إلى بيتها. الهمسات بين الطالبات في صباح اليوم التّالي في المدرسة تناولت السرّ الذي أخفته حورية، لم يكن أحمد ابن عمها بل لم يكن لها عم يسكن في الحيرانة، وأحمد ابن الجيران يحبّ قريبة له وخطبها قبل أيام من الحادث الأليم!

* * *

الاجتماع الرّابع كان في بيت فضّة العرموطية

لم ترتح فضّة لأمر الاجتماعات وكانت تفضّل العمل على انفراد ولا تحبّ كشف أوراقها أمام أحد لكنّها أوامر العقيد..

اختيارها العيش في الحيرانة بسبب وجود صديقاتها اللواتي سبقنها وقدّمن لها المساعدة للبدء بحياة جديدة وحرّة.

روّجت وهيبة وبدرية لفضة منذ وطئت قدماها الحيرانة بدعوتها إلى الحمّام، ودعوتها إلى الأعراس وتعريف النّاس إليها بصفتها شيخة تعالج بالأعشاب، وتساعدن على استئجار دكان عطارة صغير لها، لكنّ سمعة فضة "كبصّارة" طغت على التّطبيب بالأعشاب، فقصدتها النّساء لتقرأ لهنّ المستقبل في قعر فناجين القهوة، وفي الودع.

طار صيت فضة بعد حادثة شفاء الرّجل الغريب الذي جاءها محمولًا على نقّالة وخرج ماشيًا على قدميه.

الرّجل الذي جاء به أقاربه للعلاج عند الشّيخة فضة كان فاقدًا النّطق ولا يستطيع الحركة، أدخلوه إلى غرفة العلاج وتركوه مع الشّيخة وحده.

كانت فضة في تلك اللحظات تشعر أنّها داخل فخ أحكمت أنيابه الحديدية على عنقها، تدرك جيدًا أنّ فشلها في علاج الرّجل يعني القضاء على مستقبلها في المهنة. سألت مرافقيه عمّا حدث، فأخبروها أنّهم وجدوه في البرية ليلًا مرميًا على الأرض على هذه الحالة.

فضة ابنة الخلاء العظيم تعرف غدر الطّقس والفزع الذي تبثه الرّيح ليلًا في نفوس البشر حين تحرّك ظلال الأشياء وتنفخ فيها فتصدر أصواتًا مريبة قد توقف القلوب الضّعيفة.

خطر للشيخة فضة أنّ أفضل طريقة لمعالجة آثار الرّعب بإثارة رعب أكبر، الموت هو أكثر ما يخافه البشر، أحضرت الشّيخة "عشر" بطانيات من الصّوف

وعددًا من الوسائد المحشوة بالقطن. غطّت جسد الرّجل بأوّل بطانية لفّتها حوله جيدًا، ثمّ دفعت بالباقي تباعًا ووضعت الوسائد فوقها. أصبح الرّجل تحت ثقل كبير، شعر خلال لحظات بالدّفء، وبدأ الدّم يحرّك خلايا جلده المتيبس، كانت فضة خلالها تتلو تراتيل غريبة وتصدر همهمات وأصوات سمعها الرّجال في الخارج ولم يجرؤ أحدهم على التّلصص من ثقب الباب.

ثمّ سمعوا صرخة رهيبة، واندفع قريبهم خارجًا من الغرفة والشّيخة فضة وراءه، قالت بكلّ ثقة وهدوء: "الحمد لله على سلامته".

لم يفكّر أحد بالآلية التي شفي بها المريض.. كانت سلامته أهم وإن تناقل الكثيرون شائعات عمّا فعلته فضة تلك الليلة الباردة، وأنّها كانت مجرد صدفة أنقذت حياة الرّجل، شعوره بالاختناق جعله يتحرّك ويدفع الأغطية عنه وينهض.

الذين آمنوا بمقدرة فضة على معرفة الغيب وشفاء الكثير من الأمراض المستعصية روجوا لها وطار صيتها إلى البلاد البعيدة، والذين لم يقتنعوا بمقدرتها واعتبروا ما تقوم به مجرد شعوذة لم يستطيعوا إنكار معرفتها بعلم الأعشاب وذكائها الفطري الذي ساعد على شفاء الرّجل.

الحدث الأكبر الذي غيّر مسار حياة فضة طلب أحد زعماء جبال السّاحل إحضارها إليه لعلاجه.

لم تكن فضّة تخاف الغرباء ولم تخشَ الخوض في ما لا تعرفه فقد اعتمدت على الأقدار في إنقاذها من الورطات الكبيرة، ومع هذا انقبض قلبها حين وصلت إلى القرية المنعزلة في قمة جبل يستطيع النّاظر رؤية البحر منه بوضوح.

لم تعرف اسم القرية مع أنّها بقيت سجينة هناك ما يزيد على ستة أشهر، حبسها أصحاب البيت بحجة استضافتها ريثما يشفى عميد أسرتهم.. لكنّ فضة فهمت أنّ العقاب ينتظرها إن لم تستطع شفاء مريضهم.

كانت تلقى معاملة حسنة من النّساء، فطلبت منهن أن يساعدنها في العودة إلى بلدتها. لكنّهنّ لم يجرؤن على القيام بذلك.

جاءت ابنة المريض التي تعمل في بيروت بعد أسبوع وأقنعت والدها بالذّهاب إلى طبيب هناك للعلاج وافق على شرط أن ترافقه فضّة!

* * *

أوّل شيء فعلته فضّة، بعد عودتها من بيروت استأجرت منزلًا واسعًا على طريق الجبل في الأحياء الجديدة، ووضعت لافتة كبيرة على الباب "الشّيخة فضة، علاج بالطّب البديل". اللافتة لم تشر إلى الأعمال الأخرى التي تمارسها فضة إلى جانب التّطبيب بالأعشاب.

توافد النّاس من الحيرانة إلى منزل فضة يدفعهم الفضول أولًا لمعرفة قصة غيابها عن البلدة لعدّة سنوات، لم تبح فضة بأيّ شيء عن فترة غيابها وتركت لمخيلة النّاس نسج الحكايات ونشر الشّائعات، كانت تضحك في سرّها بسبب الغموض الذي يلف حكاياتها والتّفسيرات الغريبة التي تسمعها. لكنّ بدريّة نصحتها بإيقاف تلك الشّائعات والإعلان عن نسب ابنها.

همدت الحكايات مع بقاء بعض الأسئلة والشّكوك يتداولها النّاس في الخفاء بانتظار تفسير مقنع. بعد أن نشرت بدرية قصة زواج فضّة من رجل غني في بيروت وعودتها بسبب وفاته!

في نهاية الاجتماع قالت وهيبة:

- ما رأيكن أن أحجز لكنّ الحمّام الخميس القادم ويكون اجتماعنا على كبة نية وتبولة مطبوخة وكشري بدل المجدرة؟

لاقى الاقتراح ترحيبًا استثنائيًا خاصة حين أضافت عليه أنّها ستحضر العوّادة أم حسين ليجعلنها سهرة حتّى الصّباح.

* * *

وهيبة العايقة

سِفْر القلوب

سكّان الحيرانة لم يستطيعوا معرفة شيء عن وهيبة العايقة، التي وجدوها فجأة عاملة في حمّام السّوق على الرّغم من فضولهم الشّديد ونبذهم لأيّ غريب وبحثهم الدّائم في الدّفاتر العتيقة، لكنّهم لم يجدوا دفترًا لوهيبة يقرؤون فيه أسفار ماضيها فاخترعوا لها ماضيًا يرضيهم ويجعلها مقبولة في مجتمعهم خاصة بعد أنّ اكتسبت - وبمدة وجيزة - مودّة النّساء ومحبتهن وصارت صندوق أسرارهن الأسود الذي لا تفوح منه سوى رائحة صابون الغار والدريرة والمسكة والتّرابة الحلبية، رائحة النّظافة التي يعشقنها ويحرصن عليها داخل منازلهنّ وخارجها. لذا وجدت وهيبة طريقها إلى بيوت الحيرانة بأقلّ زمن قد يستغرقه الغريب لدخول بيوتها.

فتحت الأبواب والقلوب وتربعت فيها!

الجزء الحقيقي من حياة وهيبة هو ما اتفق سكّان البلدة على روايته حين أشاعت "زهريّة" الفتاة العاملة عند بدرية الخيّاطة" أنّ معلمتها استقبلت سيّدة مصرية جاءت من حلب وستقيم عندها وقد وجدت لها عملًا في حمّام السّوق.

ذلك الخميس غصّ الحمّام بنساء البلدة اللواتي دفعهن الفضول لرؤية الغريبة التي وصفتها زهريّة بأوصاف مريبة بدءًا بلهجتها وانتهاءً بضحكتها.

يومها كنت في التّاسعة من عمري، ذهبت إلى الحمّام برفقة عمتي، في البراني كانت الأمور عادية، المصاطب والنّساء اللواتي لففن أجسادهنّ بالمآزر، أبخرة الشّاي، أَسِرّة الأطفال الرُّضع الذين تقوم على الاهتمام بهم سيّدة عجوز تدعى "حنّة الهزازة"، الماشطات والبقج وروائح البيلون وصابون الغار..

في الجواني تركتني عمتي ليدي وهيبة.. لهجتها المصرية المحببة كانت طاغية على الرّغم من محاولتها التّحدث بلهجة أهل البلد.

لم تكن وهيبة المصرية الوحيدة في البلدة، قبلها جاءت سميحة زوجة سائق الشّاحنة وسعدية زوجة النّاجي بائع الخضرة في سوق الهال. لكنّهنّ لم يتصاحبن، وكنّ من بلدات مختلفة، سميحة تقول إنّها من القاهرة، وسعدية من الفيوم، لكنّ أصل وهيبة بقي غامضًا ولم تبح به لأحد.

- أوّل مرّة تأتين للحمّام؟

هززت رأسي بالتّأكيد.. تابعت وهيبة فرك ظهري بالكيس الأسود وهي تدندن "نَفْنَفْ الغربي نَفْنَف ع الشايلين المضّعف[1]، وآني مضيّع محبوبي بصوت محمد يللي شاف".

ابتسمت:

- تتقنين لهجتنا أكثر منا يا وهيبة، حلوة الأغنية منك.

ضحكت وهيبة:

- من عاشر القوم أربعين يوم صار منهم وفيهم.. مش كده؟

نهضت وهيبة وصاحت: "ع المشاط"[2]. قُطعت الماء عن الأجران، تلاشى صوت الماء وخفّت كثافة البخار، أصوات طاسات النّحاس أصبحت ناعمة وبعيدة وعلا صوت وهيبة، تغلغل بين الجدران والأبواب والنّوافذ العالية للحمّام محاولًا الطّيران بعيدًا والتّحليق فوق البساتين ليصل حقول البرتقال حيث ينتظرها حمدي.. تراه بأم عينها يقترب، يصبح ضمن هالة الضّوء المتسرب من العيون الزّجاجية الملونة في السّقف العالي، يحيط البخار بجسده، يخلع جلابيته ويتقدّم منها، تنهض وهيبة، تسير إليه كما في حلم، يضمُّها، ويسقطان داخل البركة..

النّساء في الجواني يصرخن..

---

(1) المضعف، من أنواع النّرجس، الأغنية من التّراث الشّعبي في ريف إدلب.

(2) العبارة تعني أخذ استراحة.

لا تعي وهيبة من تلك الأصوات سوى موسيقا تضرب جدران قلبها ويدا حمدي تسحبانها برفق تحت الماء، ينفلت مئزرها، تغمض عينيها وتشعر به... تمامًا كأوّل مرّة اقترب منها وسط حقول الذّرة.. تشرق بالماء.. تشعر بأيادٍ كثيرة تسحب جسدها، تمدّده على البلاط السّاخن.. تشعر بأنفاس حمدي قرب أذنيها، لا تريد أن تستيقظ، ترفض سماع ذلك الصّوت الرّفيع الذي يكاد يثقب أذنها "وهيبة، افتحي عينيك، كدت تموتين يا مجنونة" تعرف أنّه صوت بدريّة، تسمع صوت فضة، صوت حلوة... ويأتيها صوتٌ عميق صارم، إنّها لحلوحة تأمرها: "كفاكِ دلالًا، انهضي وأكملي عملك".

تنهض وهيبة، تدرك جيدًا وهي تفتح عينيها أنّها سارت وراء الحلم طويلًا حتّى كاد يهلكها، تدرك أنّها يجب أن تصحو وتنسى حمدي بل عليها نسفه من حياتها نهائيًا.

هذا المشهد حكته لي وهيبة بعد لقائنا الأوّل بسنوات طويلة حين ذكّرتها كيف وقعت في بركة الحمّام وضحكتُ.. لمحت في عينها دمعة مسحتها بسرعة وغيّرت الحديث.

بعد مضي أشهر على وجود وهيبة في الحيرانة تقدّم لخطبتها أكثر من شخص وقرّرت أن تتزوج... أقنعتها بدرية:

- في حلب أنتِ غريبة ولحلوحة لن تدوم لكِ، مرضها يتفاقم، ابقي هنا، تحت يدي عريس، ربّما نصبح سلايف.

عرض بدرية لم يكن سيئًا، ربّما يكون الحل المناسب ويمنحها الاستقرار بعيدًا عن حلب التي لم تمنحها الأمان يومًا ولم تتآلف معها طيلة السّنوات الثلاث الماضية.

في الصّباح الأوّل لعملها في الحمّام اعترض طريقها الحمار وأوقفها على بعد أمتار بانتظار خروج صاحبه من القميم، بضع دقائق شعرت أنّها دهر مرّت قبل أن

يخرج سعيد أبو العظام من قميم الحمّام ليجد وهيبة واقفة بعيدًا بانتظار أن يبعد حماره عن الطّريق لتستطيع المرور في الزّقاق الضيّق. ابتسم معتذرًا وسحب حماره:

- تفضلي يا ستنا، أنا آسف والله عني وعن الحمار.

ضحكت وهيبة وهي تخطو بدلال.. دخلت الحمّام من بابه الواسع في الطّرف الشّرقي.

راقبها سعيد أبو العظام وقلبه يرتجف:

- يا أرض احفظي ما عليكِ.

قبل أن يراها كانت سيرتها على ألسنة نساء عائلته وخاصة زوجة أخيه التي غمزته أكثر من مرّة وهي تتحدّث عنها وتتمنّى لو تكون من نصيبه. أيعقل أن ترضى امرأة بهذا الجمال بالزّواج من رجل مثله؟

بدرية وعدته بإقناع وهيبة، ولم يمضِ سوى شهر حتّى تمّت خطبة وهيبة وزواجها.

السّرعة التي تمّ فيها كلّ شيء أثارت ريبة صالحة التي وقفت على الحياد، كان جمال وهيبة هو ما يدهشها ويجعلها تتساءل إن كانت رضيت بالزّواج من ابنها على عيوبه لأنّها تريد السّترة حقًّا، أم أنّ هناك "إنّ"؟

* * *

بدريّة الخيّاطة

اضطرت بدرية للاعتذار من زبائنها يوم الخميس الخاص بالاجتماعات وصار يوم عطلتها الرّسمية.

ما يعرفه سكّان الحيرانة عن بدريّة لا يكاد يتعدى قصة زواجها وطلاقها وهربها من زوجها ولجوئها إلى الحيرانة بمحض الصّدفة.

(... أخيرًا توقفت شاحنة بجانب الطّريق ونزل سائقها، انحنى وساعدها على الوقوف، كان وجهها معفّرًا بالتّراب، وملابسها شبه ممزّقة وقد أضاعت فردة حذائها. ساعدها في الصّعود إلى الشّاحنة وناولها قنينة ماء، منظرها المثير للشفقة لم يترك للسّائق فرصة للتردد في السّير صوب الحيرانة، لم يشأ أن يسألها من أين أتت وإلى أين.

في بيته أمر زوجته أن تعتني بالغريبة.. في الصّباح التّالي استأذنها في السّؤال عن أحوالها وإن كانت ترغب أن يوصلها إلى أيّ مكان. قبل أن يكمل كلامه أوقفت الدّهشة كلماته في حلقه. لقد انقلب شكل بدرية بعد أن استحمت ولبست ثوبًا جديدًا من أثواب زوجته. تلعثم قليلًا وخفض بصره، وقال:

- أنت أختي بعهد الله، لكِ حمايتي إن رغبتِ في البقاء هنا، وسنجد لكِ بيتًا يخصك ونفرشه أيضًا. كوني مطمئنة.

ارتبكت بدريّة، لم تتوقع ذلك الكرم والمروءة، لم تكن تستحق كلّ هذه الرّعاية بعد ما فعلته. شكرت أبا محسن السّائق وزوجته وأخبرته أنّها مقطوعة من شجرة ولا تريد غير السّترة.

استأجر أبو محسن بيتًا صغيرًا في بناء قريب وفرشه بأثاث بسيط وانتقلت إليه بدريّة. وكي لا تكون عالة على أحد اقترح أبو محسن أن يشتري لها ماكينة خياطة تعمل عليها بعد أن تضع حملها بالسّلامة، وتعيد ثمنها إليه بالتّقسيط. وافقت بدريّة على الاقتراح.. وعلّق أبو محسن لافتة على باب بيتها "منزل بدريّة الخيّاطة"

زوجة أبي محسن كانت فضولية وشكّاكة لم تترك بدريّة وشأنها حتّى حكت لها قصتها، كانت تريد أن تطمئن إلى نظافة المرأة التي تسكن بيتها كما تريد إسكات هواجسها وظنونها التي بدأت تنخر قلبها وتحدّثها أنّ وراء المرأة سرًّا خطيرًا.. بالطّبع كانت بدريّة أذكى من أن تبوح بالحقيقة لشخص لا تعرفه وإن كانت مدينة له.

الحقيقة التي أخفتها بدريّة سطعت أمامها فجأة وهي تتناول الجريدة من يد زهريّة.

ارتعشت يدها ووقع فنجان القهوة ملوثًا ثوب الزّبونة المفرود على طاولة القص. نادت إحدى البنات بذعر:

- بسرعة اغسلي القماش، الخانم ستقاضينا من أجله وإن لم تفعل ستأخذ ثمنه كاملًا.

ابتسمت نجمة أكبر البنات اللواتي يتعلّمن الخياطة عندها:

- بالنّاقص معلمتي، خليها تروح ولا ترجع، الله لا يردها، بوزها على طول شبرين وما بيعجبها العجب ولا الصّيام برجب. شايفة حالها زوجها قاضي وكلّ ما نط لسانها بحلقها بتهدد النّاس بالحبس.

لم ترد بدريّة، لم يكن ما قصف ساقيها تلك اللحظة وأقعدها أرضًا ثوب الخانم، كان آخر همها ما سيؤول إليه، عيناها تابعتا الصّورة في الجريدة القديمة التي لفّت بها سروال أحد الزّبائن، فتحتها ثانية وقرأت الخبر "مقتل عائلة بأكملها في حي "الدّرب الأحمر" بعد نشوب حريق تسبّب فيه ابنهم المعاق" الصّورة كانت لـ "قدري فرج الله" وقد أتى الحريق على معظم جسده.. أمّا الطّفل المعاق فقد تفحّم تمامًا، ولم تنشر الجريدة صور النّساء، ذكرت أنهنّ اثنتان في الغالب!

أعطت أوامر سريعة للبنات ودخلت غرفتها، ارتمت على السّرير وصارت ترتجف، لم تستطع البكاء، هاجمتها أشباحٌ خرجت إليها من الجدران محاولة خنقها ورأت ألسنة النّار تلتهم جسدها.

نهضت من فراشها بعد أيام وهي تشعر أنّ جسدها قد سحق بآلة حادة، أخبرتها حسنية التي بقيت بجانبها أنّها كانت تعاني من الحمى، لم يصدق أحد أن تنجو من الموت:

- الحمد لله على سلامتك.

طلبت منها أن تحضر لها ابنها، ضمّته إلى صدرها وبكت بحرقة. غادرت حسنية الغرفة وأحضرت لها كأس بابونج ساخن:

- تبخري به واشربيه، سامحك الله.

حسنية الصّندوق الأسود الذي ابتلع أسرارًا لا تحتملها جبال، الوحيدة التي عرفت السّبب في مرض بدرية وكانت تخشى أن تفارق الحياة ولا يكون أمامها فرصة للتوبة من آثامها التي لا تُحصى.

كانت بدرية طيلة أيام الحمى تهذي بما حدث وحسنية تحاول إبعاد كلّ من يسأل عنها كي لا يصل ما تهذي به أسماع البنات وينتشر في البلدة.

* * *

... كان القمر بدرًا يرسل نوره الفاضح ليكشف الأسطح النّائمة على أكتاف الجيرة والأمان والثّقة المتبادلة بين سكّان البيوت. صعدت الدّرج بحذر، كانت تخشى أن يفضحها ظلّها، التصقت بالجدار وزحفت حتّى حافة السّور الفاصل بين البيتين، رمت شجرة الكبّاد بحصى صغيرة، صعد سمير بخفة خلال دقيقة كان يلهث قريبًا منها، احتضنها بقوة، أبعدته برفق:

- أنا حامل، سأطلب الطّلاق من قدري، عليكَ أن تجد صيغة حل مع أهلك أو تتزوجني عرفي لأجل ابنك.

كتم سمير صوتها بقبضة يده القوية وشدّ جسدها إليه:

- لا تتفوهي بسخافات وتضيعي الوقت، مشتاق إليكِ، منذ أسبوع وأنا أنتظر هذه اللحظة وأنت تتدللين وتخبرينني بما يزعجني.

أبعدت بدريّة يديه عن نهديها بشراسة، وقالت بعصبية:

- أنا لا أتفوه بسخافات، أقول الحقيقة، أنا حامل، وأنت تعرف أنّ زوجي لم يقترب مني طيلة سنة من زواجنا.

جلس سمير على حافة السّور، أشعل سيجارة، نفخ دخانها بقوة، والتفت إلى بدريّة:

- أنت تعرفين أنّي لا أفكّر بالزّواج، وحين أقرّر سأتزوج فتاة شريفة لا تبيع عرضها، ثمّ ما أدراني أنّ الولد الذي تحملينه مني؟

بصقت بدريّة في وجهه وركضت مبتعدة.. لم تعد تهمها الظلّال، صار أمر الفضيحة واقعًا، قدري لم ينم معها ولا مرّة، عجزه الكامل عن ممارسة الجنس معها أراحها في البداية، كانت تريد زوجًا ولو بالاسم، وواجهة اجتماعية تحميها وتؤمن لها السّترة!

ضحكت من خاطر السّترة المنشودة، لم تستطع بعد مضي شهرين على زواجها أن تمنع نفسها من التّطلع إلى علاقة مع أيّ رجل، رجل قوي يستطيع تلبية رغباتها الجسدية، لا تريد أمانًا ولا بيتًا ولا سترة... وصار عليها أن ترضى بظلّ رجل! دفعت كلّ ما تملكه للدّلالة "أم عبدو" كي تجد لها عريسًا.. لم يكن رجلًا بل فخًا أوقعتها فيه، هي على يقين أنّ الخاطبة الدّلالة أم عبدو الحلبية تعرف أنّ قدري عاجز جنسيًا ولم يقترب من فراش زوجته الأولى. وعلى يقين أيضًا أنّ أم عبدو يسّرت هذا الزّواج لغاية في نفسها وزيّنت لحماتها الموافقة عليه مدّعية أنّها مطلقة ولا أهل لها وتطلب السّترة فقط وليس لها أيّ أطماع ماديّة، همست بأذن حماتها: "لن تجدي عروسًا ترضى به ببلاش، كلّهن يطلبن مبالغ كبيرة مؤخر ومقدم ومْليك وكسوة بدن، هذه لن تكلفك قرشًا، ومجرّبة خيت، بكرة بترقصه على أصابيعها ويشهر بتكون حامل مو متل بنت أختك!".

تشنج جسد بدريّة، جلست على الدّرج تمسح دموعها وتخفي شهقاتها. أحسّت بحركة مريبة في أرض الدّار، حدّقت جيدًا، رأته هناك تحت شجرة الليمون يحاول الاختباء. نزلت بهدوء واقتربت منه، سألته:

- لماذا أنت هنا؟ الجوّ بارد، ارجع إلى فراشك.

كان يرتجف، همس باضطراب:

- سمير كلب.

انتفضت بقوة، سألته:

- ماذا تقصد؟

لم يجب، كان يرتعش. لقد رآها، تبعها حتّى السطح، رأى سمير يعريها، رآه وهو يضغط نهديها ويطرحها أرضًا، رأى كلّ شيء:

- كان يريد قتلكِ.

لمعت في رأسها الفكرة خطفًا، لم تتردد، كانت في حالة هستيرية تريد تحطيم كلّ ما حولها، أمسكته من يده ودخلت المطبخ، سألته:

- هل تعرف لعبة موقد الغاز؟ نفتحه هكذا ونشم رائحته، ثمّ نغلقه ونفتحه، سأذهب وأحضر علبة كبريت وأسخّن لك الحليب كي تشربه وتنام.

لم تكن أمّه تسمح له بالاقتراب من الموقد الذي احتفى شقيقه قدري بشرائه بأن أسال دم ديك حبشي على باب الدّار قبل أن يدخله. كان هدية لبدريّة كي لا تتعب في إشعال بابور الكاز. أمّه منعته مرارًا من مدّ يده ولمسه، لكنّ بدرية الجميلة سمحت له، هو يحبّ بدريّة، نظر في عينيها:

- سمير كلب، كان يضربك، أنا أحبّك.

ارتجف قلبها، لكن لم يكن هناك مجال للتراجع، الطّفل المنغولي سيخبر حماتها حين تصحو وسيخبر أخاه بما رآه.. لا تريد أن تفكّر بالنّتائج. لتذهب العائلة كلّها إلى الجحيم. أغلقت باب المطبخ بهدوء.. ارتدت معطفها وحملت بقجتها، فتحت باب الدّار وخرجت).

* * *

لم تسأل حسنية بدريّة عن أيّ شيء سمعته منها واكتفت بنصحها أن تنسى الماضي وتكفِّر عنه بعمل الخير! ابتسمت بدريّة وهي تتحسر:

- الخير! وماذا ينفع بعد كلّ ما جرى؟ كانت حماتي سيّدة طيبة، لا تستحق ما فعلته بها، أحيانًا أسأل نفسي لماذا أنا شريرة إلى هذا الحدّ؟ وكيف أستطيع التخلّص من هذه الخصلة، صدّقيني أنّي أريد أن أخرج من ماضيّ ولا أستطيع. أذكر كم كنت أهينها.. وكانت تصبر وتكتم غيظها، طلبت مني مرّة أن أعامل ابنها المعاق معاملة جيدة، طلبت ذلك بلهجة ناعمة استفزتني لم أكن أطيق تلك اللهجة المؤدبة في حديثها، قالت لي: (بنتي الله يرضى عليكِ أنتِ صرتِ وحدة مننا، يعني إلك في البيت متل ما إلنا وعليكِ متل ما علينا، وهاد ولد عاجز ضروري تنتبهي وأنتِ عم تتعاملي معه، لا تكسري خاطره، الله يوفقك).

لم أكلف نفسي عناء النّظر إليها، تابعت قطف حبّات الليمون، وضعتها في حرجي وقلت: "أنا إلي من الحزمة عود والباقي تشيله القرود".

أدرت ظهري ودخلت غرفتي صافقة الباب، تركتها واقفة في الفسحة السّماوية ذاهلة عمّا حولها.

من مكانه في العلية سمع قدري صوت أمّه وتوسلاتها وردّي عليها، نهض غاضبًا، رمى خرطوم النّارجيلة جانبًا وهبط الدّرج بسرعة، كنت قد وضعت الليمون في صحن الفاكهة وانحنيت لأحمل سطل الماء السّاخن من فوق المدفأة، سحب حزام بنطاله، وضربني به بعنف، اندلق السّطل فوق السّجاد، وتكورت على الأرض.. ركضت أمّه لتدافع عني (الله يرضى عليك يا ابني كلّ حية وإلها خيط[1]).

تراخت يده ورمى الحزام بغضب وغادر الغرفة محاولًا السّيطرة على أعصابه، هل يقول لأمّه السّبب الحقيقي لضربه إياي؟ لا يستطيع، لن يستطيع،

---

(1) المثل يعني عدم ظلم الرّوح الحية كي لا يحمل خطيئتها يوم القيامة.

سيحمل عاره معه إلى القبر فهو يدرك جيدًا معنى البوح بما قلته دون مواربة: (عندما تصبح رجلًا حقيقيًا يمكنك أن تحكمني).

حاول في البداية ترويضي بالعنف - كما نصحه أصدقاؤه - لكنّ الضّرب لم يؤثر بي، بالعكس كلّما أساء إليّ تنمّرت أكثر وصرت أواجهه بكلمات بذيئة ولم أعد أحترمه حتّى أمام النّاس، فاحت رائحة الخلافات بيننا بعد أن علا صوتي ذات مرّة وسمعني الجيران ووالدته الجالسة في صحن الدّار.

كان قلب أمّه فارغًا من الأسى، لم تعد تستطيع منعه من ضربي ولم تعد قادرة على تحمّل الإهانات التي تطال ابنها.. أصعب ما تتعرّض له همسات وغمزات الجارات حتّى أغلقت بابها دونهن بحجة مرضها وعدم قدرتها على استقبال أحد.. نظراتهن كالسّياط تلذع قلبها فقد مرّت سنة ولم أحمل.. ليس هذا السّبب الحقيقي لغمزهن، هي تدرك جيدًا أنّي تحدّثت أمام الجيران بأشياء لا تريد حتّى أن تفكر بإمكانية حدوثها؛ لأنّ عقلها لا يكاد يصدّق أنها حقيقة، أنا أزعم أنّ قدري لا يقربني في الفراش بسبب عجزه، وهو يدّعي أنّي عاقر.. قلبها لا يريد أن يصدّقني لكن كلّ ما يجري بيننا يدين ابنها ويبرئ ساحتي!

أعرف أنّها لم ترتح لي منذ رأتني في حمّام السّوق للمرّة الأولى بواسطة الدّلالة مع أنّي بذلت جهدي لأكون ناعمة وخجولة، لكن إحدى الجارات باحت لي بالسرّ، حماتي كانت متضايقة من منظر فمي فهي لا تحبّ الفراغ بين أسناني الأمامية وظهور لثتي أثناء الضحك! الدّلالة استطاعت إقناعها بأنّي المرأة المناسبة لابنها الذي لم ينل شهادة ولا حصل على وظيفة ولا يكاد دخله من عمله في سوق الهال يكفي مصروف البيت وأدوية شقيقه المريض!

سبق لقدري أن تزوج ابنة خالته، وطلبت الطّلاق بعد سنة ولم تذكر السّبب، جاءت أمّها لتأخذها وقالت لأختها بخجل: (متل ما دخلنا بالمعروف يا خيت،

خلينا نطلع بالمعروف، البنت والصّبي ما صار بينهم ألفة، وإن شاء الله نبقى حبايب.. وما في بيننا غير الخير).

لم تشكّ يومها أنّ قدري لم يلمس ابنة خالته، لم يخطر لها أنّ البنت صبرت سنة كاملة ولم تنبس بكلمة سوء تجرح ابن خالتها. "ليتزوج مُطلّقة عساها تعرف التّعامل معه كونها صاحبة تجربة" هذا ما أقنعتها به الدلّالة!

* * *

ناهدة خانم /الغيرة القاتلة/

مهما انقضى من الزّمن لن ينسى سكّان الحيرانة اليوم الذي انتحرت فيه زوجة حكمت آغا الأولى بعد أن ضبطته مع ناهدة خانم في غرفة الوحدة الصّحية في المدرسة. حتّى وحيدة كانت تنظر إلى ناهدة نظرة اللوم والعتب على جرأتها ولا مبالاتها اللتين تمارسهما تحت أعين التّلاميذ من دون اعتبار لمشاعر زوجته. مرّة واحدة اضطرت وحيدة لتنبيه ناهدة بعدم الانفراد بالطّبيب في غرفة الوحدة من أجل سمعة المدرسة إن كانت لا تهتم بسمعتها. ابتسمت ناهدة باستخفاف وكأنّها تذكّر وحيدة بأنّها آخر شخص يحقّ له الحديث عن السّمعة!

كان الكيل قد طفح ولم تعد رئيفة زوجة حكمت آغا تتحمّل التّلميحات التي تصرّ المعلمات في غرفة الإدارة على ثقب أذنيها بها كلّ يوم. لقد تحملت ابن عمها الطّبيب الذي تزوجته بقرار اتّخذه حكماء العائلة وكبارها؛ لأنّ والدها لم ينجب ذكرًا يحافظ على ميراث الأراضي والعقارات؛ وكي لا تذهب ثروة العائلة لرجل غريب وإن كانت رئيفة تكبر حكمت بسنوات فهذا لا يعيبها. لكن لم يسأل أحد رئيفة هل ترغب حقًّا بالزّواج من حكمت؟ لو سُئلت لعرف الجميع أنّه كان الحلم المستحيل بالنّسبة إليها، المعجزة التي حدثت فجأة ومن دون أن تسعى إليها، مع هذا لم تستطع أن تقول لحكمت ولو مرّة

واحدة بأنّها تحبّه، وكانت أقصى أمانيها لو ينظر إليها فكيف به وهو يوافق على الارتباط بها!

لم تكن علاقته بناهدة صدمتها الأولى فقد سبق وتزوج عليها أثناء دراسته في تركيا من امرأة اسطنبولية رفضت أن تأتي معه إلى الحيرانة وأرغمه والده على تطليقها.

كان قلبها يغلي كمرجل بعد سماعها ضحكة سميرة خانم وهي تقول: "أنتِ هنا وزوجك يختلي بناهدة في غرفة النّوم!" وهي التّسمية الجديدة التي أطلقتها المعلمات على غرفة الصّحة المدرسية!

لم يستغرق الأمر سوى دقائق بل لحظات، كان المشهد أصعب من تصديقه أو تفسيره، رأتها بوضوح جالسة في حضنه، يده تحيط خصرها، ثوبها انحسر عن ساقين طويلتين عاريتين حتّى الفخذين.. عيناها مغمضتان، ويداها تفكّان أزرار قميصه وهو يهم بتقبيلها!

كلّ شيء تجمّد فجأة، يده على خصرها، قبلته التي لم تصل شفتيها، ساقاها الطّويلتان المنحوتتان من العاج، وشعرها الفوضوي الذي قصّته على الموضة الفرنسية.

باحة المدرسة، الأولاد، سكنت الأصوات فجأة، وصار كلّ شيء إلى فراغ، لم ينتبه أحد لخطواتها وهي تركض مبعدة الأولاد عن طريقها بيديها، لم يفهم أحد لماذا صعدت سطح المدرسة! ولم يستوعب الطّبيب الغارق في لحظة العشق سببَ ذلك الارتطام القوي والصّراخ الذي جاء من الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفية للمدرسة. اندفع الأولاد مرتبكين ومذهولين داخل غرفة الصّحة المدرسية من دون استئذان، أحدهم حاول أن يشرح للطبيب من دون جدوى أنّ الآنسة[1] رئيفة زوجته هناك غارقة في دمها. أخيرًا دخلت إحدى المعلمات وهي تصرخ:

---

(1) لفظ آنسة في مناطقنا يطلق على المعلمة وعلى غير المتزوجة.

- بسرعة يا دكتور، أدركها.. ما زالت تتنفس.

حين وصل إلى المكان الذي استقرّ فيه جسد "رئيفة" بعد أن رمت نفسها من السّطح، نظرت إليه للحظات ثمّ أسلمت الرّوح.

تلك النّظرة كانت تلاحقه في كوابيسه وتمنع النّوم عن عينيه، كانت تصرخ: "أنت قاتل".

* * *

حاول أن ينسى، أراد ذلك بكلّ قوته، ركّز كثيرًا في العمل والقراءة، ثمّ جاءت فرصة ترشحه لمجلس الشّعب ليشغل نفسه بأمر كبير ينسيه نظرتها واتّهامها له بالقتل. هل حقًّا هو قاتل؟

أربكه التّفكير بهذا الأمر عدّة سنوات حتّى استطاع أن يلقي اللوم على ناهدة أخيرًا. هي من ورّطه بهذه العلاقة المحرّمة، هي من اندفعت وراء عواطفها ولم يكن ليوقفها شيء، كانت كالسّيل تجرف في طريقها كلّ ما يعترضه، لم تهتم لسمعتها فقد كان هدفها واضحًا "الزّواج" وفي سبيل الوصول إليه كانت على استعداد لتلويث سمعتها ما دامت ستحظى به وبأمواله ومكانته الرّفيعة في المجتمع، ابن العز والجاه، الطّبيب والسّياسي، الرّجل المكتمل الوسيم، ولا يهم إن كان متزوجًا ولديه أطفال، ستجعله يطلّق زوجته، ويرمي أولاده، ستفعل كلّ شيء للسيطرة عليه والزّواج منه. ويشار إليها على أنّها ناهدة زوجة حكمت آغا الطّبيب الثّري ابن العائلة.

وهو رجل ضعيف أمام المرأة، برّر لنفسه ما فعله بأنّه كان تحت ضغط أنوثتها الطّاغية وسعيها الدّائم لوضعه أمام الأمر الواقع.

ربّما أخطأ حين استمع لأخيه بأن يقدّم ترشحه باسم الجبهة الوطنية التّقدمية، فسقط في الانتخابات. سقوطه المدوي أدخله دوامة الاكتئاب وصار يتأخر في فتح

عيادته وتوقف عن زيارة أصدقائه، أحسّ لفترة أنّه مستهدف، وأنّ سقوطه في الانتخابات كان بتدبير أيادٍ خفية لا تريده أن يصل إلى المجلس وصار يفتّش في دفاتره القديمة عن وجوه أعدائه المحتملين!

مع هذا لم تيأس ناهدة كانت تريده عضوًا في مجلس الشّعب لتكبر مكانتها، وأقنعته أن يترشّح في الدّورة القادمة نائبًا عن حزب البعث.

مرّت السّنوات الأربع وسعت ناهدة جاهدة لتضع قدمه في المجلس بكلّ ثقة، لكنّه لم ينجح!

فشله في الوصول إلى المجلس أثّر عميقًا على علاقتهما، كانت ناهدة تفتعل المشاكل وتخرج كثيرًا من البيت بعد انتهاء الدّوام المدرسي وتذهب إلى السّهرات عند وحيدة، لم تعد تهتم له وساءت معاملتها لأولاده فاضطر لإرسالهم إلى عمتهم، مع هذا تركت البيت وأقامت عند أهلها وكي يسترضيها كتب لها الفيلا باسمها.

أغلق العيادة، وغرق في قراءة الكتب والاكتئاب. يومًا ما في الماضي كان يحلم بأن يكتب رواية توازي "الأجنحة المتكسرة" ويحصد شهرة تفوق شهرة جبران. لكنّ أباه أصرّ على دراسته للطب فقد وزّع الأدوار بين أولاده، الكبير استلم الأراضي والقرى، الأصغر درس في الخسروية وأصبح شيخًا، وهو عليه أن يكون الطّبيب وأن ينتسب لحزب البعث. كان لشقيقه الكبير نظرية يعرفها أهل البلدة بنظرية الحماية المشتركة، فإن مالت كفّة حزب الشّعب في البرلمان يكون هو عنصر الحماية في العائلة وإن فاز حزب البعث يكون حكمت عنصر الحماية وإن بقي الحال على ما هو عليه فشقيقه الكبير مدرّس التّاريخ الشّيخ والعالم وفقيه اللغة العربية سندٌ للعائلة.

لكنّ حكمت كان يرمي بثقله على نسبه وعائلته وليس على انتمائه لحزب البعث، الأهم من ذلك أنّه لم يعرف لعبة الصّناديق، ولم يصدّق أنّ أهل بلدته

سينتخبون "برضوعة وملدعون" وأنّه لم يحظَ بعد فرز الأصوات سوى بمئة صوت!

طالت لحيته، لأوّل مرّة تراها ناهدة فقد كان وجهه الحليق باستمرار يوحي بنعومة تحيل إلى وجوه السّيدات الأنيقات، لم تعرف ناهدة طيلة السّنوات التي قضتها معه أنّه يمكن أن تنبت لحيته وأن يصبح كائنًا فائضًا عن الحاجة لكنّها مع ذلك حاولت التّخفيف عنه وإقناعه بأنّ الفرصة ما زالت موجودة وأنّ الانتخابات القادمة ليست بعيدة وسينجح في الوصول إلى المجلس و"الثالثة ثابتة"!

* * *

المفاجأة

بعد زواجها من حكمت آغا لم تعد ناهدة ترغب في زيارة بيت أهلها في الحي القديم، وكانت تشعر بعبء الزّيارة وثقلها على صدرها وكأنّ هؤلاء الذين عاشت بينهم طيلة عمرها أغراب لا يهمها أمرهم، وقد ثبت لها ذلك في آخر زيارة.. أرغمت على عيادة أمّها المريضة اتقاء لألسنة النّاس التي لا تتركها وشأنها.

كانت تعدُّ الدّقائق كي تتغلّب على ضجرها من الواجب الذي ألزمت به نفسها منذ زواجها، "زيارة يومية" ثمّ اختصرتها إلى مرّة في الأسبوع فقد كثرت مسؤولياتها بعد أن نقلها العقيد أبو فراس إلى المدرسة الإعدادية وعيّنها أمينة سر. الحقيقة أنّ المدرسة ليست المشكلة بل هي المسؤوليات الاجتماعية المتشعبة التي أصبحت ترهقها.

لم تكد تضع فنجان القهوة على الطّاولة أمام أمّها حتّى رن جرس الباب.

نادت أخاها ليفتح، فلم يرد، نظر إليها ببلاهة وعناد وتمتم بكلمات فهمت أنّه يطلب منها فتح الباب بنفسها.

فوجئت بساعي البريد يقف بالباب ويسأل: "الآنسة نهيدة إسماعيل؟". تأففت، فلم تكن تحبّ أن يناديها أحد باسم نهيدة البائس، صحّحت له "ناهدة الآغا". لوى شفتيه استغرابًا: "إذن نادي على الآنسة نهيدة؛ الرّسالة مسجلة وعليها أن توقّع بالاستلام". ماذا؟ رسالة مسجلة باسمها! ممن؟ سألته، لم يرد كان ينتظر الآنسة نهيدة. ذهبت وعادت تحمل بطاقتها المدنية التي سُجّل فيها اسمها، نظر إليها وابتسم بسخرية.. ناولها الدّفتر: "وقّعي هنا".

وقّعت وتناولت الرّسالة، كان عليها ختم جمهورية مصر العربية، من سيرسل لها رسالة من مصر؟ هي لا تعرف أحدًا هناك. تحسّست الرّسالة، واضح من سماكتها أنّها رسالة طويلة.

دخلت غرفتها، جلست على حافة السّرير وفتحت الرّسالة بلهفة، وقرأت:

(الآنسة نهيدة المحترمة:

مكتبة
t.me/soramnqraa

تحية وبعد

ستستغربين وصول هذه الرّسالة، لكن في طيّاتها ما هو أغرب من ذلك بكثير. أولًا أقدّم لكِ نفسي، أنا الملحن سعيد الشّريف صديق والدتك. عفوًا يجب أن أخبرك أولًا بمدى أسفي وحزني على رحيلها المفاجئ، أمّا التّفاصيل فسأسردها عليكِ في رسالة أخرى إن رغبتِ بمعرفتها.

لقد فوجئت بما حدث تمامًا مع أنّ المقدمات وتحذيرات الأطباء كانت واضحة، أصيبت بحالة اكتئاب شديد دفعتها للتفكير في الانتحار، ولم أصدّق أبدًا أنّها ستقدم عليه. اتصلت بي في الصّباح الباكر وكنت أسجّل لحنًا في الإذاعة وأخبرتني أنّها لم تعد تحتمل الحياة وأنّها تكلّمني لتودّعني وتوصيني بأن أرسل لكِ مذكراتها وأخبرك أنّها لم تكف عن التّفكير بكِ منذ اضُطرّتْ للانفصال عنكِ، وأنّها أحبّتك كما لم تحبّ أمٌّ ابنتها، لكنّها اختارت لكِ حياة أفضل عند تلك العائلة على أن تعيشي معها حياة البؤس التي عاشتها.

طلبتُ منها أن تنتظرني.. لكنّها لم تفعل، في السّاعة الثانية ظهرًا وقبل أن أغادر مبنى الإذاعة جاءني اتصالٌ هاتفي من الجيران يخبرونني أنّها رمت نفسها من الشّرفة وأنّهم نقلوها إلى المستشفى.

حين وصلتُ المستشفى رأيتها في غرفة العناية المشدّدة، نظرت إليّ وأسلمتْ الرّوح. نظرتها كانت تطلب إخبارك بكلّ شيء. تأخرت كثيرًا في اتّخاذ القرار، لست أعرف إن كان من الجيد أن تعرفي؛ لأنّني أدرك تأثير الخبر على نفسيتك. مع هذا يجب عليّ تنفيذ وصيتها.

أرجو أن تكتبي لي لأتأكد أنّ الرسالة وصلتك وأنّك ترغبين في الحصول على مذكراتها.

المخلص سعيد الشّريف).

وقعت الرّسالة من يدها، خرس الكون من حولها، لم تعد تسمع سوى دوي نبضها وخفقات قلبها.. كيف حدث ذلك، هل عاشت كلّ هذه السّنوات مخدوعة؟ والسّيّدة النّائمة في الغرفة المجاورة، والأب الذي ربّاها، والأخ المعاق و... كلّ هذا خدعة!

خرجت من غرفتها، فتحت باب الصّالة بعنف، نظرت إلى أمّها، تأملتها للحظات وقالت بصوت مشروخ: "ماذا تعرفين عن المطربة نادرة؟".

فوجئت أمّها، قالت بصوت ضعيف: "أسمعها أحيانًا، صوتها جميل، لكن ليس لديها حظ، أظنّ أنّها من أصل سوري وسافرت إلى مصر أوائل الخمسينيات.. لماذا تسألين؟".

ردّت ناهدة بغصة: "فقط! هذا ما تعرفينه؟" قالت أمّها بوهن: "هناك في الدّرج بعض المجلات القديمة "المصور وآخر ساعة" لها صور وحوارات على ما أذكر.

أخذت المجلات وخرجت.

رأت صورة نادرة بالأسود والأبيض جميلة وتشبهها، مع هذا لم يتحرّك شيء في أعماقها.. لا تستطيع استيعاب الأمر، هل حقًّا هذه أمّها؟

قضت ساعات وهي تقرأ أخبارها، وتفاصيل عن حياتها وقرّرت أن تشتري كاسيتات أغانيها. سمعتها مرارًا وفي كلّ مرّة كانت تكتشف شرخًا طازجًا في روحها.

إذن أمّها تخلّت عنها ووهبت حياتها لفنها، وظنّت أنّها منحتها حياة هادئة وطبيعية وسط عائلة متوسطة الدّخل تعتني بها وتؤمن لها مستقبلًا مستقرًّا! لماذا قرّرت فجأة أن تخبرها الحقيقة؟ لماذا هدمت بلحظة كلّ ما بنته لها؟

تأملتها طويلًا، المرأة البيضاء المعتدلة القامة بعينيها العسليتين الواسعتين وقامتها الممتلئة، وشعرها القصير وحاجبيها الرفيعين ونظرتها السّاهمة.

المرأة الفاتنة، المباحة لكلّ الرّجال. والتي خطفت زوج صديقتها كما جاء في خبر منشور بمجلة "الموعد" وعشقت زميلًا لها تسلّى بها فترة وتركها كما تزعم مجلة "الصّيّاد" وتزوجت أكثر من مرّة وفشلت في كلّ علاقاتها، وفشلت حتّى في فنها كما ادّعى صحفيٌ في مجلة "المصور"!

الصّوت الذّهبي الذي يغني الطقطوقة والأغاني الشّعبية. لماذا لم يهتم الملحنون بصوتها أكثر، تناسبها ألحان القصبجي، وعبد الوهاب.. لكنّ أحدهما لم يلحن لها!

سمعت أغانيها كلّها، معظم الأغاني كانت لأخريات أعادت تسجيلها بصوتها خاصة أغاني فتحية أحمد!

لم تكن ناهدة بحاجة لكلّ هذه الآلام والأخبار السّيئة لتتحوّل إلى نمرة شرسة، لم تكن بحاجة لصدمة عنيفة كهذه تقتلعها من جذورها فهي لم تشعر يومًا بانتمائها لهذه العائلة على الرّغم من كلّ ما بذلته منيرة خانم في تربيتها وتدليلها وتلبية رغباتها.

* * *

الثّانوية العامة كانت بالنّسبة إلينا جميعًا - صبايا الحي وشبابه - السّنة الحرجة التي ستقرّر مصير كلٍّ منا، أخوتي الذّكور الثّلاثة سبقوني إلى حلب ودمشق.. والآن دوري أنا آخر العنقود - كما تلقّبني حسنية - التي أشعر أحيانًا أنّها تحبّني وترعاني أكثر من أمّي.. نذرت أن تخدمني طيلة فترة الامتحانات وكثيرًا ما تمنّت لو تسمح لي أمّي بالدّراسة مع ابنها ليستفيد من صبري ومقدرتي على الدّراسة لساعات طويلة، لكنّ أمّي لم تعد تسمح لي منذ بلغت باللعب في البريّة ولا الذّهاب إلى بيت حسنية ولا حتّى الوقوف في الشّرفة خشية من نظرات الشّباب - عصبة مخلص ابن بدريّة الخيّاطة - الذين يقضون الوقت من الثّامنة مساءً وحتّى منتصف الليل بالمشي على الطّرقات والغناء بصوت مرتفع ويتجمّعون أحيانًا تحت أعمدة النّور، يتحدّثون ويمزحون وتعلو ضحكاتهم، ما أزعج الكثير من سكّان الحي وصار الحظر على الصّبايا واقعًا مرًا.

لم يزعجني أمر الحظر فأنا بطبيعتي لا أحبّ الخروج من البيت كثيرًا وأقضي وقتي كلّه في القراءة، أخرج إلى الشّرفة الواسعة لسقاية الزّرع فقط، أراقب البيت الصّامت على الطّرف الآخر من الشّارع بيت عصام باشا.. السّتائر خلف الشّبابيك المغلقة تمنع رؤية البيت من الدّاخل، البيت الذي كان مليئًا بالضّحكات والغناء والموسيقى يومًا.. أذكر حين كان مجدي يأخذ درس البيانو يترك النّافذة مفتوحة، السّتارة يلاعبها الهواء وأستاذ الموسيقا يقف قربها.. أصابع مجدي كانت خفيفة والأنغام تلامس سمعي برقة. لكنّ الزّمن لم يعد زمنهم! منذ سنتين بدأت التّغييرات تطيح بكلّ الثّوابت الرّاسخة في عادات أهل البلدة وبنيتها الاجتماعية.

(مجدي أجمل طالب في الصّفّ، مؤدب ونظيف ومرتب وابن ناس) كما كان يقول مدرس اللغة العربية دائمًا في محاولةٍ منه لاسترضاء مجدي ومحاباة لأهله والتّقليل من شأن بقية التّلاميذ الكسالى وحتّى المجدّين من العائلات

المتواضعة. وعُيّن الكشّاف الأوّل في الرّحلة الكشفية، وكان يحمل كتب المعلم؛ لأنّ المعلم بنفسه كان يتمنّى ذلك!

مع دخول عام الحرب بدأت التّغييرات تغزو المدرسة، لم يعد أحد الأساتذة يهتم بمجدي، وصار يحشر في المقعد الأخير بين الكسالى، وتقدّم "مخلص" الصّفّ، صار العرّيف الذي يمسك العصا، يهدد التّلاميذ، يكتب أسماءهم على السّبورة ويأخذ ثمن سكوته عن التّأخير والمشاغبات والمخالفات!

أمّا "شكيب" فلم يكن بحاجة ليرشو ابن عمه، وهيبة تقوم بالمهمة كاملة، أصبح اسمه دائمًا أوّل الأسماء التي يزكيها "مخلص" لتنال التّشجيع والتّصفيق من الأستاذ. حتّى احتفل به في باحة المدرسة كنموذج للطالب المجد والمهذب والملتزم، ومنحته الإدارة أمام التّلاميذ في اجتماع تحيّة الصّباح هدية ثمينة، كانت أوّل هدية تصله في حياته "دستة أقلام حبر ناشف أزرق ونصف دستة أقلام رصاص وممحاة ومبراة داخل دمية من فخار ومقلمة بلاستيك جميلة الألوان".

كان حريصًا على الهدية حرصه على روحه لكنّه اضطر إلى تقاسمها مع "مخلص" وأعطى أحد الأقلام خفية لمجدي الذي بادره بإهدائه قلمه الحبر الباركر قبل فترة حين دافع عنه ومسح اسمه من قائمة المشاغبين التي كتبها "مخلص".

لم يكن يحلم بالكتابة يومًا بقلم باركر لذا؛ لفّه بمنديل وخبّأه جيدًا في حقيبة ملابسه في الخزانة، اليوم استغنى عن الكتابة بقلم الحبر "الستيلو" الصّيني الذي يرشح حبره الأسود على أصابعه ويصبغها، ما يوتّر وهيبة فتسعى لاختراع وسائل إضافية للتنظيف إضافة للماء والصّابون.

* * *

تقلّبات الفصول 1976

منذ بداية العام الدّراسي شعر "مجدي" بذلك الإهمال المهين من المدرّسين، لم يعد مميزًا، ونزل معدل علاماته في كلّ المواد إلى النّصف! مدرّس اللغة الإنكليزية يحاسبه في الشّفهي على لثغة الحروف، ومدرّس اللغة العربية يضع له أقلّ علامة في الشّرح والتّعبير، وبالكاد يأخذ فوق الحد بعلامة! ليس أستاذ مادّة التّربية الوطنية فقط من يمتدح "مخلص أبو العظام" ويضع له العلامة التّامة.. "مخلص" أصبح الأوّل في كلّ شيء، هو عريف الصّفّ، وهو الذي يحمل العلم في الصّباح ويقدّم الطّابور للتحيّة، وهو المسؤول في اجتماعات الشّبيبة التي لم ينتسب "مجدي" إليها، لكنّه الآن مضطر أن يكون تحت أمرة "مخلص" في المعسكر الصّيفي للصفّ العاشر..

المعسكر كلّه قضى ليلة البارحة في السّخرية من "مجدي" الذي لم يستطع إصابة هدف واحد أثناء التّدريب على الرّمي.

اليوم وأثناء توزيع "الجلاءات" الكلّ يتهامسون حول مستواه المتدني ويصفونه بالطّالب الرّخو الكسلان. صار يسمع لقب "نعنوع" كلّما مرّ بتجمع في باحة المدرسة، يخترق قلبه قبل أذنيه.

لم يكن مجدي يعرف شيئًا عن غرام "شكيب" بشقيقته "فاتنة" لكنّ نظرات زملائه الغريبة وتلميحاتهم الموحية جعلته يتحسس قلبه. عاد إلى البيت مستاءً وحزينًا، لم يستطع مفاتحة فاتنة ولا سؤالها، لجأ إلى شقيقته الكبرى، بكى على كتفها وأخبرها بشكوكه "ابن سائق شعبة الحزب الأعرج أصبح الأوّل في الصّفّ وصار الأستاذ يلتمس ودّه ورضاه ويعطيه العلامة الكاملة في الشّفهي ويساعده في معرفة الأسئلة لينال العلامة الكاملة!". تردّد مجدي قبل أن يضيف: "سنية هل سبق وسمعت شيئًا بخصوص فاتنة وشكيب؟". انتفضت سنية غاضبة: "كندرة فاتنة بعائلته كلّها لن يحلم يومًا بتقبيل حذائها فكيف بلقاء أو علاقة".

حاول "مجدي" تهدئتها: "أعرف، لكنّي أسمع تلميحات قذرة من زملائي، أعتقد أنّ "شكيب" يتقوّل على فاتنة أمام أصدقائه، باتت نظراتهم تجرحني، بصراحة ليست نظراتهم فقط، صرت أخاف أن يعتدوا عليّ بالضّرب لأقلّ هفوة، أنا أتجنبهم، أجلس وحيدًا وأمشي في الباحة وحيدًا، آكل وحدي ولا أقترب من أيّ تجمع، لماذا يفعلون بي هذا؟ ليت والدي يترك هذه البلدة لم أعد أطيق البقاء هنا".

تنهّدت سنية، كي يترك والدها البلدة يجب أن يتقاعد من التّدريس ويبيع أملاكه هنا ليشتري بيتًا في حلب وهو ما تحاول أن تقنعه به منذ أشهر بالتّحديد منذ تجرّأ "شكيب أبو العظام" وأوقف فاتنة في الشّارع وأعطاها رسالة غرام. استدعته سنية، كان عليها أن تحسم الأمر كما حسمته مع عاشقها ابن الأستاذ رفعت مع أنّه ابن حسب ونسب لكنّها كانت تطمح للزّواج من شخص يساويها في النّسب والمال والعمل. طلبت من "شكيب" بأدب أن ينسى الأمر تمامًا؛ لأنّه لا يناسب شقيقتها وأيضًا؛ لأنّ الموضوع مبكر جدًا، وثالثًا وهو الأهم، أنّها حين تفكّر بالزّواج ستتزوج شخصًا من مقامها.

لم يكن "شكيب" قليل التّهذيب وإن كان جريئًا، انسحب بأدب ولم يتلفظ بكلمة تجرح الأستاذة سنية، لكنّ الجرح أمضّ قلبه فباح لابن عمه بحكايته، روى "مخلص" القصّة لأمّه، وخلال يوم شاعت الحكاية في البلدة كلّها، واتّهم البعض فاتنة بأنّها تسعى وراء "شكيب"؛ ابنة الحسب والنّسب صارت تعرف مقامها جيدًا، لقد تغيّر الزّمن!

"مخلص" أضاف بهارات على القصّة وأشاع أنّ ابن عمه يرفض الزّواج من فتاة "فلتانة" تركض وراءه؛ لأنّ مثيلاتها لا يصنَّ شرفهنّ بعد الزّواج!

وصلت الأخبار بطريقة ما إلى والد فاتنة ووجد نفسه داخل شرك اقتنع أنّ وراءه أياديَ خفية وليس مجرد مراهقين يريدون الانتقام من ابنه مستغلين ما آل إليه

وضعهم بعد التّطورات المجتمعية التي قلبت وجه البلدة عمرانيًا وسكانيًا وتدخلت في عاداتها وتقاليدها. لم يعد الأستاذ المرهوب الجانب الذي يتحاشى تلاميذه المرور على الرّصيف الذي يسير عليه تقديرًا وخوفًا. يدرك جيدًا أنّ نظرات طلابه تغيّرت وأنّ بائع اللبن يغشه، وبائع الخبز يتعمد أن يتركه واقفًا في الدّور مدّة طويلة بحجة الحفاظ على النّظام وأنّ بائع الخضار لم يعد ينخب الخضرة التي يرسلها إليه بل معظمها تالف ترميه الخادمة بالزّبالة! اقتنع أنّ الحل الوحيد الذي سيجنبه المهانة الرّحيل عن البلدة التي كان والده فيها الأغا الذي لا يستطيع من هبّ ودبّ رؤيته والجلوس إليه.

* * *

شكيب أبو العظام 1975

لم يكن "شكيب" مرتاحًا لجلوس مجدي في المقعد الأخير بعد أن كان يحتلّ المقعد الأوّل طيلة السّنوات السّت في المرحلة الابتدائية لذا؛ نقل أغراضه وجلس بجانبه. "شكيب" الوحيد من أصدقاء الأمس الذي حافظ على المودّة التي يكنها لمجدي ولم يلقِ بالًا لتغيّر المعاملة التي حظي بها من المدرسين والإدارة ولا من إهمال الطّلاب والمدرسين لمجدي وابتعادهم عنه!

كان يسمع زملاء الدّراسة يقولون عنه إنّه من مخلفات الإقطاع والرّجعية التي يجب مقاطعتها والقضاء عليها. لم يكن "شكيب" يرى في عمل والده سائقًا لأمين شعبة الحزب شيئًا يدعو إلى الفخر وكان يستغرب محاولة الطّلاب التقرّب منه وتساهل الأساتذة معه وإعطاءه الدّرجات الكاملة!

كان مقتنعًا أنّه يستحق النّجاح والتّفوق لكن في أعماقه لم يستطع كسر حاجز الهيبة التي يملكها مجدي بحكم انتمائه الطّبقي، وبقي محافظًا على المسافة المفترضة من الاحترام والتّقدير لأستاذه والد صديقه.. مع استطاعته الالتحاق

بالرّكب المسيء والثّائر على القيم والأخلاق التي تربّى عليها الآباء خلال عقود طويلة من الزّمن.

أمّا السّبب الحقيقي وراء تلك المعاملة والتي لم يستطع شكيب إنكارها بينه وبين نفسه فهي استصغاره لشأنه حين زار مجدي في البيت أوّل مرّة وتناول الغداء الذي صنعته والدته. لن ينسى طيلة حياته الارتباك الذي أصيب به حين جلس إلى المائدة، كانت المرّة الأوّلى التي يتناول فيها الطّعام بالشّوكة والسّكين، أوّل مرّة يجلس إلى طاولة عالية ويضع فوطة في حضنه.. تعوّد الجلوس أرضًا والتّحلّق مع عائلته حول صينية النّحاس الكبيرة يأكلون جميعًا من قِدر واحد ويشربون اللبن الرّائب بالملعقة من صحن كبير. أوّل مرّة يشرب اللبن الرّائب في كأس من الكريستال، لم يستطع لشدّة الحرج أن يأكل بشهية مع أنّ الطّعام كان لذيذًا جدًا.. والدة مجدي الحلبية الأصل فنانة في طهو الشنشل والكبة بسماقية والشّاكرية. لم يتعود أن يأكل في منزله سوى لونٍ واحدٍ من الطّعام، تضعه أمّه في الصّينية بجانبه بصل أخضر ولبن وخضار موسمية.

شعر بأنّه مقيدٌ، لم يستطع أن يرفع عينيه لينظر إلى فاتنة.. كانت ضربات قلبه تصمُّ أذنيه.. لقد جاء من أجلها.. جاء ليحظى بنظرة من عينيها، وربّما ابتسامة تضخ الأمل في روحه وتحثه على الوصول إلى غايته. سيصبح طبيبًا يليق بها.. لن يحيد عن هدفه أبدًا.

* * *

أصدقاؤه في الحارة كانوا ينادونه "شكيب مشفّى" ويضحكون، جسده النّحيل وقامته القصيرة أضافتا إليه إرادة مضاعفة في التّفوق على رفاق الحارة والمدرسة في لعب كرة القدم، والجري، ولكنّ تفوقه الأساسي كان في الدّراسة، حرص دائمًا أن يكون الأوّل في صفه. في المرحلة الإعدادية غيّروا لقبه، فصار "شكيب بشحمه

ولحمه" بسبب السّمنة المفرطة التي لازمته في مرحلة البلوغ، واستطاع التّخلص منها بإرادة قوية أيضًا.

الشّحم واللحم! عقدته المرتبطة باللقب الذي غلب على كنيته بسبب تلك القصة اللطيفة المرتبطة بجده صالح الحلبي الفقير الذي قضى حياته يحلم بالشّحم واللحم ولم يحظَ سوى بالعظام. كانت جدته صالحة قبل وفاتها تتفنن في رواية حكايتها مع صالح في أماسي الشّتاء الباردة وتصفها بأنّها أجمل من حكاية ست الحسن والشّاطر حسن:

(كان جدكم صالح يعمل سقّا يجوب الحارات ويعرف البيوت وأسرارها، يطرق الأبواب في غياب الرّجال، العجائز يفتحن له الأبواب ويثرثرن بلا توقف، تتوارى الصّبايا خلفهن، يشمّ رائحتهن، يسمع همساتهن وضحكاتهنّ الخافتة، لم يدرك أنّه يمتلك شكلًا طريفًا يجعلهن يتلصصن من خلف جداتهن وأمهاتهن عليه.

وكلّما ملأ قربة الماء لأحد البيوت تسأله كبيرة البيت "ما بدّك تتزوج يا صالح؟" فيتحسّر قائلًا: "ما في وحدة بنت عالم وناس ترضى بي".

فكّر أن يذهب إلى تركيا للحصول على زوجة جميلة مكتنزة، كان يعشق البدينات اللواتي ترجُّ أجسادهن أثناء المشي ويحلم بتلال اللحم والشّحم كفراش يستعيض به عن فراشه الصّوفي البائس. لكن أين تلك التي ترضى بفقير مثله!

اكتشف بعد سنوات أنّ البنات في جميع الأحياء التي يقوم بإيصال الماء إليها كنّ يسخرن من عاهته، والأمّهات يجعلنه فرجة لأطفالهنّ، وأنّ الرّجال لم يقلقوا يومًا من حضوره إلى بيوتهم أثناء غيابهم في العمل!

فجأة ومن دون سابق إنذار دخل أحد الأحياء فوجد الرّجال قد تجمّعوا في السّاحة المؤدية إلى المسجد الصّغير، انقضوا عليه، وطرحوه أرضًا، رأى العصي تنهال عليه مصحوبة بالشّتائم، سمع الأصوات التي تشتمه ولم يفهم شيئًا، بعد وقت قصير فقد وعيه، حمله بعض الشّباب ورموه خارج الحي.

فهم فيما بعد أنّ إحدى العجائز دافعت عنه وأبعدت الرّجال وطالبتهم بالهدوء ومعالجة الأمر بحكمة! ما الأمر؟

بعد أسبوع طرق شاب بابه، أخبره أنّ جميل بيك الحلبي يودُّ رؤيته في دكانه الواقعة في سوق النّحاسين، حاول معرفة ما يريده جميل بيك، أنكر الشّاب معرفته بالأمر.

جميل بيك استقبله ببرود وأخبره أنّه يحتاج إلى عامل في دكانه وقد سمع أنّه فقد عمله وصار عاجزًا عن نقل الماء بعد كسر ذراعه وتحطم قدمه اليسرى. استمع للتاجر الغني وهو يتأمل الدّكان والبضاعة وحركة الرّجال في السّوق وذهنه مشغول في معرفة السّبب وراء هذا العرض.

عرف السّبب بعد أسبوع من عمله الجديد، اصطحبه جميل بيك إلى منزله، وتركه في غرفة الضيوف دقائق دخلت خلالها خادمته، وضعت أمامه صينية مليئة بصحاف الحلو والزّبيب والمكسرات وجلست. تنحنح يريد سؤالها عن جميل بيك في الوقت الذي بدأت فيه الحديث وشرحت له سبب دعوته.

حين عاد جميل بيك كانت خادمته قد أنهت مهمتها.

تجاهل جميل بيك الأمر الذي تحدّثت فيه الخادمة، ارتبك واغتسل بعرقه، سأله البيك:

- عمّ كنّا ستتحدث يا صالح أفندي؟

تلعثم وارتعش جسده وأحسّ بريح باردة تصفر داخل عموده الفقري، ماذا يريد البيك؟ لماذا يناديه بلقب أفندي؟

دخلت الخادمة تحمل مشروبًا باردًا وهي تبتسم له مُشجعة، وحين رأت ارتباكه أنقذت الموقف بقولها:

- صالح أفندي خجلان منك يا بيك، ليس سهلًا عليه أن يطلب منك القرب وهو يعرف مكانتك ويدرك أنّ طلبه شبه مستحيل!

ردّ البيك مقطبًا:

- أنا يهمني الرّجل وليس ماله ونسبه، الرّسول قال: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه" ولا أحد يبقى على حاله، أنا لم أولد وفي فمي ملعقة ذهب، اعتمدت على نفسي حتّى وصلت إلى ما أنا عليه الآن. وصالح أفندي يعلم أنّه ليس عندي أولاد ذكور وسيكون بمثابة ابني إن شاء الله.

تمت الخطبة وكتب الكتاب ولم يرَني صالح أفندي، لمحني من خلف الباب وقد أسدلت المنديل على وجهي، لفت نظره أنّي كنت نحيلة جدًا لا شحم ولا لحم، لكنّه عزّى نفسه بوفرة اللحم والشّحم في بيت أبي ولا بدّ أنّي سأسمن بعد الزّواج!

لكنّ ذلك لم يحدث، كانت بشرتي داكنة وشعري أجعد خشن وأنفي أفطس وأعاني من شلل أصبت به في صغري، كلّ ذلك لم يمنعني من ولادة طفل كان في أيامه الأولى جميلًا يشبه جده وحمل اسمه، لكنّ الصّبي لم يستطع المشي، أصيب بشلل الأطفال لكنّه بقي على قيد الحياة!

ولم يكتمل حلم جدكم بالثّروة بعد وفاة أبي فقد جاء عبد النّاصر وأمّم حياتنا بكلّ تفاصيلها.

حين جاء رجال الإحصاء إلى الحي وقرعوا الباب لم يكن موجودًا، سألوا صاحب الدّكان المقابل عن اسم صاحب البيت وعدد أفراد الأسرة، أخبرهم أنّه "صالح أبو العظام" فقد كان جدكم يمرُّ كلَّ يوم بالجزّار ويوصيه أن يحتفظ له بعظام الخروف، نسلق العظام ونطبخ بها الشّوربة، والشّاكرية، والبامية وكلّ شيء. الجزّار كان يمزح معه ويسأله "ألم تشبع قطط الحارة بعد؟" ويضحكان).

ورث شكيب وسواس النّظافة من أمّه حتّى أنّه كان يُعقّم يديه بعد خروجه من التّواليت دائمًا، كان ذلك في سنة انتشرت فيها الكوليرا بشدّة وصار النّاس يعقّمون

الخضار ومنازلهم وأيديهم. انتهت جائحة الكوليرا واستمرت عادة التّعقيم عند أمّه بل تحولّت إلى وسواس جعله يخشى دخول المراحيض في المدرسة، وامتنع عن شرب مياه الحنفيات، أمّه تزوده بقنينة ماء مع الطّعام الخاص به في حقيبة مستقلة، الوحيد الذي يحمل حقيبتين بين التّلاميذ حرصًا من أمّه على عدم تلوث كتبه ودفاتره بالزّيت، المناديل الورقية موجودة في حقيبته باستمرار، يمسك بها طعامه حتّى لقّبه زملاء المدرسة بالطّبيب، لم يكن اللقب مزعجًا بل كان دافعًا له للتفكير الجدي بدراسة الطّب، وهو ما جعل وهيبة تبتهج وتفتخر بين النّاس بابنها الذي سيصبح طبيبًا.

الآن يركض شكيب بكلّ قوته في السّهول المتاخمة للحيرانة قاصدًا ملعب كرة القدم.. من بعيد يرى ابن عمه ورفاقه بانتظاره، ينادونه ويلوحون بأيديهم: "تأخرت". يحرد، لا يريد أن يقف حارسًا للمرمى، هذه المرّة هو من سيدخل الهدف، هذه المرّة هو من سيلعب في قلب الهجوم!

* * *

وهيبة العايقة: حمّام الوسطانية

انطلق صوتها حادًا ودافئًا، ردّدت أصداءه جدران الحمّام وحلّق عاليًا وارتطم بالعيون الزّجاجية الزّرقاء المفتوحة على السّماء.. هناك كانت أبخرة الضّباب الصّباحي تشكّل مع دخان "القميم" غيمة صغيرة مُحمّلة بروائح متناقضة تضغط بلطف على صدور العابرين.. في خلطتها رائحة صابون معتق بالدريرة والتّرابة الحلبية ورائحة حطب محترق..

كلّما لامس قبقابها بلاط الحمّام أصدر رنّة كتيمة غارقة بالماء ورغوة صابون الغار، تُحضر إليها الحقول الشّاسعة ببرتقالها الدّموي وصوت محمّد رشدي ينطلق من حنجرتها؛ فتتوقف "طاسات" النّحاس في أيدي المستحمات عن دلق الماء،

ويسود سكونٌ يقطعه سعال عابر أو بكاء طفل رضيع يأتي من "البرّاني" ما تلبث "حنّة الهزازة" أن تسكته بطريقتها. النّساء ينصتن ويتنهدن، جوّ الحمّام العابق ببخار الماء ورائحة البرتقال والرّمان والكبة النّية والتّبولة المطبوخة.. يمتزج بصور أحلام اليقظة للصبايا فتتمطّى الأجساد ويحملهنّ صوت وهيبة العايقة إلى عالم آخر:

(الليل بينعس على البيوت وعلى الغيطان، والبدر يهمس للسنابل والعيدان، يا عيونك النايمين ومش سائلين وعيون ولاد كلّ البلد صاحين، تحت السجر واقفة بتتعاجبي دي برتقانة ولا دا قلبي؟).

أحيانًا تمرُّ نادرة كطيف في مخيلتها، تذكر ليلة الوداع، كيف غنّت وبكت وأبكتهن جميعًا، يومها قالت لها "لماذا لا تسافرين معي يا وهيبة؟ صوتك حلو، وتصبحين سندًا لي أنت ابنة البلد". لم ترد وقتها، لم تقل لنادرة إنّ القاهرة تعني لها المكان الذي دفنت فيه وهي على قيد الحياة ولا يمكنها العودة إليه.

* * *

من مذكرات نادرة الشّريف

كانون الأوّل

كانت لحظات قاسية جدًا، وضعتُ يدي على قلبي وضغطت بقوة.. لا أعرف كيف قلت له كلّ ما في قلبي دفعة واحدة. دقائق فقط، مجرد زمن لا معنى له، مرّ وانتهى.. "لا أستطيع احتمال وجودك بجانبي، يجب أن نفترق". لم يعترض، أعرف أنّه غير معنيّ بمعرفة الأسباب فعلاقتنا أشبه بلقاء عابر في قطار توقف في محطته الأخيرة، وذهب كلٌّ منا في طريق.

مع هذا شرحت له، ربّما كنت أبرّر لنفسي ما اقترفته كي لا أشعر بالنّدم أو الإثم.. فوجئت حين رأيته يجمع أغراضه بصمت، ويضع لي مفتاح الشّقة على الطّاولة، ويستأذن ليأخذ علبة السّجائر!

ما هذا البرود؟ هل كان ينتظر أن آخذ القرار لينفذه بسرعة؟

استبقيته قليلًا، قلت لأخفف اضطرابي وألمي: "تعلم أنّي أحبّك، لكنّي لم أعد أحتمل التّفاصيل الصّغيرة، تستفزني وتحرق أعصابي، أريد أن أكون لوحدي، أن أنام بعمق، ألّا أستيقظ على صرير السّرير وأنت تتحرّك أثناء النّوم، أكره سماعك وأنت تنظّف أسنانك في الفراش وتصدر تلك الطّقطقة العجيبة.. شخيرك يجعلني أصحو من عزّ النّوم وأنتفض كطائر ذبيح.. قلبي لم يعد يحتمل الضّجيج، استخدامك لقبقاب الحمّام، صوت الدّش أثناء الاستحمام، صوتك وأنت تأكل باكرًا، ربّما ترى ذلك أسلوب حياة أو أمرًا عاديًا لكنّه يستفزني ويثير أعصابي.. عددت هذا الصّباح المرّات التي عبرت فيها الممر إلى غرفة النّوم، المرّات التي دخلت فيها التّواليت، المرّات التي احتك فيها كأس الشّاي بالمنضدة.. خطواتك، غناءك، نحنحتك.. بصاقك، وتلك الأصوات المنفرة الأخرى.. لم أعد أستطيع الاحتمال. ببساطة أريد أن أنام".

قال ببرود: "وكأنّك كائن من هلام لا تأكلين، ولا تشربين ولا تستحمين ولا تصدرين أصواتًا أو روائح! ليكن، عن إذنك".

خرج وأغلق الباب وراءه بهدوء، هكذا انتهت قصتنا في المحطة ما قبل الأخيرة من رحلة القطار. نمت ليلتها بهدوء وأنا أفكّر بذلك الكائن الغريب الذي أخلى لي الفضاء وتركني أحلّق بحريّة. لم تمضِ أيام حتّى بدأت أشعر بالكآبة وأبحث عن صوت يؤنسني في وحدتي، اتصلت بسعيد وأخبرته أنّي انفصلت عن زوجي، وأبحث عن لحن جديد يخرجني من حالة الاكتئاب الحادّة التي أعيشها، فوعدني خيرًا.

* * *

كانون الثّاني 1973

المسمار يدق رأسي، أصرخ بقوة "ارحموني" الجار في الطّابق الثّاني يردّ: "جايلك يا ست الدّنيا". يسحب كرسيًا ويجلس قرب السّرير، يسألني بخجل: "جوعانة؟". لا أذكر أنّي أكلت من أيام، أدخن وأشرب القهوة، لاحظ نظراتي، نهض، جمع الفناجين وذهب إلى المطبخ..

كعب الحذاء الرّفيع ينقر السّقف، الحذاء العريض يرافقه في انسجام، يرقصان!

الجار في المطبخ يغسل الأواني، وشيش الماء، قرقعة الفناجين والملاعق والصّحون، صوت صفير في الشّارع، الباعة المتجولون ينادون بأصواتهم النّشاز على بضائع كاسدة، الحذاء في الطّابق الرّابع يواصل حفر النّفق في رأسي، الجار يطلّ برأسه "ح جيب عيش وراجع".

أحاول النّهوض، لا تسعفني قواي.

الباب يغلق، يعود الجار، رائحة الخبز شهية. أكلت لقمتين وقلت بخجل: "أريد قهوة، لم يبقَ لديّ بن، لم يبقَ دخان، لا أملك نقودًا، سعيد توقف عن تدريبي على اللحن الجديد، سمعت من يقول إنّه أعطاه لنجاة؛ لأنّه يناسب صوتها أكثر!".

همس الجار: "ولا تعكّري دمك، دقائق وتكون القهوة جاهزة".

* * *

الأسابيع الأخيرة من حياة نادرة ست الدّنيا كما جاءت في مذكراتها: (الحرب) 1973

الأغاني في المذياع اقتصرت على الحرب.. أغاني عبد الحليم الحماسية، الأخبار والموسيقا العسكرية، ورأسي يكاد ينفجر.. إنّها الحرب تنتزع أبسط أحلامي، ترميني في نفق مظلم، أصارع لأصل نهايته وحيدة. أحيانًا تشع نقطة ضوء، أتخيّل أنّي أرى ناهدة، فتاة صغيرة ضئيلة الحجم ومكسورة النّفس. لماذا لا أستطيع رسم صورة لها وهي شابة؟ أصبحتْ الآن مُعلِّمة، ربّما تزوجت موظفًا مثلها يقبض راتبًا جيدًا، قد تعيش معه في بيت متواضع، يكبران معًا وينجبان دزينة أولاد! قد.. من يدري!

... كعب الحذاء العالي لجارتي ينقر رأسي، يحفر فيه أخدودًا هائلًا، تتشنج أصابعي، أشدّ اللحاف فوق رأسي، دقائق تلفظني خارج السّرير، أكاد أختنق..

صوت الحذاء العريض بمشيته المتزنة يقرع رأسي، يمشي عليه بتثاقل.. يدفعني خارج الغرفة وأنا أغتسل بالعرق، لا أجد علبة الكبريت في خزائن المطبخ، أفتح الأبواب كلّها، أنبش الأدراج، أبحث داخل الثّلاجة الصّغيرة وموقد الفرن وبين أكوام الغسيل من دون فائدة.. أتماسك قليلًا محاولة تهدئة نفسي...

تشدُّ سيفون الحمّام.. يقرعُ كأس الشّاي على المنضدة الزّجاجية، وشيشٌ يحفر أذنيّ يتسلّل من وابور الكاز، رائحة التايد تلسع أنفي، تجر أنبوبة الغاز، تدحرجها وتضعها أمام الشّقة.

أحدّق إلى موقد الغاز، تمدّ أعواد الكبريت رؤوسها الحمراء من العلبة بشماتة وتضحك ضحكة عالية، الجار في الطّابق الثّاني يمدُّ رأسه من النّافذة ويصرخ "يا صباح القشطة والعسل على النّاس الرّايقة، صباحك تفاح يا ست الدّنيا".

صوت الكعب الرّفيع يدق رأسي من جديد، مَن الحيوان الذي اخترع موضة كعب المسمار هذه؟ ولماذا تصرّ جارتي في الطّابق الرّابع على انتعاله فور نهوضها من السّرير؟

الماء يغلي، أين وضعتُ البن؟

تتحرّك أقدام السّرير متراجعة صوب الجدار، يعيدون ترتيب الغرفة كلّ صباح! تتصاعد رائحة خبز محروق، الجار في الطّابق الثّاني يصرخ من نافذته: "يا ست الدّنيا يا قمر حياتنا، العيش بيحترق أطلع أشوف حصل إيه؟".

بائع الفول على النّاصية ينادي: "يا عم مسعود، الرّيحة مش من عند السّت، الدّخان طالع من الرّابع".

صوت الحذاء العريض بمشيته المتثاقلة يضرب الباب بعنف، صوت حذاء المسمار ينقر البلاط بخفة، كأسان من الشّاي ينقران الطّاولة الزّجاجية بالتّناوب، صحون تقع، تتحرّك الكراسي بسرعة، تدور أقدام صاعدة إلى الأعلى بأحذية متنوعة المقاسات والكعوب تتوقف قليلًا أمام بابي، تتلصص من الثّقوب وتتابع سيرها نحو الأعلى!

يتنحنح الجار وهو ينزل الدّرج، يسعل ويبصق في منديله حين يصل بابي، يستغفر بصوت مرتفع، ويتابع الحذاء الثّقيل خطواته نازلًا إلى الأسفل.

السّيدة المديرة تنقر الدّرج بمسمار كعبها العالي، وتفوح روائح عطرها وهي تمرُّ بخفة أمام بابي نازلة إلى الأسفل.

يسود الهدوء، أهرع إلى فراشي، أندس فيه.. أغمض عينيّ وأغوص في بحيرة ضبابية لزجة، أفقد الإحساس بجسدي، أنسى الوخز القاتل في ساقيّ، أخرج مني.. وأعوم...

ليس نومًا، ليس كابوسًا، ليس صحوًا، لا أعرف شيئًا مما يجري، الجار في الطّابق الثّاني يصرخ من داخل اللجّة العميقة: "يا ست الدنيا، قلبي بيحترق"...

سعيد يدندن لحنه الجديد وينبّهني معاتبًا: "صوتك متعب، خذي كأسًا من ماء الورد والعسل، حاولي من جديد، لا أريد نبرة قوية، اللحن بحاجة لطبقة صوت منخفضة، تخلّصي من توترك، أنت حادّة المزاج هذا اليوم، سنؤجل البروفة إلى الغد".

بدر يضحك غامزًا: "لديكِ إمكانيات رهيبة بالإضافة إلى صوتك الذّهبي ستفتح لكِ أبواب الشّهرة في مصر وستنسين أيامنا!".

الباب يكاد ينكسر تحت قبضات خائفة وغاضبة.. ماء ينسكب في مكان ما، دخان كثيف.. كثيف.. لا أرى شيئًا.

أفتح عينيّ على بياض ملحي قاتل.. أفتح عينيّ على وجه سعيد يهمس: "الحمد لله على سلامتك، كيفَ نسيتِ ركوة القهوة على النّار! كدت تموتين حرقًا".

الجار في الطّابق الثّاني يتمتم: "سلامتك يا ست الدّنيا، ليتني مكانك".

تبتسم حبيبة وسط البياض الملحي، تبتسم وهي تمدُّ يدها، تقبض على أصابعي وتشدّني نحوها.

* * *

الفصل صفر

الرّوائي عبد السّلام أمين

السّوريون الأعداء

هذه الرّواية هي حقّاً بقية العلّة والعداوة والعشق.

أتذكر جيدًا حواري الأخير مع السّيدة فريدة قبل مقتلها بأيام، قالت لي: "ستجد في الرّواية شخصية رئيسة لكنّ الرّوائي لم يتحدّث عنها كثيرًا، بيدها تغيير مصائر الشّخصيات، كأنّها تلك اليد الخفية للقدر.. حين تنتهي من قراءة الرّواية سأناقشك في الأمر، لا تنسَ أن تعيدها لي".

لم أقرأ لفواز حداد قبل الآن، ولست متحمسًا للقراءة له، لكنّ السّيّدة فريدة أثارت فضولي، سهرتُ تلك الليلة أقرأ في الرّواية، وجدت نفسي غارقًا في التّفاصيل الوحشية لجرائم القتل التي ارتكبت بحق المدنيين في مدينة حماه، لكن ليس هذا ما أبحث عنه، أريد أن أعرف الشّخصية التي أشارت إليها. وجدتُ ملاحظات بقلم الرّصاص على بعض الصّفحات وانتبهت إلى أنّها ثنت عدّة صفحات من الأعلى، لم أجد في الصّفحات المثنية ما يثير فضولي فأرجعت الأمر إلى أنّها تركتها علامة للمكان الذي وصلت إليه أثناء القراءة. عندما انتهيت من الرّواية خيّل لي أنّها قصدت الطّفل النّاجي من المجزرة.. لا شكّ أنّها قصدته.

الطّفل في الرّواية هو الخيط الخفي الذي ربط هؤلاء بالحياة، عمه وزوجة عمه، والده الذي وصل متأخرًا جدًا.. والسّيّدة العجوز التي أنقذته.

(ماذا لو كتب الرّوائي الرّواية من وجهة نظر هذا الطّفل الذي رأى كلّ شيء، واختبر الألم والاغتراب الحقيقي؟ هل نستطيع أن نلومه إن أصبح داعشيًا يحمل شعار "بالذبح جيناكم"؟).

سألتني فريدة بكلّ جدية ولم أستطع أن أجيب. هي التي ترى أبعد مما يجب، وأعمق مما يُسمح به.. كيف لي أن أدلي بآرائي المُعلّبة المأخوذة من الإعلام الرّسمي؟... أضافت:

(أحيانًا نهمل أشياء صغيرة لعدم أهميتها في الخطّ الرّئيس للرواية أو الحياة، لجهلنا أنّها محارة تنغلق على لؤلؤة).

ناولتني فريدة الشّبكة وعليّ أن أصطاد المحارة أولًا ثمّ أُخرج اللؤلؤة، لكنّي فشلت في فعل ذلك! فكّرتُ أكثر من ليلتين في إمكانية خلق حدث جديد أنتزعه من الطّفل النّاجي وأتابعه حتّى خروج والده من المعتقل ولقائه به.. حدّثت فريدة بالأمر، قالت:

- ماذا لو بدأت من المجازر التي قامت بها داعش في الرّقة؟ ماذا لو كان ذلك الطّفل قائدًا مهمًا في التّنظيم أو شرعيًا أو مقاتلًا فقط.. هل سمعت عن الهوتة؟ هل تعرف شيئًا عن معتقلات التّنظيم في الرّقة؟ أنا أقترح عليك موضوعًا للرواية يتناسب مع رؤيتك للثورة السّورية، إذن أمامك فرصة لتثبت أنّ الثّورة إسلامية تابعة لتنظيم القاعدة ورئيسك يحارب الإرهاب وليس مسؤولًا عن دمار سوريا.

لاحظتُ أنّها تهزأ مني، أصبتُ بطعنةٍ في كبريائي، لستُ أعمى إلى هذا الحدّ، رأيتُ بأم عينيّ كيف يرمي الطّيارون البواسل البراميل المتفجرة على الفصائل المسلّحة فتخطئ أهدافها وتقتل المدنيين! كانت تبدي رأيها بثقة وتهور غير مبالية بالنتائج **(عشنا عشرة أعوام ونحن نخدع أنفسنا بوهم التّغييرات التي أحدثها الابن متمردًا على ما أرساه الأب، الزّيارات الخاطفة لأسواق حلب، ظهوره في الطّرقات**

فجأة من دون مرافقة، السّماح بدخول العولمة، تلك الخدع الصّغيرة التي رسّخت الوهم وضخمته!

في عهد الأب كنّا نخضع لفكرة عدم وجود خيار سوى العيش تحت خيمة الاستبداد والرّضوخ للأمر الواقع، أكنا نخشى الموت على الطّريقة الأبوية؟

لماذا يخشى الإنسان الموت مع أنّ الحياة لا تمنحه ما يريد؟).

اكتشفتُ فجأة أنّ رأسي فارغٌ ليس لديّ حجة ولا منطق ولا رأي قوي أستطيع أن أدحض به رأيها.

فريدة! تُرى ألم يكتشف أحدٌ جثتها بعد؟ لا شكّ أنّ الرّائحة بدأت تثير الجيران، لكنّ المشكلة تكمن في سيطرة الرّوائح الأخرى، الرّوائح المتمازجة بغرابتها وتنوعها التي تغمر بيتها. مكتبة .. سُر مَن قرأ

لم أكن أتخيّل أبدًا ما رأيته، عندما شدّتني الرّائحة في الممر الطّويل وراقبت الأبواب المغلقة لأعرف من أين تخرج؟ واجهني ذلك الباب الذي حُفر على خشبه فسيفساء رائعة لامرأة مثيرة في وضعية الاستعداد للطيران.. حولها طيور ونباتات وورود متنوعة، عُشّق الخشب بالصّدف والفضة وزيّنته كتاباتٌ بخطّ عربي جميل.. من الواضح أنّ الفنان الذي صنع هذه اللوحة كان مغرمًا بالسّيّدة فريدة، فقد استطاع استحضار ملامحها بأبهى صورها حتّى أنّي خشيت لمس الخشب خشية أن يتنفس جسدها ويتحرّك.. سيطرت عليّ الرّهبة.. الباب مقفل والرّوائح تنبعث من خلفه. سمعتُ صوتها يحذّرني من فتح الباب واقتراف حماقة جديدة، لكنّ الفضول سيطر عليّ فلم أعد آبه لأيّ شيء سيحدث. تأملتُ يديها في اللوحة، كانتا تشيران إلى نقطة محددة، لمستُ المكان فانفتح الباب تلقائيًا.

عتمةٌ ورطوبةٌ وبرد هاجمتني فور ولوجي فسحة صغيرة تعلوها عتبة وضع عليها حذاء بيتي خفيف.. فهمت أنّ عليّ أن أخلع حذائي. لم أجد مفتاح النّور..

للحظات قرّرت أن أعود من حيث أتيت بل أن أهرب من المكان وأتوارى بعيدًا فقد بدأ القلق يحاصرني.. ماذا لو أنّ أحدًا جاء ورآني؟ ماذا لو اتهموني بقتلها؟

استدرت أريد الخروج متلمّسًا الجدار فسطعت الأنوار فجأة. وجدت نفسي في قاعة كبيرة تغص بالنّباتات الغريبة، رُصفت أرضيتها بحجر الآجر، ونُسِّقت على شكل أحواض.

إنّها الجنة! نقلتها يدا فريدة ببراعة مخيلتها ووضعتها داخل جدران تنتشر منها روائح غريبة.

الغرفة الواسعة تنتهي بباب صغير يؤدي إلى غرفة أصغر مليئة بأواني الزّرع الفارغة وأدوات الزّراعة وأكياس السّماد والبذور. لفت انتباهي وجود أشياء غريبة في سلة كبيرة من القش، ريش طيور، إطارات دائرية من الخشب المصقول، علب مليئة بالخرز الملون!

داهمني إحساس غريب ربط بين ما أراه ومقتل فريدة.

* * *

الفصل الثّاني

خريجات المنزول دفعة لحلوحة

لم يكن صعبًا بعد لقائي لحلوحة أن أعرف تاريخ السّيّدات اللواتي التقاهنّ العقيد وطلب منهنّ التّكفير عن ماضيهنّ ووضع أنفسهنّ في خدمة الوطن، ليس لقائي لحلوحة وحده ما جعل الماضي معروفًا لي بأدق تفاصيله بل ما جاء في مذكرات "نادرة الشّريف".

سكّان حلب يعرفون جيدًا الحي الذي أزيل، وبعضهم يعرف ساكنات الحي أو سمع عنهنّ إن لم يعرفهن. لكن لا يوجد أحد من جيلي التقى البترونة[1] القائدة لحلوحة، لم يكن لدى لحلوحة خطّة في رواية حكايتها ولم تكن أفكارها منظّمة ومترابطة، أحيانًا تعيد المعلومة عدّة مرّات في صياغة مختلفة، تحكي عن حلوة وتذكر صدامها مع حبيبة وحين تحكي عن حبيبة تعيد قصة خلافها مع حلوة. تركتها تتحدّث بتلقائية من دون تدخل مني لكنّي حذفت فقط المكرر في أحاديثها.

حدّثتني لحلوحة قائلة:

في الثّلاثينيات هربتُ من الخان الذي يملكه حويسي في الحيرانة، وقصدت حلب مع "محمّد البيك"، كان محمّد يحبّني وشجّعني على الهرب من طغيان حويسي وظلمه. لكنّي في حلب عشت في غرفة تحت الأرض تشبه زنزانة، منعني محمّد من الخروج في غيابه وعندما يرافقني كان يتقدّمني بمترين وأنا أتبعه! ثمّ

(1) اللفظ تركي يعني "معلمة" لا يقصد به التّدريس بل معلم الكار أو الصّنعة.

أهملني وصار يغيب عن البيت ويسكر وترك الدّراسة ووجدت نفسي في الشّارع.

بعد فترة اقتادني البوليس إلى المخابرات العامة وهناك تعرّفت إلى بدر الذي زرعني في بحثيتا. كانت مهمتي محددة، البحث عن فتيات للمنزول وكتابة تقارير لبدر عن شخصيات معروفة كانت ترتاد المنزول. أشهر الفتيات اللواتي جندتهنّ

حبيبة الآرتية:

كانت تمتلك صوتًا رخيمًا ذا بحة حزينة تهيمن به على السّكارى فيتشاجرون آخر الليل ليحظوا بصحبتها. وعلى الرّغم من وجود ابن عمها بجانبها لم تسلم حبيبة من الاعتداء عليها واغتصابها من قبل الضّباط والعساكر الفرنسيين الذين يرتادون الملهى، حتّى جاءها ذلك الضّابط الوسيم يومًا وقدّم إليها وردة.. كانت أوّل مرّة في حياتها تتلقّى مثل هذه الهدية!

حبيبة التي تعودت على هدايا الذّهب والفراء والأحذية أذهلها أن يأتيها رجل بوردة.. لم يحتمل الأمر أكثر من لقاء حتّى وقعت صريعة العشق.

اختلقت حبيبة العديد من القصص لتستعطفني، ولم تقترب من القصّة الحقيقية أبدًا.

في الواقع لم أكن أبحث عن الحقيقة في قصص حبيبة كنت أسيرة جمالها وغنجها وصوتها الأسطوري والأهم أنّها كانت تتقن الفرنسية وتعرف كيفية التّعامل مع الزبائن الأجانب!

لم أعرف الاسم الحقيقي لحبيبة، ولم أهتم لذلك. المهم أنّها تعمل ساعات طويلة متواصلة من دون تذمر. لكنّها كانت تكثر من الشّراب وتدخّن بشراهة، حتّى السّاعات القليلة التي لا تعمل فيها لا تستريح ولا تنام، تغلق باب غرفتها، ويسمع سكّان المنازل المجاورة صوت غنائها مع نغمات العود الحزينة. الفتيات كنّ يلححن عليها لتغني لهنّ طقاطيق منيرة المهدية ليرقصن على إيقاعها. وأنا في غرفتي أسمع وأخزّن الغصات في صدري والدّموع في عينيّ.

يرتفع صوت حبيبة بأغنية منيرة المهدية.

على سرير النوم دلعني على سرير النوم دلعني

جاني الحليوة العصرية وجاب لي بيرة وشمبانيا

شرب وفرفشني شوية وعلى سرير النوم دلعني

أفتح شبّاك غرفتي، أمدّ رأسي وأنادي حبيبة لتأتي إلى غرفتي عندما تخفّ الحركة في الزّقاق، ويذهب الرّجال إلى بيوتهم! وجود حبيبة أثار موجة كراهية في قلوب بعض الفتيات في المنزول، كانت حلوة أكثرهن استياءً.

فيما بعد وضع موت حبيبة حدًّا لريح الكراهية التي عصفت بقلب حلوة وغيرة بقية البنات منها. جميع الفتيات ارتدين الأسود على حبيبة، وحضرن الجنازة في الكنيس اليهودي حيث أقيمت الصّلاة على روحها. وبعد عودتنا من الدّفن أخبرتني بدرية أنّها لمحت شبحًا في المقبرة متواريًا خلف شجرة.. هي على يقين أنّه هو الشّخص الذي قتل حبيبة.. لم تستطع الشّرطة القبض عليه.. ولم يهتم أحد بمصير حبيبة بعد مضي زمن قصير.. وكأنّ الحادثة قضاء وقدر!

من مذكرات نادرة الشّريف:

شارع بارون، حبيبة

أحيانًا يخيّل لي أنّ لحلوحة تستعير تاريخ الأخريات وتنسبه لنفسها، ينطبق ذلك على ذكرياتها عن حفلات فندق بارون، حدّثتنا عن يوم الافتتاح الفريد زاعمة أنّها كانت في حلب! نسيت أنّها أخبرتنا عن تاريخ مجيئها إلى حلب لكنّ الحكايات لا تعترف بالتّواريخ ولا يهمها الأزمنة!

أكثر شيء بَهَرَ لحلوحة فوانيسُ اللوكس التي أضاءت جنبات الفندق، علاقة لحلوحة بالضّوء علاقة غريبة، هي الوحيدة التي لا ينطفئ ضوء غرفتها أثناء نومها وأحيانًا تتركه مضاءً طيلة النّهار خاصة في أيام الشّتاء حتّى وإن كانت الشّمس ساطعة!

"الضّوء مرتبطٌ بالقيامة" تردّد لحلوحة القول الشّعبي الذي انتشر حين عرف سكّان حلب الكهرباء "تقوم القيامة إذا أجت المي من الحيط والضَّوّ من الخيط"! وما زال خوفها قائمًا مع مرور الزّمن وعدم تحقق النّبوءة الشّعبية. لم أفهم ذلك التّضاد بين المفهوم الشّعبي الذي يشبه اليقين لديها وإصرارها على إنارة البيت ليلَ نهارَ!

حكت لنا عن حفلة راقصة حضرتها بصحبة بدر في الأربعينيات كسيدة مجتمع أدهشت كلّ السّياسيين والضّباط الفرنسيين على الرّغم من دخولها العقد الرّابع من العمر إلاّ أنّها احتفظت بشكل فتاة لم تغادر عشرينها!

بعد انتقالنا للعيش في منطقة "الفيض" صارت لحلوحة تروي لنا الحكايات من دون تحفظ وتغفل أسماء أصحابها. حكت عن أوّل مرّة شاهدت فيلمًا سينمائيًا ملونًا في سينما "روكسي" أوائل الحرب، عن "فيفيان لي" وأثوابها التي ارتدتها في الفيلم، عن "كلارك كيبل" وشاربه الأنيق وشبهه بضابط فرنسي وقع في غرامها في الثّلاثينيات وعن شبه غريب بين "حبيبة" و"فيفيان" بطلة ذهب مع الرّيح!

كلّنا نذكر حبيبة لكنّ ملامحها لم ترتبط يومًا بالفتنة والجمال بل بالفاجعة والغياب. مع هذا خيّل لي وأنا أشاهد الفيلم أنّ حبيبة سافرت إلى أمريكا وغيّرت اسمها وأصبحت ممثلة مشهورة. الرّحلة المتخيلة لحبيبة ارتبطت بقطار الشّرق السّريع، وبما تحدّث عنه النّاس من وجود شخصيات استثنائية مهمة في فندق بارون حيث كانت تغني حبيبة أيام السبت قبل أن تهرب من ابن عمها وتلجأ إلينا.

خيّل لي أنّ حبيبة تعرّفت إلى شخصية مهمة في فندق بارون وسافرت معه في قطار الشّرق السّريع. لمَ لا تكون القصة الحقيقية ما رسمَتْه مخيلتي، فتعود حبيبة مرّة أخرى؟

تروي لحلوحة أنّها نامت في غرفة آغاتا كريستي نفسها مع الضّابط العاشق، لكنّي فصلت مباشرة بينها وبين الحدث وألبسته لحبيبة، حبيبة التي يليق بها أن ترتدي الفراء وتكون سيدة مجتمع تمشي في شارع بارون مرفوعة الرّأس تتباهى بأناقتها وانسجامها مع الشّارع الأنيق الذي لا يسير فيه إلا الباشاوات والأثرياء والأفندية الذين يرتدون أجمل ما لديهم من الملابس ليناسب فخامة الشّارع وعراقته وتقاليده.

حبيبة التي غنّت أيام السّبت في فندق بارون الفخم بحضور لفيف من الشّخصيات السّياسية البارزة وبرفقة ضابط فرنسي رفيع المستوى قدّمها للحضور على أنّها سيّدة راقية وصديقته الشّخصية.

في جلسة يتيمة حميمة دخّنت حبيبة سيجارة حشيش، انفكّت عقدة لسانها وباحت لي بتلك التّفاصيل التي حكتها لحلوحة على أنّها حياتها الخاصة. كان وصفها للشّخصيات دقيقًا وفريدًا، تحدّثت عن الأمكنة بفيض من الحبّ وكأنّها جزء منها، عن أنغام البيانو في الرّدهة، ركن الشّاي، الحمّام، نظرات الضّباط، طريقة جلوس السّياسيين وأحاديثهم.. وعن صوتها ذي البحة السّاحرة الذي يخلع قلوب الرّجال من أماكنها.

لم يحالفني الحظّ في مجالسة حبيبة ثانية، لكن ما أخبرتني به كان كافيًا لتقترن ذكراها بإحساس الفقد والقهر والظّلم.

* * *

لم أتدخل في حديث لحلوحة، لم أطرح سؤالًا ولم أقاطعها، فقد أدركت أنّ فضولي قد يترك أثرًا سلبيًا فتمتنع عن البوح بما أريد معرفته. قطعت لحلوحة حديثها عن حبيبة لتحكي لي عن بدرية.

بدريّة 1940

لا تذكر بدرية وجه والدها، كلّ ما بقي في ذاكرتها نساءٌ متشحات بالسّواد يبكين ويدفعنها بعيدًا ويغلقن عليها باب الغرفة. في روحها يقبع نحيبٌ متواصل لامرأة كانت تجلس تحت شجرة النّارنج في أرض الدّار.. وصوت تدفق مياه، ورجال يدخلون الغرفة المجاورة، وصوتٌ دافئ يسأل: "أين ابنته؟". صوت زوجة أبيها يجيب: "نائمة". الصّوت الدافئ يعلّق: "يا روحي صارت يتيمة، الله يكون معها". زوجة أبيها تعترض بنزق: "ومعي أولًا، سأحمل عبئًا لا طاقة لي به".

تتنفس بعمق، الصّوت يحملها على أجنحة دافئة، يحلّق بها بعيدًا، تتخيّل أمّها التي ماتت أثناء ولادتها، بكت طويلًا وغفت على البلاط البارد...

حرصت زوجة أبيها على عزلها في غرفة صغيرة، ومنعتها من تناول الطّعام معها، أو الجلوس في حضرة ضيوفها، لكنّ بدرية كانت تتلصص على جلسات النّساء لتعرف أخبار العالم خارج حدود البيت، عرفت أنّ للنساء "عادة[1]" وأرعبها الأمر، عرفت أنّ الرجال مختلفون في أجسادهم عن النّساء وأنّهم يملكون شيئًا تذكره النّساء بغبطة ويتضاحكن بمتعة!

كانت في العاشرة من عمرها حين فاجأها الحيض وهي نائمة، الرّعب الذي شعرت به حين رأت الدّماء جعلها تتكوّر على نفسها وتلزم الفراش.

لم تهتم زوجة أبيها كثيرًا حين دخلت غرفتها ورأت فراشها ملوثًا بالدّماء، استدعت الدّلّالة أم ديب وطلبت منها أن تشرح لبدرية كيف تتدبر أمرها. التّبدلات التي حصلت في جسدها لم تربكها بل جعلتها تشعر أنّها أصبحت امرأة ويحق لها الآن أن تفعل ما تفعله النّساء، لكنّها محبوسة في غرفتها لا تخرج إلى

---

(1) اللفظ يطلق على الدّورة الشّهرية.

الشّارع ولا السّوق ولا تصحبها زوجة أبيها إلى "استقبال" النّساء فكيف سترى الرّجال لتختار فارس أحلامها؟

الجدران تضيق وتطبق على صدرها، منذ رأته عصر البارحة على السّطح البعيد يصفر لطيوره ويومئ لها وضربات قلبها لا تتوقف عن قرع أذنيها بقوة ودفع الدّم إلى رأسها..

القلب.. ورّط بدرية في اتّخاذ قرارها بالهرب من البيت، جاءت الدّلّالة أم ديب لتطلب يدها من زوجة أبيها لابن الجزّار المعاق، وافقت زوجة أبيها مباشرة، وأخبرتها أن تحضّر نفسها للذهاب إلى "سوق المدينة" لتشتري لها ثوب الزفاف وحذاء جديدًا وهي تقول لها بلهجة حسد "بكرة بتشبعي لحم"

صعدت بدرية السّطح ليلًا، كان موسى الحميماتي ينتظرها، أخبرته أنّها ستذهب إلى السّوق لشراء الجهاز وطلبت منه أن يلحق بها.

في السّوق تركت بدرية الدّلالة أم ديب تفاصل البائع وتسلّلت هاربة، الزّحام سهّل مهمتها، كان موسى ينتظرها في مدخل السّوق الغربي، ركبا سيارة أجرة وانطلق السّائق غربًا.

توقف السّائق في مدخل زقاق ضيّق، نزلت بدرية وموسى وسارا حتى وصلا بيتًا في نهاية الزّقاق، فتح موسى الباب، أصدر صريرًا مزعجًا، دلفت بدرية إلى ممر قصير معتم يفضي إلى أرض دار صغيرة فيها بركة ماء ودالية وشجرة ليمون وأشجار رمان فتية. سار بها إلى غرفة على اليمين، فتح الباب وسبقها إلى الدّاخل.

كان قلبها يرتعش، الغرفة باردة ومعتمة، أشعل سراجًا وعلّقه على حامل في الحائط. اتّضحت ملامح الغرفة، فراش في الزّاوية، بضع وسائد، حصير يغطي الأرضية بأكملها، كرسي وطاولة صغيرة ونملية قرب الباب وموقد كاز صغير، وبجانب الفراش صينية طعام مغطاة بقماش أبيض! قال موسى وهو يساعدها في خلع ملاءتها:

- لاشكّ أنّك جائعة.

أومأت برأسها.

حملها بين ذراعيه، وضعها على الفراش برفق. وانحنى فوقها، همست:

- تحبّني؟
- فوق ما تتصوري.

اكتفت بدرية بهذه الكلمة بل لم يسمح موسى لها بسؤال آخر، أغلق فمها بشفتيه وهو ينزع ملابسها بسرعة، لم تفكّر بدرية في مقاومته كانت بشوق لاكتشاف الجسد المدهش الذي سمعت عنه، ومعرفة ذلك الفعل الذي يمتع النّساء وينتزع منهنّ التّنهدات ويجعلهنّ ينتشين وتنطلق حناجرهنّ بالغناء.

تناول موسى لقيمات من الدّجاج المشوي، وشرب كأس الشّاي، وارتدى ملابسه على عجل:

- لازم روح، الصّبح برجع ومعي الشّيخ يكتب كتابنا.

لم يترك المجال لبدرية لتناقشه أو تعترض، أضاف وهو يفتح الباب:

- في الغرفة المجاورة تسكن عجوز، هي صاحبة البيت، تؤجر هذه الغرفة فقط، تستطيعين استخدام الحمّام والمطبخ.

ارتعدت بدرية والباب يغلق وكأنّه أطبقه على روحها.. لم تخرج من الغرفة، لم ترَ العجوز، بقيت نائمة حتّى عصر اليوم الثّاني.. نهضت وجسدها كلّه يؤلمها.. خرجت إلى أرض الدّار، رأت العجوز جالسة على المصطبة تشرب شيئًا وتدخن سيجارة، اقتربت منها وسألتها عن الحمّام، أشارت العجوز بإصبعها من دون كلام.

مرّ اليوم الثّاني والثّالث والأسبوع والثّالث حتّى انقضى الشّهر ولم يرجع موسى! خرجت بدرية من الدّار عدّة مرّات لكنّها لم تبتعد كثيرًا، ذهبت إلى الفرن القريب، تسوّقت الخضار للعجوز، وقضت باقي الوقت في الانتظار! في نهاية الشّهر خيّرتها العجوز بين دفع الأجرة أو ترك الغرفة.

لم يكن أمام بدرية خيار فهي لا تملك مالًا، جمعت أغراضها القليلة في بقجة وخرجت من المنزل. أقرب مكان إليها كان الحديقة العامة، قصدتها، جلست على مقعد خشبي وتأملت النّاس من حولها.. الجميع يذهبون إلى غاياتهم.. حلّ المساء وهي جالسة، جائعة، ومنهكة.. بدأ الخوف يتسلّل إلى قلبها، ماذا ستفعل؟ أين تذهب؟ حينها كنت في الحديقة ورأيتها، اقتربت منها وسألتها إن كانت مريضة. لم تدرك سبب السّؤال ولم ترفع رأسها، اليوم الثّاني مرّ عليها من دون طعام.. الكون كلّه لا يساوي لقمة خبز الآن. سألتها:

- جائعة؟

وناولتها كعكة يابسة. خطفتها بسرعة والتهمتها، نظرت في عينيّ وكأنّها تعتذر وطلبت جرعة ماء.

* * *

عندما حكت لي لحلوحة عن حلوة كنت أرى في ملامحها مسحة حزن وكأنّها تحكي عن جزء مؤلم من ماضيها. بدأت حديثها عن طفولة حلوة قبل انضمامها إلى فتيات المنزول.

بديعة الأنتريك "دشمان[1] بالحمام"

جنّ "حسن" والد حلوة حين استطاع جاره "مصطفى" استقطاب طيره الشّخشرلي وضمّه إلى طيوره! ليس فقط لأنّه أجمل الطّيور على الإطلاق، وليس لأنّه اشتراه بمبلغ كبير من تاجر حلبي بل لارتباطه بابنته الجميلة التي أطلق عليها اسم "حلوة الشّخشرلي". "حلوة" ثمرة عشقه الكبير لأمّها بديعة التي كانت آية في الحسن وابنة ناظر المحطة الأفندي الذي جاء من حلب، لم يجد "حسن" في نفسه ندًا لـ "بديعة" يومًا، مشيتها كالأميرات، ملابسها تحاكي آخر صرعات الموضة

(1) لفظ تركي، المعنى أعداء بسبب الحمام.

القادمة من فرنسا، المرأة الوحيدة في القرية التي تتعطّر قبل خروجها من المنزل. "بديعة" كانت حلمًا بالنّسبة إليه لم يصدّق أنّه تحقّق حين وافقت على الارتباط به.. لم يبحث عن الأسباب واكتفى بالحمد على النّعمة التي رزقه الله بها. أطلق عليها أهل الحي لقب "الأنتريك[1]" فقد كانت لشدّة بياضها تضيء في الليل "زوجها لا يحتاج مصباحًا يدويًا ينير له عتمة الزّقاق ما دام برفقتها" هكذا تهامست النّسوة حين رأينها أوّل مرّة وهي عروس.

لم تتعامل معه "بديعة" كزوج عليها طاعته وتأمين متطلباته بل كسيّدة عليه طاعتها وتأمين ما يلزمها من دون مناقشة وبسرعة.. اعتاد "حسن" مع الأيام على الطّاعة الكاملة لبديعة مع شعوره المتفاقم أنّها بعيدة عنه بمشاعرها وقلبها وأحلامها، لكنّه هدهد شكوكه ومشاعره بيقين امتلاكه لها بعقد الزّواج. لم يدرك أنّ عقود القلوب لا تُكتب على الورق ولا تُلزم أيّ الطّرفين بتنفيذها.

أنجبت "بديعة" "حلوة" بعد سنتين من زواجهما ثمّ أنجبت "محمّد زاهر" وتوقفت عن الإنجاب سبع سنوات.. كبر "محمّد زاهر" خلالها ودخل المدرسة.. ولم تتوقف "بديعة" عن العناية بنفسها ولم تغيّر معاملتها لزوجها الذي انسحب تدريجيًا من حياتها وانشغل بتربية الحمام!

خلال سنة أهمل "بديعة" ولم تعد تعنيه في شيء ولم يعد يربطه بها سوى الطّفلين والعيش تحت سقف واحد. "حلوة" كانت الأقرب إليه مع أنّ الصّبي دائمًا يكون الأقرب إلى أبيه بحكم كونه الذّكر حامل النّسب. شعور ملتبس كان يضرب دماغ "حسن" بقوة حين يحدّق إلى وجه ابنه، كان دائم البحث عن لمحة تنبئ بشبه ما يجعله على يقين أنّ الولد من صلبه. لون البشرة، شكل الأنف، الجبهة، العينان! خواء يقع في قلبه بعد كلّ مرّة يفكّر فيها بـ "محمّد زاهر" ولا

---

(1) الأنتريك: الضّوء الصّادر من المصباح اليدوي وأطلقه النّاس على الكهرباء أوّل وصولها إلى الشّمال السّوري.

يذهب غيظه حين يسمع "بديعة" تقول إنّ ابنها يشبه خاله الذي توفي وهو طفل بل يزداد حيرة وشكًّا.

"حلوة "أبدت حنانًا استثنائيًا نحو أبيها فسمّاها باسم أعزّ طيوره إليه. وحرص على رفقتها معظم الوقت، تصعد إليه حاملة الطّعام، تنظّف السّطح، وبيت الطّيور، وترشُّ الرّيحان والحبق بالماء وتصنع له كأس الشّاي، يعلّمها كيفية جمع الحمام والاستيلاء على الطّيور.. كان والدها بارعًا في جذب طيور الآخرين وضمّها إلى طيوره. أوّل درس تلقته حلوة وأتقنته كيف تميّز أنواع الطّيور وهي تحلّق ولا تكاد تبين.. والدها كان بارعًا في معرفتها وتحديد نوعها براعته في فرز حمامه عن حمام جيرانه عندما تختلط أسراب الطّيور أثناء طيرانها.

عصر أحد الأيام استطاع والدها أسر طير بايملي أسود فحل من طيور جاره "مصطفى".. حين التقى به في الزّقاق عرض عليه – حسب العادات – أن يردّ إليه طيره أو يشتريه منه، لكنّ "حسن" لم يشأ أن يعيد الطّير أو يبيعه لصاحبه.. ولأجل ثأر قديم بينهما إثر سخرية "مصطفى" وتقليله من شأن مهارته في تربية الحمام وجمعه أخرج "حسن" الطّير وذبحه أمام عيني "مصطفى" الذي طاش الدّم في رأسه وفقد أعصابه وحدث شجار بينهما منع الجيران تطوره وحاولوا إصلاح الأمر بينهما.

حلف "مصطفى" أمام أصدقائه في "مقهى الحمام" بالطّلاق بالتلاتة أنّه لن يرضى بأقلَّ من الشّخشرلي عوضًا عن طيره، وأنّه لن يبيت في فراش زوجته حتّى يستعيد كرامته المهدورة.

سمع "حسن" الأيمان التي حلفها جاره، فما كان منه سوى أن عَلَّم عليه بسرقة طيرين آخرين البربريسي والأقطف.

لم يكتفِ "مصطفى" بسرقة الشّخشرلي بل ذهب بعيدًا في التّعبير عن غله وضيقه من "حسن"، انتظر "بديعة" ذات مساء وهي عائدة إلى البيت

وعـرض عليهـا أن تنـام معـه مـا دام زوجهـا لا يعـرف قيمتهـا ولا يراعـي احتياجاتها..

صفعت "بديعة" جارها وخلعت حذاءها وضربته به، اجتمع سكّان الزّقاق على صوتها وقاموا بضرب "مصطفى" واسترضائها، دخلت البيت وهي تصرخ على "حسن" لينزل من السّطح:

- اترك الحمام وتعال انظر إلى المصيبة التي حدثت.

لم يرد "حسن" كان قابعًا في زاوية السّطح متربصًا بطيور "مصطفى" وبيده ميفعته حين وصلت "بديعة" سحبتها من يده ورمتها أرضًا وداست عليها وهي ترغي وتزبد:

- الحمام أهم عندك من شرف زوجتك.

نظر إليها ببرود:

- الأمر لا يتعلّق بالشّرف.

- بماذا يتعلّق إذن؟ اتركه حتّى يتحرّش بابنتك.

طاش الدّم في رأس "حسن"، كلام بديعة حرّك شيئًا في داخله لا علاقة له بغيرته عليها بل بأشياء أخرى أكثرها إيلامًا سرقة "مصطفى" لطيره الشّخشرلي، ولأنّه تخيّل أنّه يمكن أن يخطف حلوة أو يعتدي عليها!

حمل سكين المطبخ وخرج إلى الشّارع، دفع باب دار جاره، وهجم عليه وذبحه في أرض دياره.

لم تقف دائرة الثّأر هنا، فبعد سجن "حسن" والحكم عليه بالأشغال الشّاقة المؤبدة، خرج ابن "مصطفى" الشّاب إلى السّاحة وتربص بالطّفل الصّغير "محمّد زاهر" وهو عائد من مدرسته وذبحه وقطّعه ورمى أجزاء جسده في أنحاء السّاحة ولم يجرؤ أحد على التّقدم وإنقاذ الطّفل. لجأت "حلوة" أثناء ذلك إلى بيت صاحب المقهى الذي تكفّل بحمايتها حتّى قبض الدّرك

على ابن "مصطفى" وأودعوه السّجن حينها أخذها إلى بيت عمتها في حلب.

في حلب تحرّش بها زوج عمتها واتهمها بأنها على علاقة بشاب من الحي مما اضطر عمتها لطردها.

* * *

لم أجد صعوبة في إقناع حلوة بالذّهاب معي إلى المنزول، كانت صغيرة تشحذ لقمتها على الأرصفة وهي في حالة مزرية من القذارة والخوف.

لم تتقبلها الفتيات في بادئ الأمر فعلى الرّغم من صغر سنها كانت شرسة وحادة الطّباع. وحدها صفية لم ترَ في حلوة منافسًا لها وقبلت أن تدربها وتحميها.

كانت حلوة تقف وراء النّافذة وتنصت لحديث حبيبة، وتضحك في سرّها، منذ جاءت إلى المنزول وهي على صدام مع حبيبة، الكراهية التي أنشبت أظفارها في روح حلوة على جنس النّساء قبل الرّجال تجمّعت في شخص حبيبة، الجميلة المغناج صاحبة الصّوت الدّافئ المرغوبة من الرّجال على مختلف أعمارهم ومشاربهم. منذ البداية كانت حلوة تعتقد أنّ حبيبة تسرق زبائنها، مع أنّ نظام البيت الصّارم كان يمنع ذلك وهو ما جعلها تصطدم مع حبيبة مرارًا، كنت أعتبر وجود حبيبة في المنزل مصدر الرّزق الحقيقي للجميع.

لم يكن صدام حلوة مع حبيبة مباشرًا بل سعت لتكيد لها بنشر شائعة بين زبائنها تقول إنّ حبيبة مصابة بداء معدٍ، وقد أتت شائعتها أكلها، فقلّ عدد زبائن حبيبة، ولم يفتني أنّ هناك سرًا وراء ذلك سعيت للتّأكد منه. حلوة التي رمت الشّبك من خلال تجسسها على حبيبة اصطادت صيدًا ثمينًا بمعرفتها قصّة العشق القاتل بين حبيبة وابن عمها الذي فرّت منه إلى حلب، فلحق بها من ملهىً إلى آخر، حتّى لم يعد أحد يرضى أن تعمل عنده بسبب المشاكل التي يثيرها ذلك

العاشـق. ثـمّ رأتـه.. وعرفتـه، وفهمـت طبيعـة العلاقـة المـدمرة بينـه وبـين حبيبـة وحدست أنّ نهاية حبيبة ستكون على يده.

لم تنتظر حلوة كثيرًا، حدث الأمر بأسرع مما تصورت، تسلّل العاشق خارج البيت بعد أن ضاجع حبيبة بالقوة وخنقها ثمّ أشعل النّار في فراشها.

كانت حلوة تتنصت لحديثهما كما تنصتت في اليوم السّابق لحديث بدرية وحبيبة.. عرفت التّفاصيل السّريّة لحياة حبيبة، الفتاة اليتيمة اللاجئة التي جاءت من اليونان مع أطفال آخرين، وعاشت حياة التّشرد مع ابن عمها، كانت في العاشرة من عمرها حين رآها صاحب ملهى تشحذ في أحد الشّوارع وهي تغني بصوت رخيم..

الطّفلة الذكية التي تعلّمت العربية في مدّة قصيرة كانت تتقن الغناء باللغة اليونانية وتحفظ الكثير من الأغاني التي حازت إعجاب الجنود فصارت تحفظ أغانيَ باللغة الفرنسية حين وقعت في عشق ضابط فرنسي وعدها باصطحابها معه إلى باريس.

احتمل ابن عمها تقلباتها وعملها ومزاجها الصّعب بسبب الأموال التي كان يجنيها من حمايته لها، عِشقُها للضابط الفرنسي ومحاولتها ترك البلد أطاحا بعقل ابن عمها، لكنّه لم يكن السّبب في دفن أحلامها ويأسها فقد غادر الضّابط حلب ولم يبقَ لحبيبة أمل في السّفر، توارت عن أنظار ابن عمها زمنًا، تخفّت خلاله في منازل معارفها حتّى التقت بي.

لم يؤثر مقتل حبيبة على نفسية حلوة كما فعل ببقية البنات بل شعرت حلوة أنّ همًا انزاح عن صدرها، اكتشفت كم كانت تكرهها مع أنّهما تشتركان في البؤس والتّعاسة، رغبة حلوة في الانتقام من البشر بسبب ما عانته بعد هرب أمّها وسجن أبيها واعتداء زوج عمتها عليها وهي في العاشرة من عمرها تحقّق كلّه في شخص حبيبة، لم تكن تنافسها وتقطع رزقها فقط بل كان صوتها الجميل يثير أعصاب

حلوة ويستفزها، وأكثر ما أثار حقدها على حبيبة عشق ابن عمها الغريب لها على الرّغم من عملها في الدّعارة وعلاقتها بضابط فرنسي!

مجيء "وهيبة" إلى المنزول أثار زوبعة جديدة بعد أن هدأت العداوات بين الفتيات بموت حبيبة.

لم تعرف وهيبة من حلب سوى نسيمها الذي لامس وجهها حين وصلت مدخلها الغربي ليل السّابع عشر من آذار 1958.. ما علق في ذاكرتها الرّائحة المنعشة لزهور العسل والنفنوفة ونخ الثّلج والياسمين الأصفر المُعرّش على أسوار حدائق البيوت.. بعدها دخلت السّيارة في حارات شعبية ونزلت مع كاسر في مدخل زقاق ضيّق، شعرت بانقباض على الرّغم من الرّوائح الجميلة لخليط الطّبخات الحلبية المتسرّبة عبر الأبواب المغلقة.

أقامت في غرفة صغيرة مع عائلة استضافتها لعدّة أيام، ثمّ استأجر لها قبوًا في حي شعبي، لم تجرؤ على مخالفة أوامره والخروج من المنزل أو زيارة الجيران والتّعرف عليهم، في البداية اكتفى بتحذيرها ثمّ صار يقفل الباب بالمفتاح.

بعد شهرين طلب منها فجأة أن ترتدي أجمل ما عندها وتتزيّن واصطحبها معه إلى سهرة في بيت أحد أصدقائه - كما ادّعى - اكتشفت أنّها كانت المرأة الوحيدة هناك بالإضافة إلى خادمة تحضر طلبات الرّجال من مشروب وطعام وهم يلعبون الورق!

على مدار أسبوع كان عليها أن تذهب معه وتراقب اللعب وتبتسم للرجال وتتغاضى عن مزاحهم وغمزهم وعبارات الغزل الجنسية الصّريحة وحتّى لمساتهم لجسدها بطريقة فاضحة.. كاسر يغض الطّرف وكأنّه لا يسمع ولا يرى شيئًا، حين عاتبته صرخ في وجهها:

- أتظنين نفسك رابعة العدوية! تذكّري من أين أتيت بكِ.. ستفعلين ما آمرك به من دون اعتراض.

لم تعد تعترض وبدأ خوفها يزداد من تخلي زوجها عنها، بدأ يتركها لهم لدقائق بحجة حاجته للحمّام، أو ينزل من البيت لشراء علبة دخان، وكان عليها أن تدفع عن نفسها تحرشاتهم أو ترضى بعروضهم السّخية لتنام ليلة في فراش أحدهم..

كان أكثرَهم شراسة شخصٌ صامتٌ لا يتكلم، ينظر إليها بوقاحة واستصغار ويبصق في منديله أحيانًا.. عرفت أنّ ذلك الشّخص ضابط ذو رتبة عالية في الجيش لكنّه يحضر بملابس مدنية إلى السّهرة.. كما عرفت فيما بعد أنّ صاحب البيت يعمل في إدارة المخابرات العامة، وأنّ زوجها يخسر في القمار كلّ ليلة ولم يعد معه من المال ما يلعب عليه ووافق على إحضارها معه ليلعب عليها!

أخيرًا ربحها الضّابط في اللعب، نهض من وراء الطّاولة وشدّها من يدها ودفعها خارج المنزل.. في الشّارع الخالي بعد منتصف الليل طلب منها أن تتعرّى.. خافت وحاولت الهرب منه.. لكنّه شدّها من شعرها وطرحها أرضًا...

جرّها على البلاط حتّى وصل سيارته دفعها داخل الجيب وجعل سائقه يضاجعها وهو يتفرّج ثمّ أمره بأخذها إلى بحثيتا..

كانت وهيبة على استعداد للحاق بكاسر إلى آخر الدّنيا، وسوريا بالنّسبة لها كانت آخر الدّنيا فهي لم تعرف في حياتها سوى بلدتها الصّغيرة والقاهرة.

لم تمتلك الفطنة والحدس الكافيين لمعرفة نوايا الرّجل الذي تزوجته، اكتفت بما قدّمه لها وما وعد بتقديمه، لم تكن بحاجة لأكثر من بيت يؤويها ورجل يدفع عنها غائلة الجوع وتوحش الرّجال الطّامعين بجسدها.

حين تفكّر في ما آل إليه حالها تكره نفسها، تبكي بهدوء وألم وهي تتأمل الأطفال المتشبثين بأيدي أمّهاتهم، وتتذكّر حين كان حمدي يقول لها منذ ثلاثة أعوام إنّه سينجب منها "دزينة عيال" تضحك وتقول له إنّها لن تتحمل إنجابهم وتربيتهم، لكنّه يصرّ ويريد أن تكبر أرضه ويكبر الأولاد ليصبح لديه عزوة وعشيرة

من الأحفاد.. فترضخ مبتسمة وتتخيّل كيف سيصبح البيت بهم.. لم يمهل القدر حمدي ليحقّق حلمه.. فقد واجهه والده باعتراضه على الزّواج من وهيبة وأجبره على خطبة ابنة عمه تحت التّهديد بحرمانه من الميراث.

ليس والد حمدي من وقف في وجه زواجهما فقط، قدرهما كان أقوى من إرادتهما، وهيبة وجدت نفسها فجأة عارية كشجرة وحيدة وسط صحراء تحاصرها الرّمال والعطش وتعبث بها الرّيح، ووسط ذلك الضّياع جاء كاسر السلّوم حاملًا معه الماء، والسّقف، والجدران، والطّعام!

كاسر لم يكن رجلًا وسيمًا كما في حلم أيّ امرأة، وأبعد ما يكون عن حنان حمدي ودماثته وطيبته، الجدية في تصرّفاته أفزعت وهيبة في البداية لكنّها نسبتها إلى طبع الرّجل المرتبط بلهجته وبلده التي جاء منها.. قضت أشهرًا معه في القاهرة قبل السّفر استطاعت خلالها أن تقترب منه وتتعلّق به على الرّغم من غلظة طباعه وتجهمه الدّائم.

* * *

أتعلمين يا فريدة؟ الفتاة الوحيدة التي دخلت المنزول ولم تثر اهتمام أو غيرة إحداهن هي فضّة.

أرسلها إليّ بدر شخصيًا، وحكت لي قصّتها كما تفعل كلّ فتاة تنضم إلينا. أوّل سؤال سألتها إياه عن لقبها الغريب "العرموطية" أخبرتني أنّه اسم المنطقة التي ولدت فيها. وقد جاءت إلى حلب مع رجل يدعى "جال" أفندي.

اعتاد جال أفندي أن يزور خيام النَوَر في العرموطية كلّما حطَّ الرّحال في مدينة أنطاكية التي يمرُّ بها في طريق ذهابه وإيابه من حلب إلى اسكندرون.

المرّة الأولى التي رأى فيها فضّة ترقص في حفل عرس أقامه أحد أصدقائه التّجار لابنه، حركاتها العشوائية كانت مثيرة للضحك، وجسدها النّحيل لا يلفت

الانتباه، رآها ضائعة وسط الرّاقصات الكبيرات بأجسادهنّ الممتلئة.. حتّى زينتها لم تناسب ملامحها النّاعمة الدّقيقة.. لكن عندما بدأت الغناء وراء "النّوريات" أنصت جال أفندي جيدًا، أخذ صوتها بمجامع روحه، ووجد نفسه يُحلّق عاليًا.. سأل صديقه من تكون هذه الطّفلة فأرشده إلى شقيقها الذي قبع في زاوية يلعب القمار، استدعاه إلى طاولته.. صبّ له الخمر، وتباسط معه في الحديث، علم أنّ فضّة يتيمة وأنّه قريبها الوحيد..

حين لعب الخمر برأسه سأله:

- بكم تبيعها؟

وأخرج من جيبه كيسًا مليئًا بالنّقود ووضعه على الطّاولة. جحظت عينا نشأت وهو يرى النّقود، مدّ يده وخطف الكيس:

- هي لك.

لم يُضع جال أفندي الوقت، أخذ فضّة من يدها، ركبا السّيارة وغادر البلد.

لم تمرّ سوى أشهر قليلة على وجود فضة مع جال[1] أفندي حتّى تغيّرت ملامح جسدها، وبدأت فتنة وجهها تتضح، أخذها لعند عوّادة مشهورة في حلب لتعلّمها أصول العزف والغناء، حاولت تعليمها العزف لكنّها فشلت، لم تستطع فضة إتقان العزف خلال سنة كاملة كما لم تستطع إتقان حركات الرّقص الشّرقي، بقي جسدها يعاني من التّخشب في منطقة الحوض، أتقنت حركات اليدين والرّأس أمّا ساقاها فكانتا تسيران بسرعة في كلّ الاتّجاهات وكأنّها في سباق جري، أخبرت العوّادة جال أفندي أنّه لا فائدة من تعليم فضة، فإمكانياتها محدودة ولا تصلح سوى للغناء باللغة التّركية؛ لأنّ لكنتها تظهر حين تلفظ الأحرف العربية. بذلت فضة جهدًا كبيرًا كي يرضى عنها جال أفندي، لكنّه لم

(1) الاسم يُلفظ بالجيم المصرية، ويعني بالتركية "تعال".

يحتمل خسارة أمواله ورهانه عليها فباعها لصاحب أحد الملاهي. في تلك الفترة تعلّقت فضة بجال أفندي وتخيّلت أنّه سيتزوجها بعد أن تصبح شبيهة بفنانات حلب الشّهيرات، لكنّ أحلامها وتخيلاتها ذهبت أدراج الرّياح حين غادر حلب ولم تعد تراه.

عيبٌ وحيد حال بينها وبين الزّبائن الوشم الفاضح لأصلها في ذقنها ويديها. ليس الوشم وحده من حدّد مصير فضة بل شراستها في التّعامل مع الزّبائن آخر الليل.. إدراكها أنّها ليست حرّة وأنّ أيّ رجل يمكن أن يشتريها بماله عمّق الشّروخ في روحها فأطلقت طاقة سوداوية حولها لم يحتملها صاحب الملهى فقدّمها هدية لمدير المخابرات بدر.

تأملها بدر حين مثلت بين يديه، لم يكن فيها ما يثير شهيته لممارسة الجنس معها، لونها الأسمر، مكياجها المنفر، شعرها الأجعد القصير، وقامتها الطّويلة أكثر مما يحتمله مزاجه.. صدرها مسطح، ردفاها ضيقان، همس "بئس الهدية". وغمز لمعاونه منصور الذي بلع ريقه بصعوبة وهو يسألها إن كانت جائعة.

لم ترفع فضّة رأسها، لم تهتم كثيرًا للمكان الذي وصلته ولا لشكل الغرفة ولا الأثاث، وضعت رأسها على وسادة فوق بلاط الغرفة ونامت مباشرة.

أيقظها منصور في الصّباح وأحضر لها طعامًا، أكلته وعادت للنوم.. بعد مضي شهر تردّد منصور حين دخل على بدر يريد أن يشتكي، فهم بدر ما يريد، فاختصر الأمر بكلمتين:

- خذها إلى منزل لحلوحة.

جاءه الفرج، كانت تأكل كبقرة ولا تسمن، تنام وتشخر، لا تهتم بنظافتها، ولا تهتم حتّى بتمشيط شعرها.. لم يدرك منصور أنّ فضة تتعمّد فعل ذلك كي لا يقترب الرّجال منها.. وهو ما أدركتُه منذ اليوم الأوّل الذي قضته فضة في منزلي فسعيت لترويضها وتحضيرها بشكل يتناسب مع سمعة المنزل.

لم تسعَ فضة إلى الحبّ؛ لأنّها تعتبر الكراهية هي المشاعر الوحيدة التي يمتلكها البشر، والشرّ هو الطّاقة الوحيدة التي يختزنونها في أجسادهم، ورثت الحذر ولم تتعلّمه؛ لذا كانت ردود أفعالها غالبًا تجلب لها المشاكل.

* * *

أجمل فتياتي وأرقهنّ كانت نادرة، اسمٌ على مسمى، أيقنتُ منذ النّظرة الأولى في عينيها أنّي عثرت على كنز، أمسكت يدها بقوة، خشيتُ أن تفرّ مني وتختفي في الأزقة أو يصادفني أحد أقاربها.

لم يطمئن قلبي حتّى دخلنا البيت، خلعتُ ملاءتي وناديت حلوة لتحضر لي كأسًا من ماء الورد.

نزلت حلوة من العلية ببطء، تجرُّ جسدها المتعب. تأملتني طويلًا ونبرت:

- أين وجدتها؟
- في المكان الذي وجدتكِ فيه، اذهبي وأحضري لي كأس الشّراب ريقي ناشف.
- معلوم يا عمي، الصّيد محرز.

تجاهلتُ نبرة السّخرية في لهجة حلوة، اقتربت من نادرة، ربتُّ كتفها:

- لا تخافي، أنت جائعة بالتّأكيد.

لم ترد، صمتها أبلغ من الكلمات، أحضرت لها بعض الجبن والخبز وصحن مجدرة بائتة، انتظرتها ريثما انتهت من طعامها وسألتها عن أهلها، كنت حريصة على معرفة التّفاصيل كي لا أقع في الفخ الذي نصبته لي حبيبة حين كذبت عليّ بشأن أهلها وادّعت أنّهم ماتوا جميعًا وأنّها جاءت من مرعش إلى حلب. واكتشفت فيما بعد أنّ ابن عمها يبحث عنها وتبعها إلى المنزول.

حكت لي نادرة قصتها ولمست الصّدق فيها، لم تكن تعرف الكذب! (زوجة أبي ضربتني ومزّقت ثوبي ورمتني في الشّارع. كسرت أصابعي الصّغيرة حين رأتني أداعب عود أمّي وحطّمته أمام عيني.

أنا الشّاهدة الوحيدة التي رأت الحقيقة، رأيتُ كيف قتل شقيقها أبي، رأيت بعينيّ كيف أمسك بخناقه ودفعه وسقط على الأرض، بركة دم كبيرة كانت تحت رأسه. زوجة أبي قالت إنّه تزحلق وسقط فوق حجر.. كنت فوق، مختبئة داخل الشّجرة، رأيتهما، أبي يتهمه بسرقة ماله وهو لا ينكر.. كان يقول إنّ ذلك حقّه، بكلّ وقاحة كان يعتبر مال أبي له، أبي الذي لم ينجب صبيًا يرثه، أبي الذي تزوج من امرأة تصغره بعشرين سنة بعد موت أمّي اكتشف أنّها كانت تساعد شقيقها على سرقته، عرف كلّ شيء قبل أن يموت).

سألتها:

- ماذا كان يعمل أبوكِ؟
- لا أعرف، كان يأخذني معه إلى معمل بسكويت، ربّما كان ملكه، كلّ العمال كانوا يحبونني ويلاطفونني ويحضرون لي الحلويات. كلّ أصدقاء أبي كانوا يحملونني ويعتبرونني دمية جميلة.
- ألا تتذكرين اسم بلدتكم؟
- لا، لا أذكر، أعرف اسم زوجة أبي فقط، كان اسمها مليكة، وأبي كان حشمت آغا. وأمّي كانت فكرية خانم، وأبي كان يناديني جوهرتي النّادرة.

لا أعرف إن كان اسمي جوهرة، أم نادرة، الاسمان التصقا بي.

همست حلوة لبدرية "وجهها شؤم" وكأنّها عرفت ما سيحدث.

كنت يومها في زيارة بدر وأخذت نادرة معي، تركتها في غرفة الخادمة،

حين عدنا كانت العتمة تهيمن على الزّقاق الضيّق، أمسكت يدي بقوة وضغطتها، التصقت بي تطلب الحماية، سألتني وهي ترتعش "لماذا أطفأوا

القناديل؟". أجبتها وأنا أشعر بالقلق: "سيصلحونها قريبًا".

لم يعرف أحد سبب تحطم القناديل، بقيتُ مستيقظة طيلة الليل، أسمع آهات مكتومة تمزق سكونه، وأصوات أقدام تخرج من المنزل مرتبكة وثقيلة، وأخرى تدخل خفيفة وحالمة، أصوات الأحذية المغادرة تقرع البلاط بقوة، أصوات الأقدام الدّاخلة ذات إيقاع حذر.

اكتشفت تلك الليلة مقدرة نادرة على تمييز الأصوات وتصنيفها، كانت تصفر صفرات متقطعة لاهثة مع الأقدام الدّاخلة وأخرى هادئة وطويلة مع الأقدام الخارجة. فتحتُ الباب ببطء وحدّقت إليها باستغراب:

- صاحية إلى الآن!

كانت مضطربة قالت لي: "أسمع صوت اختراق الرّيح لحبات النّارنج في الفسحة الضيّقة أسفل الدّرج وهمسٌ مريب من الغرفة المغلقة على الصّمت والسّواد".

جلستُ بجانبها على السّرير، مسحت شعرها، ربّتّ كتفها، وهمست:

- نامي، في الصّباح سنجد حلًا.

اندسّت في حضني وغفت، نامت ليلتها نومًا عميقًا.

إحساسها بالعتمة لم يتلاشَ بعد إصلاح القناديل ولا بعد وجود الأنتريك، كانت تعتقد أنّ روح حبيبة سكنت ذرات الهواء وفضاء الزّقاق، تصرخ في الليالي فيفزع الزّبائن في المنازل المجاورة، وتصل الرّيح السّوداء إلى فسحة بيتنا تنفخ في ثمرات الكبّاد الصّفراء فتشتعل كقناديل تطلق رائحة شواء قاتلة، تلك الرّائحة الخانقة تقف بينها وبين الزّبائن، كانت تقول إنّها تشمّها في ملابسهم وكأنّهم يتعطرون بنثار اللحم المحروق!

قرّرت الهرب، لم تعد تحتمل الرّائحة وذلك الفعل الشّنيع.. أدركتُ ما ستفعله فأقفلت عليها الباب. عالجتْ القفل، وحين لم تفلح في فتحه أغمي عليها.

حملتها الفتيات إلى غرفتي، رششن وجهها بماء الورد، فتحت عينيها، همست:

- الله يخليكِ اتركيني روح، الرّائحة ستخنقني.
- أخبرت بدر عن جمال صوتك وموهبتك في تقليد الأصوات بالصّفير حتّى لو كان صوت حذاء يقرع البلاط.

ابتسمتْ:

- هل يستطيع بدر أن يحضر لي عودًا لأعزف عليه؟
- بالتّأكيد، سيفعل ما هو أهم.

* * *

أعرف أنّك تنتظرين الحديث عن صفية وأنّك صبرت على كلِّ ما رويته لكِ؛ لأنّك تريدين معرفة ماضي صفية بالذّات.

وجود صفية مرتبط في ذاكرتي بموت حبيبة، يومها حلّت العتمة مبكرًا، الجوّ في الخارج ينبئ بعاصفة، ازدادت كثافة الضّباب، حضوره الثّقيل جعل الفتيات يتوارين في الغرف..

خرجت بعد دقائق إلى الفسحة الصّغيرة أمام غرفتها، انحنت فوق الدّرابزين ونادت على حلوة، المكان غارق في الصّمت.. نادت مرّة أخرى، سمعت صوتًا خافتًا يردُّ عليها من إحدى الغرف بأنّهن نائمات في الصّالة عندي من أجل المدفأة!

لم تشأ أن تغامر بالنّزول حيث ترك الضّباب نداه وأصبحت الدّرجات زلقة. عادت إلى غرفتها، أغلقت الباب واندسّت في الفراش.

شمّت رائحة غريبة لم تمنعها كثافة الضّباب من الانتشار بقوة كما فعلت مع صوت تحطم قناديل الشّارع.. ظنّت أنّ الرّائحة قادمة من الزّقاق.

سمعت صوت حركة خفيفة في فسحة الدّار، الحركة قريبة من باب الدّار، الباب! كأنّه مفتوح!

نهضت صفية، خرجت من غرفتها، رائحة الشّواء اخترقت أنفها، الدّخان يتصاعد وسط الضّباب من جهة المطبخ، لمحت النّار.. صرخت بأعلى صوتها: "حريق".. الفزع دفع بالفتيات خارج الصّالة، تعالى الصّراخ، واندفع رجال من الزّقاق إلى الدّاخل، ووسط تلك الفوضى سمعت صوت باب المطبخ يكسر ودلاء الماء تخمد النّار و... ارتفع صوتها بصراخ مهيب متفجع. أدركت أنّ كارثة حلّت بالمنزل!

وصلت الإطفائية متأخرة بعد أن لجأت الفتيات إلى منزل مجاور وبقيت صفية واقفة في الضّباب والصّقيع وسط عتمة كثيفة تحدّق إلى الفراغ والخراب وترى كلّ ما حدث وكأنّه يحدث في منام ستصحو منه بعد دقائق على أنفاس ثقيلة تفوح من زبون سكران، ستغتسل وتأكل وتنام ثانية!

مرّت حادثة تحطم القناديل بشكل عابر، وجاء الدّومري بعد أيام بصحبة شخص آخر، استبدلا القناديل المحطمة.. لكنّ الضّوء الجديد بقي شاحبًا، أصفر، ينذر بالموت، ويعيد صياغة الحكاية ليهمسها في أذن الرّيح.

خفّت الحركة في الزّقاق، وقلّ الزّبائن، لم يعد هناك سوى الفضوليين وبعض الطّلاب وزبائن فقراء. توقف الباشوات عن الحضور، رائحة الكساد تسرّبت إلى الأجساد المهملة كما في بضائع الأسواق... رحيل الفرنسيين أوقف حالنا.

عقّبت صفية: "أحسن، الله لا يردهم، لم يدفعوا لكِ يومًا، لماذا تتحسرين على رحيلهم؟". استفزني ردّ صفية فنهضت أريد ضربها ثمّ عدلت عن ذلك: "من قال لكِ إنّي أتحسر عليهم؟ أنا أكثر النّاس تضررًا من وجودهم، لكن من أوقف حالنا أولاد الأكابر الذين ارتبطوا مع الفرنسيين غالبًا.. ألا ترين أنّ الحي صار مرتعًا للشّحاذين والمراهقين؟".

ضحكت حلوة: "وما لهم المراهقين؟ خيرهم فيهم".

قلت باستياء: "وجيوبهم فاضية".

ردّت حلوة: "يا ستي الله الرزّاق، كلّه نصيب حتّى لقمة الخبز مقسومة.".

علّقت بدريّة بعد صمت طويل: "الله يرحم أيام العزّ، كلُّ شيء كان ماشي على المسطرة.".

أي والله.. الله يرحم أيام العز...

ما تعرفه بدرية وتذكر تفاصيله الدّقيقة أخبرتني به فيما بعد، كانت أوّل من عرف الحقيقة التي أخفيتها عن الفتيات. خرجت من الصّالة وهي ترتجف من البرد، عبرت أرض الدّار باتّجاه المطبخ الواقع في مدخل البيت، لمحت طيفه من خلال الضّوء الشّحيح المتسرب من نافذة حبيبة.. إنّه هو.. لا يمكن لبدرية أن تخطئ وإن كان الضّباب يملأ الخلاء ويشوِّش الرّؤية.

وضعت ركوة القهوة على النّار وانتظرت دقائق ريثما يغلي الماء، رفعتها عن النّار، وضعتها قرب البابور وراحت تبحث عن علبة البن.. مع انشغال ذهنها بأمور شخصية رتّبها اللقاء بأم ديب الدّلّالة في حمّام السّوق، لم تنتبه مباشرة إلى مروره بجانبها وخروجه بخفة من باب الدّار الموارب. لكنّ الرّائحة نبّهتها، تلفتت حولها بحثًا عن مصدرها، لم تجد شيئًا، أطفأت البابور ورصفت الفناجين في الصّينية وهمّت بسكب القهوة عندما هبّت ريح دفعت باب الدّار بقوة فارتطم بالجدار واندفع دخان كثيف نحوها مع اشتداد رائحة الحريق. تركت كلّ شيء من يدها وخرجت من المطبخ، كانت صفية تقف أعلى الدرج أمام باب غرفتها وهي تصرخ، باب الصّالة مغلق، وكلّ شيء غارق بالضّباب والسّكون.

ألسنة النّار اندفعت من نافذة حبيبة، أدركت بدرية أنّ اقترابها من النّافذة خطر، ومع هذا اقتربت من الباب، جثت على ركبتيها وفتحته، لم تستطع التّقدم خطوة إلى الدّاخل، كانت حبيبة مستلقية على السّرير من دون حراك والنّار تلتهمها.

في صباح اليوم السّابق كانت حبيبة في حالة سكر شديد أرغمتها على شرب القهوة وأكل قطع بسكويت صغيرة.

بكت حبيبة وتشنّج جسدها ودخلت في غيبوبة قصيرة، نامت بعدها ساعتين وحين استيقظت كانت بدريّة ما تزال بجانبها. أمسكت يدها وبكت من جديد، لم تسألها بدرية عن السّبب، تركتها تفرغ شحنات قهرها بالبكاء وأخبرتها السرّ الذي لم تبح به لأحد.

انشغلت صفية بنفسها عن حكايات الأخريات وهو طبعها منذ جئتُ بها إلى المنزول يوم الجمعة الحزين...

يومها وصلت الحديقة العامة مع شروق الشّمس، وشممت بعمق رائحة العشب المجزوز حديثًا. العمال يكنسون الممرات ويلتقطون الأوساخ من المساحات المعشبة.. جلست على كرسيِّي المفضل قرب الممر الواسع للمدخل، من هناك أراقب الدّاخلين والخارجين وأستمع لحكايات العجائز. أستمتع بالشّمس وأرى تفتق أزهار اللوز البعيدة. لسعتني آخر الأنفاس الباردة للصّباح نفحها النّسيم على بشرتي النّاشفة لتزداد توهجًا واستثارة.. مددت أصابعي ودعكت وجهي برفق، آلمني مكان الاحتكاك، فلمت نفسي. في كلّ مرّة أريد الخروج أدهن يديّ ووجهي بدهن القطن، لكنّي اليوم نسيت. طفرت الدّموع من عينيّ.. تشوشت الرؤية، لمحت من خلال الغيوم المتكاثفة داخل جفنيّ طيف فتاة تعبر الممشى وتدخل الفسحة المعشبة وتختفي وراء شجرة ضخمة.

سمعت بعد دقائق صوت شهقاتها المكتومة، التفتُّ إلى الخلف فرأيت جزءًا من جسدها في وضعية السّجود. نهضت من مكاني لأرى الفتاة بشكلٍ أفضل. اقتربت منها، تنحنحت، لم ترفع الفتاة رأسها، بقيت مستلقية تضمُّ ساقيها إلى صدرها وتحيطهما بذراعيها. سألتها برفق:

- ما اسمك يا بنيتي؟

لم تجب، رفعت إليّ وجهًا مبلّلًا بالدّموع، حدّقت فيّ طويلًا ولم تتحرّك. جلستُ قربها على الأرض، أحطت رأسها بذراعيّ وأسندته إلى كتفي:

- ابكِي، البكاء يريح النّفس، لا أريد معرفة شيء حتّى تقرري أنت إخباري بما تريدين.

حدّقت صفية إلى وجهي، تأملتني وكأنّها تبحث في شكلي عن شيءٍ يمنحها الثّقة بي، كنت أرتدي ثيابًا محتشمة، وجهي عاطل من الزّينة، أغطي شعري بوشاح أبيض من الحرير. ابتسمت وهمست:

- اسمي صفية.
- عاشت الأسامي، أنتِ بلا مأوى؟

هزّت صفية رأسها وهي ترتجف من البرد. نزعتُ شالي عن كتفيّ وأحطت به جسدها المرتعش.

- تذهبين معي؟

نهضت صفية من دون كلام، لكنّي استمهلتها. أجلستها على المقعد، وناولتها بعض المكسرات والزّبيب. أخبرتها أنّها لا تستطيع أن تكذب في يوم الجمعة المقدس؛ لذا عليها أن تخبرني الحقيقة لتتخذ القرار الذي يناسبها بقناعة كاملة.

كنت أدرك أنّ صفية ستوافق مهما كان الواقع الذي ستعيشه سيئًا، فهي الآن في وضع أسوأ ليس لديها مأوى ولا أهل تلجأ إليهم.

فيما بعد حكت لي صفية قصتها.

... (انهارت شكوك رتيبة دفعة واحدة في إحدى ليالي الصّيف المقمرة، بعد أن بلغت صفية الرّابعة عشرة من عمرها وأصبحت صبية تلفت الأنظار. كانت رتيبة خانم في طريقها إلى المطبخ بعد أن استيقظت من كابوس مزعج، لمحت الباب المؤدي إلى حديقة المنزل الخلفية مواربًا.. تقدّمت ببطء وقلبها يخفق بقوة، اعتقدت في البداية أنّ لصوصًا اقتحموا المنزل فقد سمعت صوت خطوات خفيفة على العشب النّدي، تلتها شهقة قوية وصوت استغاثة مكتوم، حين مدّت رأسها

بحذر رأت خيال رجل يطرح صفية أرضًا، لم تكتشف أنّ الرّجل كان زوجها.. كانت خائفة ومرتبكة. أغلقت الباب بحذر وركضت لتخبر زوجها، حين فتحت باب غرفة المكتب لم تجده هناك! أدركت رتيبة في لحظات الموقف المفجع، اتّضحت الرّؤية؛ خليط عجيب من المشاهد المبهمة صارت واضحة أمام عينيها، أولها إصرار زوجها على تعليم صفية واصطحابها إلى المدرسة كلّ يوم. كان يذهب بها صباحًا ويعود بها، رافضًا أن تعود مع السّائق بمفردها، لم تفلح جهود رتيبة في جعل صفية خادمة فقط، كانت الأمور تتخذ شكلًا خارجًا عن سيطرتها، مع أنّها سعت جاهدة لإيجاد زوج لصفية لتبعدها عن المنزل وعن عيني زوجها الذي بدا أنّه يعاملها كابنته!

ارتجف جسدها من الغيظ وعادت إلى الحديقة ركضًا. راقبت المشهد المريع ببرود.. كان زوجها يسوي هيئته المشعثة ويربط حزام بجامته.. استدار ليدخل فوجدها تسدّ الباب بذراعيها، حدّقت إليه طويلًا، ارتبك ولم يستطع النّطق بكلمة. قالت بهدوء: "نذل وخسيس، لن يتغيّر طبعك مهما تقدّم بك العمر". لكن نقمة رتيبة خانم لم تنصب على رأس زوجها بل على صفية، صفعتها بقوة، وركلتها، وجرّتها من شعرها، ورمتها خارج المنزل. بقيت صفية مكوّمة على نفسها تحت الدّرج ترتجف من الخوف والعار حتّى طلع الصّباح).

صفية 1960

اعتزلت صفية في غرفتها الكائنة على سطح البناء في حي بستان القصر، ولم تكن تخرج إلّا في أوقات محددة في يومين من الأسبوع لتشتري لوازمها من السّوق الواقع في آخر الشّارع. كانت تلاحظ خلال نزولها نظرات الجيران غير المريحة وتحديق الرّجال الطّويل فيها وهي تقف جانبًا بانتظار دورها لشراء الخبز أو عندما تسأل بائع الخضار عن الأسعار. تتجاهل كلّ ذلك ولا ترد على أيّ سؤال وتعود

إلى البيت حاملة معها الخوف والقلق. سكّان الحي من النّساء وجدوا فرصة لإثارة الشّائعات وعملت مخيلاتهن في اختلاق القصص الغريبة عن المرأة الجميلة التي تسكن وحدها ولا يزورها أحد. وبدأت التّقولات تكثر وتنتشر إلى حدٍ استفز بعض رجال الحي فوقفوا في وجوه زوجاتهم لمنعهنّ من الخوض في عرض الغريبة من دون دليل. طلب الدّليل أثار مخيلة النّساء أكثر فشدّدن رقابتهن على صفية علّهن يجدن ما يدينها.

أكثر ما كان يضايقهن أنّها منذ سكنت في البناء لم تزر أحدًا ولم تلقِ التّحية على أحد، ووجدت جارتها في الطّابق الأخير الحلّ. طرقت بابها ذات صباح وهي غاضبة وجاهزة لافتعال شجار. كانت صفية تشعر بدوار وألم في أحشائها، أخافها الطّرق فهي لم تتعوّد أن يزورها أحد. فتحت الباب بحذر فوجدت جارتها التي قالت بصوت عدائي مرتفع "لا تكوني مفكرة حالك بنت الكيخيا[1] حتّى ما شطفتِ الدّرج ولا مرّة من يوم ما سكنتِ في البناية؟".

ابتسمت صفية بوهن وقالت: "لا والله، أهلين يا جارة، تكرمي رح اشطفه حالًا، أنت بس قولي لي امتى دوري وأنا حاضرة". بهتت الجارة التي توقعت ردًا آخر، ولم تمهلها صفية، تركت الباب مواربًا وأحضرت دلوًا مليئًا بالماء ومكنسة القش وبدأت بتنظيف الدّرج.

في اجتماع الجارات عند أم عبدو يوم البازار، قالت أم ماهر:

– الظاهر غلبتك الغريبة يا أم حسّان.

وضحكت، مما أثار غيظ أم حسّان فردّت بغضب:

---

(1) الكيخيا: نسبة إلى أحمد كيخيا وهو مفكر وسياسي سوري من حلب، (1838، 1916) دافع عن حقوق العرب في عهد جمال باشا السفاح، والأسرة معروفة بثرائها، والعوام عندما يقولون "ابنة الكيخيا" يقصدون أنّها من أسرة رفيعة النسب، والكنية أصلها تركي ومعناه "سيد القصر" ومنها إسلام ومسيحيون وأرمن، ومعظمهم سكنوا بيروت وصيدا وبعضهم في دمشق.

- ما فشرت، ما حدا بيغلبني، بس أنا رحمتها لأنّها حامل، كنت ناوية جرها من شعرها وخليها تشطف بالقوة.

انتبهت الجارات لكلمة حامل، وتساءلن، أهي متزوجة؟ مَن زوجها؟ وبدأن حملة شائعات أخرى ادّعين فيها "أنّ زوجها طلّقها؛ لأنّه اكتشف خيانتها" وأضفن "لو أنّها بريئة ما تركها زوجها وهي حامل، لا أحد يرمي لحمه".

وعلى الرغم من بروز بطن صفية وثقل حركتها واصفرار لونها ومرضها إلاّ أنّ الجارات حدّدن لها مرتين في الأسبوع لشطف الدّرج وتعمّدن أن يكون الدرج قذرًا باستمرار كي تضطر إلى الصّعود عدّة مرّات إلى بيتها لإحضار الماء، فقد كنّ يغلقن أبوابهن أو يخرجن للتسوق في ذلك التّوقيت كي لا يعطينها الماء أو "خرطوما" كما هو متعارف عليه.

في ذلك اليوم عاد عبد الحميد الشوحة "أبو حسّان" من عمله باكرًا، فرأى صفية تستند إلى الحائط وجسدها يرتجف من البرد وقد تدحرج الدّلو إلى الطّابق السّفلي ووقعت المكنسة من يدها. ساعدها في الدّخول إلى بيتها وأخرج خرطوم الماء من بيته، رشّ الدّرج، ونشّفه، ثمّ أحضر لصفية كأس عصير برتقال صنعه في البيت، أرادت أن تعتذر عن قبوله، لكنّه ألحّ وأبعدها عن الباب ووضع الكأس على الطّاولة وخرج. حين عادت النّسوة من السّوق استقبلهن حسّان الصّغير في المدخل وهمس في أذن أمّه بما حدث. خلعت أم حسّان حجابها وهي تصعد الدّرج، ورمت معطفها في مدخل البيت، وصرخت بأعلى صوتها على صفية العاهرة تطلب منها الظّهور.

كانت صفية ترتجف وهي تسند باب البيت بجسدها الضّعيف محتمية بخشبه ودموعها. لكنّ أم حسّان استطاعت أن تدفع الباب بقوة جسدها وغضبها وتجرّ صفية من شعرها خارج المنزل وترمي أغراضها من الشّرفة إلى الشّارع الموحل. وقبل أن تكتمل مأساة صفية بطردها من البيت واتّهامها بالعهر وخطف

رجال الحي. وقف أبو حسّان في الشّارع وجمع ملابس صفية واعتذر منها.. وصاح بصوت ارتجت له نوافذ البناء: "أم حسّان، أنتِ طالق".

رفضت صفية أن يساعدها أبو حسّان في نقل أغراضها، لم تكن تريد أن يعرف أحد وجهتها. مشت بصعوبة حتى وصلت منطقة الفيض، سألت عن بيت للإيجار، لم يكن قد تبقّى معها سوى القليل من المال، استأجرت غرفة قبو غارق في الرّطوبة والعتمة ورائحة العفونة تخرّش الصّدر. استعاضت عن عتمته بالمشي يوميًا إلى الحديقة العامة التماسًا للشّمس، تمكث النّهار بطوله هناك، وتعود مساء لتنام.

في الجمعة الأولى من شهر كانون الأول لسنة 1960 قصدت الحديقة كعادتها، كان الجوّ باردًا والهواء يجلد الناس بنسمة صقيعية تخدش وجوههم وتسيل أنوفهم، لكنّ السّماء صافية والشّمس ساطعة. بقيت ساعتين على المقعد الخشبي في مدخل الحديقة. فجأة رأت حسنية قادمة، جلست على المقعد بجانبها وفتحت كيسًا فيه كعك ومكسرات، ناولتها كعكعة وهي تبتسم: "من أجل الجنين".

أخذت صفية الكعكة اللينة الساخنة وانهالت دموعها، عانقتها حسنية من دون أن تعلّق بكلمة. رافقتها إلى البيت..

عند الباب همست لها: "أنا أسكن هنا، إن لزمك أيّ شيء ناديني".

لم يخطر ببال صفية أن تلد قبل موعدها بشهرين، وجاءت الطّفلة ضئيلة الحجم لكنّ وجهها مدوّر وأحمر، كانت تعاني من نوبات اختناق أثناء الرّضاعة، تزرقّ وتغيب عن الوعي، عدّة مرّات انخلع قلب صفية وظنّت أنّ طفلتها فارقت الحياة.

حضر عبد الرحيم أفندي تلك الليلة المشؤومة التي اختنقت فيها الطّفلة أثناء الرّضاعة، ذهب بها إلى المستشفى، رجته صفية أن يسمح لها بمرافقته لكنّه رفض:

- سيراكِ النّاس بصحبتي، سيصل الخبر لزوجتي، لا أريد مشاكل، لا بأس أن تذهب حسنية برفقتي.

نظرت صفية إلى حسنية بضراعة، حملت حسنية الطّفلة وتقدّمت عبد الرّحيم إلى الباب.

عاد عبد الرّحيم أفندي في الصّباح وحيدًا وحمل الخبر الصّاعق لصفية، لقد ماتت طفلتها!

رجته صفية أن تراها، لكنّه قال باختصار إنّه دفنها، لم يشأ أن يلفت أنظار السّكّان بعودته وهو يحمل الطّفلة الميتة. غادر عبد الرّحيم وبقيت صفية متجمّدة في مكانها، لا تريد أن تصدق أو تستوعب ما حدث.

شعرت أنّها تعرّضت لخدعة كبيرة، ثدياها يكادان ينفجران من الحليب المحتقن، تشمّ رائحة ابنتها رائحة دم طازج يخرج من تشققات الجلد حول الحلمتين، تسمع صوت بكائها، تناديها، الصّوت في أذنيها هي على يقين أنّها حيّة وحسنية تؤكد أنّها ماتت ورأتها بعينيها!

حين حملت صفية طار عبد الرّحيم من الفرح، وعدها إن أنجبت صبيًا سيتزوجها وينسى كلّ ما حصل خلال السّنوات الماضية! قبلت صفية وتمنّت من كلِّ قلبها أن تنجب الصّبي الذي سيجعلها زوجة شرعية ولو بعقدٍ عرفي وستكون في حماية رجلين زوجها وابنها ولن يتعرّض لها أحد، هي أيضًا ستنسى ماضيها، ستنسى كلّ شيء.

قدر صفية لم يمنحها تلك الفرصة لتعيش مستورة في بيت يظلّله رجلٌ، ذهب بها إلى أقصى مداه..

مرضت رتيبة خانم زوجة عبد الرّحيم فجأة ولزمت الفراش، واضطر للبقاء قربها. لم يدرك أحد أنّ معجزة حصلت وحملت رتيبة بعد عقم دام عشر سنوات منذ ولادتها جليلة، وأنجبت صبيًا! لم تتسع الدّنيا لفرح عبد الرّحيم، لقد تحقّق حلمه بوريث، كان خائفًا أن تذهب أمواله ومصنعه إلى إخوته وأن يظلموا ابنته جليلة، فقد لمّحوا له أكثر من مرّة أنّ جليلة ستكون معزّزة مكرّمة في بيوتهم سيختارون لها زوجًا من أبنائهم وستكون آمنة بينهم!

أخيرًا لن يستطيع أحد منهم أن يأخذ قرشًا واحدًا من أمواله، لقد جاء وريثه وسنده إلى الدّنيا، والأهم أنّ رتيبة هي التي أنجبته ولم يعد مضطرًا للزواج من صفية!

لم ينسَ المواقف المخزية التي وضعته رتيبة فيها، لم ينسَ معاملتها القاسية وتحريض إخوته ضدّه حين تزوج ابنة خالته، لم ينسَ، لكنّ مجيء الصّبي غفر ما تقدّم من ذنوبها كلّها.

غار حليب رتيبة ولم تستطع إرضاع ابنها، كاد الطّفل يموت بعد إصابته بالتّجفاف، أوصى عبد الرّحيم على حليب للأطفال من بيروت، لكنّ الحليب لم يجعل الطّفل في وضع أفضل، فلجأ إلى صفية.

لا يدري الحكمة من وقوعه في هذا الفخ، كثيرًا ما فكّر أن يعترف لصفية بأنّه خطف ابنتها وأعطاها لأسرة ميسورة كي تربيها، لكنّه يتراجع في آخر لحظة. الآن عليه أن ينسى كلّ حساباته في سبيل وريثه!

كانت حسنية تحمل الصّبي إليها مرتين في اليوم لترضعه. مع الكم الكبير من الكراهية التي تحملها في نفسها لرتيبة أحبّت الطّفل وكأنّه ولدها. لم تستطع تفسير أمر تعلّقها به وهو ابن رتيبة!

تمنّت لو أنّ الصّبي لها، وتعاملت معه على هذا الأساس.

* * *

كعادة لحلوحة نسيت أنّها وعدتني بالحديث عن رتيبة خانم، لكنّي لم أنبّهها فقد وجدت الجواب في مذكرات نادرة الشّريف.

من مذكرات نادرة الشّريف، البدايات، حي بحثيتا.

(جمعتنا الآلام والبدايات المرّة؛ لذا قرّرنا أن نعيش تحت سقف واحد واتفقنا على ألا نتخلّى عن بعضنا.

جاءت فضّة من تركيا مع رجل اشتراها من أخيها في لعبة قمار، حكت لي عن يوم مولدها، أهلها كانوا يقيمون في العرموطية[1].

كانت الخيام في حالة فوضى بسبب العاصفة التي اكتسحتها وجرفت السّيول بعضها إلى مسافات بعيدة وصلت حدود المساكن، الرّعد ينبئ عن غضب السّماء، وفضة تصرخ بأعلى صوتها، لكنّه لا يصل آذان أحد. الكلّ خرجوا يبحثون عن أثاث خيمهم التي جرفها السّيل، وبعضهم خاضوا في المياه الموحلة وانزلقوا مع الطّين في الدّرب النّازل صوب المدينة.. وفضة تصرخ طلبًا للنجدة وما من مجيب.

وضعت حملها قبيل الصّباح، غسّلت المولودة بماء المطر بعد أن قطعت حبل السرّة بحجر صغير.. لم تجد حولها ما يعينها على سدّ النزيف سوى شرشف قذر، وضعته بين ساقيها، حشرت المولودة داخل ثوبها، ولفّت نفسها بما تبقى في الخيمة من ملابس.

هدأت العاصفة في الصّباح، وعاد النَّوَر يحملون بعضًا من أثاثهم وأشيائهم فوجدوا المرأة قد فارقت الحياة، أعطوا الطّفلة لامرأة عجوز تعتني بها وأطلقت عليها اسم أمّها، حين أصبحت في السّابعة اصطحبها شقيقها لتغني وترقص فقد فشلت في تعلّم السّرقة ولم تفلح في مهنة الشّحاذة.

كانت نحيلة جدًا وسمراء بالإضافة إلى الوشم على يديها وذقنها الذي اعتبره صاحب الملهى سببًا في نفور الزّبائن منها وعدم طلبهم لها.

في صورتها الأخيرة التي رأيتها في الجريدة لم أتعرّف إليها، فضة صارت بدينة وغريبة عني..

---

(1) قرية تابعة لإنطاكية معروفة بقريّة النَّور، سكّانها يمتهنون اللصوصية وبناتها يعملن كسائر نساء النَور في الرقص والغناء. أصبحت القرية الآن حيًّا من أحياء إنطاكية يدعوه السوريون "حارة الحرامية" لكثرة السّرقات التي تحدث فيه وتغض الشّرطة أنظارها عنها.

العجيب في أمر الفتيات اللواتي عشت معهن تلك المرحلة من عمري، أنّهنّ قابلات للتبدل والتحوّل بسرعة عجيبة، تواءَمْنَ مع أوضاعهن المختلفة باختلاف الزّمان والمكان وكأنّهنّ جزء من تحولات البلد الذي اغتربت عنه.

صفية تغيّرت هي الأخرى، كتبت لي رسالة يتيمة بعد سفري إلى القاهرة ثمّ اختفت، لكنّ أخبارها وصلتني من حسنية فقد التقيتا بعد فراق دام سنوات..

في البدايات حكت لنا صفية أحاديث مشوشة عن طفولتها.. آخر شيء تذكره أنّها صعدت إلى الحافلة ونامت.. حين وصلت الحافلة كراج باب الفرج لاحظ السّائق - بعد نزول الرّكاب - أنّ عبد الرحيم بيك ما زال نائمًا، صاح به:

- يا بيك، فيق، وصّلنا.

انتبه عبد الرحيم بيك مفزوعًا، ارتدى معطفه، سحب حقيبته من تحت المقعد، وعدّل وضع طربوشه، استدار ليهبط من الحافلة فلمحها. طفلة شقراء مثل القمر، نائمة بهدوء في زاوية المقعد الأخير.. تردد في إيقاظها، نظر حوله لم يكن هناك أحد، الجميع غادر الحافلة بمن فيهم السّائق. نادى المعاون وسأله عن أهل الطّفلة، استغرب المعاون وجودها فهو يعرف جميع الرّكاب، لم يكن أحدهم يصطحب طفلة حين صعدوا إلى الحافلة في كرّاج بيروت، تشبث بمعطف عبد الرحيم بيك:

- خذها معك يا بيك، تنال ثوابًا، الله منعم عليك وعندك بيت، أنا وين بدي روح فيها؟

لان قلب عبد الرحيم بيك، أيقظ الطفلة التي نظرت إليه باستغراب وتلعثمت وهي تنطق:

- بدي ستي.

طمأنها عبد الرحيم بيك، ووعدها بأن يأخذها إلى جدتها في الصّباح.

الطّفلة وعلى مدار شهرين لم تنقطع عن البكاء والمطالبة بالذّهاب إلى بيتها، ولم يكف عبد الرحيم أفندي عن سؤال المسافرين والعائدين من بيروت إن كان

أحدٌ يعرفها أو يعرف أهلها من دون جدوى. كانت الطّفلة تحمل دمية صغيرة من البلاستيك على شكل طبيب وحول عنقها سلسال من الذّهب عليه رأس نفرتيتي وفي أذنيها أقراط ذهبية تحمل الرّأس نفسه. كلّ ما تعرفه أنّها سافرت مع جدتها إلى بيروت وأنّها تركتها قرب الحافلة لتشتري لها كعكة، وأنّها صعدت الحافلة ونامت ولم تجد جدتها حين استيقظت.

فهم عبد الرحيم بيك أنّ الطّفلة أخطأت الحافلة، وأنّها ليست من بيروت، وجدّتها بالتّأكيد عادت إلى مدينتها. لم يستطع عبد الرّحيم بيك معرفة المدينة لكنّه شكّ أنّ لهجة الطّفلة تشبه لهجة سكّان طرابلس. حين قصد بيروت مرّة أخرى من أجل تجارته سأل كلّ معارفه إن كانوا يعرفون أحدًا أضاع طفلة بمواصفاتها لكنّه فشل بالحصول على خيط يوصله لأهلها.

مع الأيام اقتنعت زوجته "رتيبة خانم" بالاحتفاظ بالطّفلة شرط أن تكون خادمة، ولم يفارقها الشكّ أنّها ابنته من زوجة غير شرعية تركها خلفه في بيروت أو ربّما تكون ابنة زنا وماتت أمّها. كثيرة هي السّيناريوهات التي رسمتها في مخيلتها، وكلّما كبرت أوهامها ازدادت معاملتها لها سوءًا وشراسة وتعمّقت شكوكها.

كانت غرفة لحلوحة تحتوي على خزانة محفورة في الجدار فيها أدراج تحتفظ فيها بحاجيات الفتيات مع تاريخ الحضور والغياب، حين تموت إحداهنّ تدفن الملابس التي جاءت بها وأشياءها الخاصة معها.

ويحلُّ الفراغ في الخزانة، صمت وعتمة ورائحة عفونة يغلب عليها ريح النفتالين.

يوم جاءت صفية سحبت لحلوحة البقجة، رتبت ملابسها ووضعت معها دمية بلاستيكية صغيرة كانت من ضمن أغراض صفية، شكلت البقجة بدبوس كبير ودمعت عيناها! مسحتهما بباطن كفها وهمست: "لماذا لا يكون لهؤلاء حياة عادية مثل باقي البشر؟".

لم يكن تساؤلها يخص الفتيات فقط بل يخص حياتها التي طالت أكثر من اللازم في اعتقادها!

... لم يمضِ على قدوم صفية إلى المنزول سوى شهر حتى اكتشفت لحلوحة أنها حامل، حاولت إقناعها أن تسقط الجنين؛ لأنّ وجوده سيمنعها من العمل، لكنّ صفية رفضت وتمسكت به، أسرّت لي أنّها تكره وجودها في المنزول وأنّ الحمل سينقذها ولو مؤقتًا من معاشرة الزبائن لكنّها خافت أن تطردها لحلوحة، فاتفقتُ معها على إيجاد وسيلة لإخبار عبد الرحيم أفندي بحملها. كنت أكثر النّساء تعاطفًا مع صفية؛ لأنّي مررت بالموقف نفسه حين أنجبتُ نهيدة.

* * *

نهيدة 1951

الصّفقة

لم يساومِ بدر لحلوحة، وهي لم تحتج لكبير جهد في إقناعه بأهمية أن يجد عائلة ذات سمعة نظيفة وغنيّة تتبنّى نهيدة بل أعجبته الفكرة، فهذا المعروف سيجعل نادرة مَدينة له طيلة عمرها. أخبرها بأنّه يحضّر مفاجأة لنادرة بعد أن تقضي أربعينها، وأرادت لحلوحة أن تعرف المفاجأة بأسلوبها النّاعم، فأخبرها أنّه سيسافر بصحبة نادرة إلى دمشق:

- دعيها تحضّر نفسها، قد تبقى هناك.

استدعى بدر صديقه القديم عبد الحميد أفندي الموظف في التّربية والذي قضى عمره معلّمًا متنقلا في قرى الشّمال. لم يرزق عبد الحميد أفندي سوى بولد وحيد معاق، سبّب له حسرة طيلة عمره وهو ما سهّل مهمة بدر في إقناعه بتبني نهيدة. فكرة أن يترك عبد الحميد لابنه أختًا تعتني به بعد وفاته أسعدت قلبه وراهن

على التّربية التي ستتلقّاها في بيته والتي ستجعل منها فتاة صالحة، خاصة وأنّ بدرًا أخبره أنّ الفتاة يتيمة وأقاربها تخلوا عنها!

* * *

بحثيتا.. من مذكرات نادرة الشّريف

بداية هذا العام كانت كئيبة ومحزنة، فقد منزلنا فتاة أخرى قتلها المرض، واضطرت لحلوحة لحرق ملابسها وتعقيم غرفتها بماء الكلس.. لم تخبرنا بنوع مرضها، عَزَلتها في غرفتها، ومنعتنا من زيارتها. وبعد أسبوع من دفنها اجتمعت بنا أواخر شهر كانون الأوّل والبرد يجلدنا بسياطه وأخبرتنا بأنّها ستترك الحي.

حلّ الصمت وزاغت نظراتنا، حدّقنا إليها باستغراب. شرحت باختصار أنّها لم تعد قادرة على العمل وتريد أن ترتاح بقية عمرها.

لم تخبرنا أنّها مريضة، مع أنّنا شعرنا على نحو غامض بألمها. في الخامس عشر من الشّهر غابت لحلوحة عن المنزول طيلة النّهار، عادت قبيل المغرب ومعها حمّال، نقل أغراضها إلى شاحنة مركونة خارج الحي على بعد أمتار من المكتبة الوطنية، أوّل من نطق كانت بدريّة:

- أنت جادّة إذن! كلّ هذا الوقت وأنا أظنّك تمزحين، لا يمكن أن تتركينا وحدنا.

عقّبت حلوة:

- معلمتي، سنضيع من بعدك والله.

ضحكت وهيبة في محاولة لتلطيف الجوّ:

- بحكم أنّنا مستورات والحمد لله، حرام تتركينا نضيع.

لكزتها بدرية وهي تمسح دموعًا فاجأتها:

- أنا شخصيًا مستورة وأنوي الاعتزال والزّواج.

ضحكنا معًا، لكنّ وجه لحلوحة بقي حياديًا ونظراتها ساهمة، لم تضحك ولم نعرف إن كانت تأثرت بدموع بدرية حين نطقت بصوت منخفض:

- سأسوي الأمر مع بدر، جهزّن أنفسكن لمرافقتي.

كان ذلك اليوم آخر عهدنا بالزّقاق! وبداية تشتتنا وافتراق مصائرنا.

* * *

ذكريات لحلوحة عن سكنها في منطقة الفيض مع البنات لم تكن تفصيلية، روت لي بعض ما حدث هناك.

حلوة الشّخشرلي

فتحت الباب، شهقت، واستندت إلى الجدار في حركة مدروسة. لم تكن حلوة قد رأت مالك البناء قبل الآن، أرسل إليهنّ عدّة مرّات أنّه سيهدم البناء قبل أن يقع من تلقاء نفسه، لكنهنّ امتنعن عن الإخلاء، لم يستطعن إيجاد منزل بهذه المواصفات والأجر الزّهيد.

ألحّت عليه ليدخل. تنحنح مرارًا، وهو يقف وسط الصّالة الواسعة، اختار أريكة صغيرة وضعت في صدر الغرفة تحت النّافذة، كانت الأريكة المفضلة عند لحلوحة، تصاعدت رائحة البن المُحمَّص، وقرقعة خفيفة لأبواب داخلية وهمسات وضحكات.. ظهرت بعد قليل سيدة تجاوزت السّتين، رحّبت به وجلست على أريكة أخرى قريبًا منه ووضعت أمامها صينية عليها فناجين القهوة، وضعت طاحونة القهوة النّحاسية في حجرها وراحت تدير يدها ببطء وتشمّ رائحة حبّات القهوة وهي تهرس بمتعة.

التفتت إليه:

- حقك يا بيك تطالبنا بالإخلاء، بس وحياتك ما لقينا لحد الآن بيت مناسب، يا ريت تصبر علينا كام شهر أو تساعدنا نلاقي بيت منيح يساعنا.

ابتسم البيك وهو يتأمل حلوة الواقفة قريبًا من الباب تسند ذراعها الأيسر إلى الجدار، وتحرّك الهواء بمروحة قش تحملها بيدها اليمنى، وتمضغ اللبان مصدرة فرقعة تعلو على صوت لحلوحة أحيانًا، ما استفزّ لحلوحة فنبرت بصوت حازم:

- حلوة، ما عندك شغل في المطبخ؟
- لا، ما عندي، بعدين عم أستنى البيك يمكن يحتاج خدمة.

وغمزت بعينها.. ابتسمت لحلوحة، التفتت إلى البيك:

- حلوة لا تقصد، هي حشرية شوي، بس طيبة كتير.

لم يكن عزيز بيك بحاجة لشرح فهو يعرف تمامًا الهدف الذي تسعى إليه الصّبية الواقفة بانتظار طلباته. لم يشأ أن يطلب شيئًا في هذه الزّيارة.. كان حريصًا على الوصول إلى اتفاق مع السّيدات ليتركن البيت من دون مشاكل.

وعدهن بإيجاد منزل آخر، ونهض ليغادر، عند الباب تأمل حلوة للمرّة الثّانية، وهمس:

- ربّما تحتاجين منزلًا مستقلًا.

سمعت لحلوحة ما قاله البيك، وتمنّت لو تستطيع كلّ فتاة الحصول على حياة خاصة كي تطمئن عليهنّ قبل موتها.. منذ جاءت مع الفتيات إلى هذا الحي وهي تشعر أنّها على وشك الرّحيل، لكن حتّى الموت يخذلها، إلى متى ستتحمل هذا الألم! بعد يوم واحد دخلت بدرية غرفة لحلوحة، لم تغلق الباب، همست:

- معلمتي، في الباب رجل يقول إنّه من طرف مالك العمارة، يريد حلوة، إيش أقول له؟

ردت لحلوحة من دون أن تفتح عينيها:

- خبريها، هي حرّة، تعمل ما بدا لها.

* * *

قرار الإخلاء من أجل الهدم لم يكن وحده السّبب في بحث الفتيات عن حياة مستقلة تتحمل كلُّ واحدة منهنّ فيها مسؤولية نفسها بعيدًا عن إدارة لحلوحة وسلطتها بل الحاجة أيضًا، والموقف العدائي لسكّان الحيّ منهنّ. لم تعد مهنتهنّ تسدُّ احتياجاتهن وسط بيئة مختلفة تفرض شروطها خارج بحثيتا، فمعظم سكّان الحي من أصحاب الدّخل المحدود وقد جاؤوا من الأرياف أو من الأحياء الشّعبية المحافظة. أدّى وقوعهن تحت مراقبة الرّجال الدّائمة والحذر من اختلاطهن بنساء الحي إلى عزلهن وعدم التّعامل معهن حدّ اضطرارهنّ للذهاب إلى الإسماعيلية لشراء ما يحتجنه من طعام. ليست هذه الظروف وراء تشبث حلوة بعرض مالك البناء بل شعور خفي جذبها إليه!

- كم تريدين مقابل أسبوع كامل؟

قالت بدلال:

- أجر شهر..

وأضافت مازحة:

- أنا لا أشتغل بالقطعة..
- حسنًا لنتفق، إن أعجبني أداؤك سأمدد العقد وأعطيك أجر شهرين.

ضحكت طويلًا وارتمت على السّرير:

- سآخذ عربونًا قبل البدء.

أخرج حزمة نقود من محفظته، وضعها على الطّاولة:

- هي لكِ كلّها، أريني مهارتك.
- أعذرك فأنت لم تعرفني من قبل.
- سمعت عنك الكثير من أصدقائي خاصّة طريقتك في إثارتهم.

لأوّل مرّة تتخيّل حلوة أنّها تقوم به بطريقة مختلفة حتّى أنّها نسيت كلّ نظرياتها عن إخضاع الزّبون، فهي الوحيدة في منزل لحلوحة التي لم تكن تقيم للوقت وزنًا وكانت تطلب من زبائنها ترك ساعاتهم عند لحلوحة، فالمبلغ الذي تتقاضاه لا يرتبط بالوقت بل بدرجة المتعة التي يحصل عليها الزّبون. هي الوحيدة التي لم تلتزم بقوانين المهنة، وكانت تحصل على مبالغ كبيرة لقاء التّعري فقط أو الرّقص، أو تلبية طلبات شاذة، وكانت على استعداد لتقبيل الفتيان وتعليمهم كيفية الحصول على اللذة ما دامت جيوبهم ملأى بالليرات الذّهبية.. وهؤلاء حكمًا أولاد أثرياء ربما نام آباؤهم في فراشها يومًا.

استنفرت حواسها كلّها، وقبل أن يهدأ جسدها ويستسلم، أدركت أنّه العشق.

نهضت، ارتدت ملابسها، حملت حقيبتها وخرجت، ناداها:

- إلى أين؟ ألم نتفق؟

خرج صوتها محشرجًا وهي تراه أمامها في الصّالة يحمل النّقود في يده:

- نسيتِ نقودك.
- لا أريدها، سآتي غدًا إن كنت تريدني.
- أريدك أن تبقي، أنا استأجرت هذا البيت لأجلك. ابقي هنا، والنّقود حقّك، نحنا عقدنا اتفاقًا.

تهذيبه جرح حلوة، لماذا لا يسمي الأشياء بأسمائها، لقد كانت صفقة ولأوّل مرّة تكون رابحة بالنّسبة إليها، ليس من أجل المبلغ الكبير الذي دفعه بل لأنّها شعرت بإنسانيتها وأنوثتها.. كانت بين يديه امرأة عاشقة، لم يعاملها معاملة العاهرة التي اعتادتها من الرّجال الذين يصحبونها إلى أوكارهم أو شققهم المفروشة.

مرّ الشّهر، فوجئت به يمدّد عقد البيت في إشارة إلى رغبته في التّردد عليها.

لم تشأ حلوة أن تخبر عزيز بيك بانقطاع دورتها الشّهرية، تعمّدت أن تبقي الأمر سرًا حتّى شعرت بحركة الجنين في أحشائها.

وعلى عكس ما توقعت لم يغضب عزيز بيك بل تقبّل الأمر وكأنّه حدث رغمًا عن حلوة لكنّه أخبرها أنّه لن ينسب الولد إليه والأفضل لهما أن تقبل الزّواج من سائقه أو أيّ شخص آخر كي يكبر الولد ضمن عائلة.

لم تسجل حلوة ابنها في النفوس حتى تجاوز عامه الثالث على أمل أن تجد طريقة تقنع بها عزيز بيك بضرورة أن ينسب الولد إليه. لكنها خضعت أخيرًا للأمر الواقع وتركت لزوجها مهمة تسجيله.

حين أرادت إدخاله المدرسة الابتدائية وجدت مشكلة في تسجيل مولده، فهو في البطاقة العائلية أو ما يسمى "دفتر العائلة" مسجل في كانون 1957 وفي أوراق أخرى كان مولده سنة 60 هي أصرّت على أنّ وثيقتها التي تحتفظ بها بين ملابس ولادته "قماطه وحرامه السّماوي اللون المطرّز بورود وحيوانات" هي الأصدق، فقد انتزعتها من روزنامة كانت معلقة على جدار غرفة الولادة في المستشفى. سخر زوجها من وثيقتها وأخبرها أنها كانت معلّقة هناك للزينة فقط ولم يفكر أحد المرضى بانتزاع أوراقها والدّليل أنّ الجوّ حين ولادتها كان حارًا ووثيقتها تشير إلى كانون الثّاني!

* * *

خطر لي فجأة أنّ لحلوحة نسيت "وهيبة" حين سألتها عنها، قالت: "لم أنسها، وهيبة الوحيدة التي تعرف أنّي ما أزال على قيد الحياة وتزورني أحيانًا.".

وهيبة العايقة

حكت لي وهيبة أنّها تزوجت شابًا أحبته من قريتها ولم يوافق أهله فهربا إلى القاهرة، هناك اشتغل عامل بناء، وقع من السّقالة إلى حوض الإسمنت، تهشّمت جمجمته، وقيل إنّ شخصًا دفعه ولم يقع من تلقاء نفسه.

كثيرًا ما قال لها: "الإسمنت قاتل، الطّين حنون حين يجبل بالماء يأخذ شكلنا" لكنّه لم يجد عملًا آخر في المدينة الكبيرة، تحطّم حلمه قبل أن ينسلّ عائدًا إلى رحم الأرض. تعرّفت بعد ذلك إلى كاسر...

لن تنسى طيلة حياتها الأيام التي قضتها في غرفتي ريثما توقف النّزف الذي سبّبه لها ذلك الضّابط ولن تنسى الأيام الطّوال من علاج الكدمات الزّرقاء في وجهها والسّحجات في ساقيها ومعصميها.

أضفت وهيبة على المنزل جوًّا لطيفًا بمرحها وخفة دمها وبسبب لهجتها المحببة التي يُفضِّلها الزّبائن، وهو ما أثار غيرة بدريّة وحلوة. التّمايز بين البنات يحدّده الدّخل المادي لهنّ؛ وهيبة كانت خارج الحسابات والرّهانات لامتلاكها قدرًا كبيرًا من الدّبلوماسية في التّعامل مع زميلاتها في السّكن والكثير من الليونة والذّكاء في التّعامل مع الزّبائن، تكاد تكون الوحيدة في المنزل التي لم تتسبب في شجار أو تحطيم أوانٍ أو تلقي إهانات وهذا ما دعاني للتساهل معها حين تتعب أو تمرض أو تطلب إذنًا للخروج. اعتمدتُ على وهيبة في كلّ شيء تقريبًا، الطّبخ والتّمريض وتنظيف جسدي بالعقيدة[1] ولم أسمح يومًا لإحدى البنات بالدّخول إلى الحمّام والقيام بتفريك جسدي، وهيبة الوحيدة التي حظيت بهذه المهمة الصّعبة ورأت جسدي عاريًا، رأته في أتعس حالاته وأجملها، قالت لي يومًا: "لم أتخيّل أنّ المرأة الصّارمة ذات المزاج الحاد القاسية في تعاملها مع البنات والنّاس عمومًا تتحوّل إلى أنثى طاغية الجمال بعد الحمّام حتّى وهي في سن السّتين!".

مهامها الكثيرة كانت تشغلها عن التّفكير في ما مضى وفي ما سيأتي، أحسّت بالأمان النّسبي في حمايتي لكنّ ذلك الأمان لم يكن دائمًا، بل كان يهدّده كساد السّوق بالإضافة إلى القلاقل السّياسية التي تنعكس غالبًا على مزاج الزّبائن وإقبالهم على الحي.

---

(1) التسمية المحلية للسكر المطبوخ على النار مع الحمض لإزالة الشعر.

مضى عام على وجودها معنا قضته من دون مشاكل بين جدران غرفتها، تعلّمت خلاله أن تبقي عينيها مغمضتين كي لا ترى وجوه الزّبائن الذين تضاجعهم ولا ترى وجوه البنات اللواتي ينظرن إليها بحقد ويعبّرن عن غيرتهنّ بإيذائها بكلماتهن النّابية وصراخهن. تفتح عينيها فقط حين تخرج كلّ شهر إلى الحديقة لترى الفضاء والأشجار والبشر، اكتشفت أنّها لا تحبّ هؤلاء وإن لم تصطدم معهم، لا تحبّهم؛ لأنّهم يمتلكون حياة عادية طالما حلمت بامتلاكها، لديهم عائلة وبيت، يبنون مستقبلهم، يورثونه لأولادهم، يرون أحفادهم ثمّ يرحلون بهدوء.. لماذا لا نحظى بمثل هذه الحياة!

كانت تحدّق طويلًا في الوجوه، وجوه الشّباب، وجوه العجائز وجوه الأطفال ويخفق قلبها.. تقرّر أن لا تخرج ثانية لكنّها تعود للخروج مرّة أخرى مدفوعة برغبة دفينة في البحث بين الوجوه عن وجه ذلك الرّجل الذي سلّمته حياتها فسرق كلّ ما تملك وهرب.

* * *

مذكرات نادرة الشّريف

خمس سنوات مرّت، أسرع من البرق، حين أفكّر بالكم الهائل من التّعب والرّكض وراء سعيد في الموالد والأعراس أرى أنّي عشت دهرًا في القاهرة.. مع هذا كلّ ما مضى مجرد ذكريات، رحلة بحث مضنية عن فرصة حقيقية أثبت فيها وجودي كمغنية أصبحت بالنّسبة إليّ أوهامًا عليّ التّخلص منها لكنّي لا أعرف الوسيلة. الفراغ والعطالة عمّقا إحساسي بالوحدة والغربة، مرض سعيد وعجزه عن السّفر إلى أماكن بعيدة لإحياء الحفلات تسبّب في عزلتي التي طالت وأحاطت عنقي بأذرعها الثّقيلة حدّ شعوري المتكرر بالاختناق.

لـم أسـتطع اسـتيعاب المـأزق الـذي وُضـعت فيـه، لمـاذا أنـا دون المطربـات جميعهن لم أجد فرصة حقيقية؟ المطربات اللواتي أتين من الشّام جميعهن وجدن الفرصة، نجاة، وفايزة، وسعاد محمد ونور الهدى وصباح، لماذا أنا؟

شعوري بـأنّي مسـتهدفة لـم يكـن عـابرًا ولا وهمًـا، آخـر حفلـة سـمعتها مـن الرّاديو كانت في حفل شم النّسيم؛ كان صوتي في التّسجيل مخنوقًا، الموسيقى أعلى منه، ضابط الإيقاع يسيطر على المسرح، وصوتي يخرج من الحلق وكأنّـه شـهقات مكتومة!

وذلك الصّفير في حرف السّين الـذي يخـرج ثـاءً! كيـف يحـدث ذلـك؟ هـوّن سعيد الأمر عليّ وقال "لا بأس، ربّما يكون الكسر في أسنانك هو السّبب".

أحرقتني دموعي، صرت أنشج فجأة وجسدي يهتز.. تلك الأمسية هـو الـذي أصـرّ أن أنتعـل حـذاء بكعـب رفيـع يتجـاوز العشـرة سنتم، أخبرتـه أنّـي لا أسـتطيع التّوازن به على المسرح، قال إنّي سأنسى كلّ شيء حين أبدأ بالغناء.

قبل أن أصل الكواليس تعثرت على الـدّرج، وتحطّـم أحـد أسـناني الأماميـة.. تدارك مدير المسرح الأمر باستدعاء طبيـب واسـتبدال الحـذاء قبـل أن يحـل موعـد ظهوري على المسرح.

وقفت بارتباك، الألم كـان كبيـرًا، وقـد تورمـت شـفتي ولـم يفلـح المكيـاج في إخفاء أثر الحادث.

مع هـذا لـم أتوقـع أن تكـون الحفلـة بهـذا السّـوء، ولـم يخطـر ببـالي أنّ هيـاج الجمهور وتصفيقه وتصفيره كان نوعًـا مـن الاحتجـاج على أدائـي كمـا كتـب أحـد الصّحفيين في اليوم التّالي.

تكـاد الصّـحف كلّهـا تتفـق علـى أنّ أدائـي كـان نشـازًا لكـنّ حضـوري علـى المسرح كان جميلًا كالمعتاد!

لم أفهم المقصود بالحضور الجميل مع الأداء السيئ والنّشاز!

الحفل الوحيد الذي لم أتألم فيه لأنّ دوري على المسرح أوّل مطربة، الأولى التي لا يسمعها أحد، ويتلهّى عنها الجمهور بأحاديث جانبية ويملأ الضّجيج الصّالة ريثما يكتمل العدد ويصبح الجمهور مستعدًا للطرب. حلمت كثيرًا أن يكون دوري قبل مطرب الحفل الرّئيسي، قبل عبد الحليم أو فريد أو أم كلثوم كي يسمعني النّاس باهتمام. لكنّ مدير الحفلات يصرُّ على تقديمي كمقبلات سيئة الطّعم، ريثما تحضر وجبته الأساسية.

* * *

مذكرات نادرة الشّريف/ القاهرة 1956

"لماذا لا تغنين أغنية للثورة؟" سألني سعيد بجدية، الفكرة بحد ذاتها ليست سيئة، لكن من سيكتب لي كلمات أغنية مناسبة؟ المسألة الآن أنّي أحتاج عملًا أعيش منه قبل البحث عن أغنية تنقلني إلى المجد.

نهض من مقعده فجأة وقال بجدية وكأنّه وجد حلًا خارقًا:

- ما رأيك يا ستنا لو اشتغلتِ مع نبوية مصطفى في حفلاتها؟
- حلمي أكبر من العمل كومبارس في فرقة رقص لإحدى فتيات بديعة.
- من قال إنّك ستعملين كومبارس؟ ستغنين وراءها، لستِ أفضل من محمد عبد المطلب الذي غنى وراءها.
- خطأ، هي رقصت أمام محمّد عبد المطلب، وليس العكس. أنا أريد فرصة حقيقية، أريد لحنًا خاصًا بي أستطيع إثبات قدراتي الصّوتية فيه. لكنّك ترى ردّ فعل الزّبائن، لا أحد يريد سماع أغانٍ طربية.

صمت سعيد، في صمته كان الجواب الفج القاتل، الجواب الذي سمعته بروحي وقلبي، أدركت أنّ جسدي هو السّبب، الكلّ يريد استغلاله، الصّوت غير

مهم، يكفي أن أغني أيّ كلام، وأرتدي ملابس شفافة وأشرب مع الزّبائن.. ما الذي تغيّر إذن يا بدر؟

بدر! ماذا فعلت بك الأيام؟ كنت على أعتاب الحلم حين فاجأني بما أطاح بالسّكرة ولم يمنحني خيار الصّحو. "عليكِ التخلي عن نهيدة". لم يكن خبرًا بمقدار ما كان أمرًا وقفت حياله مقيّدة بالعجز والصّمت والذّهول.

لم تتوقف دموعي عن الانسكاب حين عرفت أنّي لن أرى ابنتي مرّة أخرى وأنّ سفري إلى مصر قد يعني عدم عودتي إلى سوريا، لكنّ بدر طمأنني، الشّهرة التي تنتظرني ستجعلني ثرية، وسأعود متى شئت، وبإمكاني حينها استعادة ابنتي من "عبد الحميد أفندي إسماعيل" قال لي:

- احفظي الاسم جيدًا، سأزودك بكلّ تفصيل عن حياتها، اطمئني هي تحت رعايتي المباشرة!

* * *

من مذكرات نادرة الشّريف/ "بدي عريس" الحيرانة 1958

تمنّيت من أعماقي أن أراها، لكنّ بدر حذّرني بلهجة قاطعة: "لن تهدمي ما بنيناه من أجل لحظات عاطفية لن تدوم، يمكنك رؤيتها من بعيد".

ماذا لو تقدمتُ بضع خطوات وناديتها؟ ماذا لو استطعت احتضانها؟

همست أم العريس في أذني: "رجلٌ في الباب يريد التّحدّث إليك".

منصور! ارتجف قلبي حين رأيته واقفًا تحت قنديل الشّارع يدخّن سيجارة ويراقب السّماء، تقدّم مني وابتسم:

- المعلم يقول لكِ سيرسل الرّجال ليضعوا مكبرًا للصوت على السّطح، الرّجال في المقهى يريدون سماع غنائك.. ضباط المشير يطلبون منك أن تغني للوحدة، جاؤوا خصيصًا للاحتفال بعيد الثّورة.

- لكنّي لا أحفظ أغاني الثّورة!
- سأجلب لك كلمات الأغنية انتظريني دقائق.

لم أتوقع أن يتحول العرس فجأة إلى مهرجان خطابي، استلمت إحدى السّيدات الميكرفون وبدأت بتحيّة للزّعيم ورجاله ورجال الوحدة وحزب الشّعب والاشتراكي والبعث وطلبت مني أن أغني "من الموسكي لسوق الحميدية"

كانت أفشل مرّة أغني فيها، تلعثمت وأنا أقرأ الكلمات، أخذت الميكرفون مني ولعلع صوتها وهي تطلب من النّساء تشجيعها والغناء معها.

بدأت بموال شجي بطبقة صوت منخفضة، ثمّ علا صوتها ليقتحم الفضاء واهتزت له شجيرات الياسمين والنباتات المتسلّقة على أشجار النّارنج في أرض الدّيار الواسعة:

"بدي عريس أسمر عربي شرط" والنّساء يتجاوبن ضاحكات "شرط من المتحدة طلبي شرط" "وبدي خدوده تفاح شامي وبدي شفايفه فستق حلبي، يا مين يلبي لي طلبي"

وتساقط الفستق الحلبي في مشهد لن أنساه على رؤوس الحاضرات من صواني حملتها والدة العريس.. أعرف العادة المتبعة هنا حين تُقدَّم صرر الملبس والحلوى للحضور وترشق الصّبايا أيديهن بماء الورد وينثرن الياسمين على الرؤوس.. أمّا الفستق الحلبي فقد تفتقت عنه قريحة المغنية الشّابة التي غنّت الأغنية بصوت أجمل من صوت نجاح سلام..

حضّرت نفسي لتلقي التّوبيخ من الضّابط الذي طلبني بالاسم وطلب أن أغني "حموي يا مشمش". توقعت أن أُطلب لمراجعة فرع الأمن في الصّباح لكنّ منصور جاء بسيارة خاصة وأمرني بأن أستعد للعودة إلى مصر. قبل أن نغادر الحيرانة قال لي:

- لديّ مفاجأة لكِ، سنمرّ لبضع دقائق على بيت في الأحياء الشّعبية، هناك سيدة ترغب أن تراكِ.

لحلوحة! آخر شخص كنت أتوقع رؤيته، شعرت بعودة الرّوح إلى جسدي، موتها كان شائعة إذن! طلب مني منصور أن لا أذكر هذه الزّيارة أمام أحد، أن أنساها تمامًا.. لا أحد غيره يعرف أنّها على قيد الحياة، الآن أصبحتُ شريكته وعليّ المحافظة على السرّ.

المنزول كان المدرسة التي تعلّمنا فيها النّظام وأنّه لا بدّ لنا من شخص يدير أمورنا، تعلّقنا بلحلوحة ليس بسبب إدارتها لأمورنا وفض النّزاعات بيننا ولا لأنّها تملك سلطة عجيبة تخضعنا من دون تفكير، كان هناك شيءٌ خفي لا أستطيع التّعبير عنه بدقة، ثقة عمياء، إحساس بأمومة خفية، انجذاب لفرادة الشّخصية، لا أعرف، الحقيقة أنّي لا أعرف ويكفيني أنّي أشعر به.

كان لديها هوس بالنّظافة وتملك أصابع عازفة بيانو، وعينين ساحرتين وكبرياء أميرة. ما زلت أعتقد أنّها ابنة عز تعرّضت - كما حدث لنا - لاغتصاب وحشي ربّما من أحد أقاربها.. هي التي أضفت على حياتنا شيئًا من الرّضى حتّى بتنا نقبل أنفسنا ووضعنا كما هو، بل ذهبت بعض الفتيات مذهبًا أبعد من الرّضى؛ كانت حلوة مثلًا تعتقد أنّها تقوم بعمل مميّز لا تستطيع ربّات العفاف الزّوجات المخدوعات القيام به، ولو عرفن لضاعت هيبتها.. هذا ما كانت تتندر به أحيانًا وهي تقصد بالهيبة الدّخل المادي الذي تعتاش منه.

حلوة صاحبة مقولة "أقدس عضو في جسد المرأة فرجها الذي بسببه تنحني رؤوس الرّجال وتذهب هيبتهم وتصرف نقودهم".

وكان منصور القواد الأقدر على ترويج حكايات عن الفتيات يملأ بها رؤوس الزّبائن قبل قدومهم إلينا ويتحيّز لحلوة دائمًا، ربّما اتقاءً لشرّها، وقد يكون أحد معجبيها الذين تفتخر هي بعددهم الذي لا يُحصى.

أخبرني في الطّريق إلى دمشق أنّهم "في المركز"- وهذه الصّفة يستخدمها منصور كي لا يذكر اسم الجهة الأمنية التي يتبعها - منزعجون مني وقد أنقذني بدر، توسط لي كي لا أعاقب على مخالفتي الأوامر مقابل.. وصمت قليلًا قبل أن يضيف: "يريدونك في مهمة ليست صعبة سيلتقي بكِ ضابط من الجيش في المطار ويسلّمك حقيبة، في مطار القاهرة ستجدين شخصًا في انتظارك سيأخذها منك. مهمة بسيطة وأنتِ قدّها". شيءٌ ما وخزني في القلب، ماذا يوجد في الحقيبة؟ بالتّأكيد ليس الأمر نظيفًا لكنّي لا أستطيع الرّفض، عليّ الطّاعة فقط.

إجراءات المطار كانت سهلة جدًا لفنانة محسوبة على العسكر الذين يحكمون البلد، اكتشفت حين وصولي القاهرة وانتهاء الإجراءات أنّ الرّعب الذي عشته كان مبالغًا فيه.

هذه الأمسية آخر عهدي بسوريا وبالمهرجانات، بعدها لم يطلبني أحد لإحياء حفلة بل شعرت بحصار حقيقي ونبذ مُتعمّد وضعني في عزلة أودت بي إلى الفقر والجوع.. عندها جاءتني الدّعوة للغناء في حفل خاص يقيمه رجل أعمال معروف في فيلته. لم أهتم بالمكان، كلُّ همي كان بالثّوب الذي سأرتديه للحفل والمقابل الذي سينقذني من هوة الحاجة.

كان الثّمن باهظًا أعادني إلى حجمي الطّبيعي ومهنتي الأصلية التي حاولت أن أنساها بيقين أنّي أستحق الأفضل وأنّ صوتي ينافس أجمل الأصوات في السّاحة الفنية!

لكن من يجرؤ على مخالفة أمر صدر من مدير المخابرات؟ كان عليّ أن أُمثِّل هذه المرّة ليس على المسرح ولا في السّينما إنّما في غرف مغلقة النّوافذ وأماكن أصل إليها معصوبة العينين لأقابل أشخاصًا تفوح منهم رائحة المال والعجز الجنسي يرغمونني على القيام بأفعال مقرفة وكنت على يقين أنّ كلّ

ذلك كان تحت أعين كاميرات ترصد كلّ ما أفعل ويشاهدها الرّأس الكبير شخصيًا.

في ذلك المكان الذي أدركت أنّه فيلا متطرفة من الرّوائح التي يحملها النّسيم حين أنزل من السّيارة تعرّفت إلى "حكيم الجبلاوي" نافذة انفتحت على مصراعيها لتحشو عقلي بتاريخ حافل بالمجازر والمكائد وقصائد مبتذلة وحكايات مرعبة.. الجبلاوي لم يعاشرني يومًا كان يكتفي بأن أجلس عارية بين يديه ألبي طلباته، أغسل قدميه، أدلّك جسده، أطعمه بيدي، وأتركه يتحدّث بلا توقف من دون أن أنبس بكلمة واحدة. كان يريدني خرساء وكنت.. حين تطيح الخمر برأسه ويسقط أرضًا كنت أعرف مهمتي جيدًا.. عليّ أن أعيده رجلًا محترمًا بكامل ثيابه ونظافته!

في البداية لم أكن أهتم لما يقوله، كنت فقط ألبي طلباته وأنفذ أوامره من دون أن أرفع رأسي، مع الوقت صرت أنتبه إلى أنّي أمام شخص موسوعي الثّقافة، ولا شكّ أنّه يشغل منصبًا رفيعًا في الدّولة وإلّا ما استطاع أن يرافق الوحوش الذين يجتمعون في الفيلا بانتظام.

المرّة الوحيدة التي تكلّمت فيها كان الجبلاوي يحدّثني عن الجنس المقدس وضرورة تحرّر الدّولة من قيود الدّين التي تفرض على المرأة الاحتجاب في المنزل بعيدًا عن العيون. كان يرى أنّ الحريّة تبدأ من امتلاك المرأة لجسدها وذلك بالضّرورة يعني أن يرفع الذّكور أيديهم عن التّحكم بالقوانين ووضعها، كان يتحدّث عن أعضاء المرأة المقدسة في المنحوتات الدّينية وكأنّه يحاضر على خشبة مسرح، ابتسمت حينها، تقدّم مني وجمع شعري بين يديه: "أتسخرين من كلامي؟" قلت باندفاع: "لا، فقط ذكّرتني بمقولة مشابهة لصديقة لي كانت تعمل في الدّعارة المقدسة"

ضحك ملء شدقيه ولم يتوقف عن لطم فخذه والضّحك حتى قاطعه طلعت: "لم لا تكتب مقالًا في الصّحافة الرّسمية عن فكرتك هذه ونكون بذلك

قد ضربنا عصفورين بحجر، نوّرنا العقول التّائهة عن الحقيقة ووجدنا تبريرًا لأفعالنا".

كانت تلك السّهرة آخر عهدي بالجبلاوي، سمعت همسًا أنّه اختفى بعد مقالٍ ناري دعا فيه إلى هدم الأديان والانتقال من عبادة ما هو غيبي إلى ما هو مرئي، المرأة التي تمنحك النّشوة والمتعة والسّعادة!

* * *

مذكرات نادرة الشّريف القاهرة 1960

صاح أحدهم وقد ثقل لسانه واهتزّ جسده وأنا أردد "القراصية منين منين اللي اشتروها بدمع العين والقلب ما يهوى الاتنين بدو وحدة حلبية":

- قراصية إيه ودموع إيه اللي بتغني لها يا ست، غني لنا أغنية السّلطانة منيرة المهدية "بعد العشا يحلا الهزار والفرفشة".

أنفاسه صارت قريبة من وجهي، لسعتني الرّائحة، تحسس ساعدي وصاح منتشيًا:

- يا دين النبي ملبن وقشطة، تعالي جنبي يا حلبيّة أنت يا مهلبية مغمسة بالعسل.

غمزني سعيد لألبي طلب الزّبون، أدركت أنّ الحلم الذي زرعه بدر في رأسي كان خدعة كبيرة، مجرد أوهام رعيتها وكبرت داخلي حتّى ظننت فعلًا أنّي سأكون خليفة فتحية أحمد.

ابتسم مدير الإذاعة مُرحِّبًا، شدّ على يديّ بقوة وتحسس أصابعي، سحب لي الكرسي وانحنى باحترام، تفاءلت خيرًا، حين حدّثته عن أحلامي، كشّر عن ابتسامة هازئة، نفخ الدّخان بنفاد صبر، قرّب وجهه مني، وقال:

- فتحية أحمد حتة وحدة؟ أنتِ بتشوفي منام في عز النّهار؟ عشان تصيري زي فتحية لازم يلحن لك السّنباطي أو شوقي عبد الوهاب.

أعاد كرسيه إلى وضعه الطّبيعي، تأملني ثانية وأضاف:

- بس، حنحاول، مين يعرف، سمعيني صوتك الأول، يمكن سي صلاح يعجبه ويجي منك.

من يكون صلاح ذلك الذي سيكون جسر مروري إلى الشّهرة إن اقتنع بي؟ سألت سعيد بعد خروجنا من الإذاعة، همس باضطراب "مدير المخابرات" هتفت بدهشة "أيضًا!". سألني سعيد عن سبب استغرابي وقصدي من كلمة أيضًا، فبلعت ريقي بصعوبة ولم أرد. من الصّعب أن أشرح لسعيد أيّ شيء يتعلّق بالماضي، لا أريد فتح صندوق الماضي الأسود؟

* * *

ابتسم جاري وهو يستقبلني في مدخل العمارة:

- إن شاء الله توفقت بشغل كويس يا ست الدّنيا؟
- لا والله يا جار، مدير الإذاعة رجل طيب لكنّه يريد لحنًا مميزًا كي يعتمدني في الإذاعة.. والكلّ يريد مني أن أغني أغاني خفيفة لا تناسب صوتي.
- وماله يا ست الدّنيا؟ بديعة اشتهرت بالأغاني الخفيفة وشهرتها طبّقت الدّنيا وأنت أجمل منها.
- الظّاهر يا جار ما رح حصّل بديعة ولا فتحية، وآخرتي رح غني لنعيمة المصرية "تعال يا شاطر نروح القناطر".

ضحك وقلب على قفاه وبانت أسنانه السّوداء المنخورة وسنه الذّهبية، ضرب كفًا بكف، مسح دموعه، وقال بمرح:

- أنتِ بتقولي فيها، السّلطانة بجلالة قدرها غنّت "أنا لسه نونو في الحبّ بونو، والحبّ دح دح، والهجر كخ كخ.".. تعالي يا ست الدّنيا أضيّفك فنجان قهوة ونتكلّم.

لم أعترض، كنت بحاجة لفنجان قهوة وسيجارة يلفها بأصابعه النّحيلة الدّقيقة ببراعة وخفة، يضعها بين شفتيه يشعلها ويناولني إياها، كنتُ أحبُّ تلك الحركة الحميمة التي يصرّ عليها في كلّ مرّة يضيّفني فيها سيجارة، يتحسسها بأكملها وهو يحدّق في عينيّ وشفتيّ، أتغاضى عن حركته تلك وآخذها من أصابعه بمحبة.

جاء النّادل يحمل القهوة، ابتسم لي الصّبي النّوبي الأسمر ودعا لي بالتّوفيق، وقف متردّدًا ثمّ قال بارتباك:

- عندي غنوة ليكِ يا ست الدّنيا، كتبتها والله من وحي عيونك الحلوة، لو يلحنها سعيد باشا تكّسر الدّنيا.

لم آخذ الأمر على محمل الجد ولكنّي لا أحب كسر الخواطر، طلبت أن يحضرها، ركض بخفة ريشة وعاد في التوّ وهو يلهث، ناولني ورقة مطوية وعليها آثار الفحم وأطرافها ممزقة واعتذر بلهجته المحببة أنّه لم يجد ورقًا يكتب عليه فانتزع جزءًا غير مطبوع من جريدة معلمه وكتب عليه بالقلم الذي يستعمله للحسابات.

قرأتها بتمعن، أعجبني الإيقاع، ودخل الكلام قلبي، ووجدت نفسي أدندن الأغنية. بهت جاري والنّادل النّوبي، نظرا إليّ بانبهار وقالا في لحظة واحدة:

- لحن يسكر يا ست الدّنيا، ولا يقدر سعيد يعمله.

لم أخبر جاري أنّي كنت عازفة عود ممتازة وأنّي أحييت في حلب الكثير من الحفلات، وكانت النّساء يتسابقن لدعوتي إلى مناسباتهن لأغني فيها، وأنّي أطربت

أكبر الرّؤوس من رجال الدّولة والحكم والباشاوات، حتّى تبرّع أحدهم بإرسالي إلى القاهرة ظنًّا منه أنّ المستقبل الباهر ينتظرني هنا!

أدارت النّشوة رأسي، نهضت مسرعة، اتصلت بسعيد من هاتف المقهى، طلبت منه أن يحضر العود معه ويوافيني إلى المنزل.

غمرني نشاط غريب، كبر الأمل حتّى رأيتني أغني في دار الأوبرا!

- يا خبر أبيض!

أعرف أنّ هذه العبارة من فم سعيد تعني أنّ اللحن أعجبه، وتفاءلت، لا شكّ أنّه سيكون جواز مروري إلى الجمهور والشّهرة.

لم أستطع السّيطرة على دقات قلبي وأنا أسمعه للمرّة الأولى من الإذاعة، رنّ اسمي في سمعي حلو الإيقاع، لم أعد أخافه، غمرتني الغبطة.. صوتي هذا الذي يحلّق في الفضاء ويلامس أسماع النّاس.

في اليوم الثّاني ظهرت صوري في الصّحافة، كانت صورًا باهتة وسيئة، ليس مهمًا، الكلام المكتوب تحتها كان كافيًا ليشعرني أنّ حلمي تحقّق أخيرًا.

أذيعت الأغنية ثلاث مرّات خلال أسبوع، أسبوع من السّعادة رأيت خلاله كيف تجمّع أهل الحي حول راديو المقهى، رأيت فرحة عبّاس النّادل النّوبي، ورأيت لمعة النّشوة في عيني سعيد وصداها في قلبي.. ثمّ تلاشى كلّ ذلك وسط صمت مطبق دام أسابيع. بدأت حركة القلب تفتر، وتسلّلت الكآبة إلى روحي.

الأحلام تتبخر بسرعة البرق، لكنّي لم أستسلم، زرت مدير الإذاعة، أنكر الإهمال، اعتذر عن إذاعة الأغنية، قدّم لي كوب عصير وسيجارة، وقطّب جبينه قبل أن يبدأ الكلام:

- بصراحة يا ست أغنيتك لم تلقَ رواجًا، ألم تقرئي صحف اليوم؟ أحدهم هاجم الإذاعة وهاجمني شخصيًا، واعتبر هذه الأغنية سقطة موسيقية مشكّكًا في ذائقتي وموهبتك، ووصف صوتك بأنّه دائم

الارتعاش قليل الدّرجات في الارتفاع ومحدود المسافة ولا يتناسب مع الغناء الطّربي. بالمناسبة لماذا لا تجرّبين غناء الطّقاطيق، انتشارها أوسع وتناسب أذواق الجميع.

قبل أن أنطق بكلمة هاجمني الماضي، هل عليّ أن أعترض؟ كيف؟ ولماذا؟ وهل يحق لي الاعتراض؟

لن أنسى، بالتّأكيد لن أنسى.

* * *

الفصل صفر

الرّوائي عبد السّلام أمين

قرّرت أن أكون صريحًا معكم، هذا الجيش من النّساء اللواتي استوطنّ الرّواية نقلن إليّ عدوى الصّراحة.. كما أخشى أن أصاب بفيروس الحريّة التي عشنَها من دون تزييف للحقائق والحياة.

أعترف أنا عبد السّلام الشّكحة أنّي مثلهنّ ابن هذا الفساد العظيم، أرى أنّكم تستغربون الاسم، لكنّه اسمي الذي وُلدت به! أبي سعيد الشّكحة كان سائق سيارة أجرة يعمل على خطّ ضيعتنا والنّاحية القريبة منها. تعرّف إلى أمين شعبة الحزب في المنطقة أثناء احتفالات أعياد الثّورة، للتوضيح أقصد ثورة الثّامن من آذار. وكان ينقل الضّيوف وقتها إلى المطعم في رأس الجبل ويحضر طلباتهم من السّوق.

كلّ ما وصل إليه كان بسبب تلك الصّدفة التي جعلت الضّيف القادم من العاصمة يوصي أمين شعبة الحزب به.

استوقفه في مدخل البلدة وسأله كيف يصل إلى الفندق، وصف له الطّريق:

- سيدنا حط طريق الجبل وراك، وروح على اليمين، في مفرق لا تدخل فيه، على الشّمال في درب مزفت جديد الضيق مو الواسع هنن اتنين.. بتدخل فيه شي 200 متر بتصير القلعة بوجهك.

ضحك الضّيف وقال:

- حبيبنا، ما فهمت عليك، جيت لتكحلها عميتها.

- سيدنا استنى شوي معي زبون، رايح طب الزّلمة عند دكان النّاجي وارجع امشي قدّامك، أنا بأمر شواربك.. بس دقايق.

صار أبي رجلًا مُهمًا بعد ذلك اليوم، يتقرّب إليه كلّ أهل الضّيعة والنّاحية، انتقلنا للسكن في المنطقة، وكنت وقتها في المرحلة الابتدائية.. المعلّمون في المدرسة كانوا يتغاضون عن تقاعسي في الدّراسة ويضعون لي العلامات التّامة في الشّفهي، ويحاولون مساعدتي أثناء الامتحان. بعد تخرجي عُيّنت مدير مدرسة متجاوزًا التّدرج الوظيفي بجهود أبي الذي أصبح أمينًا لشعبة الحزب!

لم أعرف الثّمن الذي دفعه أبي كي ينتقل من سائق لأمين شعبة في زمن قياسي، حتّى انتقلنا إلى حماه بعد أحداث الشّغب التي أدّت إلى سيطرة المسلحين الإسلاميين على منطقتنا.

هربنا إلى حماه.. أبي قال إنّها أكثر مكان آمن تحت ظلّ النّظام، لا تستطيع أيدي طالبي الثّأر من الوصول إلينا.

من هم طالبو الثّأر؟ سألته، قال: "إنّهم الإرهابيون من أهالي وأقارب الإخوان المسلمين الذين سلّمتُهم للحكومة في الثمانينيات!".

الحقائق أحيانًا على الرّغم من نسبيتها تكون صادمة. مئتا شخص لم يعرف مصيرهم، لا جثة تدل عليهم ولا خبر يُشاع مع معتقل خارج من سجون الموت.. ما يشفع لأبي أنّهم كانوا يُشكّلون خلايا إرهابية ستُدمِّر الوطن.

أنا أيضًا وضعت الوطن نصب عينيّ، لم أساوم على ذرة من ترابه مقابل حريّة زائفة يراها البعض مطلبًا أساسيًا للحياة، الأمان بالنّسبة إليّ هو الحريّة، ماذا حقّقت الحريّة لهؤلاء؟ "النزوح، دمار بيوتهم، اغتصاب نسائهم، سيطرة الفصائل الإسلامية على ممتلكاتهم!" مجموعة أغبياء إن لم يكونوا عملاء!

أصبحتُ مديرًا في مدرسة قريتي.. المدير يعني السّلطة، يعني حريّة التّصرف.. يعني رأس الهرم التّعليمي. ظننت لوهلة أنّي قبضت على الدّنيا

بأصابعي. لم يعد هناك مستحيل أمامي، الأبواب انفتحت كلّها على مصاريعها.. اشترى أبي أرضًا صغيرة في القرية، بنى داخلها فيلا كي يوفر عليّ المشوار اليومي إلى المنطقة، أقمت هناك ومعي رجل كبير السّن من عائلتي الفقيرة يعتني بشؤون البيت والحديقة ويقوم بخدمتي.

أحببت طالبة في الصّف السّادس، تزوجت من ابن عمي العسكري الوسيم الذي يخدم في المخابرات العسكرية في دمشق... الصّدمة كانت قاسية على قلبي، قرّرت الانتقام منه بزواجي من أخته! أمّي قالت لي: "انطبق عليك المثل جكارة بجارتي لحط راسي بالتّنور". هذا ما شعرت به في أوّل اجتماع عائلي ضمّني وأهل زوجتي.. حبيبتي السّابقة - زوجة ابن عمي - بدت مثل مانيكان، أثقلت ذراعيها الأساور الذّهبية وتدلّت من عنقها عشرات العقود والسّلاسل والأقراط في أذنيها تصل إلى صدرها.. لبست كلّ الذهب الذي أهداها إياه زوجها وعائلته وعائلتها.. كانت تتحدّث بلغة الجمع، فهمتُ ما تريد إيصاله من رسائل مرّرتها عبر تبجحها بالرّحلات والفنادق التي أقامت فيها والسّائق الذي ينقلها في أيّ وقت حيث تريد، وأشياء مملة كثيرة لم تتوقف عن الحديث عنها طيلة السّهرة.. زوجتي كانت تبتلع الغصات وتكتم قهرها ودموعها محاولة إظهار اللامبالاة بكلّ ما يُقال ويحدث.

المفاجئ لي أنّ زوجة ابن عمي قد حمّلت أغنية "مجاريح" على هاتفها المحمول، كلّما رنّ هاتفها أسمع الأغنية التي غنيتها لها عندما كانت تلميذتي. كانت أغنيتي المفضلة أغنيها حتّى في الأعياد الوطنية عندما أنضمّ لحلقة الدّبكة.

إلى الآن أجد نفسي أدندن الأغنية فجأة ومن دون مناسبة "والله لأهجم وخاطر على مدرسة البناتِ وبرطل[1] المديرة وآخد كلّ حبيباتي" الواقع المر أنّي لم آخذ الحبيبة الوحيدة التي أردتها وبقوة.

---

(1) البرطيل: الرشوة.

ناضل والدي ميشيل - كما كانت جدتي تناديه - فقد أحبّت تسميته بهذا الاسم تيمنًا باسم مؤسس حزب البعث ميشيل عفلق.. أعجبت جدتي رمزية بميشيل يوم زار منطقتنا ليلقي خطابًا في الشّعب واحتشد لاستقباله أهل المنطقة والنّاحية والقرى، بقيت جدتي بعد بلوغها التّسعين من العمر تذكر تفاصيل الاستقبال وكلام ميشيل، تعيده وتكرره بلا كلل.. "قال عنا رعاع وقاعدة شعبية" لم تكن جدتي تعرف المقصود من كلام ميشيل في خطابه ولا تريد أن يشرح لها أحد ما قصده.. بل تذهب أبعد من ذلك في دفاعها المستميت عنه بضرب أيّ حفيد ينتقد الزّعيم "كما تسميه".

توفيت جدتي في بداية الأحداث قبل أن ترى المصير المشؤوم لعائلتنا. ففي السّنة الثّانية للزلزال حدثت اشتباكات بين الفصائل المسلحة وقوى الجيش المسيطرة على بلدتنا، وتقدّمت الفصائل داخل البلدة وتمترس الكثيرون من الأهالي الشّرفاء في الأبنية الحكومية للدّفاع عن البلد. كنت وقتها في العاصمة أحضر اجتماعًا مهمًا لأمناء الفرق الحزبية، حين عدت إلى حماه أخبرتني أمّي أنّ أبي أصرّ على الذّهاب إلى البلدة لحضور جنازة أمّه، وحدثت الاشتباكات وهو هناك في ثالث يوم للعزاء.. وقيل إنّه اشترك في القتال وقتل عددًا من الإرهابيين من أهل البلدة قبل أن يستطيع القنّاص اصطياده من مسافة بعيدة!

أنا لا أعرف أين دُفن أبي.. قيل لي إنّ جثته بقيت على سطح مبنى الأوقاف - حيث قُتل - ثلاثة أيام ولا يعرف أحد من الذي حمل الجثة ودفنها.. لكنّ الجميع تحدّثوا عن بطولته وإقدامه وأنّه نادى قبل أن يموت باسم الرّئيس الخالد وقدّم روحه فداء له.

* * *

الفصل الثّالث

سِفر الخروج

ثمّ مرّ زمنٌ انقطعت فيه أخبار لحلوحة وبناتها عن حي الفيض، هُدم البناء القديم، واعتقد أهل الحي أنّهم دفنوا لحلوحة حين اكتشفوا وجود جثة لسيّدة عجوز ماتت منذ زمن وكانت وحدها قبل عمليات الهدم.

صاحب البناء أحاطه بسور من الأسلاك الشّائكة مُغلفٌ بالنّايلون المشمع كي لا يلعب الأولاد الكرة - كما اعتادوا - في فنائه الخلفي الواسع وادّعى أنّ البناء المتصدع قد يقع ويتسبب في كارثة ونبّه سكّان الحي ليحذّروا أبناءهم من الاقتراب، لكنّ الأولاد الأشقياء كانوا يتسلّلون في المساء إلى البناء ليقضوا حوائجهم أثناء اللعب ويدخنوا السّجائر بحريّة غير عابئين باللافتة التي وضعها مالك البناء ورسم عليها جمجمة وعظمتين وكتب عليها "ممنوع الاقتراب خطر الموت".

في أوائل الخريف صارت نساء الحي يتهامسن عن الأرواح الشّريرة التي تسكن البناء بعد مجيء أحد الأولاد وقد امتقع لونه وتمزّقت ثيابه ولم يستطع الكلام على الرّغم من استخدام أمّه لطاسة الرّعبة.. بعد أيام استطاع أن يخبرها أنّهم يتسلّلون إلى البناء وأنّه مليء بالعفاريت وأنّ عفريتة عجوز ظهرت له في الطّابق الأول تحمل عصا غليظة ضربته بها وهو "يتسيّر[1]" في التّواليت الكريه الرّائحة.

(1) يتبوّل.. باللهجة الحلبية.

وصل الخبر لمالك البناء فأرسل وكيله مع العمال بسرعة، فتّشوا البيوت الفارغة ووجدوا الجثة التي ضاعت ملامحها تمامًا وقد أكلها الدّود..

المالك اعتقد أنّها السّيّدة لحلوحة التي رفضت ترك البيت؛ لأنّها لا تملك مكانًا تذهب إليه. ودُفنت الجثة على عجل وجاء العمال بالكلس ودلقوه في البيت وبدأت عملية الهدم.

كان ذلك في بداية الثمانينيات عندما كنت في السّنة الثّانية من دراستي الجامعية.

كنت في بداية مرحلة اكتشاف المدينة التي أحببتها بكلّ تفاصيلها بعد مرور سنة على إقامتي فيها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

حلب 1980

توقفت الحافلة في "باب الجنين" آخر الخطّ بالنّسبة إليّ، عليّ أن آخذ حافلة أخرى توصلني إلى "الكلّاسة". أفضّل الدّوام فترة الصّباح، يكون الموقف مختلفًا تمامًا؛ مسحة برد خفيفة، وجوه غائمة الملامح، أجساد تحث الخطى نحو غاياتها، وباعة بدأوا بالإفراج عن بضائعهم بكسل. وجه حلب في هذه السّاعة يشبهني؛ قلق، وحزن شفيف، وهروب من انكسارات عاطفية متتالية..

عند الظّهيرة يستقبلني الضّجيج الهائل يضغط على أعصابي، يستفزني منظر المحلات الدّخيلة التي شوّهت وجه شارع بارون العريق؛ محلات لبيع قطع غيار السّيارات، إطارات مطاطية، أطعمة سريعة التّحضير، باعة على الأرصفة يبيعون خضارهم حسب المواسم... وحسب المواسم يمكن للأرض الزلقة من رمي الأوساخ أن ترسلك إلى المستشفى من دون إنذار خاصة في الأيام الماطرة.

الأصوات المتنافرة للباعة الجوالين، أصوات تنادي على بضائع رخيصة وأخرى على خضار وفواكه والبعض يكتفي بعرض البضاعة على الرّصيف والجلوس ساهمًا. يعلو على تلك الأصوات مجتمعة صوت الأغاني من محل بيع أشرطة الكاسيت الذي لا يبعد عن موقف الحافلة سوى بضعة أمتار. صاحب المحل مغرم بأغنية "شعبية" لمغنٍ لا أعرفه يبدو أنّ المحل يعمل له دعاية مأجورة بتكرار الأغنية مئات المرات، كنتُ مجبرة على سماعها كلّ يوم تقريبًا "طلب القهوة وماشربهاش، جبنا القهوة وهو ما جاش" فينتابني إحساس بكراهية فنجان القهوة تلك.. وأصبُّ اللعنات على أشخاص لا أعنيهم!

أنفلت من الحافلة عند ساحة الكلّاسة حيث تتوقف قريبًا من عربات باعة الفواكه والخضار ويزدحم النّاس للشراء والأطفال للذهاب إلى مدارسهم. لا تبعد مدرسة "صلاح الدّين الصّباغ" الابتدائية كثيرًا عن الشّارع الرّئيس وموقف الحافلة، مع هذا عليّ السّير بهمة لأجد طريقًا في الزّحام كي لا أتأخر عن موعد "التّوقيع" قبل الخطّ الأحمر الذي يعني حسمًا من الرّاتب.

ينتظرني عادة في مقهى البرازيل، أمرّ أمام المقهى بخطوات سريعة، على الرّصيف المقابل أتوقف قليلًا كي أترك له فرصة كافية ليتبعني، الطّريق إلى الحديقة العامة ليس طويلًا أتوقف عند بائع فستق العبيد السّوداني الذي لا يغادر مكانه عند زاوية الرّصيف بعد الفندق السّياحي. أشتري قمع الفستق السّاخن مُنكّها بابتسامة أفريقية دافئة. أعبر الشّارع إلى الطّرف الآخر لأحاذي سور الحديقة وأشمّ عبق أشجارها، تمتدُّ يده خلسة لتمسك يدي وكأنّنا جئنا معًا وعبرنا سوية وسنبقى هكذا حتّى تقتحم العتمة المقاعد الخشبية النّائية بين الأشجار، ويبدأ العسس تجوالهم للقبض على العشاق المختبئين بين الظّلال.

* * *

أقسى الأوقات كانت بالنّسبة إليّ أشهر الصّيف التي أضطر فيها للعودة إلى الحيرانة، أترك روحي في حلب وأعاني من فراقها حوالي ثلاثة أشهر.. حين يرسل أيلول نسائمه الغضة كاسرًا حدّة القيظ أعود إليها! أستعيد روحي مع إطلالة مبانيها الحديثة في "حي الحمدانية" وأنسى ما عداها بوصول الحافلة مدخلها الغربي عند التّمثال. أنزل من الحافلة عند "الكرة الأرضية" لأتابع طريقي صعودًا في حي سيف الدّولة وأنحدر عبر تفريعة كلية العلوم إلى حي صلاح الدّين متابعة سيري حتّى آخر خطّ الباص الدّاخلي لأصل البيت الذي استأجرته مع مجموعة من زميلاتي في بناية "الزنابيلي".

الصّعود إلى الطّابق الثّالث ليس صعبًا لكن مع حمل الحقائب يبدو الأمر مرهقًا بعض الشّيء.

أضع أشيائي من دون ترتيب وأخرج إلى الشّرفة، أراقب الأرض الخلاء مقابل البناء وأنا أرشف كأس الشّاي الذي صنعتْه حورية قبل وصولي.

أخبرتني حورية مباشرة أنّ الشّقة المقابلة لنا فيها سيدة جميلة أرسلت لها البارحة صحن تبولة ودعتها لزيارتها، قالت حورية باستغراب:

- المرأة وحيدة مع أنّها شابة، لم أرَ رجلًا يدخل البيت منذ أسبوع.

ضحكت:

- هل تجلسين أمام "العين الساحرة" وتراقبينها طيلة الوقت؟
- لا، لكنّي أسمع صوت الأبواب، بابها لم يفتح أبدًا، تُرى ما حكايتها؟

لم تكن حكاية الجارة تهمني وارتحت كثيرًا حين عرفت أنّها وحيدة، هذا يعني أنّي لن أعاني من الضّجيج. استمرّ الوضع هكذا حتّى قُرع الباب وكنت وحيدة في البيت، وجدت نفسي أمام شابة جميلة، ابتسمت لي بعذوبة وقالت:

- أعرف أنّكن لا تجدن وقتًا للطبخ أثناء الدّراسة طبخت محشي واشتهيت لكنّ هذا الصّحن.

ناولتني إياه وهي تعتذر عن الإزعاج. وقفت مذهولة لدقائق، لم أعرف كيف أشكرها، كنت أرتب مشاعري وأحاول أن أفهم ما حدث لي.. حدّقت في عينيها طويلًا، شكرتها بارتباك ولم أفطن لدعوتها إلى الدّخول. بعد أن تناولت الطّعام وكان شهيًا فعلًا سألت نفسي: "ما الذي جعلني أرتبك؟ لون عينيها؟ أم ابتسامتها؟ لمت نفسي على قلة الذّوق التي بدرت مني وقرّرت أن أزورها لأعتذر منها في يوم ما.

عند هذا الحدّ رضيت عن نفسي ثمّ نسيت الأمر حتّى أخبرتني حورية يومًا أنّ لدينا وليمة، ارتبكت حين رأيتها تضع صحون الطّعام على الطّاولة في الشّرفة، عرفت فورًا أنّ الجارة قد أرسلت لنا الطّعام، كبة مقلية، وصحن لحمة بالكرز!

الواجب وبعض الفضول دفعاني لعمل صحن تبولة لأقدّمه للجارة وأنا أعيد لها صحونها.

ارتبكت وهي ترحب بي وحلفت عليّ أيمانًا لأدخل وأشرب معها فنجان قهوة. أحضرته ومعه صحن من الحلويات الحلبية، وأقسمت أن أتناول منها لتشعر بالسّعادة كاملة من زيارتي لها.

لم أكن أتوقع أن أجد كنزًا في تلك الزّيارة، أبدًا لم يخطر لي أنّ الجارة الشّابة تتلهف كي أزورها وتتلهف أكثر كي تحكي لي قصتها. أمّا لماذا اختارتني أنا فقد أجابت ببساطة:

- لسببين، الأول قلبي انفتح لكِ، والثّاني أخبرتني حورية أنّك تكتبين قصصًا، وقصتي تصلح للكتابة؛ لذا أحببت أن أرويها لكِ.

(أنا حلبية نصفي دمشقي من دوما.. هكذا بدأت يمامة حديثها).

"لم أكن أعرف والدي تمامًا، ملامحه في ذاكرتي غائمة ومشوشة مأخوذة عن صورة بالأسود والأبيض تجمعه مع أمّي على شاطئ بردى في لقطة حالمة! كنت أتمنّى ألا تضعني أمّي في هذا الامتحان الصّعب. ما الذي أتى بي إلى هنا؟".

هكذا بدأت يمامة حديثها عن زيارتها الأولى لحلب بعد أن أقعد الشّلل أمّها في الفراش وأعلن الأطباء عجزهم عن علاجها. في انتظار الموت أرسلت هالة خانم ابنتها إلى حيث يجب أن تكون منذ ولادتها متغاضية عن كلّ ما منعها سابقًا من السّماح لها بالعيش مع والدها أو زيارته. كانت تدرك كراهية "رتيبة" لها ولابنتها لكنّ ظروف مرضها جعلتها تغامر في وضع ابنتها بين فكي الرّحى.

أدركت يمامة منذ اللحظة التي ولجت فيها الفيلا أنّها ستكون منبوذة وسط غرباء عنها مهما كانت درجة القرابة التي تجمعها بهم. أدخلتها الخادمة فوزية المطبخ بانتظار وصول والدها من العمل، كانت فوزية غارقة في عملها تحضّر الكبة بسماقية.. بعد ساعة من الانتظار المربك انتبهت للفتاة الجالسة على كرسي الخيزران قرب الباب المفتوح على الحديقة وكأنّها تمثال من الشّمع بدأ يتقلّص ويذوب من لهب الطّعام المتصاعد من القدر الكبير، ناولتها حزمة من الثّوم وقالت باختصار: "قشّري رأسين حبّابة". لم تعرف يمامة وهي تتناول الثّوم ماذا عليها أن تفعل، تعب السّفر الطّويل هدّ جسدها، خجلت أن تقول لفوزية إنّها جائعة لم تتناول طعامًا منذ عشاء الليلة الفائتة، قشّرت بضع حبّات من الثّوم ووضعتها على الطّاولة، شعرت بدوار أطاح بها فوقعت أرضًا. ركضت فوزية، ساعدتها على النّهوض، وناولتها كأسًا من شراب الورد.. جلست على كرسي آخر وقالت بلهجة اعتذار: "الظّاهر إنّك جوعانة.. أنا آسفة والله الشّغل لفوق رأسي وما انتبهت". وضعت لها الكثير من الأطباق على طاولة المطبخ وأمرتها بلهجة حازمة أن تأكل وتابعت عملها. روائح الطّبخ أدارت رأس يمامة من جديد، لم تكن تحبّ منظر اللحم المسلوق ولا رائحة الكبة، سألت فوزية: "عندكم ضيوف؟".

استغربت فوزية السّؤال، فأوضحت يمامة أنّ كمية الأكل كبيرة جدًا، ابتسمت فوزية: "قد يحضر ضيوف بشكل مفاجئ، وهناك ضيوف دائمون كأخوة السّيّدة مثلًا، وقد يأتي أحد أصدقاء البيك معه". وأضافت: "واحتفالًا بقدومك

طلب البيك أن أطبخ سفرجلية لكنّ السّت "رتيبة" أمرت بكبة سماقية ولا أحد يستطيع مخالفة أوامرها".

غصّت يمامة وقالت بصوت خفيض: "أنا نباتية، وهذه الطّبخات غريبة عليّ ولا أحبّها".

ساعات مرّت ويمامة منقوعة بروائح الطّبخ واللهب وقلبها يخفق بقوة، سألت فوزية على استحياء:

- ألا يمكنني أن أغتسل، أحتاج أن أستحم وأرتاح.

ضربت فوزية كفًا بكف:

- لا تؤاخذيني والله اليوم معمي على قلبي. بس الحمّام مشغول، السّت عبّأت البانيو باذنجان ونقعته بالكلس استعدادًا لعمل المربى وأنا عم أركض وما بلحق؛ شغل البيت كلّه فوق راسي.

استغربت يمامة:

- وكيف يستحمون؟

- بحمّام خاص ملحق بغرفة النّوم، هاد حمّام البيت العام.

غصّت يمامة:

- أحتاج للنوم.

- من عيوني.

رافقت فوزية يمامة إلى غرفة في الحديقة الخلفية، فيها سرير واحد وكرسي وخزانة صغيرة

- تفضلي، خدي راحتك، هي غرفتي.

غرفة الخادمة؟ ابتلعت يمامة غصتها؛ في مطلق الأحوال لم تكن تتوقع معاملة أفضل، أدركت من لحظة ركوبها الحافلة أنّها في طريقها إلى مجهول غامض وكئيب..

تمدّدت على السّرير وغطّت في نوم عميق.

صحت في الصّباح التّالي، لم ترَ أباها، ولم يزرها أحد، أحضرت فوزية لها الفطور إلى الغرفة وأخبرتها أنّ البيك سأل عنها البارحة في السّهرة كي يُعرّفها إلى العائلة لكنّه وجدها نائمة فلم يشأ إزعاجها.

أسبوعٌ مرّ ولم ترَ يمامة من البيت سوى الحديقة والمطبخ وغرفة فوزية وشابة ألقت التّحية وقالت إنّها أختها!

في صباح اليوم الثّامن رتّبت فوزية ملابس يمامة في الحقيبة وأخبرتها أنّ السّائق بانتظارها سيأخذها لزيارة جدتها.

السّائق الصّامت فتح لها الباب حين وصل إلى مدخل زقاق في حيٍ من أحياء المدينة القديمة، وحمل حقيبتها حتّى باب الدّار، طرق الباب وانتظر، حين اطمأن أنّها دخلت عاد إلى السّيارة.

الحال في بيت الجدة كان أفضل مع الغموض الذي يلف غرفه الواسعة وليوانه الفخم وأشجار أرض الدّيار الواسعة.. الصّمت يلفّ كلَّ شيء، قططٌ كسولة تسترخي في فيء الأشجار تتناول طعامها وصوت كتيم لخطوات خادمة نحيلة غامضة تتسربل بملابس سوداء وتمرُّ كشبح صامت، تنظِّف البيت؛ تلبي أوامر الجدّة وطلباتها وتنسلُّ من باب الدّار الذي ينغلق وراءها من دون صوت!

هدوء يتلف الأعصاب كما أتلف أعصابها الانتظار في بيت والدها والضّجيج الذي لا يتوقف، ضجيج مسجل بمكبرات صوت لأغاني السّت تضعه أختها جليلة طيلة الفترة الصّباحية! ضجيج الضّيوف الذين لا يغادرون قبل الثّانية عشرة، ضجيج أخ لم تره، يعود في ساعة متأخرة ليعيد السّاعة إلى الخلف ويبدأ عمل فوزية من جديد في تحضير المأكولات والمشروبات له ولرفاقه، يسهرون حتّى الفجر في الحديقة وينام معظمهم في غرفة جانبية اتّخذتها "رتيبة" مستودعًا للمونة وأشياء لا تصلح للاستعمال!

الصّمت والضّجيج ويمامة خائفة من قرار آخر يبعدها عن بيت جدتها إلى مكان مجهول.

أحبّت المكان وتآلفت مع طيوره وأشجاره وغرفه الأنيقة السّاحرة بتصاميم خشبها وأدراجها وأثاثها وكأنّها قطعة من زمن غابر، تتخيّل أنّ البيت كان لأحد الولاة العثمانيين الذين حكموا حلب في القرن الماضي.. كلّ ما فيه يوحي بثراء وفخامة.. كثيرًا ما تساءلت عن سرّ خضوع والدها لرتيبة خانم وهو وريث مثل هذا البيت العريق بنسبه وثرائه!

يسبق هذا التّساؤل سؤال صعب "لماذا تزوج أمّها إن لم يكن قادرًا على مواجهة زوجته؟" أجوبة كثيرة محتملة تخيلتها يمامة أكثرها منطقية جواب جدتها: "والدك لم يحبّ سوى امرأة واحدة في حياته دمّرته تمامًا لكنّه تزوج أمّك كي تنجب له الصّبي الذي سيحمل اسمه ويرثه، كانت نزوة تغلبت عليها "رتيبة" وأنجبت الصّبي وأتيتِ أنتِ في الوقت الضّائع، هكذا قدرك ولا مفرّ من الرّضى به".

قدرٌ ظالم لم تحتمله سنوات عمرها الغضة، انهارت بسرعة عند سماعها خبر وفاة أمّها واضطرت جدتها لاستدعاء والدها وإدخالها المستشفى.

خرجت من المستشفى بعد ثلاثة أيام، لم يكن هناك مظاهر للحداد في بيت جدتها، تعزية ببضع كلمات حاولت جدتها أن تجبر خاطرها لكنّها لم تفلح. لم يزرها أحد أخوتها، ولم يكلف والدها نفسه عمل عزاء لأمّ ابنته اليتيمة الوحيدة والغريبة!

* * *

يوم مولدها وقفت يمامةٌ على حافة بركة الماء في أرض الدّيار، شربت، هدلت، وطارت لتقف على غصن الياسمينة، ثمّ نزلت إلى النّافذة وبقيت هناك حتّى المساء!

أحبّت يمامة الطّيور وفهمت لغتها، كانت تقف على حافة النّافذة الدّاخلية والطّيور في الخارج، تمدّ يدها من بين قضبان الحديد، تلمس ريشها برقة وتتحدّث إليها وتردّ عليها كانت دائمًا تحكي حكايات عن مدن غريبة حتّى صارت أمّها تصدِّق أنّها حقيقية، تقول إنّ اليمام يزورها ويحكي لها عن رحلاته إلى تلك المدن!

كانت الشّمس تترك نارًا من الشّهوة على السّطوح الحمراء ويمامة تقف للحظات في بؤرة الضّوء، تطير ببطء وتلامس الأشعة أجنحتها فيضيء الطّوق الأسود حول عنقها، يومض.. ويبتعد. تشعر بوجع في قلبها يصعد إلى حنجرتها فتنطلق بالغناء "قلبي عليك من الهوى يميلك ولا تعود تحكيلي وأحكيلك". الأغنية التي طالما أنصتت إليها في الصّباحات الصّيفية القائظة قادمة من نافذته المشرعة على ندى الزّهور التي سقاها منذ لحظات.

كانت دائمة الخشية من الصّمت، تفزع حين يكون الجوّ ساكنًا ويهمد الهواء ويتلاشى الضّجيج وقت القيلولة.. فتفتح نافذتها، تسكب الطّعام لأسراب اليمام.. تنصت إلى أصواتها، وتراقب حركتها اللولبية في الذّهاب والإياب.

لم تكن يمامة تحبّ المدرسة، تكره البرد، النّهوض من الفراش الدّافئ يشبه عصا المعلمة القاسية التي تهوي بلا رحمة على يديها الغضّتين حتّى وإن لم تقترف ذنبًا.

تنتظر صديقتها شهيرة في مدخل المدرسة، تشبكان أيديهما ببعض، وتقفان في الصّف لتحيّة العلم. تهمس شهيرة:

- ماذا أحضرتِ اليوم؟
- شطيرة زبدة بمربى المعقود.
- سنتبادل.

تشعر بالسّعادة، لقد ملّت من أكل المربى وشطائر اللبنة والزّيت والزّعتر، تحبّ مبادلة شهيرة التي تحضر دائمًا أرغفة تنور مدهونة بمية الأفرنجي، أو سندويشات فلافل.

لولا وجود شهيرة في حياتها لكرهت النّاس جميعًا، شهيرة الحلبية الأصيلة التي تحبّها وكأنّها شقيقتها حرصت على معاملتها معاملة الأم، تقوم بحمايتها في الفرصة، تجلس بجانبها في المقعد، تساعدها في كتابة الواجبات، وفهم الرّياضيات، تعطيها من طعامها، وترافقها حتّى باب البيت في طريق العودة من المدرسة.

تشعر معها بالأمان، تذكّرها بأنّها هي أيضًا حلبية الأصل لولا ظروفها، تذكّرها بوالدها وأختها اللذين لم ترهما سوى لساعات منذ سنتين.. شيء واحد يزعجها وهو أنّ شهيرة تتبع معها منطق التّخويف من كلّ شيء، فهي بطبعها تنفر من الصّبيان، تخاف الأزقة الضّيقة، تخاف أصحاب الدّكاكين، لكنّ شهيرة تبالغ في إخافتها من أشياء أبسط بكثير، فهي تجمع فتات الخبز من الطّريق تقبّله وتحشره في شقوق الجدران، تُحذِّرها من رمي الملح على الأرض؛ لأنّها ستجمعه يوم القيامة برموش عينيها! إلى جانب ذلك كانت شهيرة تُحذّرها من الأغاني وحين تضطر لشراء البوظة، تنزع غلافها الورقي الذي طبعت عليه صورة صباح أو سميرة توفيق، ترميه في الحاوية وتطلب من الله مسامحتها!

في الصّف الرّابع تحجّبت شهيرة، وكان ذلك سببًا في فتور علاقتها بها.. لم تستطع يمامة أن تقبل هيئة شهيرة بالحجاب.. كان ذلك فوق قدرتها على الاستيعاب.

لا تعرف يمامة من أين جاءها الإحساس بغرابة الواقعة؛ اليوم الذي تحجبت فيه شهيرة مات أبوها!

وصلت البيت بمفردها، وجدت أمامه نعشًا ورجالًا كثيرين وصوت المقرئ ينبعث من الدّاخل.

انـزوت في ركـن بعيـد في الحديقـة حـين أدركـت الكارثـة.. لقـد أصـبحت يتيمة!

في هـذيانها بعـد شـهرين مـن رحيلـه كانـت أمّهـا تـردد "لـو بقـي كانـت قتلتـه الهزيمة[1].. ما كان رح يتحمل الخبر.. يا قلبي!".

* * *

خـرج والـد يمامـة بـالتبني "جميـل علـي" مـن السّـجن بعـد استتباب الأمـن واستلام الانفصاليين الحكـم، كانـت حالتـه مزرية ولـم يعـد يستطيع العمـل، مـا تعرّض له في السّجن لـم يكـن بسبب المظاهرة التي قادهـا وهتـف فيهـا ضـدّ عبـد الكريم النّحلاوي بل لأسباب أخرى أولها صداقته الشّخصية للمشير "عبد الحكيم عـامر" بحكـم عملـه في القضـاء العسـكري أولًا؛ ولأنّ حكومـة الوحـدة رأت فيـه شخصية قياديـة فاعلـة؛ فهـو ابـن حلـب العاصـمة الاقتصـادية للـبلاد، وكـان ضـمن الوفد الذي رافق عبد النّاصر في زيارته لها.

كثيرًا ما دخلت عليه والـدة يمامـة الغرفـة فوجدتـه يتحـدّث إلـى شـخص غيـر موجود، يخبره أنّ سوريا انتهت بفشل الوحدة وأنّها سـائرة إلـى الـدّمار لا محالـة.. وأنّ الباذنجان سيزرع بدل القمح وسيجف العاصي وتتحول الجزيرة إلـى صـحراء قاحلة وينضب الخير..

في دور الحمى الذي زاره قبل وفاته بأسابيع كان يهلوس ويجيـب علـى أسـئلة المحقق، ويصرخ فجأة: هي هية هي هية... "باذنجانة مقلية"[2].

لم يتوقف عن التّظاهر في أحلام اليقظة وأثناء نومـه حتّـى لفـظ أنفاسـه وتـرك زوجته وحيدة وطفلتها في مواجهة عالم البشر المتوحش.

---

(1) إشارة إلى نكسة حزيران.

(2) اللقب الذي أطلق في المظاهرة على عبد الكريم النّحلاوي قائد الانفصال.

أدركت يمامة بعد سنوات من رحيله أنّ البشر ليسوا سيئين إلى هذا الحدّ الذي صوّره، لكنّ تجربته في الاعتقال لازمتها وجعلتها حذرة تخاف الخروج من المنزل والاحتكاك بالنّاس.. ابتعدت عن التّجمعات البشرية ما أمكنها واعتزلت الشّوارع المزدحمة، كانت تحبّ السّير في الشّوارع الفرعية الخالية الدّافئة التي تلفظ بيوتها روائح الياسمين والقهوة والطّعام..

وتراه بعينيها المفتوحتين يمسك يدها ويساعدها على عبور الشّارع وسط السّيارات المسرعة، حين تصل الرّصيف المقابل تضع يدها على قلبها لتُهدّئ ضرباته وتتابع السّير بعد أن تسحب نفسًا عميقًا.

رجال "المكتب الثاني"[1] الذين اعتقلوه وهي طفلة احتلوا ملامح كلّ الرّجال الذين عرفتهم، فكانت تخشى دخول الدّكاكين وتتجنب الباعة المتجولين إلى أن حدث الانقلاب الكبير في حياتها حين مرضت أمّها وشجّعتها على الذّهاب إلى حلب لتعيش في كنف والدها! كانت في فورة الصّبا تحلم بأن تكمل دراستها وتدخل الجامعة، تحلم بالحبّ، بمستقبل ترتبط فيه برجل يشبه أباها الذي ربّاها، لا تريد التّعرف إلى الرّجل الذي تركها نطفة في رحم أمّها وهرب من مسؤوليته تجاهها.

في طفولتها أحبّت يمامة راعيًا صغيرًا من جيلها اسمه يوسف...

ما تزال ورقة السّلوفان اللامعة بلونها المحبب تومض بالدّفء كلّما فتحت كفّها يوم العيد لتبحث عن قطعة الضّيافة التي حشرها "يوسف" بين أصابعها وهما في طريقهما إلى التلّ، كان مرتبكًا وخجلًا، همس لها "لقد أعطتني إياها مديحة خانم عندما مررت بها صباح البارحة لأعطيها دلو الحليب". دقّ قلبها بعنف وهي تنظر إلى الحلوى المفضلة لديها بشكلها المستطيل ولونها البني وطعم الكراميل اللذيذ الذي ما يلبث أن يكشف عن نبوءة غامضة من جوز الهند الملون بالأخضر.. قضمت منها ولحقت به تستوقفه، كان قلبها ما يزال يخفق بحرارة

(1) المكتب الثّاني التّسمية التي كانت تطلق على جهاز الاستخبارات العسكرية في سوريا.

شعّت في وجهها وأطرافها، مدّت إليه يدها قائلة وهي ترتجف: "تركت لكَ النّصف". ابتسم بعذوبة، وضعها في فمه وتحاشى نظراتها مبتعدًا بأغنامه.

ذلك الصّيف؛ أو لعلّه الشّتاء؛ أو الخريف؛ فهي تلبسه كلّ مرّة ثوبًا من حنين يمتدُّ إلى فصول السّنة بأكملها، بأشهرها وأسابيعها وأيامها لتبقى عند حدود التّل تمضغ قطعة الكراميل وتتلذذ بطعم جوز الهند؛ وترفع أغلفة النّايلون الملونة أمام عينيها لترى الكون من حولها بأطياف قوس قزح. يقترب يوسف، على كتفه عصاه وبمحاذاته كلبه البني ووراءه أغنامه وحين تصبح عيناه كلّ ما تراه تبعد الورقة عن عينيها فيختفي الحلم ويسود السّكون.

تذكر ذلك العيد وربّما لم يكن عيدًا فأيامها مع يوسف كلّها تلبس رداء الفرح وأثواب العيد، كلّما مرّت بخاطرها تسمع صوت أم كلثوم بوضوح وهي تغني "يا ليلة العيد" وتشمُّ رائحة القهوة المرّة التي يحرص أبوها على تقديمها للضيوف بجانب المعمول والغريبة والكرابيج الغارقة بالنّاطف وأقراص العجوة إلى جانب الحلويات المحلية "الشّعيبيات والعوامة والمشبَّك واللوذينج" التي كانت تخرج من الفرن طازجة عند الفجر قبل أن تلتحف النّسوة ملاءاتهن ويذهبن لزيارة المقابر. أمّها كانت ترفض تمامًا شراء الحلويات من السّوق؛ فقد كانت بارعة في صناعتها وتباهي نساء الحي بذلك.

بعد وفاة أبيها انطفأ سراج العيد في البيت، واحتفظت أمّها بطقس زيارة المقبرة والقهوة المرّة. وبقيت نافذتها مشرعة على الماضي، تفتح "خرج" الذّكريات وتنبش العلب المختلفة المقاسات، تُخرج منها عقودًا من نواة حبّات الزّيتون جُدلت بحرفية عالية داخل ورق من الكرناش الملون، أخضر وأحمر وبني وأزرق، كانت تحيط بها عنقها حسب الثّوب الذي ترتديه. تفتح علبة ثانية ضمّت بحرص كلّ الأوراق الشّفافة الملونة التي جمعها لها يوسف حين كان يجوب السّهول مع أغنامه.

كانت حريصة بعد ذلك التّاريخ أن تنزل إلى السّويقة لتشتري كلّ عيد "سفطًا" من حلوى "ناشد إخوان" وتوزعها على أطفال الحي، تحشو جيوبها وتناول كلّ طفل في طريقها إلى المقبرة كمشة من السّكاكر الملونة كما تحرص أن تتذوق صنفها المفضل، الكراميل القاسي المحشو بجوز الهند ذي اللون الأخضر. حتّى توقفت المعامل عن صناعة ذلك الصّنف ولم يبقَ من ذكريات العيد سوى أغلفة ملونة داخل صندوقٍ خشبي عتيق! تضعها أمام عينيها.. فجأة تظهر تلك العاصفة الرّملية، تقتلع كلّ شيء وتمضي بيوسف وأغنامه! منذ اقتحمت تلك الرّؤيا الغريبة أوراق يوسف الشّفافة ذات اللون الأصفر اشترت صندوقًا من الخشب وأخفت تلك الأوراق ولم تعد تخرجها.. ليس لأنّها كبرت على ألعاب الأطفال بل لأنّ يوسف رحل حقًّا! سمعت ذلك من سجناء كانوا معه في تدمر.. حكايات متضاربة حول طريقة موته، لكنّها تؤكد رحيله الأبدي.

* * *

لم أتوقع أن أجد في نهاية القصّة تلك المفاجأة، تركتني مذهولة أعاني من اضطراب ولم أجد كلمة تعبّر عن دهشتي حين ذكرت اسم أبيها. سيطرتُ بصعوبة على نفسي، واستأذنتُ بحجة صداع مفاجئ. يمامة نظرت إليّ بحيرة وحاولت أن تساعدني بإحضار حبة أسبرين وكأس ماء أخذتُهما من يدها وغادرت، دخلت غرفتي، أغلقت الباب وارتميت على السّرير. لم أرد على حورية التي سألتني ماذا حدث لي وحاولت خلال ساعات أن تغريني بفتح الباب وشرب القهوة معها لكنّي غرقت في النّوم حتّى الصّباح.

كان عليّ أن أجد عذرًا مناسبًا أو أخبر حورية بالحقيقة، لكنّي فضّلت تأجيل الأمر إلى حين عودتي من الكلية.

كنت على موعد مع "جهاد" انتظرته كالمعتاد عند مبنى بريد سيف الدّولة، مرّت ربع ساعة ولم يحضر، صعدت الحافلة وأنا في قمة التّوتر، الأفكار السّيئة غالبًا ما تجد في ذهني مرتعًا لها فتسرح وتمرح وتتكاثر وأقف عاجزة عن صدها أو طردها.

حين وصلت ساحة الكلية رأيته تحت ظلال شجرة زهر العنقود، يقف مع سيّدة جميلة خفق قلبي حين رأيتها، تذكرتها مباشرة، مررت قربهما بخفة كان ظهره لي، لمحتني بعد أن تخطيتهما لم أكن بحاجة لألتفت حتّى أرى عينيها تحدّقان إليّ، أشعر بسياطهما على ظهري.

دخلت قاعة ابن خلدون، وضعت كتبي على المقعد لأحجز له مكانًا بجانبي.

همس حين جلس:

- لماذا لم تتوقفي وتسلمي على قريبتي؟

سهمٌ غاص في ضلوعي، قريبته! ماذا أسمع؟

انشغل ذهني طيلة وقت المحاضرة بترتيب تلك العلاقات الغامضة بين الأشخاص، كنت أريد إخباره عن يمامة ففاجأني بقريبته، ماذا يحدث؟

حين انتهت المحاضرة سألته:

- هل أمّك من الحيرانة؟
- لا، ما الدّاعي لهذا السّؤال؟
- قلت لي إن السّيّدة قريبتك وأنا أعرفها فخطر لي أنّ أسألك أم أنّها تقربك من جهة الأب؟

ابتسم:

- نعم من جهة الأب. من حظي أنّك رأيتها معي وإلاّ كنتُ سأعاقب بالتّأكيد لعدم مروري عليكِ.

كنت قد نسيت موعدنا، ونسيت حقًّا أنّه لم يأتِ وتركني أنتظر ربع ساعة وكدت أتأخر عن المحاضرة. مع ذلك لم أجد أهمية للعتب فقد شغلتني مسألة قرابته للسّيدتين هذا اليوم.

مفاجأتان في يوم واحد!

أسميته "أبو المفاجآت" حين أخبرني:

- سأعرّفك اليوم إلى شقيقتي، حدّثتها عنك وأحبّت أن تراك.

خرجنا من الكلية السّاعة الثّانية، مررنا على الجميلية، توقف قليلًا ليشتري فطائر من عند "أبو حنا" وتابعنا طريقنا إلى الحديقة العامة.

سألته:

- هل ستأتي أختك إلى هنا؟
- لا، سنمرّ لنأخذها من أمام المنزل بعد ساعة.

أوّل شيء لفت انتباهي حين رأيتها تفتح باب السّيارة وتجلس في المقعد الخلفي حجابها، كانت تغطي وجهها بمنديل أسود وترتدي معطفًا طويلًا وقفازات سوداء، رفعت المنديل وعقدته أسفل ذقنها وابتسمت بعذوبة:

- أنتِ أجمل بكثير مما وصفك لي.
- جهاد لا يتقن الوصف بالتّأكيد وإلا كان وصفك لي أيضًا بطريقة أفضل.. أنت أيضًا جميلة، الشّيء الوحيد الذي صدق فيه هو أنّك تشبهينني، على الأقل لون العينين وشكلهما واحد.

ضحكت جليلة ضحكة خافتة واحمرّ وجهها. سألت جهاد:

- أين سنذهب؟
- اختاري أنتِ، نحن ضيوفك.
- أنا بحب روح على كفر جنة، بس بعرف الوقت ما بيكفي، روح على طريق المسلمية، المهم الجوّ والبرية، جبت لكم ترمس قهوة.

سألتها:

- وأنتِ ألا تشربين القهوة؟

- لا أحبّها، أحضرتها كرمالك، جهاد قال لي إنّك مغرمة بشرب القهوة سادة، وجبت لكِ فواكه قال لي إنّك تحبين التّفاح.

أدهشتني جليلة ببساطتها وعفويتها، لم أتوقع أن تكون بسيطة إلى هذا الحدّ، كانت تبدي دهشتها من كلّ ما تراه حتّى الأغنام التي تسير في المراعي والبقر والزّهور والنّسيم، كلّ مشهد يثير استغرابها، تتكلّم باندفاع وحب. قلت لجهاد فيما بعد:

- لو أنّ علاقتنا لم تستمرّ فيكفيني منها أنّي عرفت جليلة وأحببتها، لقد أهديتني أختًا بل أختين.

ولم أعرف لحظتها لماذا انزعجّ جهاد من كلامي مع أنّي لم أقصد من ورائه شيئًا. لكنّ الأيام لم تمهلني كثيرًا لأعرف السّبب.

أدهشتني جليلة حين نزلنا إلى الحقول الشّاسعة، تأبطت ذراعي ببساطة والتصقت بي وهي تقول:

- جدتي أخبرتني أنّ الأرواح جنود مجندة وأنا أحببتك قبل أن أراكِ، تعلمين فريدة أنا ليس لي أصدقاء سوى القطط، أحبّها وتحبّني لكنّي الآن أشعر أنّك ستكونين صديقتي، كم سأكون سعيدة حين تصبحين زوجة أخي، وتسكنين معنا!

كانت جليلة أقصر قامة مني بقليل، أردت التّعبير عن سعادتي بخلع حذائي لنتساوى في الطّول.. ضحك جهاد:

- هل أفهم أنّه لم يعد لي لزوم بينكما؟

قالت:

- طبعا لا نستغني عنك، مَن سيقود السّيارة؟

ضحكنا معًا.

شعرت أنّ الضحكات تقتلع أضلاعي، كنت أضحك بطريقة غريبة، أعبّ الهواء بقوة، أتنفس بعمق، أفتح ذراعيّ أريد احتضان السّهول، هل هذه هي السّعادة؟ إذن أنا سعيدة! التفتت جليلة إلى جهاد وقالت:

- مرّة تانية طالعنا من الصّبح، خلينا نجيب لحمة شوي، السّيران مو حلو من دون شوي، خلينا نطلع على المزرعة بخان العسل مشان فريدة تتفرّج على الورد.

فجأة أفلتت جليلة ذراعي وركضت مثل طفلة صغيرة وانحنت وسط الحشائش، لمحت هناك قطة صغيرة، اقتربت منها، قالت:

- انظري فريدة كم هي جميلة، ووحيدة يا حرام!

أدهشني فيض الحنان الذي حملت به القطة وأطعمتها ووضعتها في السّيارة. حكت لي عن أوّل عشقها للقطط..

اعتاد والدها أن يزور الحيرانة في الشّتاء ويقيم لمدّة شهر في الجبل يستمتع بالجوّ البارد النّقي والهدوء. في هذا الفصل من السّنة تصبح شوارع الجبل قفرًا لا وجود للبشر فيها ولا حركة للسّيارات، الجوّ الذي لا تطيقه "رتيبة" ولا يحبّه جهاد، يصطحب عبد الرّحيم جليلة معه، هي الوحيدة التي تحبّ الجوّ البارد والبلدة وناسها والهدوء المخيّم على الفيلا والنّار المستعرة في مدفأة الحطب حيث أبخرة الشّاي والطّعم اللذيذ لأبي فروة[1].

السّيدة قطة - كما يطلق عليها صبيان الحي - وزيتونة كما سمّاها "أبو الحجي" حين رآها قادمة من طريق الجبل وهي تحمل بيديها قطه "الزّيتوني" وقد دهسته سيّارة عابرة.

منذ ذلك اليوم الذي حشرت فيه جسدها الصّغير بين الرّجال الواقفين حول القبر لتستطيع أن تلقي نظرة الوداع الأخيرة على القطّ الزّيتوني أبو جزمة - كما

---

(1) التسمية الشعبية للكستناء.

كانت تناديه حين يلعبان معًا في المساءات الدّافئة فوق التّل قريبًا من عين الماء - ألبسته قفازيها الصّوف في أوّل لقاء بينهما ذات صباح بارد وهي في طريقها إلى الفيلا، كانا بلون عينيه، نظر إليها مليًا والتصق بها، أرادت الهرب منه لكنّه تبعها حتى باب المنزل.. المفاجأة حين خرجت ظهرًا رأته في انتظارها أمام الباب.

صارت تجمع مصروفها في حصالة من الفخار تكسرها آخر الشّهر وتعطيها لأبي صبري اللحام كي يترك كلّ ما يزيد عنه من "جلاميط" وأحشاء الذّبائح والعصب للقطط المشردة. حفلة المواء كانت تبدأ أمام دكان أبي صبري منذ السّادسة صباحًا وحتّى ساعة إغلاق الدّكان لا تبرح المكان مهما هشّها حتى تحصل على طعامها.

وصار ذلك موضع تندر من أصحاب الدّكاكين والزّبائن.

في وداع القطّ الزّيتوني بكت جليلة حين رأتهم يدفنونه بإجلال وصاحبه يرثيه بقصيدة شعر. في تلك اللحظة عاهدت نفسها ألا تحبّ قطًا بعده فقد جرّبت مرارة الفقد.

العهد الذي لم تصنه جليلة ونقضته عند أوّل لقاء لها مع قطة مقطوعة الذّيل عذّبها أولاد الحي الشّرسون ورموها في حاوية القمامة!

* * *

حين عدت استقبلتني حورية متجهمة الوجه:

- **عمتي أرسلت لي تريد رؤيتي، تقول إنّها مريضة، أنتِ تعلمين لا أحبّ الذّهاب إلى الحيرانة، لا أطيقها.**
- **يجب أن تذهبي، حتّى لا تندمي فيما بعد، عمتك تعاني منذ زمن، لا تنسي أنّها ربّتك وهي سندك في الدّنيا.**
- **لم أنسَ لكنّي مشغولة الآن، سأذهب نهاية الأسبوع.**

أعلم أنّ حورية تعاني من تشتت في مشاعرها نحو عمتها، لا تستطيع إنكار فضلها في تربيتها ولا تركن للانتماء إليها، نادرًا ما تفكّر بعائلتها وهي هنا لم يخطر لها أن تسكن معهم أو تزورهم، وحين تغلبها الوحدة أو تقع في مشكلة كانت تلوم أمّها وتتمنّى لو أنّها احتفظت بها كأيّ أمّ تحبّ طفلتها.

تذكر جيدًا الزّيارة التي غيّرت مجرى حياتها. كانت تلعب مع الأولاد في الزّقاق حين نادتها أمّها:

- حورية، تعالي سلّمي على عمتك.

دخلت، نظرت إلى المرأة الضّخمة التي تضع يديها في قفازين أسودين وتضع منديلًا أسود على رأسها وتغطي كتفيها بشال صوفي من الكروشيه رسومه جميلة.

ابتسمت المرأة وطلبت منها أن تتقدّم. لم تبتسم، نظرت بتوجس وخوف، أدركت مع صغر سنها أنّ هناك ما يريب. سألتها المرأة:

- ما رأيك أن نذهب في نزهة؟ لكن اغسلي وجهك أولًا ويديك من التّراب، انظري، أحضرت لكِ هذا الثّوب الجميل، البسيه.

مدّت يدها وخطفت الثّوب الأحمر، كان باهرًا بكلّ تفاصيله، هرعت إلى المطبخ غسلت يديها ووجهها، وجلبت مشطًا ووقفت بأدب أمام أمّها، سرّحت شعرها وضفرته في جديلتين طويلتين وارتدت الثّوب الجديد والحذاء.. وصرخت من الفرحة: "اليوم عيد" قالت المرأة:

- ستكون كلّ أيامك أعيادًا أعدك بذلك.. أترين أصبحتِ جميلة.

ابتسمت أمّها وقالت مازحة:

- منذ دقائق قلتِ لي: "أتبيعين هذه السّمراء الضئيلة؟".

ضحكت المرأة:

- وهل هناك أجمل من السّمار، سنأتي بعد أشهر لزيارتك وسترين كيف ستصبح.

لم تفهم حورية شيئًا من الحوار كانت مستعدة للنزهة التي تشبه العيد فالثّياب الجديدة مخصصة له فقط. تعبت من المشي في الأسواق، اشترت كلّ ما رغبت فيه.. عندما ركبتا الحافلة نامت مباشرة، وحين استيقظت وجدت نفسها تنام في سرير وفوقها غطاء جميل وحولها ألعاب كثيرة، وعلب حلو وسكاكر.. أين هي؟

فوجئت بعمتها تدخل الغرفة وبيدها كوب حليب. شربت الحليب وأكلت البسكويت ونهضت لتذهب إلى الحمّام.

فرحتها بالبيت الجديد والأشياء الجميلة أنستها أمّها وشقيقاتها السّبع وشقيقها الصّغير الذّكر الوحيد في بيت محتشد بالنّساء.. هنا الأكل الطّيب والنّظافة والهدوء والأثواب الكثيرة.. وبلورة العجائب.

في الزّقاق القذر الضيّق حيث كانت تعيش لا أحد عنده تلفزيون، لا يوجد فتاة في الحي تملك سريرًا وألعابًا بهذا الجمال. مع مضي الأيام والسّنوات نسيت حورية عائلتها وصارت الزّيارة لذلك الحي الفقير عبئًا وواجبًا ثقيلا حاولت مرارًا التّنصل منه لكنّ عمتها كانت تصرّ على صلة الرّحم وتسليم والدتها المبلغ المتفق عليه باليد!

ربّما كانت الصّفقة سببًا رئيسًا في كراهية حورية للزّيارة وهي أيضًا الحاجز الذي منع حورية من تقبل فكرة العودة إلى عائلتها.

* * *

قبل نهاية الامتحانات للسنة الدّراسية الثّالثة بيوم واحد كنت عائدة إلى البيت متعبة وأعاني من صداع شديد وجدت يمامة بانتظاري في البيت، نهضت والدّموع تملأ عينيها:

- **كيف كان امتحانك؟**

- جيد، الحمد لله، ما بكِ؟
- أخبرك فيما بعد، الظّاهر أنت متعبة، ارتاحي، سآتي في المساء.

لم ألح على يمامة لتبقى، الإرهاق منعني من استقبالها كما يجب والتّخفيف عنها بمعرفة ما تريد إخباري به.

حين استيقظت كانت السّاعة قد تجاوزت العاشرة ليلًا، البيت هادئ، لا حركة ولا ضوء، نهضت من سريري بصعوبة، دخلت المطبخ، لا يوجد رائحة طعام، شعرت بالجوع، ماذا سآكل؟ لا يوجد شيء في الثّلاجة.. اللعنة، حورية لا تهتم، تأكل دائمًا خارج المنزل، تحضر شطائر وكولا أو فول وحمص أو أيّ شيء المهم ألا تتعب نفسها حتّى بقلي بيضتين.

سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، فتحته لأجد يمامة، ناولتني صحنًا من الخبيزة:

- اشتهيت أن تأكليه، أنا غالبًا أطبخ ولا أجد أحدًا يشاركني الطّعام.

دعوتها للدخول.. الصّحن شهي بجانبه أحضرت بصلًا أخضر وأعواد نعناع، وشرائح ليمون، وخبزًا ولبنًا! تنفست بعمق قبل أن أضع اللقمة في فمي وكأنّي أستحضر الحيرانة وحسنية الحلاقة.. كانت مختصة بقطف الخبيزة في الرّبيع وطبخها.. قلت ليمامة:

- كم أحبّ هذه الأكلات الخفيفة!
- صحة وهنا. أين حورية؟
- لا أعرف، استيقظت من النّوم ولم أجدها.
- حسنًا يمكنني التّحدث بحريّة، لا أريد ان أحكي لكِ مشاكلي أمامها. هل حميدة في غرفتها؟
- تعلمين؟ والله أنسى أحيانًا أنّ معنا مستأجرة في البيت اسمها حميدة لكثرة ما تنام خارج المنزل.

دهشت يمامة:

- **أين تنام؟**
- **تقول إنّ أقاربها كثيرون في حلب. وبيني وبينك لا أصدق معظم ما تقوله.**

يأسرني حديث يمامة، لديها المقدرة على رواية التّفاصيل وكأنّها تعيشها مجددًا.. أعرف أنّ يمامة متزوجة لكنّي لم أرَ زوجها أبدًا ولم يخطر لي أن أسألها عنه. اليوم حكت لي قصّة زواجها.

تزوجتْ منذ سنتين.

... (سمعت تلك الرّنة المميزة لكؤوس الشّاي الفرنسية والخادمة تصفّها في صينية "الحويزة" وتسكب فيها شراب "الوشنا"[1] الأحمر للضيوف. كانت يدها ترتعش وأمّه تتأملها وهي تمدُّ يدها لأخذ الكأس من الصّينية.. بقيت منحنية لدقائق لا تعرف ماذا عليها أن تفعل أو ماذا عليها أن تقول، كان رأسها فارغًا تمامًا.

لم يكن القرار سهلًا، لكنّ جدتها شجّعتها:

- أنا لن أدوم لكِ يا حبيبتي، سأرحل قريبًا، ومصير البنت الزّواج، ووالدك - كما تعرفين - لن يجرؤ على أخذك لتعيشي معه، "رتيبة" خانم لن تسمح له أبدًا.. وافقي الله يرضى عليكِ، الشّب لا يعيبه شيء.

لم تجد يمامة شيئًا يدفعها لرفض العريس كما لم تجد سببًا يدفعها لقبوله، ووافقت على عمل استخارة! خروجها من بيت جدتها إلى حي آخر جديد بالنّسبة إليها وغامض كان يخيفها، ذلك الخوف الذي رافقها طيلة السّنوات الماضية التي عاشتها داخل جدران البيت الكبير متحاشية الظّهور أمام الضّيوف ومعارف الجدّة والأقارب. كثيرًا ما حثتها جدتها على الخروج من عزلتها والاختلاط بالنّاس،

---

(1) نوع من الكرز صغير الحجم وحامض يستخدم عادة في صنع المربى والشراب وطبخة اللحمة بكرز.

ومنعها الخوف من اتّخاذ خطوة باتّجاه العالم الصّاخب خارج جدران الغرفة. جرّبت مرّة أن تذهب إلى التّلل للتسوق قبل العيد.. عادت والوحشة تلبسها والغربة تضغط على روحها، تلك الأقفاص التي خشيتها وهي طفلة أحكمت قضبانها حول جسدها وروحها وفقدت القدرة على الطّيران حتّى في الحلم.

لم تعرف عن العريس شيئًا سوى أنّه شاب متدين ويبحث عن فتاة غير موظفة ولم تكمل دراستها، يريد "ست بيت شاطرة ومؤدبة ومطيعة" هذه الصّفات وجدتها أمّه في يمامة وبقيت تتردد على بيت جدتها وتلح في الطّلب حتّى وافقت.

لم تعرف إن كان حظّها سيئًا أم كانت هي وجه الشّؤم على عائلة زوجها حين حدثت مجزرة المشارقة..

غبش الفجر وأصوات التّكبيرات، وسامي يرتدي بدلته الجديدة...

استعادت يمامة جناحيها بالسّعادة التي عاشتها مع زوجها، لم تتضايق من حرصه عليها وغيرته، نفّذت رغبته بعدم التّحدث مع شقيقه المقيم معهم في البيت نفسه، عدم الخروج إلا برفقة أمّه.. تنتظر حضوره من المعمل بالدّقيقة، شهر مرّ على زواجهما ولم تسمح لها حماتها بدخول المطبخ أو تنظيف البيت، تهمس في أذنها: "اهتمي بزوجك، أريد حفيدًا". لكنّ الحفيد لم يأتِ وبدأت حماتها بالتململ والشّكوى، ما جعلها تطلب من زوجها أن يستأجر لها بيتًا مستقلًا، وجدها سامي فرصة مناسبة للتخلص من السّكن مع شقيقه الذي يختلف معه في كلّ شيء.

بعد مرور سنة على سكنها المستقل لم تحمل يمامة، وأصرت حماتها على تزويج ابنها ثانية لتحصل على حفيد، لكن القدر لم يمهلها لتراه.. في صباح العيد كانت على موعد مع الفاجعة الأقسى في حياتها، رأت يمامة بحرًا من الدّماء حين انفلت جسدها من أسر جدران السّقيفة حيث أمرتها حماتها أن تبقى هناك ساكنة كي لا يغتصبها الجنود، ناولتها سكينًا حادة وأمرتها:

- اقتلي نفسك لا تدعيهم يقتربون منكِ.

كاد قلبها يتوقف حين سمعت صوت شقيق زوجها يقول للجنود:

- لا يوجد شيء فوق، أمّي تخزّن المونة على السّقيفة.

وضحك ضحكة عالية وهو يقدّم للجندي حلوى العيد!

كان جسد زوجها مكومًا فوق جسد رفيق عمره، الدّم بحيرة، وشقيقه فايز يبتعد مع الجنود!

بقي صوته مثقبًا يحفر في رأسها ويدوي في روحها ويتركها تعاني من صداع يفتت جسدها لمدّة طويلة حتّى سوّيت المشارقة بالأرض واندثر الحي، لكنّ رائحة الدّماء بقيت عابقة في المكان!

* * *

غابت حورية عن البيت يومين كاملين، خطر لي أنّها عند أهلها.. لكنّها اتصلت بي في اليوم الثّالث على هاتف سمّان الحارة وطلبت منه أن يخبرني أنّها في الحيرانة وتريدني أن ألحق بها.

لم يأتِ هاتفها في توقيت غير مناسب، بطبيعة الحال كنت أستعدُّ للسفر إلى الحيرانة فقد بدأت العطلة.

لم أكد أفتح الباب حتّى تهاوى جسدها عليّ ووقعنا معًا! نهضتُ بصعوبة وأنا أسحبها إلى الدّاخل، أحضرت لها كأسًا من ماء الورد، وجلست أنتظر أن تصحو من غيبوبتها الإرادية. من الواضح أنّ حورية أرادت بكامل قواها الانسحاب من العالم حولها؛ لأنّها لم تستطع امتصاص الصّدمة، لم أعرف التّفاصيل بعد، لكن مما لا شكّ فيه أنّها اصطدمت مع ورثة زوج عمتها.

أحضرتُ لها الطّعام وأيقظتها:

- حورية يجب أن تأكلي شيئًا.

- لا أريد.

- ستموتين
- هذا ما أريده.

وضعت اللقمة في فمها غضبًا.. دمعت عيناها، تشنجت، وهدّها النّشيج. عندما هدأت موجة نشيجها وغضبها واللعنات المتدفقة من فمها، سألتها عن التّفاصيل:

- لا تفاصيل، لقد أخذوا كلّ شيء وطردوني. هل تعرفين ما معنى ذلك؟ معناه أني لم أطل بلح اليمن ولا عنب الشّام.. مطرودة ومخذولة من العالم أجمع.

وضع حورية الصّعب وصدمتها الطّازجة منعاني من التّخفيف عنها، رفضت أيّ مبادرة لبعث أمل جديد، شعرت أنّ نهاية العالم اقتربت، فجأة ومن دون مقدمات ماتت عمتها بجلطة دماغية.. كانت في حلب حين جاءها الخبر لتأتي إلى الحيرانة لأنّ عمتها دخلت المستشفى وحالتها حرجة، اضطرت للسفر من دون أن تخبرني.

في الطّريق كانت خائفة من فكرة دخول البيت الخالي وحدها، نامت عندي، وذهبنا في الصّباح لحضور الجنازة. تركتها هناك وسط أقاربها ورجعت.

عند الباب تمسكت بي:

- لا تتركيني وحدي.
- سأعود في المساء، يجب أن أرتاح قليلًا، وأستحم، سأعود، لن أتركك وحيدة، البيت مليء بالمعزين، تماسكي فقط.

انفلتُّ خارجة من الكابوس، أنا أيضًا لم أستوعب هذا الفقد الكبير، عمة حورية كانت أمًّا لنا جميعًا، عند امتحان الثّانوية كانت تسهر معنا حتّى الفجر، تحضر لنا الكعك والشّاي والقهوة والمعجنات وتنام جالسة على كرسيها ونحن ندرس، نرجوها أن تذهب إلى الفراش لكنّها تصرُّ على أنّها صاحية وليست بحاجة

للنوم. كانت تحلم أن ترى حورية تخرجت من الجامعة وأصبحت عروسًا وأنجبت لها أحفادًا. كم كانت بسيطة وعادية تلك الأحلام بل هي من تفاصيل الحياة المملة، لكنّها بالنّسبة لعمة حورية الحلم المستحيل في حياتها، فقد حُرمت من الإنجاب، ومن تلك التّفاصيل العادية في حياة البشر.

نهضت حورية فجأة من نومها وخرجت مسرعة إلى الشّرفة، وخزني قلبي، ركضت خلفها، أمسكتها من ذراعيها:

- ادخلي يا مجنونة.

فكرة الانتحار تلك التي تراود حورية كلّما واجهتها مشكلة متعلّقة بفقد إنسان عزيز مرتبطة في أعماقها بفكرة اللقاء به. تريد الذهاب إلى هناك حيث يكون، ربّما كانت قراءتها للكتب الماركسية وكتب جان بول سارتر قد تركت بصمتها على تفكيرها مؤخرًا فصاغت فكرتها عن الوجود بصورة استهوتها حدّ أنّها فقدت إيمانها بكلّ الأديان.

كانت تتباهى بحفظها لفقرات كاملة من كتاب رأس المال، كلّما اجتمعنا في المقصف حول كأس شاي تتحفنا بتلك الأقوال التي حفظتها.

لم أحبّ أن أجرح حورية، ولم أقل لها إنّها مجرد ببغاء يقلّد الأصوات من دون فهم وإدراك لعمق المعنى، وأنّه لا يكفي أن تحفظ أقوال ماركس وتجترها أمامنا لتكون شيوعية. كنت أنتظر أن يحدث شيء ما يجعلها تدرك عقم ما تفعله. لكنّ الصّدمات زادتها تمسكًا بحبال الوهم وزادت جرعة اليأس عندها. لم ألحظ أبدًا أنّ لجهاد علاقة في انفلات حورية وإصرارها على ممارسة حريّتها الشّخصية. علاقتها بخالد كانت صدمة كبيرة بالنّسبة لي لم أستطع تقبلها، وأيضًا لم أستطع الضّغط على حورية ولا بأيّ شكل كي لا تخوض تلك التّجربة التي خرجت منها بمرارة أكبر من مرارة موت عمتها.

ربتُّ كتفها وضممتها إليّ:

- ليست المرّة الأولى التي تحاولين فيها الانتحار، حورية كبّري عقلك.
- ماذا تقصدين؟ هل أنا مجنونة؟
- لا يا حورية، أنت تفهمين قصدي لكنّك تريدين تطوير الحوار إلى شجار كعادتك، تذكرين يوم وفاة عبد الحليم حافظ ومحاولتك الانتحار؟ لا أظنّك نسيتِ، أنتِ تتصرّفين من دون تفكير حين يغلبك الألم. يوم موت عبد الحليم أخذتِ حبوبًا منومة فقط لتثبتي لي أنّي مخطئة وأنّك تحبينه كشخص حقيقي في حياتك وليس كمطرب.

شهقت:

- أنا قليلة عقل حقًّا.

ابتسمت:

- اعترافك هذا يعني أنّك بدأتِ تفكرين بطريقة جيدة.

* * *

فوجئت حين عودتي إلى حلب بداية العام الدّراسي بوجود حميدة سليمان في البيت، سألتها متى جاءت، أخبرتني أنّها لم تسافر إلى قريتها، الجوّ في القرية لم يعد يناسبها!

لم تتوطد علاقتي بحميدة على الرّغم من مرور سنتين على وجودها معنا في المنزل فهي كالشّبح لا نكاد نشعر بوجودها حين تأتي ولا نشعر حين تغادر.

فاجأتني بدعوة إلى الغداء في مطعم شعبي في الجميلية، لم أتردد كنت بحاجة لتغيير جوّ الحزن الذي رافقني في الحيرانة. اشترطت حميدة:

- **سنذهب سيرًا على الأقدام.**

وافقت، المشي يحسّن مزاجي حتّى وإن كان الطّقس حارًّا، لكنّ أيلول منحنا بركته بإرسال نسمات باردة مُحمّلة بروائح الزّهر في حدائق بيوت سيف الدّولة والمحافظة حتّى وصولنا حي الجميلية.. عرفت جانبًا مرحًا من شخصية حميدة فقد كانت تسير بسرعة وتغني غير عابئة بنظرات المارة إليها "حول العالم في ثمانين يومًا كي يتزوج فوج من بلندا الجميلة" وفجأة وجدتها ترجِّح ساقيها كما يفعل "توم سوير" في الفيلم الكرتوني وهي تغني أغنية الفيلم "حياتنا مسرة".

ضحكت:

- فضحتينا، لا تعرفين سوى أغاني أفلام الكرتون؟
- هي أفلامي المفضلة في الواقع.

تغدينا وتابعنا طريقنا إلى الحديقة العامة، اشترينا فستق عبيد ولوز مملح، غادرنا الحديقة قبل المغرب، ووجدنا أنفسنا نسير على غير هدى في الأحياء، سألتها:

- ألا نعود؟ لقد تعبت من المشي.

قالت:

- وأنا تعبت.

وجلست على الرّصيف.

"نار الحطب تنطفي والحبّ ناره دوم"

كان صوت صالح عبد الحي يتسرّب من أسطوانة قديمة يهبُّ رائقًا وجميلًا مع نسمات تحرّك السّتارة في أحد منازل الحي الرّاقي.. جلست جانبها على حافة الرّصيف نستمع إليه، لم نكن نهتم لعيون المارة المحدّقة باستغراب بحميدة الغريبة بزيها الفج ووجهها الهلامي الذي يبدو كعجينة كورت على عجل وعبثت بها أصابع غير مدربة لتصنع فيها عيونًا غائرة صغيرة، وأنفًا أفطس وشفتين رقيقتين تبدوان كخطين مستقيمين حين تبتسم! لكنّها كانت تعزي نفسها دائمًا بأنّ هذا

الشّكل الشّبيه بوجه دمية بلاستيكية يقوم بوظائفه كاملة، عيناها تريان جيدًا بل أكثر مما ينبغي فهي تتمتع ببصر حاد، وسمع مرهف، وتستطيع تمييز الروائح مهما اختلطت وتكاثفت وتكاثرت. دائمًا تذكّر نفسها بتلك النّعم الاستثنائية التي منحها إياها الخالق تعويضًا عن شكلها وتعزي نفسها بمقدرتها الخارقة في الجري وتسلق الجدران الملساء وكأنّ في كفيها مادّة لاصقة..

كرّر صالح عبد الحي العبارة مرّة وراء أخرى، تنهدت بعمق وهي تغمض عينيها وتتخيّل تلك الكلمات طبقًا من العجة اللذيذة التي تبدع والدتها صنعها، شمّت الرّائحة قريبة جدًا، حرّكت لسانها وكأنّها تمسح أثر الطّعام عن شفتيها.. همست:

- الحبّ لذيذ الطّعم كالعجة! بالمناسبة، أفهم كيف تنطفئ نار الحطب لكنّي أتوق إلى نار الحبّ تلك التي لا تنطفئ.. قال لي يومًا: "أنت لا تدركين شيئًا، من يهتم لوجهك؟ الحبّ ليس هنا، المهم أن تكون حرارة جسدك كافية لإشعال الفرن، ما دمتِ تستطيعين التّقلب بمرونة هكذا فأنت تعرفين المعنى بالتّأكيد".

سألتها مازحة وأنا ألكز كتفها:

- أيّهم؟

أطرقت رأسها:

- آخرهم، ذاك الذي وعدني بالزّواج. تذكرينه؟ ما دام الحبّ هو ما فعله معي، لماذا رحل إذن؟".

لم أستطع أن أقول رأيي بصراحة لحميدة، ربّما أكون مخطئة لكنّي لا أمتلك الجرأة على جرح كرامتها وكسر قلبها.. كنت أعرف كيف ينظر زملاؤنا إليها، الجميع يرونها فتاة سهلة تصلح للمضاجعة ولا مشكلة في تركها بعد ذلك وتحميلها وزر أخطائها!

حميدة روت لي أنّها على علاقة بشاب في السّنة الرابعة من دراسته الجامعية، ابن عائلة ثرية، أجمل شباب الدفعة وسيخطبها قريبًا.. ضحكت بسذاجة وهي تقول، إنّ هذه العلاقة ستكون الأخيرة، وحين سألتها إن كانت على علاقة سابقة بغيره، قالت: "كثر، لا أعرف كيف أحصيهم! فأنا أنسى غالبًا، نعم أنسى، ربّما كانوا خمسة أو تسعة لا أدري، هذا ما عدا الفراطة.

فراطة!

أذهلتني العبارة، "ماذا تقصدين بالفراطة؟". قالت حميدة: "المواعيد الطيّارة، تعلمين، شابٌ يلاحقك في سوق مزدحم، يقرصك، يطلب موعدًا أمام سينما، تحضرين فيلمًا، تأكلين لوزًا مملحًا على مقعد في الحديقة العامة ثمّ تنسينه... فنجان قهوة في الستراند، أو وجبة بيتزا في الكهف، هكذا يعني... ألا يحصل لكِ ذلك؟".

* * *

لم تكن حميدة معنا في الكلية نفسها لكنّها لم تكن تفارق مقصف، الآداب وحين أفتقدها تكون في مقصف كلية الطّب.

كانت تواظب على حضور النّشاطات الأدبية في الكلية، وعروض السّينما في مدرج كلية الطّب، والعروض المسرحية في صالة معاوية.. لا يفوتها نشاط. وكنت أتساءل متى تجد الوقت للدراسة وكيف تنجح في الامتحان، ولم أجد إجابة شافية.

في السّنة الأولى كنت ألتقي بها في المقصف بشكل يومي، والآن قلّ ارتيادي للمكان. مللت الضّجيج والازدحام ونقاشات الزّملاء العقيمة، خاصة وأنّ الصّراع صار واضحًا وعلنيًا بين أصدقائي. لم أتوقع يومًا أن أكون محور اهتمامهم فكيف بي وقد صرّح الخمسة لي بحبهم! وأولهم كان نضال السّجّار.

نضال السّجّار:

شيء ما كان يجذبني إليه ويبعدني عنه، أحاسيسي تجاهه ملتبسة، أحيانًا ألمس طيبته وحبّه وتفانيه وأحيانًا أشعر بالغبن والخديعة، لم أستطع خلال سنوات أربع من دراستنا الجامعية أن أحدد بالضبط إن كنت أكرهه أم أستلطفه، كلّما حاولت تقبّل كلماته وقربه يبعدني نفور عميق لا أملك له تفسيرًا.. مع هذا لا يمكن أن أتجاهل وجوده وأن أعترف أنّه أحبّني، لا يهم كثيرًا الطّريقة التي أحبّني بها ولا الوسائل التي اتبعها كي يصل إليّ المهم إدراكي لمشاعره وحذري منه. منذ تلك الرّحلة صرت أتجنب الاحتكاك به عن قرب وأعتذر عن كلّ تجمع فيه حتّى وإن كان أمسية أدبية أو حضور عرض سينمائي على مسرح كلية الطّب أو في صالة أمية.. حساسيتي تجاه وجوده قربي ارتفعت مع وصول علاقتي بجهاد إلى طريق مسدود، أعلم أنّ نضال لا ناقة له ولا جمل في الأمر، ومع هذا هناك شيء في أعماقي جعلني أصبّ نقمتي عليه وأعتبره سببًا في ما حصل، يكفي أنّه حاول استغلال الحادثة لصالحه وصار يعترض طريقي بوقاحة ويتباسط بالحديث وكأنّنا على علاقة حميمة.

كاميران عثمان

كان خجولًا يتلعثم مع كلّ عبارة، لم أنتبه إلى تلميحاته فقد كانت خليطًا عجيبًا من الغزل الموارب والحكايات الغامضة عن بلاد بعيدة لا أعرف عنها شيئًا. فاجأني وحيدة على الشّاطئ في تلك الرّحلة، ناولني الصّورة بارتباك، قال وعيناه تحدّقان بالبحر: "ليتني أعرف كيف أدخل قلبك كما فعل هو، هذه صورتكما معًا، التقطتها خلسة، سامحيني، لا بدّ أن تعرفي قبل أن يرحل كلٌّ منا في سبيله أنّي أحببتك بصدق، وأتمنّى لكِ السّعادة معه". لم ينتظر كاميران كي يسمع جوابي، انتبهت إلى يدي ترتعش، تأملت الصّورة مليًا، مزّقتها، وتركتها للرّيح. كاميران ترك

في قلبي نسمة لطيفة كلّما تذكّرته تنعشني كأنّها شتلة حبق، شاب مهذب لم يقل الكثير وعاش طويلًا في أوراقي، رسمت له شخصيات متعددة كتبتها على الورق، ألبسته أثوابًا ليست له ونسجت حوله حكايات واعتقدت أنّها حقيقية. لكنّ الواقع الصّادم والذي عرفته بالصّدفة بعد سنوات أنّه لم يعش طويلًا، مات وحيدًا في بلاده التي نسج حولها الأساطير في أمسية البحر الفريدة.

أسمعني تلك الليلة أغاني باللغة الكردية، وحكى لي عن "ممو وزين" وأهداني الرّواية وهو يتجنب النّظر إلى وجهي!

صلاح السيّد

لم يكن مفاجئًا لي أن يرسمني صلاح في عشر لوحات عارية، مع هذا أغضبني حدّ الخصام، لم أنتبه إلى غيابه حتّى أخبرني محمّد أنّه لم يخرج من البيت منذ شهر، وأنّه لم يشترك في المعرض كما كان مخططًا وطلب مني أن أزوره لأقنعه بالعدول عن تصرفاته..

رائحة الحريق كانت طاغية على روائح الطّبخ المتصاعدة من البناء في توقيت الظّهر.. سألت محمّد عن الأمر أبدى أسفه وهو يشرح لي: "لقد حرق اللوحات كلّها" صدمني الأمر وأنا أراه وسط الغرفة وحوله زجاجات البيرة الفارغة وأعقاب السّجائر.. نظر إليّ بعينين محمرتي الأجفان وكأنّه لم يعرفني! احتاج لدقائق قبل أن ينطق "أهلًا" ونهض مغادرًا الغرفة.. رتّبناها أنا ومحمّد ونظّفنا ما استطعنا ريثما عاد وقد غسل وجهه وسرّح شعره ورسم نصف ابتسامة على شفتيه وهو يقول: "ما الذي جاء بكِ؟" تولى محمّد الإجابة ووبّخه على أسلوبه في الحديث. ليس غريبًا على صلاح فهو شخص عصبي ومشاكس ويستخدم عبارات جارحة مع أنّه يريد قول عكسها، يعيش حياته بلامبالاة مفرطة مراوحًا في المنطقة الوسطى بين هؤلاء الذين يتشبثون بأذيال أمجادهم الماضية عندما كانوا أغوات البلد وحكّامها،

وهؤلاء الذين كانوا في القاع وطفوا على السّطح بسبب الطّفرة البعثية التي قلبت الموازين في المجتمع السّوري. لا يشعر بانتمائه لأيّ طبقة ولا ينتمي لحزب أو فكر محدد، تعاطفت في البداية مع حكايته التي خصّني بتفاصيلها وطلب مني أن تبقى سرًا بيننا، ثمّ تطور الأمر لاعترافه بغيرته من جهاد ورغبته في إقامة علاقة جنسية معي، اغتصبت ابتسامة وأنا أحاول السّيطرة على أعصابي لأرد بهدوء يشبه هدوءه في طرح الفكرة! ضحك بصوت مرتفع وقال: "أردت معرفة ردّ فعلك فقط، أتصدقين حقًّا أن أكون مبتذلًا إلى هذا الحد؟".

محمّد الشّوكاني

لم أعرف الكثير عن محمّد سوى أنّه دعاني لمشوار معه في الحديقة العامة واشترى لي قمع لوز مملح وتحدّث عن اليمن وعاداته وأمّه وأبيه والصّراعات القبلية وأشياء كثيرة لم أنصت إليها، فقد كنت أتأمل الطّيور والأشجار والأولاد الذين يلعبون حولنا، وأشمّ نسيم نيسان بعمق حتّى تلاشى صوته ولم أعد أسمع شيئًا، وصحوت على يده تلمس كتفي بتردد وهو يقول: "هل أوصلك إلى البيت؟".

قبل أن نصل مدخل البناية ناولني دفترًا صغيرًا وصافحني بحرارة وهرب!

نعم هرب وكأنّه ألقى بقنبلة بين يدي وخاف أن يسمع صوت انفجارها.

كانت أشعارًا رقيقة باللهجة اليمنية المحكية لم أفهم معظمها لكنّي توقفت عند عدد من الكلمات وضع محمّد تحتها خطًا بقلم أخضر، حين جمعتها عرفت أنّه يحبني ويعرض عليّ الزّواج والسّفر معه إلى اليمن.

لم أستطع الرّد على محمّد، كانت آخر مرّة أراه فيها.. اختفى بعدها ولم يبقَ له أثر!

* * *

ربّما كانت هذه العاصفة من الحبّ التي أثيرت حولي هي السّبب الرّئيس في قرار جهاد أن يأخذني إلى بيتهم ليعرّفني على أمّه وأبيه وإصراره أن يتمّ زواجنا قبل التّخرج.

وافقت على مضض، أحسست بالرّهبة حين دخلت غرفة الاستقبال، كنت أنتظر قدوم والده وكأني جالسة على جمر، أوّل مرّة سأرى عبد الرّحيم بيك في الواقع، سبق ورأيته في الصّورة. سمعت خطواته الأنيقة تطرق البلاط النّاعم يرافقها صوت عكاز ينقر البلاط بخفة، من الواضح أنّه يحمله للزينة وليس للاتكاء عليه.

وقف في الباب وعلامات الاستغراب على وجهه، اكفهرت ملامحه فجأة، تجمّدت يده على مقبض الباب في لحظة ظننتها أبدية.. وكأنّه لم يغادر الصّورة!

لم تساعده قدماه على تجاوز العتبة وكأنّ الجاذبية شدتهما إلى عمق الأرض. ابتعدت عن جهاد في حركة تلقائية..

نهض جهاد بارتباك واضح وقدّمني لوالده:

- بابا، هذه فريدة، زميلتي التي حدّثتك عنها.. أنتظر مباركتك لنا.

تمالك عبد الرّحيم نفسه بصعوبة وأجاب:

- ستتحدث في هذا الشّأن مساء اليوم بحضور أمّك، لديّ عمل الآن.

وخرج مسرعًا.

لم يتوقع جهاد هذا الموقف من والده، شعرتُ بالحرج، اعتذرت وغادرت.

لم يستطع جهاد إيقافي.. ولم يشأ اللحاق بأبيه.

* * *

في اليوم التّالي لم أذهب إلى الكلية، توقعت أن يمرّ جهاد كالعادة ليأخذني بسيارته خارج حلب كي نناقش ما حصل، لكنّ جهاد لم يأتِ.

عصرًا ألحت عليّ حورية لنذهب معًا، لم يكن لديّ محاضرات لكنّي وافقت. في المقصف وجدت نضال وكأنّه ينتظرني، أشرت لحورية كي نبتعد في سيرنا عن طاولته. وفهمت حورية مباشرة:

- معك حق، أنا لا أطيقه. سبحان الله، حلس ملس.
- يبدو بينك وبينه عداوة، من أين تعرفينه؟
- كان مدير المدرسة التي درّست فيها السّنة الماضية، لا يمكن أن أنسى كيف كان يتعامل مع المعلمات، لقد ضرب زميلة لنا لأنّها جاءت متأخرة أثناء تحيّة العلم ووقفت بجانب إحداهن، همست بأذنها وضحكت. فما كان منه إلا أن نزل إلى حيث تقف، وصفعها على وجهها.

تصوري رنّ كفّه على وجهها وسط ذهول التّلاميذ والمعلمات ولم يجرؤ أحد على فتح فمه بكلمة.

- وهي ماذا فعلت؟ ألم تشتكِ عليه؟
- نقلوها من المدرسة بعد أيام ولا أعرف عنها شيئًا، من الواضح أنّ واسطته ثقيلة جدًا حتّى بقي هو في المدرسة ونُقلت هي. المهم أريني ماذا كتب لكِ.

ناولتها الرّسالة. قرأتها حورية وقلبت على قفاها من الضّحك، رأته وهو يحدّق إليها، ولم تهتم:

- كأنّه يعرف لماذا أضحك، نظراته تعبّر عن غيظ شديد. المهم.. خذي الورقة من الواضح أنّ خطّه جميل.
- تقصدين ناعم[1]؟

(1) يطلق الاسم على المخبرين "أصحاب الخطوط النّاعمة" أو الجميلة ممن يبدعون في كتابة التّقارير.

- المعنى نفسه، وإلا كيف استطاع أن يصبح مدير مدرسة بعد تخرجه من الصّف الخاص؟
- أودّ أن أعرف رأيك في ما كتبه؟
- لديه حسّ شاعر، لكنّي غير واثقة أنّي لم اقرأ مثل هذه الكلمات يومًا لكن لا أتذكّر أين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ضحكت:

- كيف لا تذكرين، إنّها رسالتك إلى أحمد.

فتحت حورية فمها تريد أن تقول شيئًا لكنّها تراجعت وعبّرت عن دهشتها بشهقة.

ضحكتُ ثانية:

- خليط من المنفلوطي وجبران وإحسان عبد القدوس ونزار قباني. القضية ليست صعبة. بالمناسبة، حورية: ما رأيك فيه ما دمت تعرفينه عن قرب.
- سمعت أنّه درس الثّانوية في البيت، وسجّل في جامعة لبنانية ثمّ انتقل إلى جامعة حلب. وكلّ دراسته من دون دوام، عيّن في الريف لمدّة سنة واحدة، يبدو أنّه كان يقوم بواجب وطني حتّى عاد إلى حلب مديرًا لمدرسة ابتدائية بهذه السّرعة. نصيحتي لكِ ألا تردي على رسالته، تجنبيه ما استطعتِ، أعتقد أنّه يستطيع إيذاء حتّى من يحبّهم. لماذا لا تسألين جهاد عنه؟ أعتقد أنّه يعرفه جيدًا قبل الجامعة كانا معًا في المعهد العلمي، قيل لي إنّه درس هناك سنة واحدة ثمّ ترك المعهد وأكمل دراسته في البيت، لكن لا أحد يعرف السّبب.
- تعلمين؟ أذكر أنّي قرأت اسمه في زاوية "بستان الأصدقاء" التي كنت أنشر فيها بمجلة المرأة، مسؤول الصّفحة الثّقافية رفض له أكثر من

نص، وشعرت بالأسف لذلك، كنت أمتعض من المسؤولين عن الصّفحات الثقافية الذين يحطّمون آمال الكتّاب الناشئين بتنصيب أنفسهم حماة للشعر واللغة. لماذا لا يتركون المجال للكتّاب والقارئ يحكم إن كان عملهم جيدًا أم سيئًا؟

- أنت رهيفة الحس أكثر من اللازم، هذا يعني أن ينشروا أيّ كلام تافه.. لا يستقيم الأمر هكذا..
- ربّما، لكنّي أراهن أنّه سينجح في الكتابة، لديه حسّ شاعر كما قلتِ، وسرده متماسك.
- المهم أنّ رسالته هي المتماسكة وأرى أنّها تركت أثرًا طيبًا في نفسك، لكنّي أجد نفسي مضطرة لتذكيرك، لقد عزف على وتر الغرور عندك بمديحه كتاباتك وأيضًا بإشارته إلى كلِّ ما نُشر لكِ، إعجابك نابع من متابعته لكِ وإعجابه بكِ، وهذا متوفر عند كلّ معارفك، كلّهم يمدحون كتاباتك، ويتابعون ما تنشرينه في الصّحف، وأوّلهم ذلك الصّحفي الذي أجرى معك حوارًا لجريدة الجماهير وأطلق عليكِ لقب الخنساء، يبدو كمراهق في السّتين من عمره.

التقطتُ لهجة حورية السّاخرة وأحسست بمدى ضيقها وحسدها، لكنّي تجاهلت الأمر، همست:

- لقد جاؤوا؛ محمد وصلاح وجهاد؛ اكتمل العدد!

ضحكت حورية:

- يكتمل حين يأتي كاميران، يا بختك، طيلة المرحلة الإعدادية والثّانوية وأنت تحلمين بالحبّ، وها قد جاءك الحب من كلّ حدب وصوب مثل الطّوفان.

قلت بضيق:

- أخشى أنّهم غير قادرين على معرفة حقيقة مشاعرهم، ربّما يحبّون ما أكتب ويتمنّون لو كان لهم.. نعم لا أشعر بأنّهم يحبّون فريدة.
- وجهاد؟
- جهاد ليس منهم.

* * *

جهاد صار منهم، لم أعد أفهمه، لم أعد أعرف كيف أتعامل معه بعد تلك الزّيارة.. حد أنّي فكّرت بزيارة جليلة والاستفهام منها عمّا حصل.

لكنّ كبريائي منعني.. مرّ أسبوع لم يحضر جهاد إلى الكلية، تلاه آخر فثالث واكتمل الشّهر، ووجدت نفسي أبوح لصلاح بقلقي وأسأله أن يقدم لي خدمة ويزوره ويستفسر منه عمّا جرى، أريد أن أفهم فقط ولا شيء آخر، إن كان ينوي إنهاء علاقتنا فلا بأس له ذلك لكن ليخبرني السّبب فقط.

بعد يومين أخبرني صلاح أنّ أباه لم يره منذ شهرين، لقد ترك المنزل، ولم يخبر أحدًا عن وجهته.. وسيارته أمام البيت لم يأخذ شيئًا يخصه.

أقلقني ما قاله صلاح، وضعت نصب عيني كلّ السّيناريوهات السّيئة، قد يكون تعرض لحادث قد يكون فاقدًا لذاكرته قد...

صلاح قال لي: "لا تفكري بهذا الاتّجاه، لقد ترك رسالة لأمّه يعتذر فيها عن غيابه وطلب منهم ألا يبحثوا عنه.

لا شكّ إذن أنّ الموضوع مرتبط بي، لقد رفض والده زواجنا وهو ترك البيت احتجاجًا على ذلك.

لكن لمَ لمْ يخبرني؟

جاءني الجواب سريعًا.. كانت جليلة تنتظرني عند موقف الحافلة أمام الكلية وقد أسدلت منديلها على وجهها، ناولتني رسالة، كانت عيناها مليئتين بالدّموع:

- **ترك لكِ هذه، اعذريني السّائق ينتظرني على الطّرف الآخر من الشّارع. كوني بخير دائمًا.**

تركتني مذهولة وركضت تقطع الشّارع إلى الطّرف الآخر.

رسالته كانت بضع كلمات "فريدة... عليكِ أن تنسي كلّ ما كان بيننا، أتمنّى أن تجدي الحبّ مع شخص يستحقك، قد يكون صلاح أو كاميران، أو محمّد، لكن إياكِ أن ترتبطي بنضال لأنّك عندها ستنتقمين من نفسك وليس مني..

جهاد".

كثيرًا ما كانت الأمكنة مصدر حنين يصبح كارثيًا حين يشدّ حبل الحقائق حول عنقي ويتركني أعاني الاختناق. المعهد العلمي أحد تلك الأماكن التي لم أستطع تجنبها، أمرّ في طريقي لأجلس على حجر بارد وسط النّدى ورائحة الأشجار وأجلد نفسي بالذّكرى الأكثر ألمًا في حياتي.. هنا التقينا أوّل مرّة وخطف مني أوّل قبلة. لم أجرؤ أن أحكي لصلاح عن مشاعري تلك وإن أيقنت أنّه أكثر شخص في الوجود استطاع الشّعور بألمي وكأنّه ألمه.

- لم تكن مجرد صدفة.. كنت أتبعك لأعرف كيف تمضين وقتك.
- ما المهم في **ذلك**؟ أمضيه هكذا كما ترى بالتّسكع.
- ليس تسكعًا إنّه حنين قاتل للأشياء التي تربطك به.
- ها أنت تحلّل وتخمّن وتدّعي المعرفة.
- هل أخطأت؟
- لا، كلامك صحيح، هذا المكان يذكّرني به!

حتّى أحجار السّور بلونها الرّمادي المبلّل بحبّات المطر، وأشجاره بأوراقها اللامعة تتحدى الشّمس الخجولة التي تمدّ رأسها للحظات من خلال الغيم وتعود إلى الاختباء، لسعة البرد، ياقة معطفي، جيوبه الدّافئة، بقايا ورد يابس في قاع

الجيب.. ومفتاح البيت.. أحسّ أنفاسه قريبة هنا، تلسع القلب.. يا إله السّماء كم اشتقت لتلك اللحظات!

- ما زلتِ تحتفظين بالمفتاح؟
- تتلصّص عليّ!
- إنّها حركة يدك في جيب المعطف.. المهم لست هنا لنتشاجر جئت أدعوك لحضور حفل موسيقي في كنيسة الشّيباني، ما رأيك؟ أكيد موافقة، أعرف أنّك تحبين الأماكن التّاريخية.

يعرف! كلّهم يعرفون! أشعر أحيانًا أنّ مشاعري وأفكاري ممتلكات عامة يحق لأيّ شخص نبشها والعبث بها واستخدامها والاستمتاع بها.. اللعنة.

مع هذا هززت رأسي موافقة!

مرّة واحدة فقط جمعتنا جدران كنيسة الشّيباني في حفل لشيخ المطربين في حلب "صبري مدلل". لا أعلم ما الذي جعلني أوافق على مرافقته بل أعلم جيدًا، ظننت لمدّة قصيرة من الزّمن أنّ بإمكاني مداواة جرح الحبّ بحبّ آخر..

أعترف.. لم تخرجني تلك النّظرية الغبية من حالة العشق التي عشتها بكلّ جوارحي، ولم أجد في صديقي الرّسام - مع كلّ ما بذله ليحظى بحبي - ما أبحث عنه!

عمّ أبحث؟ عن ظلّه الهارب عبر الأشياء، أم راحتي في تعذيب نفسي بذكراه؟

لأشجار الزّيزفون تأثير غريب على مشاعري، يدركه صلاح كما يعرف أنواع الورد التي تجعل قلبي يذوب ويتلاشى، في كلّ لقاء يحضر لي أزهار القدّاح، الفل في موسمه، القرنفل في موسمه، الغريب في موسمه، والنّرجس سيد القلب.

اختار لي مكانًا مميزًا، بدوت في الصّورة التي التقطها لي فرعًا من فروع شجرة الزّيزفون، وصورة أخرى أعتلي الدّرج وأنحني على الدّرابزين

الحجري، ابتسامة غامضة، قال لي تشبه الجوكندا بل أحلى! حين أتأمل الصّورة لا أجدني، أبحث فقط في تفاصيل الزّخارف حيث استراحت كفي على الدّرابزين.

حين بدأ شيخ المطربين وصلته الغنائية انسحبت روحي مني، لم أعد أسمع صلاح ولم أعد أراه.

(ويا رفارف روحي في معارجها بذكركم كم يداوى في الهوى ألمي!).

لا أعرف كيف نهضت، ولا كيف مضيت، ولا أيّ الشّوارع في حلب احتضنت دمعي وروحي وأعادتني إلى البيت مبلّلة بعطره وذكراه.

* * *

لم يبقَ في حلب شيء يربطني بها، انتهت امتحانات السّنة الرّابعة وتراجعت عن قراري بمتابعة دراستي.

لم أعد أستطيع رؤية الكلية من دونه.

عدت إلى البيت آخر يوم في الامتحانات لأجد حورية في حال سيئة. كانت تنهض إلى الحمّام كلّ ساعة.. وجهها أصفر، سألتها إن كانت ترغب في الذّهاب إلى الطّبيب رفضت، رجوتها أن تذهب معي إلى الحيرانة وتقيم عندي ريثما تظهر نتائج الامتحانات رفضت.

لم أكن أعلم السّبب الحقيقي لرفضها. ولم تتركني لحيرتي:

- **لقد تزوجت.**
- **ماذا! من؟ كيف؟ متى؟**
- **خالد زوج صديقتي ليلى.**

لا أعرف كيف أعبر عن الصّدمة التي أصابتني من كلام حورية.. صار الهرب من حلب ضروريًا، لم أعد أستطيع الانتظار هنا.

أعطيتها مفتاح البيت لتعيده إلى أصحابه مع حصتي من الأجرة، ودّعت يمامة وأعطيتها عنواني لتكتب لي ودعوتها لزيارتي في الحيرانة.

لم أكن قد وضعت خطّة للمستقبل بعد، عليّ انتظار "مسابقة" للتعيين كمدرسة، وحتى يحين موعد الإعلان عن مسابقة، اخترت أن آخذ ساعات تدريس في ثانوية البنات في الحيرانة، ورضيت أحيانًا أن أحلّ مكان معلمة ابتدائي تحتاج لإجازة أمومة. لكنّي بعد سنتين لم أعد أجد الأمر مغريًا فقرّرت تقديم أوراقي للتدريس في مدرسة خاصة في الكويت.

تسليتي الوحيدة في فترة العطالة تلك كانت المشاركة على نطاق محدود في نشاطات أدبية في المحافظات، وقد منحتني تلك المشاركات فرصة ذهبية للعيش في العاصمة والعمل في الصّحافة، لكنّي لم أفعل. كانت الضّريبة على قدر الفرصة تمامًا ولم أكن مستعدة لدفعها.

* * *

في الأمسية الأدبية الأولى لي في العاصمة نصحتني إحدى صديقاتي بالتّخلص من مظهري الرّيفي البائس بالذّهاب إلى صالون تجميل - أرشدتني إلى مكانه - لأحظى بهيئة مقبولة قبل أن أنضم إلى قافلة الكاتبات الدّمشقيات المشهورات بأناقتهنّ. رفضتُ الأمر، لكنّها أصرّت على مرافقتي إليه.

لم أكن أحبّ تغيير شكلي أو هيئتي لكنّها أقنعتني بشراء طقم رسمي وحذاء جديد، والذّهاب إلى الصّالون لعمل تسريحة جديدة..

حين دخلت الصّالون الفخم الواقع في أرقى شوارع العاصمة، أذهلني منظر السّيّدات الموجودات في صالة الانتظار.. انكمشت على نفسي وهمستُ لصديقتي:

- سأغادر، لن أبقى هنا، هذا المكان لا يناسبني، ثمّ سأدفع مبلغًا كبيرًا كما يبدو.

شدّتني صديقتي من يدي لأجلس:

- لا تفضحينا، أنا سأدفع.

جاءت فتاة صبية تتمايل بغنج:

- آنسة فريدة، تفضلي، دورك.

نهضتُ بارتباك، تبعت الفتاة، دخلت إحدى الغرف.. استلقيت على الأريكة بملابسي.. ابتسمت الفتاة:

- سأخرج ريثما تخلعين ملابسك وتستعدين.

احمرّ وجهي "أخلع" ما هذه الورطة! لا، لن أفعل، لن أزيل شعر ساقيّ وسأرتدي السّروال كالعادة، اللعنة على الأنوثة وتوابعها.. واللعنة على السّاعة التي وافقت فيها على المجيء إلى هنا. لم أكد أتحرّك صوب الباب حتّى انفتح ودخلت سيّدة تبدو وكأنّها من جيلي!

- وهيبة! غير معقول!

- ما هو الغريب في لقائنا يا فريدة، عملي أم الصّدفة؟

- لا أدري، لكنّي لم أتخيّل أن أجتمع بكِ أبدًا بعد أن غادرتِ الحيرانة.. الأمر الغريب أنّي تذكرتك منذ أيام، كنت أكتب قصة سيّدة جاءت من مصر أيام الوحدة وعاشت ظروفًا قاسية في سوريا وخطرتِ ببالي.

ابتسمت وهيبة:

- أنتِ تكتبين القصص؟ هنيئًا لكِ.. وددت طيلة عمري لو أنّي أمتلك هذه الموهبة لأكتب قصتي وأنشرها لعلّ النّاس يجدون فيها عبرة.

لم أخبر وهيبة تلك اللحظة أنّي أكتب قصتها التي روتها نادرة الشّريف في مذكراتها...

امتدت يد وهيبة إلى زر أسفل الطّاولة وضغطته. لم تنتظر سؤالي، همست:

- بعد أن أنتهي من عملي في العاشرة مساء سأتصل بكِ، يجب أن نلتقي، سأحكي لكِ كلّ شيء.

غلبني فضولي، لم تكن وهيبة تتحدّث أثناء العمل على عكس المعروف عن العاملات في المهنة، الغريب أنّها تمتلك المقدرة على تبادل الأدوار مع الزّبونة؛ فتجعلها تتكلّم طيلة جلوسها على الكرسي وكأنّها على كرسي الاعتراف لا الحلاقة. مع هذا تخرج الزّبونة بشعور مبهج وتتمنّى لو أنّ وهيبة أطالت مدّة العمل في شعرها أكثر كي تستطيع التحدّث عن مشاكلها فترة أطول. وهذا ما يدعو الزّبونة لتكرار الزّيارة في مدّة قصيرة وإن لم يكن شعرها بحاجة لقص، تصبغ أو تغيّر التسريحة، أو تعمل أيّ شيء يجعلها تغمض عينيها بين يدي وهيبة وتتحدّث!

"صالون وهيبة يشبه عيادة نفسية" هذا ما علّقت به صديقتي حين أبديت استغرابي من الازدحام وإصرار معظم الزّبونات على انتظار وهيبة وعدم رغبتهن في الاستسلام ليدي إحدى الفتيات العاملات في الصّالون.

وهيبة كانت مختصة بالزّبونات "الدّسمات" اللواتي يحجزن دورًا قبل قدومهنّ إلى الصّالون. لديها دفتر مواعيد وسكرتيرة خاصة للحجز!

* * *

لقائي وهيبة هذه المرّة لم يكن محض صدفة، اتصلت بها حين وصولي إلى دمشق لتقديم أوراقي في السّفارة الكويتية وتصديقها، قالت لي: "سأنتظرك على الغداء" وزودتني بالعنوان.

حلفت وهيبة أيمانًا غليظة كي أقيم عندها ريثما أنهي عملي، واتّصلت بصديق لها يعمل ممرضًا في مشفى الشّامي كي يسهّل لي أمر الفحوصات المطلوبة مني لاستكمال أوراق التّقديم في السّفارة. سألتني بارتياب:

- لماذا تريدين السّفر إلى الكويت؟ ألا يعجبك التّدريس في الحيرانة؟ بإمكاني تعيينك في دمشق إن أحببتِ.
- لا، أودُّ أن أغيّر الجوّ نهائيًا، تجربة السّفر والتعرّف إلى مجتمع مختلف تغريني، وقد سنحت لي الفرصة ولن أفوّتها. بالمناسبة وهيبة، لقد وعدتني أن تحكي لي قصتك ولم تفعلي.

تنهدت وهيبة وهي ترشف من فنجانها البارد وتعبّ أنفاسًا من نارجيلتها.. نفخت الدّخان، وقالت:

- سأخبرك بالقصة كاملة، لكن عديني أن لا تكتبيها إلا بعد موتي.
- أعدك.
- تذكرين حين ضغطت الزّر أسفل الطّاولة في الصّالون؟
- أذكر، في الحقيقة أردت سؤالك عنه، تهيّأ لي أنّه زر لاستدعاء الفتاة التي تصنع قهوتك.
- لا، لقد أغلقت كاميرات المراقبة المزروعة في الغرفة قبل أن تخلعي ملابسك.

فتحت فمي دهشة، حدّقت بها طويلًا، هذه السّيّدة الرّقيقة الهشة الطّافحة بالحبّ، هل يعقل أن تقوم بمثل هذا العمل؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة ملونة بالألم:

- أترين؟ هذا ما يسمونه الحضيض أليس كذلك؟ أنا غارقة فيه حتّى أذنيّ ولا أستطيع التّخلص منه، إنّهم يمسكون برقبتي.. هذا ما فعلوه بي قبل أن أفعله بالأخريات. نعم، أنا أصورهن عرايا وهو يرى التّسجيلات ويختار منهن من تعجبه، ليس لي يد في توريطهن، هناك من يقوم بتلك المهمة، أنا أصوّر فقط.

وكأنّ وهيبة أرادت أن تدفع التّهمة عن نفسها أو تخفّفها بإلصاق الذّنب بغيرها من السّيّدات اللواتي يوقعن بالفتيات ويبتزونهنّ ويورطوهنّ كي يصلن إلى

يدي الرّأس الكبير الذي رفضت وهيبة الإفصاح عن اسمه. كانت ترتجف خوفًا وهي ترجوني أن أبقي سرّها طي الكتمان، وتذكّرني أنّها أنقذتني من مصير مشابه لأولئك الفتيات حين أغلقت كاميرات المراقبة ولم تصورني عارية. أنا أيضًا التبست مشاعري في تلك اللحظة ما بين غضب وكراهية وامتنان.

حين أصبحت في الشّارع تنفّست الصّعداء، تأملت البناء الذي تسكن فيه وهيبة من الخارج، احتفظت بصورته في ذاكرتي مع تفاصيل الشّارع، وتفاصيل الذّكريات التي حكتها لي وهيبة، وعدت إلى الحيرانة وأنا أحمل على عاتقي جبالًا من القهر والانكسار.. كنت أصرخ في نومي "لماذا؟ ما الذي فعلته وهيبة كي تُعاقب بهذا الشّكل؟".

* * *

جاء تعييني في الكويت في منطقة "الجهراء" لم يمضِ على وجودي شهران حتّى ألفت النّاس وتجرّأت على الذّهاب إلى الأسواق على الرّغم من تحذيرات ونصائح جاراتي السّوريات اللواتي حاولن إخافتي بكم الحوادث الغريبة التي تحصل للنساء الغريبات تحديدًا.

في الواقع لم أصادف منها شيئًا كما أنّي شجّعتهن أيضًا على خوض التّجربة.

لم أنسجم مع الفتاتين اللتين سكنتا معي في المنزل، إحداهما كانت من الحسكة والثّانية من إدلب، وعلى الرّغم من وجودنا في مدرسة واحدة إلاّ أنّنا لم نكن على وفاق كامل لاختلاف في الطّباع والمزاج وربّما لوجود أشياء خفية لم أعرفها. الغريب أنّ الاثنتين تحملان الاسم نفسه "منال" كلّما ناديت واحدة ترد الأخرى! فصرت أنادي كلّ واحدة باسم بلدها، منال الإدلبية كانت ترافقني دائمًا إلى السّوق لتشتري أشياء لأهلها وترافقني إلى مبنى البريد كلّ شهر لنجري اتصالًا بالأهل، أنا أتصل بأمّي وهي تتصل بأخيها لأنّ أمّها - كما قالت لي - لا تستطيع

مغادرة المنزل وهم لا يملكون هاتفًا في البيت تكلم أخاها في موعد محدد على هاتف عمله.

فتحتُ فمي دهشة وهي تقول لي: "لا تؤاخذيني، أعرف أنّك ستعتبرين كلامي تدخلا في خصوصياتك لكن الفتنة أشدّ من القتل، ليتك تلبسين جرابًا غامق اللون حين نخرج في المرّة القادمة". توقفت على الدّرجة الثّانية والتفتُّ إليها ناسية الحرّ القاتل والعرق الذي غسلني والدّموع المحتشدة في عينيّ وقلت باستغراب: "أيّ فتنة وأنا ألبس عباءة تجر أذيالها ورائي!". قالت وهي تبتسم بمودّة: "وأنت تصعدين الدّرج الرّيح أزاحت العباءة وكشفت جزءًا من ساقك، تملكين كعبًا فاتنًا". احتقن وجهي وغصصت بالجواب، لم يكن من اللائق أن أصف صديقتي المعلمة بالغباء ولا التّخلف بل لم يخطر ببالي أن أفعل، كلّ ما فكّرت فيه الآلية التي نظرت فيها إلى جسدي، أقصد إلى كعبي! هل حقًّا في الكعب فتنة؟

* * *

لم أشعر بالغربة فقد كان الوقت ينقضي بسرعة بين التّدريس والدّروس الخصوصية والأسواق والزّيارات العابرة للمدرسات والجارات.

فجأة جاءتني رسالة هزّت أعماقي، كانت من يمامة التي انقطعت عني أخبارها منذ سنوات. كنت متلهفة لأقرأ رسالتها قبل وصولي إلى البيت، فتحتها في السّيّارة سقطت منها صورة طفلة رضيعة عمرها أشهر، تأملتها طويلًا كم تشبه يمامة! لم أتمالك نفسي وسبقتني دموعي، ما الذي يبكيني؟ لا أعرف إن كان الحنين كافيًا كي يتدفق الدّمع أم هي الذّكريات المرّة التي هجمت عليّ تحاول خنقي بلا رحمة.. لم أجد جوابًا. أغلقت باب غرفتي وأعدت قراءة الرّسالة هذه المرة وأنا أشرب الشّاي وأرشف الكلمات على مهل، وكأنّي أريد تعبئة ضلوعي بنسيم حلب، كنت أشمّ رائحة الحارات والأبنية والحدائق وطعام يمامة!

(غاليتي فريدة

ستسألين نفسك كيف عرفت عنوانك، سأخبرك أنّ الذي يسأل لا يتوه كما يقول المثل، وقد سألت عنك كثيرًا بعد عدّة رسائل أرسلتها لكِ إلى الحيرانة ولم يأتني جواب. حصلت على هاتف أمّك واتصلت بها فأخبرتني أنّكِ سافرتِ إلى الكويت وزودتني بالعنوان مشكورة.

أولًا وقبل أن أحكي لكِ التّفاصيل، هذه الطّفلة الصّغيرة هي ديمة ابنتي، الغريب أنّ لون عينيها كلون عينيكِ. انظري جيدًا إليها ألا تشبهكِ؟).

تأملت الصّورة، لم ألحظ الشّبه الذي تتحدّث عنه يمامة لكن لون العينين صحيح كلون عينيّ تمامًا.

(لقد سكنت جارة جديدة في البناء فوق شقتي، كانت المفاجأة مفرحة بالنّسبة لي حين فتحت الباب ورأيتها أمامي، شهيرة، صديقة الطّفولة. ارتبكت قليلًا، ونسيت ما جاءت من أجله، لكنّها تمالكت نفسها وأخبرتني أنّها كانت تنشر الغسيل ووقعت منها قطعة وبعض الملاقط على شرفتي.

أفسحت لها الطّريق وحلفت لتبقى وتشرب قهوة لكنّها اعتذرت!

لم تأتِ شهيرة لزيارتي بل تجنّبت قرع بابي وصارت ترسل أولاد الجيران إن سقط منها شيء على الشّرفة. في الليل أسمع أصوات الهمس والتّنهدات من غرفة نومها.. تتسرب إليّ عبر فتحات مواسير التّدفئة.. أغطي رأسي وأحاول أن أنام لكنّ صوت شهيرة يمنعني.. حفظت كلّ عاداتها وتفاصيل حياتها، ساعة الفطور والغداء والعشاء، أوقات السّهرات، متى تخرج من البيت متى تنظّف منزلها، الأصوات تأتيني قوية وكأنّ شهيرة تتعمّد إزعاجي!

صرير السّرير في الليل يثير أعصابي، شهيرة ترسل عبر تأوهاتها وصراخها وضجيج سريرها رسائل واضحة. تؤكدها في الصّباح حين تنشر منشفتها على الشّرفة وتعصر شعرها المبلول فوق غسيلي!

تصوري، تنتظر أن أنتهي من تنظيف النّوافذ والشّرفة لتنظف نوافذها وشرفتها وترشق نوافذي بالماء القذر.

لم أستطع فهم سبب العداء السّافر الذي أبدته شهيرة لكنّ إحدى الجارات قالت لي "شهيرة تغار على زوجها، وقد استأجرت مخبرًا ذات مرّة ليحصي عليه حركاته حين شكّت أنّه يريد خطبة زميلة له في العمل.

بصراحة يا جارة، أنتِ أرملة والجارات يخفن أن تخطفي زوج إحداهن".

لم أعرف أيّ شيطان وسوس لي بالفكرة ونفذتها على الفور، رابطت أمام العين السحرية زمنًا طويلًا لأرصد الأشخاص الذين يصعدون إلى الطّابق الأخير حتّى لمحته، شيء ما وخزني في قلبي مع هذا فتحت الباب وقلت بارتباك:

- يا جار، أريدك في كلمة لو سمحت.

لم أكن أعرف حتّى اللحظة التي رفع فيها رأسه وحدّق فيّ بوقاحة أن زوج شهيرة هو الرّجل الذي كان سببًا في جعلي أرملة. مدّ يده إلى مقبض الباب ودفعني إلى الدّاخل، أغلق الباب خلفه وابتسم:

- ولو يا جارة أنت تأمرين، من زمان وأنا أنتظر دعوتك لي على فنجان قهوة.

جلس على الأريكة التي تتصدّر غرفة الجلوس، ووضع ساقًا على ساق، أشعل سيجارة وأمرني:

- القهوة.

انتفضت فزعة، ما الذي يحدث؟ كيف يجرؤ؟

- تسألين نفسك عن جرأتي؟ معك حق، لكن يبدو أنّك نسيتِ أنّ لي في رقبتك دينًا.

فتحت فمي أريد سؤاله، ثمّ خرست، لم يترك لي الوقت كي أقول شيئًا، جرّني إلى السّرير:

- لا أريد قهوة، أريدك أن تردي لي الدّين الذي في رقبتك.

حماتي سيّدة تقية تعرف الله، أجبرته على الزّواج مني، لكنّي لا أطيقه، ولا أعتقد أنّه يحبّني، لقد تزوجني تحت إلحاح أمّه، لم أنقطع عن زيارتها أبدًا حتّى جاءني خبر مقتله. لا أحد يعرف من قتله ولا كيف، وجدت جثته في سيارته على طريق فرعي من الطّرق الحدودية. لم أكن قد أنجبت ديمة، كنت في شهري الثّامن، خبر مقتله أزاح حملًا ثقيلًا عن صدري إنّها عدالة السّماء. ما يؤلمني فقط أنّ ابنتي ستكون يتيمة وأنّي لن أستطيع إخبارها بماضي أبيها، سأضطر يومًا للكذب واختراع صورة جميلة للأب الغائب. حماتي قامت بإجراءات الدّفن، خرج من بيتها إلى مثواه الأخير، وبقيت عندها طيلة أسبوع العزاء. المفاجئ أنّ شهيرة جاءت أيضًا!

البيت المعتم الذي تنفث جدرانه روائح الرّطوبة العفنة لم يكن فيه سوى بضعة عجائز جئن لمواساتها.

عبرت شهيرة العتبة من دون أن تخلع حذاءها، سحبت كرسيًا من خلف طاولة الطّعام وجلست قرب الباب، قالت بصوت عال:

- البقية بحياتك صبحيّة خانم، والله ما بيستاهل.

وابتسمت وهي تحدّق إليّ، أخرجت من حقيبتها علبة سجائر، أشعلت واحدة، سحبت منها نفسين ثمّ أطفأتها في فنجان القهوة. نهضت من دون كلام، وغادرت.

من الواضح أنّ شهيرة جاءت فقط لتظهر شماتتها بحماتها وبي، لم تخلع حذاءها، دخّنت وهي تعلم أنّ حماتها تعاني من الرّبو، وضعت مكياجًا خفيفًا وأحمر شفاه، وبان ثوبها الأحمر من تحت معطفها!

شهيرة أجابت على تساؤلات حماتها بأن أرسلت بعد يومين مُحضرًا يطالب حماتها بإخلاء البيت الذي كتبه فايز باسمها قبل سنوات.

ربحت شهيرة الدّعوى التي أقامتها وأخذت ممتلكات فايز وجاءت بأشخاص ليفرغوا البيت من أغراض حماتها في الثّاني والعشرين من ديسمبر في يوم شديد البرودة فوجدتها جثة هامدة!

في ذلك اليوم كنت في المستشفى أعاني آلام المخاض، ورأت ديمة النّور.. نور خافت في غرفة العمليات، نور شحيح لم يكفِني لأرى ملامحها، ولأعرف أنّ فايز منحها لون عينيه الواسعتين وشعره الأشقر.

حين ضممت الصّغيرة إلى صدري نسيت كلّ تلك الآلام التي تسبب بها فايز ووجدت نفسي أتمتم "لروحه الرّحمة".

فريدة، اشتقت لكِ، متى ترجعين؟

المشتاقة يمامة).

* * *

بعد أشهر قليلة وصلتني رسالة أخرى هذه المرّة كانت الرّسالة صاعقة بكلّ المقاييس إنّها من جليلة.

(ارجعي يا فريدة، أريد أن أراكِ، لقد مات أبي.

لا أدري إن كان يحق لي بعد أن أقسمت على حفظ السّر أن أخبرك به.

أنا متأكدة أنكِ لم ولن تنسي اليوم الذي زرتنا فيه وكانت المرّة الوحيدة التي رأيت فيها أبي. بعدها عندما رفض زواجكما ترك جهاد البيت، لم يسافر كما أخبرتك، جهاد اعتزل في زاوية ملحقة بمسجد في منطقة "أغيور" كان في حلب لم يغادرها.

عندما مرض أبي مرض الموت ذهبت إليه أرجوه أن يأتي لرؤيته.

دخلت الزّاوية متعثرة بظلّي، الدّرويش الجالس عند الباب سألني عن حاجتي، أخبرته أنّي أريد رؤية الشّيخ في مسألة خاصة. منعني من الدّخول:

- الشّيخ لا يقابل أحدًا هذه الأيام، انقطع منذ شهر، هو في حالة تواصل مع الخالق.
- المسألة خطيرة يا أخي، الله يخليك، بأيّ طريقة خليني شوفه.
- سأرى.

غاب قليلًا وعاد ليأذن لي بدقائق فقط.

منذ عرفت أنّه تدروش واستلم زاوية أردت زيارته لكنّ أبي منعني، كان غضبه عليه شديدًا، بدّد جهاد كلّ الأحلام التي بناها أبي، أمواله صارت بيد شقيق أمّي، الولد الذي تمنّى أن يحمل اسمه ويرثه ويأتي له بالأحفاد، ولد عاق لم يزره ولم يسأل عنه منذ أصيب بالشّلل مرّة واحدة!

لم يعد جهاد الذي أعرفه، تغيّرت هيئته وملامحه، تغيّر كلّ شيء فيه، همست:

- جهاد.

انتفض واقفًا، حدّق إليّ وهو يرتجف:

- والدك يموت، يجب أن تأتي معي، أموالك سيأخذها الغرباء.

قطّب حاجبيه:

- لا أريد مالًا حرامًا، ثمّ هؤلاء أخوالك، ليسوا غرباء، ألم تتزوجي بعد؟

بكيت من تلميحه القاسي إلى عملية البيع التي خططت لها أمّي ورفضتُها بقوة.

- لن أتزوج أبدًا.
- لا يجوز، البنت مصيرها الزّواج، ستصبحين عانسًا من سيرضى بكِ؟ أنتِ الآن تجاوزت السّن المرغوبة.

اللهجة السّاخرة الجارحة جعلتني أحدّق إليه بذهول، همست من دون وعي:

- كان هناك بنت تعتقد أنّها كبيرة بما يكفي لترعى شقيقها الصّغير، أحضر لها ذات يوم كمشة فستق عبيد، وحين سألته من أين جاء بها، قال، إنّه

سرقها من كومة الفستق الموضوعة أمام دكّان الأقرع بائع الفستق.. وحين طلبت منه أن يرجعها، قال لها: "لا تخافي لم يرني الرّجل، أنا أسند يديّ على الحافة الخشبية وأسقط الحبات في جيبي وأشغله بالسّؤال عن محتويات الأوعية الزّجاجية الموضوعة على الرّفوف الدّاخلية" هل تذكره؟

خرجت راكضة من الغرفة، تركت لدموعي الحريّة في غسل وجهي، أومأت لسيارة أجرة، ركبت، وأعطيت السّائق العنوان.

قبل أن أتجاوز عتبة البيت سمعت الأصوات التي تنبئ بالكارثة.. صوت المقرئ عبد الباسط عبد الصّمد ينبعث من آلة التّسجيل الموضوعة في المدخل. بكاء عمتي وأمّي في المطبخ.. ازدحام الصّالة بأعمامي وأخوالي وأولادهم.. لقد انهار الجدار الذي استندت عليه طيلة عمري وسقط السّقف فوق رأسي وأصبحت وحيدة في مواجهة الصّقيع والغربة داخل عائلة تنتظر نهب أموال الميّت لتدعو لروحه بالرّحمة!

ارجعي يا فريدة، أنا أحتاجك.

* * *

لم تكن عودتي إلى الحيرانة صيف 1999 تحمل نية عدم الرّجوع إلى الكويت، لكنّي وجدت نفسي وقد زهدت في السّفر بعد لقائي بجليلة ويمامة اللتين استقرتا في الحيرانة وحضَّرتا لي شقتي قبل وصولي. كان كلّ شيء كما أرغب ماعدا الحمّام، سألتُ يمامة: لمَ لا يوجد بانيو فيه، قالت "أنا أمرت بنزعه من كلّ الشّقق". أعرف أنّ يمامة تكره الاستحمام فيه وتكره رؤيته منذ وصلت بيت أبيها وكانت رتيبة تملؤه بالباذنجان المنقوع بالكلس، لكنّ ذلك لا يمنحها الحق في فرض رغبتها عليّ، شعرت بالخطأ واعتذرت وأمرت بإحضار بانيو إلى شقتي.

جليلة شجَّعتني لأبدأ مشروع رواية أسجّل فيها تاريخ البلدة من خلال ما أعرفه عن سكّانها وقالت إنّها ستكون عملًا ضخمًا يخلِّد اسمي ويفتح لي طريق الشّهرة.

الشّهرة ليست هدفي، لكنّ الكتابة بحدّ ذاتها كانت حلمًا جاء الوقت المناسب لتحقيقه خاصة وأنّ العمل في المدارس الخاصة في الكويت كان مرهقًا وذا أثر سيئ في نفسيتي طيلة السّنوات التي قضيتها هناك.

أخبرت جليلة أنّي أودّ كتابة سيرة النّساء اللواتي شغلن الحيرانة في السّبعينات وكنت أحتاج لجمع معلومات إضافية عنهن تغني العمل الرّوائي. لكنّ حدثًا مفاجئًا جعلني أؤجل المشروع وأبدأ بكتابة رواية عن حورية.

لماذا حورية؟

في زيارتي الأخيرة لحلب التقيت حميدة.. كانت مصادفة غير متوقعة، ومثيرة أيضًا.. يومها ذهبت إلى حلب لحضور عزاء معلمتي سميرة.

دوار الموت

فجأة تقاعدت سميرة، لم تكن قد وصلت السّن القانونية، قدّمت استقالتها وحصلت على جزء من راتبها التّقاعدي واعتزلت النّاس.

تلك الخطوة ترافقت مع ارتداء سميرة النّقاب والعباءة، والأهم أنّها هجرت وحيدة!

ابنة أخيها كنانة التي تسكن في عمارتنا طرقت الباب قرب العصر وأخبرتني والدّموع تملأ عينيها:

- ألن تذهبي لحضور العزاء لقد كانت معلمتك وكانت تحبّك كثيرًا.

نعم كانت معلمتي وتحبّني، أذكر جيدًا أنّها واحدة ممن تركن أثرًا طيبًا في نفسي وشجّعتني على الاستمرار في الكتابة مع أنّها كانت تدرّسني مادّة الرياضيات.

دعوت كنانة للدخول، ارتديت ملابسي على عجل، لم أتوقف عند اللون، حدّقت كنانة بي وقالت:

- فريدة هذا اللون لا يناسب العزاء، ثمّ خذي معك حذاءً أسود جديدًا في كيس، تنتعلينه قبل دخولنا المسجد.

تساءلت بدهشة:

- أين العزاء؟

- آسفة لم أخبرك، في حلب، جامع الفرقان، سيقوم أستاذها بواجب التّعزية، هو الذي اقترح المكان؛ لأنّه يعطي فيه دروسه؛ ولأنّ سميرة ماتت هناك بعد أحد الدّروس. خسارة يا عمتي، لم ترَ يومًا جميلًا في حياتها، رحمها الله.

الطّريق إلى حلب كان طويلًا ومرهقًا، منذ زمن طويل لم أسافر إلى هناك، فاجأتني التّغييرات في مدخل المدينة الغربي.. لم يعد للتمثال وجود! وسُمِّي الدوّار مكانه بدوار الموت!

خفق قلبي بشدّة ونحن نمرّ أمام الحديقة مقابل المسجد ونقطع الطّريق إلى الطّرف الآخر، قالت كنانة وهي تشهق:

- هنا صدمتها السّيارة، كانت خارجة من الدّرس، قدرها سبقها.

أردت أن أقول لكنانة إنّ هذا المكان منذور لخطف القلوب والأرواح، هنا تهاوت روحي وطعن قلبي، ونفد جسدي إلى حين. كان آخر لقاء لنا في هذه الحديقة منذ عقدين تقريبًا.

نبّهتني كنانة:

- ما رأيك أن ندخل المقهى المقابل لمبنى الجامعة ريثما يحين موعد التّأبين؛ أمامنا نصف ساعة.

تأبطت ذراع كنانة، كانت ترتجف، أعرف أنّها خائفة وتريد تأجيل لحظة المواجهة ما أمكن، سحبتها من يدها:

- سنشرب القهوة بعد التّأبين.

انقبض قلبي رهبة وحذرًا وأنا أخطو داخل المسجد، أكانت رهبة فقط؟ بل هو حدس غريب ينبؤني بوقوع كارثة! ما الذي أتى بي إلى هنا وأنا أكره المشايخ وأكره الدّاعيات وأكره أساليبهن منذ حضرت درسًا للدّاعية أم هيثم عند بدرية الخيّاطة. لكن لم يعد هناك مجال للتراجع.. سأؤدي الواجب، أقنعت نفسي أنّ معلمتي سميرة تستحق.

زالت الرّهبة حين دخلنا قاعة العزاء وكانت تغصّ بالنّساء، كلّ مجموعة في حديث خاص، همست كنانة:

- حمّام ومقطوعة المي فيه.

ابتسمت غصبًا عني.. وأمسكت يد كنانة أواسيها.. اخترنا مكانًا في إحدى الزّوايا بعيدًا عن الباب والمكان الذي سيجلس فيه الشّيخ. فجأة خرس الكون من حولنا. سكتت النّساء وكأنّ على رؤوسهنّ الطّير.. دخل الشّيخ بقامته المهيبة يرتدي عباءة فخمة وعمامته البيضاء ترسل نورًا تعكسه شمس العصر المتسربة من النّوافذ.. الإضاءة الباهتة انعكست في عينيّ، كنت قد قرّرت ألاّ أنظر للشيخ، ركّزت انتباهي على وجوه الفتيات والنّساء المنتفخة عيونهن من البكاء! واللواتي ينظرن إلى الشّيخ وكأنّهنّ يرين أحد نجوم السّينما!

لكزتني كنانة، التفت إليها، غمزت بعينها صوب فتاتين تتهامسان، قالت إحداهما:

- شفتي حذاءه؟ يجنن، إيطالي ولونه عسلي. ما يبلى قديش أنيق!

ردّت رفيقتها:

- شفت، بس إنتِ شفتي الخاتم اللي ببنصره؟ حجرته بتمزع العقل، يا الله شو حلو!

ما هذه السّخافات؟ يا إلهي، معقول، أين أنا؟ انكمشت في جلستي على الكرسي ونكّست رأسي وأسندته على كرسي كنانة الجالسة أمامي. لمحت

أصابعه من بين الكراسي تمتدُّ إلى كأس الماء الموضوعة على يمينه ويرفعها، ويعيدها وقد رشف منها القليل، ثمّ أخذ الكأس التي على شماله، ورشف منها القليل! وبدأ الكلام.

وصلني الصّوت من عالم آخر.. عالم بعيد موقوت بالقهر والمرارة يكاد ينفجر في حلقي.. تيبس جسدي على وضعيته، لم أعد أجرؤ على رفع رأسي، كان عليّ الانتظار حتّى ينتهي الدّرس الذي بدأه الشّيخ بالتّرحم على السّيدة الفاضلة سميرة التي أفنت عمرها في التّقوى والصّلاح والدّعوة لدين الله الصّحيح. وحين انتهى كان قلبي فارغًا ومتصدعًا وكنتُ بحاجة للبكاء على كتف ما... مع هذا بقي رأسي منكّسًا! سمعته ينادي كنانة:

- أهلًا بحبيبة المرحومة، لماذا لم نركِ قبل الآن؟

كنانة كانت ترتجف، لم أرها بوضوح أحسست بيدها التي امتدت خلفها تريد التشبث بيدي. تابع الشّيخ:

- الأسبوع القادم أريد رؤيتك هنا، هداك الله وجعلني سببًا في ذلك.

همست كنانة "يريد هدايتي؟ لعنه الله، أنا أفهم في الدّين أكثر منه". تحفزت حواسي كلّها لاستيعاب طقوس الهداية إلى الإسلام الصحيح. نهضت إحدى الفتيات ووقفت أمام الشّيخ، الفتاة التي اهتدت على يديه ولبست النّقاب، خلع عباءته وألبسها إياها ومسح بيديه على طرفي العباءة وربّت كتفيها بيديه، ومسح على رأسها، ومنحها بركته! خلعت الفتاة العباءة وناولته إياها.

خطا خارج القاعة وتراكضت الفتيات حوله.. خطفن كأسي الماء، وشربن من مكان شفتيه! كان قلبي يهوي في بئر عميقة في تلك الحديقة المقابلة للمسجد حيث رأيته آخر مرّة!

أمسكت كنانة ذراعي وقالت:

- خلينا نروح ما رح أقدر أبقى ولا دقيقة.

قالت إحدى الفتيات:

- بكير، ألن تحضرن الدّرس؟

لم أرد، مشيت بخطوات بطيئة، وصلني صوتها متوجها للنساء في القاعة:

- كلّنا يجب أن نسمع كلام الشّيخ جهاد؛ لأنّه بمنزلة وسيط بيننا وبين رب العالمين.. فهو عالم بأمور الدّين أكثر منّا، ونحن بحاجة لننهل من علمه. كان صوت الدّاعية حميدة تقرأ المولد عن روح المرحومة الدّاعية سميرة!

خطوت للخلف وهمست لكنانة وأنا أضع في يدها ورقة فيها رقم هاتفي: "أعطيها للشيخة حميدة وقولي لها أن تتصل بي على هذا الرّقم"

لم يطل انتظاري، لقد اتّصلت حميدة في اليوم نفسه، كان صوتها عميقًا وهادئًا ومتزنًا.. لم تشأ الإشارة إلى معرفتنا ببعض، قالت: مكتبة .. سُر مَن قرأ

- السّلام عليكم، اتّصلت بكِ حسب رغبتك سيّدة فريدة، أرجو أن يكون الأمر الذي طلبتني لأجله خيرًا.

ضحكت رغمًا عني:

- بركاتك شيختنا، أردت دعوتك لمحاضرة في الحيرانة، الجوّ جميل هذه الأيام وسيكون أمرًا جيدًا لو أعطيت درسًا لنساء البلدة وسأستقبلك في منزلي.

- لديك منزل؟ تزوجت؟

- لا، لم أتزوج، أعيش وحدي، المنزل إرث من أبي.

- ما شاء الله لم تخبريني أنّ والدك صاحب أملاك.. على كلِّ حال أنا موافقة، وسأزورك الخميس القادم.

* * *

ذهبت لزيارة أمّي، لم يكن أمامي غيرها لتقوم بعمل دعاية لحميدة وسط زبائنها، أردت أن أحشد أكبر عدد ممكن حتّى لو اضطررت إلى استئجار صالة الأفراح في البلدة كي تتسع للضيوف.

الهدف يستحق بذل الجهد لأجله.

لم يتغيّر شيء في بيت أمّي، ما زال على حاله منذ القرن الماضي، على الباب الدّاخلي بعد الفسحة الصّغيرة المتبقية من الحديقة الكبيرة التي اقتطعتها البلدية لفتح شارع يصل الطّريق الجبلي بمركز المدينة تجد نفسك أمام لوحة رسمتها بدقة أطواق البامية اليابسة وقرون الفليفلة الحمراء وحزم الثوم وأكياس خيش صغيرة مليئة بالبصل. اللوحة الموازية للرف الدّاخلي الذي رصفت عليه مضربانات المكدوس والجبنة والزّيتون والعطون والمربى بكلّ أنواعه والسوركة والدوبيركة[1] وكرات اللبنة المجففة. أناقة أغطية الرّفوف والمضربانات والجرار، كلّ شيء فيه لمسة فنية.. خاصة صينية قهوتها. تضع مفرشًا من الكروشيه في الصّينية ومفرشًا صغيرًا لصحن الفاكهة المجففة، قاعدة خشبية وغطاء من الخشب للركوة كي لا تبرد.. فنجانين وصحن فنجان إضافي.

هذه العادة اكتسبتها من أمّي، أوّل مرّة سمحت لي بشرب القهوة كنت في العاشرة، كانت تشرب قهوتها وحيدة في ظلّ شجرة المشمش بعد ذهاب أبي إلى العمل.. رأتني أراقبها من بعيد، نادتني، أجلستني بجانبها على كرسي صغير، وسكبت لي في صحن الفنجان قليلًا من القهوة وناولتني إياه.. ذلك الطّعم المميز لا يمكن أن يتكرّر أبدًا؛ نكهة المسكة وحبّ الهال والقهوة التي حمّصتها وطحنتها بيديها.. المرّة الأولى التي تأملت فيها أمّي وأحببتها، المرّة الأولى التي ارتبطتُ بها

---

(1) يُطبخ اللبن على النّار حتّى يصبح سميكًا ويحفظ في أوعية زجاجية ويختم بالزيت ويترك للشتاء. يعاد تذويبه ويستخدم للأكلات التي تطبخ باللبن "اللبنية، الشيشبرك، الشاكرية.. الخ".

بمشاعر حقيقية كانت بسبب القهوة. ليست وحدها بل حبّات مربى المشمش المحشوة بقلب المشمش، كانت أمّي تفتح الحبات وتخرج النواة تكسرها وتعيد قلبها إلى حبة المشمش بعد أن تغليها على النّار وتصبح جاهزة للحفظ في المضربانات.. وضعت لي حبّة مشمش ذهبية اللون في صحني؛ أكلتها وشربت بقية القهوة. منذ ذلك اليوم لم أغيّر عادتي في شرب القهوة من دون سكر مع حبّات المشمش أو قطعة حلو.

بعد أن كبرت صرت أضع صحنًا إضافيًا أسكب فيه قليلًا من القهوة، أرشفها مستلذة بالرّغوة الطّائفة على وجهها والتي تشكّل حول فمي ما يشبه شاربين! أمسحها بلساني، وأبدأ شرب قهوتي. أوّل فنجان وأنا مغمضة العينين، الثّاني بعينين مفتوحتين.

حين أزورها أكتفي بفنجان واحد، زياراتي لها متباعدة، لم أستطع حتّى الآن أن أفهم طبيعة العلاقة التي جمعتها بأبي، حتّى بعد مرور عشرين عامًا على وفاته ما زالت ذاكرتها تتقد بالحقد والضّيق والحسد تجاهه.

تبدو سعيدة بدور الضّحية المغلوبة على أمرها التي ضحّت بوقتها وحياتها ورغباتها في سبيل بناء الأسرة وتنشئة الأولاد ثمّ ضاع كلّ تعبها هباء! أخوتي الذّكور هاجروا بعد تخرجهم من الجامعة ولم يعد أحدهم كي لا يخدموا في الجيش، لم تنجب بنتًا، كانوا ثلاثة ذكور فقط. وكنت غريبة بينهم، لكنّي الوحيدة التي بقيت لها في الدّنيا! لم يكن أبي ممنونًا من تضحيتها في حياته بل كان يعتقد أنّها تؤدي واجبها لا أكثر.

خلافٌ في وجهة النّظر، هو يراها ملزمة وتؤدي واجبها المنزلي ومقصرة في حقّه كزوج، ما جعله يعطي الحقّ لنفسه بالتّمتع بعلاقات سريّة مع أخريات، وهي ترى أنّها مظلومة ومضطهدة وما تقصيرها في حقّه كزوج إلاّ نوعٌ من أنواع الانتقام وتحصيل الحقّ!

كان يملك طاقة داخل الجدار الغربي السّميك لها باب من الخشب يقفل على الطّعام والنّقود والأشياء الخاصة به. وكانت كريمة بلا حدود، تصرف على البيت، تشتري الأثاث اللازم، تخيط لنا ملابسنا، وتدفع مصاريف دراستنا ولا تنتظر مقابل ذلك شيئًا.

لم يسبق له أن رأى الشّقوق العميقة في كعبيها والتي حرصت على إخفائها بجراب سميك من القطن طيلة حياتها معه. لم يفكّر يومًا في مشاعرها ورغباتها وآلامها. فقد قطعتها الدّورة الشّهرية وهي في سن الأربعين بعد أن أنجبت ثلاثة ذكور وكانت تتمنّى أن تأتيها بنت تستند إليها في شيخوختها. لم أفهم الأمر حينها.. سألتها يوم شاركتني قهوتها:

- وأنا أين ذهبت؟

نظرت إليّ وكأنّها تراني لأوّل مرّة، غصّت بريقها، وطلبت مني كأس ماء، ثمّ قالت:

- ألا تريدين أختًا؟

فرحت:

- نعم.

- لكنّ أباكِ لا يريد، لا يفهم، لا يشعر، إنّه بلا إحساس، أنا أعاني من هبّات تكاد تقتلني وتنهي وجودي كامرأة وهو لا يهتم.. بالطّبع لن يهتم، فهو يستطيع الحصول على امرأة غيري.. الأمر بسيط جدًا.

بين وقت الإنجاب وسن اليأس لا يمكن للرجال أن يفهموا الكآبة التي تمرّ بها المرأة حين تنحصر مهامها في الأمومة وتشعر أنّها مجرد حوض تتعدد استعمالاته لكنّها تصبّ دائمًا في إسعاد الرجل. وقتها لم أفهم الفكرة التي أرادت أمّي أن توصلها لي!

في العتمة عندما تسدل السّتائر على أصوات الكون في الخارج يطغى حضور الجسد، تنمو داخلها رغبة في اللجوء إليه، لكنّها تكابر، وأسمع نشيجها يصل سمعي من غرفة الخياطة.

في زيارتي الأخيرة وجدت كيسًا أسود كبيرًا وراء الباب، سألتها عنه، غصّت ولم تجب، فتحته بفضول.. وجدت أشرطة الكاسيت التي سجّلت لنا فيها أغانينا عندما كنّا صغارًا، أصواتنا، ضحكاتنا، مكالماتنا الهاتفية، أعياد ميلادنا على أشرطة الفيديو، قالت بحزن:

- لم تعد ذات فائدة، لا أحد يستخدم الفيديو هذه الأيام ولا الكاسيت، والغالي راح.. لمن سأحتفظ بها؟

هذه المرّة كانت أمّي في حالة يأس تام، تتحدّث وتبكي وتكرر:

- هل سأراهم قبل موتي؟ لا أظنّ أنّ أحدًا منهم يتذكّرني، ليتني ما أنجبتهم. كانت حسرتي تقتصر على حنين لشيء لا أعرفه.. أمّا الآن فلا أعرف طبيعة المشاعر السّلبية التي تتناوب على نهش روحي.. لولاك يا فريدة...

وصمتت، لم تكمل عبارتها، ووجدتها فرصة لتغيير مجرى الحديث:

- أطال الله عمرك ماما، أريد منكِ خدمة، عندي صديقة داعية ستزورني يوم الخميس وتحبّ أن تتعرّف إلى نساء البلدة، ستعطي درسًا في الدّين، وإن أعجبها الحال ربّما تبقى أسبوعًا هنا.

وكأنّي فتحت بيدي طاقة القدر لأمّي، تغيّرت ملامحها في لحظة وأبدت استعدادًا لاستقبال الضّيفة في بيتها، واستعدادًا أكبر لعمل دعاية لها.

لم أكن أتوقع يومًا أن يكون شفاء أمّي من الحنين لأبنائها، وكراهية أبي المتوفى، على يدي حميدة!

* * *

دروس حميدة لاقت قبولًا استثنائيًا من نساء البلدة، حضرته نساء شابات لا أعرفهن كما جاءت صديقات أمّي ومعارفها وتسابقت النّسوة لدعوة حميدة إلى منازلهن للاستفادة من علمها ومعرفتها.. وهكذا قضت حميدة أسبوعًا في البلدة تنقّلت فيه بين البيوت، أقامت مولدًا لأرواح الرّاحلين، وحضرت أفراحًا أقيمت أثناء وجودها ولم تبقَ سيدة في البلدة لم تأخذ بركتها أو تسألها سؤالًا في شأن حميم خاصة العلاقة مع الأزواج، وكان لأمّي النّصيب الأكبر من حضور حميدة حتّى خشيت أن يذهب بها التّأثر مذهبًا سيئًا فتتعلق بحميدة تعلّقها بذكرى أبنائها الغائبين.

لم أنسَ الهدف من استقبالي لحميدة، كنت أتحيّن الفرصة للانفراد بها قبل عودتها إلى حلب. واستطعت أن أسهر معها لوحدنا في الليلة الأخيرة، تركت الحديث يمضي بشكل طبيعي، استعدنا الكثير من الذّكريات من دون أن أقترب من المنطقة الخطرة "كيف تحولت حميدة إلى داعية".

سألتها من دون اهتمام:

- هل اجتمعتِ بحورية بعد سفري؟ اشتقت إليها، في الواقع لم تفكر حتّى بكتابة رسالة لي، ولم تعد منذ ذلك الوقت إلى الحيرانة.
- وكيف ستعود؟ ولماذا؟ حورية الآن في باريس، ولا يربطها بالحيرانة شيء، ليس الآن بل منذ وفاة عمتها.
- أعرف، ولكنّي تمنيت لو أنّها زارتني أو حتى سألت عني.
- الكذب حرام، في الواقع هي سألت عنك، وتقصّت أخبارك، لكنّ المصدر الذي لجأت إليه على ما يبدو لم يكن يملك معلومات كافية، كان ذلك قبل سفرها إلى باريس.
- هي أخبرتك؟
- لا، ليلى حكت لي كلّ شيء، ليلى من مريدات الشّيخ جهاد تحضر دائمًا معنا في المسجد لكنّها بالصّدفة تغيبت يوم عزاء سميرة.

السّبب الرّئيس الذي جعلني أنبش الماضي وأبحث عن حقيقة ما حدث لحورية هو روايتها التي فوجئتُ بها في الأسواق، وفوجئت بكم الدّراسات والمقالات التي كُتبت حولها. اشتريت الرّواية وقضيت معها ليلتين، أبحث فيهما عن روح حورية وكينونتها.

* * *

صندوق باندورا/رواية بقلم حوريّة الحجّار.

الأبيض القذر

لم يكن يعرف شيئًا من اللغة الإنكليزية لكنّ غروره أوحى له أنّ الولد الضّعيف يعتذر منه ويرجوه، ومن يومها صار لقبه المتداول بين زملائه سرًا "الأبيض القذر". لم يعد يذكر اسم ذلك الولد، لكنّه لا ينسى ملامحه أبدًا، لا ينسى وقفته، مشيته، ملامحه البرجوازية البغيضة.. كان جميلًا، ويدّعي أصدقاؤه أنّه في غاية النّبل والكرم. طرحه أرضًا، كاد يخنقه لو لم يجتمع الطّلاب وينقذوه من بين يديه.

كاد يقترف جريمة، شعر بالامتنان لأنّهم أبعدوه عنه. في اليوم الثّاني حضر والده إلى المدرسة، اختلى بالمدير ساعة كاملة، وفي اليوم الثّالث نَقل ابنه من المدرسة!

لم يعرف السّبب في ذلك الوقت، توقع أن يُعاقب بالطّرد أو الضّرب أو أيّ عقوبة.. لكن آخر ما تخيّله أن ينقل ابن الأكابر من المدرسة بسببه!

يتلمظ بالحروف "أف وايت" يدندنها، إيقاعها جميل.. يكفي أنّه أهان ابن الأكابر وتسبّب بنقله من المدرسة حتّى وإن كان معنى الكلمة سيئ، وإن شتمه.. لقد بدا ضعيفًا وخائفًا، جسده ارتجف بقوة وهو ينهض وينفض التّراب عن ملابسه.. مرّغ وجهه بالتّراب وخدش جلده النّاعم.. لن ينسى خيوط الدّم الرّفيعة التي سالت من كفيه.. المشهد تحوّل مع الوقت إلى قصّة مشوقة يرويها لمعارفه

ويبدع في كلّ مرّة في وصف هيئة الولد.. لم يعد يرضيه أن يكون نحيلًا وقصيرًا وناعمًا، صار يضفي عليه ملامح الشّراسة والقوة والضّخامة والطّول والشرّ كي يمنح نفسه صفة بطولية طالما تمنّاها وسعى إلى ترسيخها في نفوس معارفه.. فالقوة ليست في جسده فقط بل في السّند الغامض الذي استطاع نقل ابن الأكابر من المدرسة! هذا بالضّبط ما تساءل عنه الآخرون الذين سمعوا الحكاية "من واسطتك؟". كان يصمت.. صمتًا موحيًا مهيبًا يترك التّساؤل مُعلّقًا بشكل يخيف السّائل ويقنعه أنّ البوح باسم الشّخصية التي تدعمه أمر خطير وسريٌّ للغاية!

* * *

حلوة الشخشرلي، حلب 1977

- لقد مات البيك.

جملة مختصرة رماها بوجهها السّائق، ووضع أمامها صندوقًا صغيرًا، ومضى. كان يقف في النّافذة يراقب ما يجري أمام الباب، حملت أمّه الصّندوق ودخلت غرفتها، مشى على رؤوس أصابعه، وقف قرب الباب ونظر إليها.. كانت تبكي! حلوة تبكي؟ لماذا؟ رآها تفتح الصّندوق وتفرغه أمامها على الأرض. نظر إلى الأشياء المبعثرة.. ثياب، أحذية، وبضعة أساور ومعها رسالة. تحرّق لمعرفة محتواها.

دموع أمّه تنبئ بكارثة حقيقية، فهي المرّة الأولى التي يراها على هذه الحال. تساءل من يكون الرّجل الذي أحضر لها الصّندوق؟ ما علاقتها به؟ أيكون أحد هؤلاء الذين تذهب معهم ليلًا؟ لقد رأى هذه السّيارة من قبل، يكاد يكون على يقين من ذلك.

كانت ليلة ماطرة، وصل مع أمّه، كان نحيلًا وطويلًا، وقفا في الباب لدقائق، سمعها تدعوه للدخول، لكنّه اعتذر، سمع صوتها:

- لكنّك وعدتني أن تراه.
- ليس الآن، أرجوك، ربما يكون صاحيًا. يكفي أنّي أراه من بعيد.. اسأليه إن كان يحتاج أيّ شيء لن أتأخر عنه.. سأدفع مصاريف دراسته بالكامل. أنا عند وعدي. أرجو ألا تخبريه الحقيقة الآن. ما زال أمامنا وقت.

ماهي الحقيقة التي تخفيها أمّه؟

لقد أخبرته سابقًا أنّ هذا الرّجل المحسن مدير عملها. يخشى عليها من العودة ليلًا لوحدها فيوصلها بسيارته بعد انتهاء العمل.

أخبرته أنّها تعمل في مصنع نسيج يملكه هذا الرّجل، والمسافة الكبيرة التي عليها أن تقطعها من الشّيخ نجار إلى منطقة الفيض حيث تسكن قد تعرّضها للمضايقات. سألها يومها هل يوصل هذا الرّجل جميع العاملات إلى بيوتهن؟ غضبت وكادت تضربه، ثمّ قالت بهدوء: "باقي العاملات بيوتهن قريبة، أو يذهبن بصحبة أزواجهن، وأنا ليس لدي زوج، أبوك طلّقني.".

طليقها الذي علّقت برقبته أسباب شقائها وعملها والتّنازلات التي تضطر إليها. هل كان أبوه حقًّا؟ صعقه السّؤال.

ركض خارج البيت، تاه لساعات في حديقة الكواكبي، نام بعض الوقت على أحد المقاعد الخشبية، أيقظته كرة ارتطمت برأسه، نهض شاتمًا أمهات الأولاد الأشقياء، تسكّع قريبًا من الفرن، شمّ بعمق رائحة الكعك الشّهي وحلم أنّه يتناوله مع كأس شاي ساخن.

حين حلّ المساء لم يجد بدًا من العودة إلى البيت. عاهد نفسه ألا يسألها عن شيء بعد الآن، يجب أن ينهي دراسته بأيّ ثمن، يجب أن يعتمد على نفسه في الحصول على المال مهما كانت الوسيلة إلى ذلك.

* * *

كانت أمّه ترسله لعند السّيدة فائقة التي تسكن الملحق ليستعير من عندها قليلًا من البهارات والكمون والنّعنع اليابس لتضعه له على الخبز المدهون بالزّيت..

يتوقف في بسطة الدّرج أمام الأبواب، يشمُّ رائحة طبخ الجيران، السّيدة فاطمة تطبخ اليوم محشي الكوسا بعب الفاصولياء الخضراء، يغلق عينيه ويشمّ رائحة الكزبرة والثوم ومية الأفرنجي الرّائحة وحدها بإمكانها أن تدوّخه.

السّيدة وصفية التي تسكن الطّابق الرّابع تتسلّل من وراء بابها رائحة الملوخية على الرّغم من حرصها الشّديد على إغلاق باب المطبخ؛ فقد كانت تخشى دائمًا أن يعرف الجيران ماذا تطبخ وماذا تأكل لكنّ الرّائحة الفاضحة تأبى إلا أن تصل بيوتهن.

فقط السّيدة صدّيقة في الطّابق الثّالث لا تفوح من وراء بابها أيّة رائحة.. فلا يضطر للتوقف على بسطة الدّرج أمام بيتها على الرّغم من أنّها الوحيدة التي تبتسم له وتعامله بلطف حين يصدفها خارجة في التّوقيت الذي يذهب فيه إلى المدرسة!

الأمر الذي لا ينساه أبدًا شوقه القاتل إلى أكل الحلو، وتسكعه أمام المحلات في الشّوارع الفخمة الهادئة. أكثر ما يجذبه قطع البقلاوة، يتشوق لتذوقها ويتخيّل جمال الطّعم ونكهته. يوميًا يمرّ أمام محل "الكنفاني" يتأمل الهريسة والكنافة بلونها الذّهبي ويتصور كمية القشطة الموجودة داخلها.. والقطر و... جذبته قطعة البقلاوة التي تزيّن "سفط" الحلو وهي تلمع من انعكاس ضوء النّيون المعلّق بسقف جام المحل، غارقة في السّمن العربي والقطر ومتوجة بالفستق الحلبي المهروس.. تنظر إليه وتراوده عن نفسه.. لم يستغرق كثيرًا في التّفكير فقد حسم أمره وقرّر سرقتها.. درس إمكانية القيام بالفعل جيدًا، صاحب المحل يستدير لمدّة

كافية عندما يرتّب علب الحلو على الرّف خلف الجام، عليه في تلك الأثناء أن يخطف القطعة ويركض خارجًا بسرعة..

لم يخطر له أن طوله سيقف عائقًا ويؤخره دقيقة كانت كافية ليلتفت الحلواني ويراه وهو يقفز محاولًا الخروج وبيده قطعة البقلاوة الدّافئة.

أمسكه من ياقة المعطف الصّوفي فأفلت القطعة التي تدحرجت وغاصت في بركة من ماء المطر والطّين..

لم تكن الدّموع التي غسلت خديه بسبب الصّفعة التي تلقّاها من يد الرّجل الضّخمة، ولا من التّعنيف والتّهديد المرعب بل لتفتت القطعة بين يديه وهو يحاول تنظيفها من الطّين تحت حنفية المسجد، القطع الصّغيرة تناثرت داخل حوض الوضوء وسارت بقوة اندفاع الماء لتغوص في البالوعة!

وصل المنزل في ساعة متأخرة، كانت أمّه تندب حظها وتنوح بصوت مسموع من أوّل الحارة. أمسكته من ياقة معطفه الصّوفي ولطمته على خده بقوة وانهارت أرضًا.. لم يبكِ ولم يتفوه بكلمة ولم يرد على تساؤلات أمّه الملتاعة.. دخل غرفة القبو الضّيقة وأغلق الباب من الدّاخل ولم يعد يسمع أصوات الكون من حوله..

بعد أيام حاولت أمّه الاعتذار عن ضربه لكنّه نظر إليها ببلاهة محاولًا أن يتذكّر الشّيء الذي تعتذر عنه.. لم تفلح ذاكرته بالتقاط المشهد؛ كان هناك حدث وحيد يسيطر على مشاعره وأحاسيسه ويغرقه في فوضى من المشاعر المتضاربة.. هل يمكن أن يكون لصًا؟ بل اللص ذلك الرّجل الذي خطف منه فرحه بالوصول إلى حلواه المشتهاة، اللص هو الطّين والمطر وحوض الوضوء وبالوعة المسجد!

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

نضال 1978

لأوّل مرّة يرتفع صوت أبيه، لأوّل مرّة يشعر بالهوة العميقة بينهما، لم يعرف لمن سينحاز، عواطفه تأبى أن تخذل أمّه، هي الأقرب إلى روحه، قد يكون مظلومًا، ضربها عندما ضاقت به الدّنيا ولم تعد نفسه تهون عليه.. لكن أن يحلف عليها بالطّلاق فهذا المستحيل بعينه وقد حدث، سمعه بأذنيه ورآه يخرج من الغرفة مكتسحًا الأشياء في طريقه كزوبعة، رمى كلّ شيء، كسر كلّ الأواني التي وصلت إليها يداه، والتفت إليها:

- أنتِ طالق بالثّلاثة.

ما بقي في مخيلته من صورة الرّجل الغاضب لون عينيه وتقطيبة حاجبيه. يحاول الآن التّركيز في الكتاب فتخطفه الصّورة الكاملة، يحضر الرّجل بقامته الضّئيلة؛ جبينه الضّيق؛ شعره الكثيف؛ شاربيه ولحيته؛ مشيته المائلة بسبب اعوجاج ساقيه، وضحكته.. كان يضحك، متى وكيف؟ في العيد ربّما، عندما يبيع دمية لطفل صغير.. ربّما عندما يأكل وجبة طعام شهي تسكبها إحدى الجارات لهم.

تنبج الكلمات من الكتاب، تصطدم بجبهته، تصفع خديه، وتُدْمِع عينيه.. يمسح دموعه.. لماذا يستعصي عليه فهم القصيدة؟ قرأها عشرات المرّات واستعان بالقاموس، والآن يراها مجرد طلاسم.. تتشكّل على هيئة امرأة عصية المنال.

لا بدّ أنّ الأمر متعلّق بالجوع، أمّه لم تطبخ شيئًا منذ أسبوع، عافت نفسه الخبز المدهون بدبس البندورة من دون زيت، قنينة الزّيت فرغت منذ أيام.

نهض راميًا الكتاب على الأرض، ذهب إلى دورة المياه ووضع رأسه تحت الحنفية، تطلع في المرآة المشروخة.. سينجح، هذا العام سينجح في الثّانوية العامة، وسيصبح معلّمًا، الرّاتب الذي سيقبضه يكفيه ولن يمدّ يده لأمّه ثانية بل

سيهجرها، سيترك لها البيت، لن يرى وجهها بعد الآن هي سبب وجوده، وسبب شقائه.

رفع الكتاب بين يديه وراح يقطع الصّالة جيئة وذهابًا ويعيد قراءة القصيدة.

منذ أيام أعطاه جهاد أعدادًا من مجلة المرأة، قال له:

- تسلّى بقراءتها، صحيح هي مجلة فقيرة ثقافيًا لكنّي أشتريها من أجل صفحة "بستان الأصدقاء"

أرسلت إليها أكثر من مرّة ولم ينشروا لي، سأقول لك بصراحة أنا أشتري المجلة فقط لأقرأ ما تكتب هذه الفتاة.

وأشار بيده إلى نص شعري في الزّاوية.

خطف المجلة من يده، قرأ السّطور بسرعة، خفق قلبه وصعد الدّم إلى رأسه. لم يفهم السرّ وراء ردّ فعله هذا.. نظر إلى عيني جهاد:

- هل تسمح لي باستعارتها.

- هي لك، سأشتري نسخة لي، مرّ عليّ غدًا لأعطيك الأعداد كلّها.

الذّهاب إلى بيت جهاد يشعره بالضّآلة والإذلال، خاصة حين تفتح جليلة الباب، وتنظر إليه بطرف عينها وتسأله "ماذا تريد؟" وكأنّها لا تعرفه. في كلّ مرّة يشعر بالمهانة، كان يعتذر من جهاد ويطلب منه أن يحضر الأعداد إلى المعهد وسيمرُّ ويأخذها.

انتظره على باب المعهد العلمي عند الظّهر، لم يجرؤ على الدّخول إلى الحديقة، خشي أن يراه زملاؤه ويسألونه عن السّبب الذي جعله يترك الدّراسة في المعهد، فوقف قريبًا من محطة الحافلة. انتبه جهاد إليه قبل أن يركب سيارة والده، ناداه:

- تعال سأوصلك في طريقي.

اعتذر جهاد:

- آسف نسيت إحضار المجلات، ستذهب معي نتغدى معًا، وأعطيك ما تريد من المجلات والكتب.

الفكرة كانت جميلة، لكنّه شعر بالرّهبة، ستَزْوَرَه جليلة مشيرة إلى عدم رضاها عن حضوره.

المفاجئ أنّها لم تفعل بالعكس رحّبت به، وجاءت بالطّعام مع الخادمة.. رتّبت المائدة ودعتهما لتناول الطّعام وخرجت.

كان مذهولًا، ليس من أنواع الكبة والمقبلات على المائدة فقط بل من تصرف جليلة الغريب، أوّل مرّة تتنازل وتكلِّمه، عقّب جهاد حين رأى ذهوله:

- كُل يا زلمة، ارمِ الدنيا وراء ظهرك.

حين رأى تردده، تابع ضاحكًا:

- لا تخشَ شيئًا، ما دامت جليلة رحّبت بك، يعني أنّ الزّهر لعب معك هذه المرّة، حاول أن تكسب ودّها، تستطيع أن تقلب حياتك رأسًا على عقب.

كلام جهاد على وضوحه لم يصل إليه بالصّورة الصّريحة. كان يرى نفسه صغيرًا خاصّة بعد معرفته للحقيقة، ذلك الإحساس وقف حائلًا بينه وبين التّقدم خطوة واحدة تجاه الهدف الذي لمّح له جهاد.

بعد الطّعام أحضرت جليلة إبريق الشّاي والفناجين بنفسها، صبّته وقدّمته، وانسحبت بهدوء. يا للأرض التي زُلزلت تحته والسّماء التي توشك على الوقوع!

حمل معه عددًا كبيرًا من الكتب لم يكن ينوي قراءتها، لكنّه استعارها مجاملة لجهاد. ثمّ وجد نفسه غارقًا في القراءة حتّى الصّباح ونسي كلّ ما يرتبط بالدّراسة..

قضى أسابيع في قراءة الشّعر والقصص، خطر له أن يستفيد من تلك الكتب بجمع العبارات التي تعجبه في دفتر، فعل ذلك مباشرة، ملأ عشرات الصّفحات.. ثمّ وجد نفسه يعيد كتابة تلك العبارات بطريقة أخرى.. اقتنع مع الوقت أنّه كتب قصيدة.. اشترى ظروفًا وطوابع، وسطّر إحدى تلك القصائد على ورقة وأرسلها بالبريد إلى مجلة المرأة.

صار يتلهف لرؤية جهاد لكي يستعير منه الأعداد الجديدة، أخيرًا رأى اسمه.. جاء رد مسؤول الصّفحة "يا أخ نضال قصيدتك غير صالحة للنشر، ننصحك بالإكثار من القراءة، وننتظر منك مشاركات أخرى".

لم يحبطه الردّ، استغرب إصراره على المتابعة، اعتبر الأمر معركته الأساسية مع الحياة، سيصبح كاتبًا مشهورًا رغم أنف الجميع، سيجعل رئيس التّحرير الغبي هذا يتمنّى لو أنّه يرسل نصًا إلى مجلته. وسيجد يومًا رسالة في بريده، ستكون منها، ستبدي إعجابها بكتاباته، ومن يدري ربّما أحبته. حين يقرأ نصوصها يشعر أنّها موجهة إليه. هي أيضًا لا تكتب شعرًا موزونًا، لماذا ينشر رئيس التّحرير نصوصها ويرفض نشر نصوصه؟ بالتّأكيد لأنّها أنثى.. ما أغبى الرجال!

مرّت أشهر وهو يتابع الكتابة للمجلة، ويأتي الردّ بالرفض أو التّجاهل! وفي كلِّ مرّة ينشر لها قصيدة أو قصة يتخيّل أنّها على معرفة شخصية برئيس التّحرير، لا شكّ أنّ بينهما علاقة ما. وهذا ما يزيده إصرارًا على الكتابة ورغبة في التّعرّف إليها.. الكاتبة الشّابة التي رسم لها في مخيلته صورة تقترب من صور نجمات السّينما، فهو يراها تشبه شادية مرّة ومريم فخر الدّين مرّة أخرى وربّما ليلى مراد.. لكنّها دائمًا تكون بيضاء بشعر أشقر طويل وجسد ممتلئ وعينين زرقاوين.

* * *

نضال ابن حلوة الشّخشرلي 1980

كان يسير كلّ صباح مسافات طويلة من حارة "العدّان الشعبية" حتّى ساحة الرّئيس، وهناك كان يقف بهيئة مرتبكة ومستعجلة فتمرّ به سيارة "جهاد" وتتجاوزه ببضعة أمتار ثمّ تتوقف، يمدُّ جهاد رأسه من النّافذة ويشير إليه "هيا، تعالَ أوصلك بطريقي".. تزداد تعابير وجهه ارتباكًا ويلملم معطفه الفضفاض، ويحث خطاه ليركب سيارة "المازدا" بعد أن يمسح حذاءه بمنديل من قماش يطويه ويضعه في جيبه.

يوميًا يتوقف جهاد عارضًا عليه توصيله، ويوميًا يصطنع تلك الهيئة المرتبكة المستعجلة، ويعتذر بأنّه لا يريد أن يتعبه لولا أنّ موعد الحافلة قد فات، وموعد المحاضرة اقترب!

كان هدفه أن تراه وهو ينزل من السّيارة ويتوجه إلى الكلية نشيطًا مبتسمًا معتدًا بنفسه.

لكنّ عينيها الذكيتين لا تخطئان نوع الطّقم الذي يرتديه وإن كان من الجوخ الإنكليزي، فمن الواضح أنّه اشتراه من "البالة". يبدو ذلك من مقاسه والرّائحة المميزة لقماشه في الجوّ البارد النّدي على الرّغم من العطر الرّخيص الذي سكبه بسخاء عليه ليخفي تلك الرّائحة التي بقيت متشبثة بجلده حتّى بعد تخفّفه من المعطف بمجيء الرّبيع، ولازمته في الصّيف، ولم تستطع مياه البحر المالحة أن تقضي عليها.

اعتاد أصدقاؤه على اصطحابه في رحلاتهم لحاجتهم الماسة إلى شخص يتندرون عليه ويستهزئون به ويحمّلونه أعباء القيام بالأعمال التي يأنفون القيام بها.. فهو الذي يحضّر الحطب والوقيد للشوي وهو الذي يغسل مواعين الطّعام وينظّف الطّاولات ويصفّ الكراسي، ويحمل الزّبالة إلى المكان المخصص، ويعمّر النّرجيلة ويجمع الأشياء ويدخلها إلى الشّاليه.. ويستيقظ مبكرًا كي يشتري الحاجيات الضّرورية، ويحضّر الفطور.

أحـاديثهم محفـورة في دماغـه، وعبـاراتهم لا تفـارق مخيلتـه. يحفـظ شـكل الحـرف ويشـمّ رائحـة الكلمـة ويخزّنهـا داخـل جلـده حتّـى تحولـت خلايـاه إلـى فقاعات تصدر رائحة غريبة في موسم الصّيف فتحمرّ وتشتدّ الحساسية.

* * *

منفضة السّجائر

تلـك الـرّحلات عـزّزت لديـه أيضًـا جانبًـا إيجابيًـا، فهـو يـدرك جيـدًا أنّهـم لا يستطيعون الاستغناء عنه، ما يعمق لديه الحسّ القيادي والتّفوق. ولـم يكن الشّعور الإيجابي مطلقًا؛ لأنّه ببسـاطة يعـرف سـبب فـرحهم وهـو قدرتـه علـى قيـادتهم إلـى أماكن أفضل في الغابات أو إلى الشّاطئ، وشعورهم بالفرح لا يمنحه متعة بـل غمًّـا كبيرًا. فهو لا يريد لهم أن يفرحوا حتّى وإن كان هو من يقدّم لهم فرصة الفرح!

كان يداوم على الجلوس في مقصف الكلية بانتظار أحدهم، ويتمنّـى أن يكـون جهاد؛ لأنّه يدخّن أفضل أنواع السّجائر. ها هو قد أتى:

- **ابن الحلال عند ذكره يبان، كنت أفكّر فيك.**
- **ولماذا لا تقول: اذكر الذّيب وهيّئ القضيب..**
- **لا، بعرضك، أنا لا أحمل قضيبًا، سلاحي الوحيد السّيجارة.**

كلما وضـع السيجارة الحمـراء الطّويلـة في المنفضـة وغـرق في قـراءة الملـف تنطفئ..

قال جهاد مازحًا إنّها تغني لك "مستنياك" سيجارة كيف وتوفير.

ضحك نضال ضـحكة مخنوقـة قطعهـا سـعال حـاد. مـدَّ يـده خلسـة وخطـف السّيجارة من المنفضة وأعادها إلى العلبة.

تأمل منفضة السّجائر المليئة بالأعقاب، كم يشبه هـذه المنفضـة التي تجمـع أعقـاب السّـجائر وتفضـح رائحتهـا المزعجـة قـذارة البقايـا! عـدّ الأعقـاب "جهـاد،

صلاح، أيمن، محمّد، كاميران..." ابتسم متشفيًا، سيأتي اليوم الذي يفرغ فيه المنفضة من بقاياهم ويدوسهم بحذائه!

* * *

زينة ونضال

كانت تجلس في الزّاوية الملاصقة لنافذة المقهى، أمامها فنجان قهوة بجانبه علبة دخان "كنت" طويلة، تسحب نفسًا قصيرًا من سيجارتها وتنفثه بسرعة وتضع السّيجارة في المنفضة وتغرق في القراءة. على الرّغم من أنّ طريقتها في التّدخين تستفزه لكنّها جميلة! تمنحها هالة من الدّفء وتضفي عليها غموضًا محببًا.. ليس طريقتها في التّدخين فقط بل علبة الدّخان أيضًا!

كان ينتظر جهاد، تأخر كثيرًا، سيأتي وسيضع علبة دخانه "المارلبورو" أمامه، سيسحب عدّة سجائر ويضعها في العلبة الفارغة التي لا تفارق جيب معطفه..

لا شكّ أنّ جهاد كما بقية الزّملاء، الذين اعتاد على أخذ سجائرهم علنًا وخفية، كانوا يتظاهرون بأنّهم لا يرون ولا يعلمون.

مع الوقت لم يعد الأمر يسبب له إزعاجًا بل صار يراه حقًّا مكتسبًا.

وضعتْ الباكيت والقدّاحة في حقيبتها بمنتهى الأناقة، أناقة أصابعها وأظافرها والطريقة التي تحمل بها الأشياء، وتغلق بها الحقيبة.

كانت أنيقة في كلّ شيء من دون مبالغة، لم يشعر يومًا بأنّ حركة يديها وطريقة حملها الكتب ومشيتها متكلفة، فقد كانت تتمتع ببساطة ملفتة للنظر بعكس ما يُشاع عنها بأنّها مغرورة ومتكبرة، مع هذا لم يجرؤ على الاقتراب منها مع تحرّقه لسماع صوتها يخاطبه بشكل مباشر. كلّما مرّت به ينصت لحفيف ثوبها ونقرات كعبها العالي على البلاط، ورأسه منكّس، ونظراته تراقب أسفل الثّوب

الذي يغطي الرّكبة بما يزيد على أربعة سنتيمترات، تتدفق موجة عطر حين تحاذيه.. لاحظ اليوم أنّها تحاول أن تخفّف صوت الكعب بعدم وضع قدمها كاملة على الأرض فتصبح نغمته مخنوقة! انتبه إلى أنّ قطعة الجلد أسفل الكعب غير موجودة وأنّه يصدر صوتًا منفرًا كصوت سحق طباشير على سبورة..

قال له جهاد بلهجة مازحة مشوبة بالسّخرية: "يبدو أنّك غيّرت دخانك! أم أنّك اشتريته هذه المرّة؟".

غصّ بالكلمات ولم يحاول الردّ، مدّ جهاد يده وسحب علبة الدّخان وقال: "تدخّن ألدو مورو".. وضحك بصوت مرتفع.

فتح فمه دهشة لم يفهم مباشرة قصد جهاد، ولم يعرف عمّا يتحدّث. عقّب جهاد ليزيل الدّهشة التي لم تفارق ملامح نضال:

- أمازحك، أنا أطلقت عليه هذا الاسم بشكل عفوي حين سمعت بخبر اغتيال السّياسي الإيطالي ألدو مورو.

نهض جهاد فجأة حين وصلت زينة، صافحها، وطال السّلام.. وعينا نضال تكادان تخرجان من محجريهما!

* * *

نضال 1983

لم يتخيّل أن يجلس في حضرتها يومًا وحولهما كلّ هذا الجمال، البحر والغابات القريبة، روائح أزهار العسل والصّنوبر، والنّسيم البارد، والشّعر..

تنحنح طالبًا الإذن في إلقاء القصيدة، فضحك جهاد ضحكة مكتومة، وصفّق صلاح بيديه وسيجارته في فمه. صاح أيمن:

- لا حياة لي بعد اليوم، سينسفني نضال.

لم يعقّب محمّد الشّوكاني بقي صامتًا بانتظار القصيدة.

لم يدرك أيمن حين نطق جملته هذه أنّ نضال سينسفه فعلًا، فقد استدعاه الأمن السّياسي بعد أيام لمناقشته في أطروحة الدّكتوراه!

تخيّل أنّه سيبهرها بنصه ويستحوذ على مشاعرها وربّما فتحت له القصيدة طريقًا إلى قلبها.. تمنّى لو يستطيع أن يخبرها كم من المرّات حلم بها، ونام معها، واصطحبها في مخيلته إلى الأماكن العامة، إلى البحر، إلى الجبل و.. إلى السّرير.

كم كانت مغرية وشهية وحارّة، قال متلعثمًا:

- أتعلمين أنّي كنت أتابع كتاباتك وأنّي رسمت لكِ صورة مختلفة.
- وصدمك الاختلاف في الواقع؟
- بالعكس أنت أجمل مما تخيّلت.
- مجاملة لطيفة.

لم يستطع أن ينفي أنّها مجاملة، لم يستطع أن يؤكد أنّها ليست كذلك. قال:

- كنت أكتب لكِ نصوصًا نشرتها هذا الأسبوع في مجلة "الثّقافة"[(1)] وظننت أنّك تعرفين.
- عفوًا، لم أنتبه للاسم.
- ألا تقرئين المجلة؟
- نعم ولكنّي لم أنتبه، عمومًا العدد موجود عندي وسأقرؤه اليوم.

أيعقل أنّها لم تنتبه لاسمه؟ ألهذا الحدّ هو نكرة؟ بالتّأكيد قرأت العدد أو تصفّحته على أقلّ تقدير، فيه قصة لها، كيف إذن لم ترَ اسمه؟

هو على يقين أنّها تكذب ولا تريد أن تبدو مهتمة به، مغرورة ونرجسية تريد التّقليل من شأنه بكلّ الوسائل.

* * *

---

(1) جريدة ثقافية أصدرها المرحوم مدحت عكاش في دمشق 1958 تُعنى بالنشر للشباب.

لم يخطر لنضال أن يجتمع بحورية في لقاء حميم، كان خارجًا من المعهد العلمي، ووجد نفسه يقطع الشّارع ويسير بمحاذاة حديقة الكواكبي، فجأة رأى حورية تخرج من بوابة أحد المباني، هيئتها كانت غريبة، ظنَّ أنّها تسكن في الحي.. تردد بالاقتراب وإلقاء التّحية. معرفته بحورية بسيطة، علاقتهما علاقة رئيس بمرؤوس، تعمّقت قليلًا حين اشتركا في نشاط ثقافي تقيمه الجامعة، كانت المرّة الأولى لهما.

حسم أمره وناداها:

- حورية.

صوته المرتفع وسط الشّارع أثار الرّعب في قلب حورية، انتفض جسدها وهي تلتفت، شحب لونها وأصبح بلون الشّمع. ابتسم وهو يمدُّ يده إليها:

- تسكنين هنا؟

ارتبكت ونطقت بصعوبة:

- لا.. كنت في زيارة قريبة لي.

- هل أنتِ مريضة، لونك أصفر!

- ربّما، أعاني من بعض الصّداع.

- تتمشين؟

وجدت نفسها تقول:

- لا مانع.

كان لديها مانع كبير، لسوء حظها أن رآها آخر شخص تتمنّى رؤيته أو السّير معه.

ابتسم مرّة أخرى:

- صديقنا جهاد عنده شقة في هذه البناية، يستخدمها لحياته الخاصة.

فوجئت بتلميحه، هل يقصد أن يقول لها إنّه يشكّ بها! قالت وهي تحاول ضبط نفسها:

- والله؟ لم أكن أعلم.. إذن أنت هنا لزيارته.

ردّ بلؤم:

- لا، هو الآن في الكلية مع حبيبة القلب، أنا هنا في مهمة أخرى.

قالت بفضول:

- من حبيبة القلب، هل أعرفها؟

نظر إليها بطرف عينه غير مصدّقٍ ادّعاءها:

- اسأليه، ألستِ صديقته؟

كادت تنفجر في وجهه، ضبطت أعصابها للمرّة الأخيرة، واستأذنت:

- سررت بلقائك، يجب أن أذهب. أمّي تنتظرني على الغداء.

- أوصلك.

- لا داعي، ستسبب لي حرجًا أمام الجيران.

- إذن أعزمك على فنجان قهوة.

- لا بأس.

* * *

خرجا من البار في ساعة متأخرة، ركبا سيارة، وقال للسائق:

- حي الزبدية.

لم تعترض، دخلا بناء قديمًا، الدّرج غارق في العتمة، أمسك يدها ليساعدها على تلمس الطّريق.

دخلا، كانت في حال سيئة، ارتمت فوق السّرير تريد النّوم.

النّوم فقط.. تريده طويلًا وعميقًا وتتمنّى ألا تصحو بعده. استيقظت قرب الفجر..

أحست برغبة في التّقيؤ، ركضت إلى الحمّام، لم تعرف بأيّ شيء تتمسك كي لا تنزلق قدمها على الأرضية القذرة. واجهتها مشكلة أخرى تنظيف المغسلة، يبدو أنّها مسدودة، شعرت بالدّوار، كان عليها التّعامل مع قذارتها هذه المرّة.. بكت

وتشنج جسدها، لن تستطيع تنظيف المكان، شعرت بكلّ ما فيه يضغط على حنجرتها وتتصاعد من معدتها حرقة تكوي حلقها.. في ضلوعها شيء يتمزق.. تركت كلّ شيء خلفها، تسلّلت إلى الصّالة المعتمة محاذرة إصدار صوت، حملت حقيبتها ومعطفها، وخرجت.

لطم نسيم الصّباح البارد وجهها وأيقظ حواسها دفعة واحدة. وقفت على الرّصيف، تلفتت حولها "ما الذي أتى بها إلى هنا؟ ما هذا المكان الغريب؟ آخر ما تذكره أنّهما ركبا سيارة أجرة، تعرف أين كانا لكن لا تذكر إلى أين أتت! الواضح أنّه حي شعبي..

تمشّت قليلًا، لم تستطع معرفة أين هي، فأوقفت سيارة أجرة:

- "الليرمون".

تأملها السّائق باستغراب وشغّل المحرّك.

نظرات السّائق المتكرّرة جعلتها تبحث عن مرآة صغيرة في حقيبتها، نظرت إلى نفسها وتجمّدت، ما هذا.. شعرها مشعث، كحلتها السّائلة لوّنت وجهها بلطخات سوداء!

إلى أين تذهب؟ لماذا طلبت من السّائق إيصالها إلى الليرمون، لن تذهب إليهم، أمّها وأخوتها، عشيرتها التي لفظتها عندما كانت طفلة، لن تذهب إليه، لقد كان واضحًا لها منذ البداية وقبل أن يفعل ما فعله. لكن لا، ستذهب.. قالت للسّائق:

- السّليمانية

نظر إليها بشكّ وقال:

- متأكدة يا ست؟ ستدفعين أجرة توصيلة ثانية.

قالت بضيق:

- سأدفع.

أخرجت مفتاحها والتقطت أنفاسها، طرقت الباب قبل أن تفتح على غير العادة. انتظرت قليلًا، لم تسمع صوتًا، فتحت ودخلت بهدوء، لم يكن في البيت

أحد، حتّى الشّبابيك كانت مغلقة ورائحة عفونة تنبعث من مكان ما. فتحت النّوافذ، الجيران كلّهم يغلقون شبابيكهم في هذا الوقت من السّنة.. أغلقت النّافذة، أسدلت السّتائر وجلست على حافة السّرير.. ماذا ستفعل؟ نهضت بسرعة إثر خاطر مفاجئ، نبشت الأدراج، تعرف أنّه يحتفظ بأوراقه كلّها هنا. دفتر حساباته في البنك، وثائق خاصة بأعماله، دفتر أرقام الهواتف لعملائه، حشرت كلّ شيء في حقيبتها، حملت بعض الأغراض في حقيبة أخرى، وخرجت.

ستتصرف بسرعة وتغادر حلب قبل أن يداهمها الوقت.

* * *

استيقظ في ساعة متأخرة لم يجدها بجانبه، الحمام غارق بالقذارة، البيت تفوح منه رائحة نتنة، ضحك بصوت مسموع وأطلق شتيمة مقذعة.

سيأتي صديقه من القرية بعد أيام وينظف بيته، لن يعود إليه مرّة ثانية، حمل أشياءه وقبل أن يخرج لمح الأوراق، حمل "200 صفحة" ماذا كتبت يا ترى؟ سيرى.

وصل بيته الواحدة ظهرًا، كانت أمّه خارج البيت وجارتهم قد أرسلت لهم صحن ملوخية بائت، الملوخية التّعيسة رائحتها تثير غثيانه، يكره شكلها وطعمها، لماذا تصرُّ جارتهم على مشاركتهم هذا الطّعام البائس، حرّكها بالملعقة، عثر في قعر الصّحن على قطعة لحم، أخرجها وغسلها، لفها بربع رغيف من الخبز وأكلها على مهل، صنع كأس شاي على غاز لفظ آخر أنفاسه قبل أن يغلي الماء.. تشكّلت طبقة بيضاء فوق الكأس، نظر إليها بضيق، سيشربها!

وضع الأوراق أمامه على الطّاولة، وبدأ القراءة.

مرّت ساعة، ساعتان، ثلاث.. وجد نفسه غارقًا في القراءة.. يبدو أنّها رواية مثيرة. في البار أخبرته أنّها أوّل رواية تكتبها!

هل هذه حورية حقًّا؟ توقف عن القراءة، استرخى في كرسيه، وأغمض عينيه وأعاد ترتيب أفكاره.. حورية، زينة، إحداهما تكتب كلامًا لا معنى له

ويعشقها الجميع، الثانية تكتب عملًا فذًّا بكلّ المقاييس ولا أحد يعرفها! هو أيضًا أحد هؤلاء العشاق الحمقى.. استدرج زينة وفشل، جاءته حورية لوحدها. ما الحكمة؟

لكن ما الذي يعرفه عن حورية؟ الآن وهو يقرأ ما كتبته اكتشف أنّه لا يعرف شيئًا عن المرأة التي شاركها الفراش منذ ساعات.. المرأة التي تعطي بسخاء وتكتب بالطّريقة نفسها!

"مدهشة" همس لنفسه، رواية غرائبية مدهشة.

لم يجد بدًا من سؤال زينة عنها.

نظرت إليه بدهشة:

- حورية! لم أرها منذ أسبوع.
- تعرفين أين أجدها؟
- هل الأمر مهم إلى هذا الحد.
- في الواقع أعطتني مخطوط رواية، قرأتها ووضعت بعض الملاحظات أودّ مناقشتها في بعض الجزئيات.
- رواية! حورية كتبت رواية؟
- يبدو أنّك مندهشة مثلي، لكنّها رواية رائعة تحتاج إلى بعض التّعديلات لتصبح مثالية. إنها رواية غرائبية وتحمل الكثير من الإسقاطات المعاصرة وفيها أسطرة للشخصيات.
- أنت معجب بها جدًا على ما يبدو، هل أستطيع استعارتها؟
- بكلّ سرور. أخبري حورية أنّي أودّ التّحدث معها إن استطعتِ الاتّصال بها.

* * *

هرب حورية

كانت ترى نفسها في الحلم وهي تجمع آلاف الليرات من الأرض، وأحيانًا تحفر في التّراب لتجمع قطعًا نقدية كثيرة بينها قطع ذهبية! لم يحدث في الواقع أن وجدت نقودًا في الشّارع سوى مرتين، في الأولى وجدت خمس ليرات ورقية، وفي الثانية عشر ليرات!

تحقّقت أحلامها الآن دفعة واحدة. لم تكن تظنّ أنّ خالدًا يملك هذا المبلغ الكبير في حسابه المصرفي. صديقته "أم إسلام" رحّبت بها، واستغربت أن تأتي وحدها إلى البنك من دون خالد، اعتادت أحيانًا أن تمرّ لصرف شيك بمبلغ محدد خصّصه لها لدفع أجرة البيت ومصاريفها الشّخصية. لكن أن تأتي لتسحب كلّ هذه الأموال!

دفعت إليها بالشيك. الأمر ليس فيه أي لبس، توقيع خالد والمبلغ الموجود. لكن ما بعث الرّيبة في نفسها أنّها غير مقتنعة بإمكانية تخلي خالد عن زوجته وشراء بيت بهذا المبلغ الضّخم لحورية.. أيعقل أنّه يحبّها إلى هذا الحد؟

- حسنًا، سلّمي عليه، ليكن المنزل آية الرّزق لكما، هل قررتما إعلان زواجكما؟
- نعم، اليوم سيكون كلّ شيء رسميًا، والمنزل هدية الزّواج. وستكونين أوّل المدعوين، سنعمل حفلًا بسيطًا في مطعم حديقة السّبيل.

ركبت سيارة أجرة وتوجهت إلى الحيرانة، ستختفي لأيام ريثما تدبر أمور سفرها خارج البلاد. لأوّل مرّة تفكّر حورية بمستقبلها بشكلٍ جدي وحاسم من دون مساعدة أحد.

فليذهب كلّ شيء إلى الجحيم، لن تفكر بعواطفها بعد اليوم، لقد انتقمت لكلّ الذّل الذي عاشته في السّنتين الماضيتين معه. يريدها ولا يريد الاعتراف بعلاقته بها بشكل رسمي، يحبّها ولا يستطيع تطليق زوجته ربّة الجمال والعفاف

والمال. أقارب زوج عمتها سرقوا إرثها، سرقوا تعب عمتها طيلة تلك السنين التي عاشتها وهي تجمع القرش فوق القرش لتؤمن لها حياة كريمة، سرقوا أحلامها. خالد سرق عذريتها وأطفالها الذين كانوا سيأتون إلى العالم ويبثون فيه الرّوح وفي قلبها السعادة.. هي لم تأخذ منه سوى المال "وسخ الدّنيا" حملت القذارة عنه حتّى وهي تقترف جريمة السّرقة كما يسميها النّاس.

ليتها ترى وجهه حين سيعلم أنّها سحبت رصيده كلّه من البنك وسافرت.. ليتها تراه!

على أيّة حال لن يكون أكثر اصفرارًا مما كان عليه حين علم أنّها حامل للمرّة الأولى.

حين استلقت في المكان نفسه عند الطّبيب وانفرجت ساقاها إلى أقصى حد، ودخلت الآلة الباردة القاتلة في رحمها نظرت إليه وهو يمسك يدها مشجعًا.. كان يبتسم، وجهه مضيء بفرح خفي؛ لأنّه سيتخلّص من آثار جريمته، إذن كانت مضاجعته لها جريمة في نظره.

شدّ على يدها، يد القاتل تضغط بقوة، لم يكتفِ بتمزيق الجنين وإخراجه قطعًا صغيرة من رحمها، لم يُشح وجهه كي لا يرى الأشلاء التي يرميها الطّبيب في الإناء المعدني بل ابتسم وقال:

- الحمد لله على سلامتك.

قال الطّبيب:

- للأسف سيدتي، صارت فرصك بالإنجاب مستقبلًا قليلة، أنا لم أوافق على إجراء عملية الإجهاض للمرّة الثّانية لولا إصرار زوجك وتحمله المسؤولية. كان الأمر مربكًا وفيه خطر على حياتك أيضًا. أتمنّى لكِ الشّفاء، على كلّ حال سيدتي المهم صحتك، أمراض القلب تعالج الآن في أوروبا وبإمكانك التّغلب عليها وأرجو أن يهبك الله طفلا بعد ذلك.

المرض الوحيد الذي عانت منه حورية هو السّذاجة كما قالت لي يومًا، مرض تصديق النّاس والوثوق بهم. من أين واتته الجرأة ليكذب على الطّبيب بتلفيق قصة إصابتها بمرض القلب كي يوافق على عملية الإجهاض للمرّة الثّانية؟

ليس هذا ما يؤلمها فقط، المؤلم والصّادم أنّه قدّم نفسه للطبيب بصفته زوجها! الصّفة التي قدّمها بها لصديقته الموظفة في البنك، ولحارس البناء الذي استأجر لها بيتًا فيه، ولجيرانها.

زوجته فقط لا تعرف شيئًا عن علاقتهما.. وهي تعرف أنّه لا يوجد عقد يثبت زواجهما!

تدرك الآن وبوضوح أنّ ذلك القرار كان الشّرارة التي ما زالت ترسل النّار في أطرافها وتحرق جسدها ببطء وتأكل أعصابها.

حالة التّصعيد تلك التي تفرّغ بها شحنات روحها بالكتابة لم تكن حلًا مثاليًا؛ فكلّما أنهت فصلًا من روايتها تشعر أنّ عضوًا في جسدها أصبح عاطلًا عن العمل.

كانت خشيتها الكبيرة على أصابعها، تخاف أن يصل الحريق إلى كفيها وتفقد مقدرتها على كتابة تلك الحقائق المؤلمة التي واجهت بها نفسها..

الرّحم الخاوية، الكائن المنتزع من جسدها، على الرّغم من الخواء الذي تخلّفه أيّ علاقة جنسية تقوم بها لكنّها تشعر أنّها الآن فقط وبعد انتزاع رحمها أصبحت عقيمًا!

الآن فقط يمكن "لذاك المرض" أن يضحك منها ساخرًا، الآن تعيد صياغة حياتها وترتيبها على الشّكل الأمثل الذي تريده. من يستطيع معرفة الحقيقة؟ لا أحد يهتم.. هي، ولا أحد سواها، يمكنه أن يرسم ما كان وما سيأتي في رواية، تعيشه كاملًا وكأنّه حقيقتها. الورق فقط من يصدّر الحقيقة والقرّاء يحبّون تلك اللعبة الخفية التي يلعبها الكاتب ببراعة ويصدّقون أنّهم هم من اكتشفوا خداعه لهم بنسبِهِ تلك الحكايات إلى حياة الآخرين وهي في الأصل حكايته الشّخصية. يمكنها إذن

تثبيت تلك المعلومات في أذهان النّاس واختراع ماضٍ ستعيشه في أذهانهم، وستتبناه بعدهم!

لم ترتبط الرّغبة الجنسية لديها مؤخرًا سوى بعاطفة الأمومة البائسة، صارت تشعر برغبة عارمة في أن ينبت في داخلها طفل ويفرع كشجرة بلوط ويزهر كما الياسمين ويغمرها بالطّيب والفرح.

اقتنعت مرّة أنّها حامل، احتفت بالمناسبة، اشترت صوفًا، نسجت ملابس صغيرة وخاطت وسائد.

لكنّ الطّبيب قال لها: "إنّه الوهم!".

لقد منحها مارد القمقم ما تريده من مال لمرّة واحدة، ومنحتها باندورا صندوقها العجيب فأخرجت من داخله رواية وأصبحت كاتبة ذات شأن. كاتبة تكذب على الورق وتخترع حيوات للآخرين ولا تعرف كيف تعيش حياتها. تدّعي أحيانًا أنّها لا تنجب، ثمّ تنقض ذلك بأنّ اللوم يقع على زوجها؛ لأنّه لا يحبُّ الأطفال. تبنّت يومًا فتاة في العاشرة وادّعت أنّها ابنتها من زوجها الأوّل، وصدّقها النّاس!

لم يكن أحد يعرف أنّها لم تتزوج، الكلّ في المدينة كانوا يصدّقون أنّ أهلها زوجوها صغيرة من رجل كبير في السّن مات في حادث سيارة ولم يترك لها إرثًا، فعادت لمتابعة دراستها بشكل حر وتسجّلت في الجامعة. تلك الأكاذيب المضحكة تسليها؛ فهي في بلاد الغربة بعيدًا عن معارفها القدامى ومن عاشت بينهم طفولتها وصباها، الطّفولة المشردّة التي امتدت يد عمتها لتنتشلها منها وتحميها لسنوات، ثمّ ترميها لمواجهة الحياة وحيدة من جديد.

الحقائق نسبية، ويمكن للذاكرة أن تعيد صياغتها بالشّكل الملائم للحياة الحالية.

كما أعادت صياغة الرّواية التي وجدتها في صندوق عمتها؛ الإرث الوحيد الذي سمح أقارب زوج عمتها لها بأخذه. صندوق فيه أشرطة كاسيت لصالح عبد

الحي، وفتحية أحمد، ثوب عرس عمتها وإكسسوارات، دفتر حسابات، وملف أزرق فيه مخطوط رواية.. لم تحمل اسم مؤلفها، مطبوعة بشكلٍ رديء على آلة كاتبة، أعدّها صاحبها للنشر كما يبدو!

بقيت تتنقل معها سنوات في حقيبتها، ثمّ قرّرت الإفراج عنها. أعطتها لمدقق لغوي ومحرر، عدّلت فيها الكثير وأضافت إليها عملًا بنصائح المحرر حتّى وافقت دار النّشر أخيرًا على طباعتها.

لم تلقَ رواجًا حتّى بعد مرور سنتين على نشرها، وقرر صاحب الدّار التّخلص من النّسخ بحسم وصل إلى 70 بالمئة.

فجأة وجدت مقالًا نقديًا عنها في مجلة مشهورة.. بعدها تناولتها بالعرض والقراءة المتواضعة عدّة صحف، ثمّ جاء مقال ناري من أكاديمي مشهور ليمسح بصاحبتها الأرض، ما أثار موجة من الهجوم والدّفاع في الصّحف جعلت الطّبعة الثّانية تنفد خلال شهر!

بعد مدّة وصلتها رسالة على بريدها الإلكتروني منه يقول فيها إنّه هو من كتب النّقد ونشره باسم مستعار ليعطي الرّواية حقّها من الشّهرة. فقد آمن منذ قرأها للمرّة الأولى في ظروف مختلفة أنّها ستشكّل نقلة نوعية في عالم الرّواية.

نضال السّجّار! همست بانزعاج ودهشة.. لا بأس ما دام ذلك يخدم مسيرتها في عالم الرّواية.

* * *

كونها وضعت اسم نضال الصّريح في روايتها هذا يعني أنّها أرادت توريط القارئ باعتقاده أنّه يقرأ سيرة ذاتية للكاتبة. كما يعني بكلّ بساطة أنّها تستخدم أسلوبًا فضائحيًا لترويج روايتها. من الواضح أنّ حورية لا تهتم بالصّورة التي ستبقى عنها في ذهن القارئ.

ويبدو أنّها أخذت الضّوء الأخضر من نضال لاستخدام اسمه في روايتها.

أذكر المرّة الأولى التي التقيت فيها نضال.

كنّا في السّنة الدّراسية الثّانية. كتب لي بعد لقائنا بأشهر رسالة مطولة أرسلها بالبريد!

(فريدة

لا أعرف إن كنت تسمحين لي بمناداتك باسمك مجردًا، لكنّي أريد أن أهمس به طويلًا وألا يفارق جرس موسيقاه أذني. أجمل صدفة في حياتي حين قدّمني جهاد لكِ، ارتبكت وأنا أصافحك، شعرت وكأنّ أصابعك قطعة راحة في كفي، ضغطتها بقوة، واحمرّ وجهك، أدركت ما فعلت حين سحبتِ يدك بانزعاج. استأذنتِ بحجة أنّ لديكِ محاضرة، لكنّي أحسست أنّك لا تودين الجلوس معي. رأيتك تبتعدين كحلم، تذوبين كقطعة بقلاوة تناثر طيفها أمام عينيّ، لحق جهاد بكِ وتركني وحيدًا في زاوية المقهى أجترُّ خيبتي. انتبهت بعد دقائق من غرقي في الحلم أنّه لم يتبقَّ لديّ سجائر!

خرجت من الكلية وسرتُ في الشّوارع على غير هدى، وجدت نفسي أمام المعهد العلمي.. ولجت من البوابة الكبيرة، تمشّيت في الحديقة، لم أرَ أحدًا، لم أسمع صوتًا، بضعة طلاب فقط يتمشون في عمق الحديقة...

كنت أراك تتمشين أحيانا هنا مع جهاد، كم تمنيت لو تأتين وحدك.. لو نجلس معًا، لو...).

مزّقت الرسالة ورميتها في سلة المهملات.. كنت وقتها غير مستعدة لإثارة غيرة جهاد فلم أخبره بأمر الرّسالة وتجاهلت الردّ عليها.

كان نضال ابن حلوة الشّخشرلي آخر شخص يمكن أن أفكّر فيه.. جميع أصدقائنا وزملائنا في الكلية يتهامسون حول أمّه.

حلوة الشخشرلي "طَفِي الضو والحقني" 1985

لم يفعل، كان مرهقًا، غفا في مكانه على الأريكة قبل تناوله العشاء الذي ظنّ أنّ حلوة تحضّره! نظرت من باب المطبخ الموارب ونفثت بغيظ "نوم الجحاش".. غطّت ابنها وخرجت، أغلقت عليهما الباب بالمفتاح، واربت باب الدّار، ودخلت غرفة النّوم.

أطفأت الضّوء واقتربت من النّافذة، أُطفِئ الضّوء في الغرفة المقابلة، راقبت الشّرفة والنّوافذ في الطّوابق المحيطة بالبناء، واستلقت في الفراش.

وهما في قمة النّشوة سألها:

- ألا تخشين أن يعرف زوجك؟

تضاحكت:

- فليعرف، هو مثل عزرط لا بيحل ولا بيربط.

لم تقل له إنّ زوجها يعرف ويتغاضى، لم تخبره أنّ زوجها عاجز جنسيًا وأنّ وجوده في البيت واجهة لقلع عيون الجيران وللتغطية على نشاطها الأساسي، وأنّ مدير المخابرات العسكرية شخصيًا زوّجها إياه بعد طلاقها من زوجها الأوّل!

أشعل سيجارة ونفث الدّخان بقوة وهو يتأملها تنهض بخفة وترتدي ثوبها "الصانجان" وتخرج. عادت بعد دقائق وهي تحمل صينية طعام فاحت روائحه الشّهية قبل وصولها، وضعتها على طاولة صغيرة بجانب السّرير ودعته.

لا يعرف بالضّبط كم من الزّمن مرّ على آخر طعام شهي وساخن دخل معدته، الفلافل والفول قرّحا معدته وأوهنا ذهنه.. شعر باتّقاد الرّغبة من جديد، حدّق إليها، فقالت بدلال:

- أعجبك ثوبي؟

- بل ما تحت الثّوب، أنتِ أجمل بدونه.

تجاهلت قوله:

- هذا آخر موضة، ما في بالحارة حدا اشترى منه غيري، الظّاهر أنت تحبّ لَمْس الدرّاق[1] أكثر!

- هو ملمس جسدك، وليس الثّوب كما تتخيلين.

نهض وطرحها أرضًا، حاولت التّملص بقوة، لم تفلح، طلبت منه أن يحملها إلى السّرير، لم يستجب، أرادها بتلك الفجاجة على الأرض، قالت بدلال:

- ما حسيت بمثل هذه المتعة من قبل.

أراد أن يقول "بسبب طعامك" لكنّه سكت في الوقت المناسب، نهض وانسلّ من البناء وهو يتلفت خلفه وقلبه يضرب بقوة. استقبله رفاقه في الغرفة وهم يتضاحكون، وكزه خالد:

- إن شاء الله بيّضت وجوهنا؟

علّق جميل:

- حصان، لا تخاف عليه.

وضحكوا.. كانت آخر ضحكاتهم وآخر اجتماع لهم؛ في ساعات الفجر الأولى قُرع الباب بعنف، وشُحطوا جميعهم إلى الفرع.

لم تغادر حلوة الحارة على الرّغم من خلو الشّقق المجاورة من الشّباب الذين اعتقلوا بتهم متفرقة، أقلّها عقوبة الانتماء لحزب العمل الشّيوعي. بقي ضوء غرفتها ينوس خمس سنوات ويُطفأ، وقميصها وملابسها الدّاخلية ومنشفتها تنشر على حبل الشّرفة يوميًا!

* * *

---

(1) طفي الضّو والحقني ولمس الدّراق: نوعا قماش انتشر في السبعينيات، التّسمية شعبية.

حلوة الشخشرلي، سوكو سوكو 1985

عُرفت حلوة بكثرة الألقاب وسوكو سوكو آخرها، يغمزها بائع البطيخ وهو يناولها أفضل ما عنده، ويلف بائع الدّراق أفضل ما عنده بكيس ورقي وهو يرفع صوت المسجل الذي تنطلق منه أغنية شامي شابور "سوكو سوكو أيا ياا" تبتسم حلوة بدلال أثناء خروجها وتترك شالها الأحمر المزيّن "بالبَرَقْ والخرز الخمري اللون" يسقط على البسطة بحركة تبدو تلقائية لكنّها لا تخفي دلالتها. يلتقطه صاحب الدّكان، يركض خلفها، ويناديها:

- الشّال يا ست الحسن.

تتناوله حلوة بأطراف أصابعها وتعجز عن وضعه على كتفيها بسبب الأكياس التي تحملها، فيهرع صاحب الدّكان:

- عنك يا ست.

ينادي صبيه:

- احمل الأكياس للست حتّى باب الدّار.

تشهق حلوة:

- آسفة، نسيت أن أعطيك ثمن الفواكه.

يبتسم صاحب الدكّان:

- الحساب واصل يا ست الحسن والدلال.. ولووو.

على الرّغم من انتشار الاسم "سوكو سوكو" على ألبسة الأطفال إلا أنّ ارتباطه بحلوة أخذ شكلًا مختلفًا.

حضرت حلوة الفيلم في السّينما عشرات المرّات، وكلّ مرّة تخرج من السّينما وهي تحمل ملامح بطلة الفيلم وحركاتها، النّساء في الحي لم يُطلقن عليها لقب سوكو سوكو لأنّها أتقنت الرّقص على الطّريقة الهندية وصارت ترتدي الأقمشة والأزياء والألوان التي ارتدتها البطلة، وليس لأنّها انفردت بذلك القماش

الذي يغزل الحكايات ويفضح الرّغبة ويقدّم الإغراءات للناظرين وإنّما لتَواطؤٍ خفي بينهنّ باستخدام التّسمية كناية عن أفعال حلوة الشّائنة! أخذ الاسم شكل الطّرفة والنّكتة البذيئة من دلالته التي اتفقت عليها النّساء وصرن يصفن به كلّ ما هو سيئ وبلا أخلاق من وجهة نظرهن.

أدركت حلوة أنّ وراء التّسمية أمرًا سيئًا لكنّها لم تلقِ بالًا لهنّ بل انتقمت منهنّ بإغواء أزواجهنّ، وكانت حربهنّ خفية وحربها معلنة وصريحة.

* * *

سألها وهو يتعرّى:

- متأكدة أنّه لن يأتي الآن؟

طوّحت جسدها فوق السّرير، دفعته أمامها، عضّت أذنه ونفخت أنفاسها الحارة فيها:

- لن يأتي، أسئلتك الغبية تثير أعصابي.

فجأة سمع صوت أقدام تقترب من الغرفة، أبعدها عنه، نهض بسرعة، وتناول ملابسه بارتباك. لم يسعفه الوقت ليسوي هيئته المشعثة وليضبط وضع الأزرار في قميصه وبنطاله. نظر إليها ووجهه شاحب كليمونة ذابلة، فرآها تبتسم، وترفع صوتها بالسّؤال:

- نضال، أنت رجعت؟ ما عنا خبز، روح على الفرن، بدي خبز سخن.

ردّ ابنها:

- حاضر.

سمع صوت الباب الخارجي يغلق، تسلّل بهدوء، وتوقف في فسحة الدّرج محاولًا السّيطرة على ضربات قلبه وارتعاشه.

خرج من باب العمارة بحذر، تلفت حوله، فلمح ظلّ شخص يختبئ وراء سيارة واقفة في أوّل الشّارع. لم يشكّ في أنّه ابن حلوة؛ لم يذهب إلى الفرن. أدرك

أنّه عرفه، لكنّ البناء فيه عشرات البيوت! أيقن أنّ نضال يراقبه منذ زمن ويعرف غزواته النّهارية، وتعمّد عدم الذّهاب إلى مدرسته اليوم ليضبطه. لاحقه خوفه وهو يفتح باب المنزل وعتمة الدّرج تطبق على صدره.

صاح به محمّد من المطبخ:

- سبع ولّا ضبع؟

قهقه زملاؤه، وفاحت رائحة البيض المقلي والخبز السّاخن.

ناداه فايد:

- تعال، الطّعام جاهز.

أكل بضع لُقيمات من المخلل الحار، ولقمة بيض، والتهم رغيف خبز التنور الذي أرسلته أمّه من القرية. أغمض عينيه وعاهد نفسه بأن تكون المرّة الأخيرة التي يزور فيها حلوة؛ لن يقامر بحياته من أجل لذّة محرّمة مسروقة، لن يضيّع مستقبله.. رأى أمّه تبتسم بحنان "الله يرضى عليكِ يا ابني".

لاحقه رضاها في عتمة السّجن.. وهو يعدّ الأيام ويحفر صور المستقبل الضّائع على جدران الغرفة المنفردة، وينتظر اللحظة التي سيخرج فيها للحياة وينتقم من حلوة.

* * *

قرأت الخبر في الجريدة الرّسمية، في صفحة الحوادث. "مقتل حلوة الشخشرلي / 1989/ "

ابنها اكتشف الجثة، ولم تسفر التّحقيقات عن معرفة الفاعل!

لم يصرخ ولم يبدِ أيّ ردّ فعل حين فتح الباب ورآها ملقاة في الصّالة غارقة في دمائها وقد غُرس سكين المطبخ في قلبها. تأملها قليلًا..

طلب الشّرطة على الهاتف وأخبرهم بالحادث. دخل المطبخ، كانت رائحة تقلية الملوخية تملأ البيت، حمل الطّنجرة وأفرغها في التّواليت، رمى الرّز في

الحاوية، أخرج علبة سردين من البراد، بضع حبّات من البندورة ومخلّلًا وخيارة ورغيف خبز، سحب الكرسي، جلس وتناول طعامه بهدوء. سمع الأصوات الآتية من مدخل البناء وزمور سيارة الإسعاف والشّرطة..

رمى باقي الطّعام وعلبة السّردين الفارغة في الحاوية، غسل يديه وفمه. راقب عملية أخذ البصمات وترحيل الجثة بصمت.

قرع باب الجارة، أعطاها المفتاح وطلب منها أن تجلب أحدًا ينظف البيت ويأخذ ملابس أمّه قبل عودته.

غاب عن البيت أسبوعًا كاملًا بعد انتهاء التّحقيق الذي قيّد القضية ضدّ مجهول. ثمّ استأجر بيتًا في الأنصاري الشّرقي ونقل أغراضه إليه.

في التّحقيق قال إنّه لا يعرف من له مصلحة في قتلها، لكنّه يشكّ في أنّ لأقارب المعتقلين الشّيوعيين يدًا في الأمر.

تحوّل شكّه إلى يقين حين لم يقم أحد من زملائه في الكلية بواجب التّعزية ولم يواسِه أحد، بل تعمّد الجميع تجاهل الأمر وكأنّه لم يحدث!

لم يشعر بالحزن، على العكس تمامًا أحسّ أنّ حملا ثقيلًا قد أزيح عن كاهله. ذهبت حلوة في رحلتها الأبدية وأخذت معها كلّ ذكرياتهما المرّة. لم يشعر يومًا أنّه يعيش مع أمّه كباقي الأولاد. أمّهات الآخرين يمتلكن صورًا مختلفة، أبسطها طريقة ارتدائهن للملابس، حنانهنّ، لهفتهنّ، وأشياء كثيرة حرمته حلوة منها. كانت امرأة مثيرة وشهية، تعرف كيف تغوي الرّجال، تختار ملابسها الفاضحة بعناية، تتقن تسريح شعرها وصبغ شفتيها بالأحمر، تتقن تلوين أظافرها، تعرف كيف توازن جسدها وهي تسير بحذاء رفيع الكعب.

لكنّها لا تهتم إن كتب واجباته المدرسية، إن نجح أو رسب، إن جاع أو شبع، إن تشاجر مع الأولاد أو ضربه أحدهم.. الأمور التي تخصّه خارج عالمها بالكامل، عالمها الذي عاشت تفاصيله بمفردها ولم يكن له مكان فيه.

* * *

نضال 1990

عُرف نضال بأنّه صاحب "خط ناعم" بعد قصته مع زميلنا أيمن.

- كنت أظن أنّي الوحيد الذي يسكن في جحر، كيف تستطيع العيش على هذا البعد من سطح الأرض يا رجل؟
- لم أجد بيتًا أرخص أجرًا من هذا، على كلّ حال هي تجربة فريدة واستثنائية أن تعيش الموت ثمّ ترى الحياة فتعكس آية الخلق. لو تحقّق الانبعاث من هذا القبو كما أحلم به، سأسير في طريق صاعد إلى الأبدية.
- أستغفر الله، ما هذا الكلام يا رجل؟
- إنّها الفكرة التي أعمل عليها في تحليل نشأة الأسطورة. ثمّ علام تعترض؟ على فكرة الأبدية؟ إذن كيف تبرّر بقاء الرّؤساء إلى الأبد؟

امتقع وجه نضال وخرس لسانه، يبدو أنّ أيمن سيورطه في النّقاش ويدخله الفخ. "الحذر" نبّه نفسه، واستُنفرت حواسه كلّها. شمّ رائحة غريبة، ظنّ لوهلة أنّها رائحة تفحّم سكر على النّار، أدرك خلال لحظات أنّها انبعثت من جسده. تنحنح قليلًا وطلب كأس ماء وفنجان قهوة. بهذا قطع الحديث، قلّب الأوراق الموجودة على الطّاولة بسرعة، احتفظ ببعض العبارات في ذهنه، لم ينسها. درّب نفسه سابقًا على الحفظ السّريع، جلس ثانية، وتشاغل في تصفح كتاب رأس المال.

دخل أيمن حاملًا القهوة والماء، وقدّم له الفنجان:

- إن كنت تحبّ قراءة الكتاب بإمكاني إعارتك إياه.

أبدى امتنانه واستحسانه للفكرة، عقّب أيمن:

- سنناقش ما جاء فيه في لقاء قادم عندما تنتهي من قراءته.

صعد الدّرجات الخمسين وانفلت خارجًا من مدخل البناء، أحسّ كما لو أنّه خرج من القبر، لا يريد أن يعترف أنّ ما قاله زميل الدّراسة عين الصّواب، وأن

إدراكه سينسف الثّوابت لديه. تنشّق الهواء بقوة، أخرج مفكرته الصّغيرة، وسجّل الأفكار بسرعة.. لم يفته الإشارة إلى خطورتها على المجتمع.

قبل أن يعود إلى البيت عرّج على "المركز" ترك ملاحظاته في الأمانات وخرج.

خمس سنوات من التّمرين حتّى صارت ذاكرته تلتقط الكلمات وتحتفظ بشكل الخط. حين يعيد كتابتها على ورقة من مفكرته يرى بوضوح أنّ الخطّ جاء نسخة عن خطّ الشّخص المنقول عنه! هذا الأمر أشعره بالارتياح، هناك من يتولّى الكتابة عنه، هو خارج اللعبة.. لقد اكتشف موهبة فريدة لديه، تقليد الخطوط ببراعة نادرة!

* * *

زرت نضال مرّة واحدة بعد زواجه بأشهر بمناسبة ولادة ابنته سالمة.. وكانت المرّة الأولى التي ألتقي فيها بزوجته فائزة، المرّة الثّانية حين دعاني لحضور مناقشة أطروحة الدّكتوراه.

فائزة الشّيح 1999

تدفقت الذّكريات محرّضة دموعها على الانهمار، لم يتوقف هطول المطر في الخارج، مطر يغسل نوافذ قاعة المحاضرات ويجعل الأشجار مجرد أشباح خلفه. على المنصة الكبيرة يجلس المُحكِّمون، ووراء المنصة الصّغيرة في عمق القاعة يقف بثقة مطلقة..

هي أيضًا تثق بشكل مطلق بقدراته وإنجازه، وتعرف مسبقًا أنّه سيحصل على ما يريد. لكن لماذا يرتفع صوت أحد المناقشين كثيرًا؟ لماذا يتكلم بحدة؟ تشعر وكأنّها تشاهد مسرحية.. فرق كبير بين قاعة المحاضرات هذه وبين صالة

المسرح.. إحساسها بأنّ ما يحدث على المنصة مجرد تمثيل لم يفارقها منذ بدء الجلسة.

الدّكتور المشرف على الأطروحة بقي صامتًا وزميله يدقق في الأخطاء المعرفية الواردة في الأطروحة بأسلوب أقرب إلى التّهكم ولهجة مستفزة لم تخرج نضال عن طوره بل كان يبتسم بثقة ويرد بلهجة متعالية.

الدّكتور المشرف نظر إليه بما يوحي الطّلب بضبط النّفس. رئيس المحكّمين أمسك الأوراق بيده ورفعها أمام عينيه، وضعها على الطّاولة، ووضع نظارته فوقها، تنحنح وبدأ بتعداد المترادفات التي وردت في الأطروحة واعتبر ذلك نقطة ضعف في الصّياغة اللغوية، ابتسم نضال وهو يعقّب: "الدّكتور الرّئيس ترك المتن ولحق الهامش". لم تكن العبارة موفقة كثيرًا لقد أغضبت رئيس اللجنة الذي أخذ ينبش أخطاءً في القواعد وأخطاءً معرفية وذكر جملًا نسخت بالكامل من كتب الآخرين من دون الإشارة إليها في الهامش.

ساد صمت ثقيل في القاعة حين أعلن الدّكتور المشرف نهاية المناقشة. ونزل المُحكّمون ليجتمعوا في غرفة جانبية ويتخذوا قرارهم.

كانت ترى فقط، لم تسمع الأصوات من حولها، لم تدرك ما يُقال.. فقط تراقبه، تراقب الزّميلات القديمات اللواتي جئن ليحضرن المناقشة، الأصدقاء الذين تحلقوا حوله.. وهي بقيت بعيدة، تغوص داخل المقعد الخشبي وتفكر بعدد الصحون الموجودة في البيت هل ستكفي للضيوف الذين سيدعوهم للغداء بعد المناقشة؟ لقد أوصت جارتها أن تستعير لها كراسي من عند الجيران وترتب لها البيت ريثما تعود؛ تمنّت ألا تخذلها فاطمة.. الجيران سيقومون بمهمة الطّبخ عنها اليوم. اليوم هي في إجازة من العمل، في إجازة ستستمر حتّى الغد. ستعيش خلالها الفرحة الكبرى بنيله شهادة الدّكتوراه، أخيرًا سيحقّق حلمه ويصبح مدرّسًا في الجامعة، وهي سترتاح من العمل على ماكينة

الخياطة والرّكض لتأمين حاجيات البيت، سيشتري بيتًا؛ هذا ما وعدها به.. سيكون لها بيتها الخاص في حي أفضل وستشتري أثاثه بنفسها.. ستشتري جرّة غاز إضافية كي لا تضطر إلى النّزول من البيت في أوقات حرجة لتبديل الجرة، وستشتري طقم مطبخ جديد يريحها أثناء العمل.. وسيكون لديها غسّالة أتوماتيك.. و...

ظنّ الحضور بعد المناقشة أنّ اللجنة لن تعطي درجة جيد للأطروحة، وربّما تحجب عنه علامة النّجاح، لكن بعد اجتماع اللجنة وعودتها إلى المنصة فوجئ الجميع بقرار اللجنة الذي منح نضال الدّكتوراه بدرجة ممتاز!

صفّقت مع الحضور، ابتسمت لتهنئة البعض لها، ارتبكت وتعثرت بظلّها وهي تخرج وحيدة من القاعة وهو يسبقها وسط جمهرة من أصدقائه.

عند الباب الخارجي أوقف سيارة أجرة صعد مع ضيوفه، وقال لها:

- سأسبقك، تدبري أمرك.

حين وصلت البيت، لم تجد أحدًا.. الكراسي مصفوفة بعناية، الطّعام مرتب على المائدة، شوك وسكاكين وملاعق وصحون من بيوت الجيران جميعًا.

فاجأتها دموعها.. خلعت ملابسها، سكبت الطّعام في الصّحون ونادت جارتها فاطمة:

- أعيدي الأشياء إلى أصحابها، الظّاهر بيتنا ليس قدّ المقام لذا؛ أخذ ضيوف العاصمة إلى المطعم.

* * *

حين أنهيت الرّواية شعرت أنّي مدينة لحورية لأنّها غيّرت اسمي، وما زالت تحافظ على خيط الودّ القديم بيننا.

جهاد السّارح 1985

العتبة

كانت السّاحة مكتظة بالطّلاب والمشايخ، الجميع مشدودو الأعصاب، تصاعدت وتيرة الخوف والتّرقب، لم يستطع أحد أخذ مبادرة إيجابية، الجميع يشعرون بالعجز تجاه ما يحصل، كان الشّيخ الشّاب واقفًا على حافة السّطح يترنّح وصوته المخنوق يصدر نشيجًا ممزوجًا بحروف مبهمة، لم يستطع أحد فهم ما يريد لكنّهم يدركون أنّه يهدد برمي نفسه من أعلى السّطح ويتهم شيخه بشيء ما.. فجأة تعلّقت الأنظار بشاب آخر صعد السّطح بخفة ووصل صوته إلى الحاضرين، صوتٌ هادئ أسكت الجميع وتعلّقت عيونهم بالحافة بانتظار ما سيحدث.

استطاع جهاد بشيء من الجهد إقناع زميله بالابتعاد عن الحافة، احتضنه بقوة، ومسح دموعه، ووعده بحمايته والوقوف إلى جانبه.

سار الشّاب ممسكًا بيد جهاد متشبثًا بجبته باليد الأخرى.. كان قلقًا وخائفًا.

حين أصبحا في السّاحة ابتعد المتجمهرون وأفسحوا الطّريق للشابين كي يعبرا إلى غرفة داخلية..

لم يمضِ سوى ساعة على انتهاء المشهد الحزين وعودة الطّلاب إلى غرفهم وأشغالهم.. حتّى دخلت ثلة من المسلحين واقتادت الشّاب عمر إلى جهة مجهولة.

لم يشكّ أحد أنّ لجهاد يدًا في تسليم زميله للمخابرات.. الشّكوك كلّها ذهبت إلى المدير الذي هدّد عمر منذ أيام وكتب فيه تقريرًا على خلفية قضية شخصية لم يستطع أحد معرفة تفاصيلها، كما لم يعرفوا أنّ المخابرات جنّدت جهاد منذ اليوم الأوّل لانتسابه إلى الخسروية وصار عينهم التي ترى ويدهم التي تكتب التّقارير اليومية بكلّ دقة ومصداقية!

* * *

الفصل صفر

أرواح في البرزخ

وضعتُ يدي على قلبي، هل كانت فريدة تعرف التّاريخ الذي ستموت فيه؟ أم أنّها سعت إليه؟

وضعتني داخل دوامة من الأسئلة التي يجب أن أجد إجابات حقيقية لها.

لكن عليّ أن أعترف أنّ السّيدة فريدة ذكية ومتزنة وعندها إلمام بمسار الأحداث.. لا يمكنني إنكار ذلك. لقد وضعتني في دوامة وأعطتني مفاتيح الخروج منها، عليّ فقط أن أعرف الباب المناسب للمفتاح الذي أحمله.

كانت امرأة قوية وصلبة وعندها المقدرة على إدارة أمور الحياة من دون الاعتماد على الآخرين، أذكر أنّي في حواري معها قلت لها محاولًا استفزازها:

- إنّ المرأة القوية امرأة غير جذابة وتفتقر إلى الأنوثة.

ابتسمت بهدوء ورشفت من فنجانها على مهل قبل أن تجيبني:

- هناك دائمًا تجارب جديدة تتحدّى معنى القوة الشّخصية.

كانت تملك طاقة كبيرة إيجابية، أخبرتني أنّها كانت تدرّب نفسها حتّى استطاعت اكتساب الشّخصية التي يراها الآخرون عليها، تعلّمت أن تحدّث نفسها أمام المرآة، وأيقنت أنّ الأفكار تتجوهر حين نتحدّث عنها.

ربّما لو عشت في ذلك الزّمن والتقيتها في الجامعة لكنت أحد عشاقها. الوصف الذي جاء على لسان نضال وجهاد أثار مخيلتي.. رحت أنقّب عن صورة قديمة لها على الإنترنت، أردت التّأكد من شكلها عندما كانت صبية، لم أعثر على بغيتي..

تعمّدت فريدة أن تكون صور بروفايلها في الفيس بوك افتراضية، أحيانًا تضع باقة من الورد وأحيانا صورة أطفال، ظننت في البداية أنّها صور لأطفال عائلتها ثمّ اكتشفت أنّها صور لأطفال قتلوا في المجازر - كما سمّتها - في بانياس والبيضا وكرم الزّيتون والحولة وريف إدلب.. وفي الغالب صور من مجريات الأحداث في سوريا..

لو كنت في ذلك الزّمن لاخترت أن أكون عاشقها السّادس، لم أجد نفسي في أحد هؤلاء الذين ذكرتهم في روايتها. الشّاعر لا يشبهني والرّسام أخرق ولا يحسن التّصرف مع النّساء، مشاعري التبست نحو جهاد؛ لأنّي على معرفة شخصية به، كنت أحد المريدين لحلقات دروسه في مساجد دمشق لمدّة قصيرة. كانت شطحة من شطحات الفكر جعلتني أذهب إليه فلم أجد عنده ما يروي ظمئي للمعرفة، لكنّه كان شديد التّهذيب دمثًا وحديثه منظّم وجميل!

إن كنت سأتبع حدسي فهو يذهب بي إلى اتهام جهاد بقتل فريدة مع أنّ نضال هو الأكثر قابلية للقيام بالفعل، ومع هذا لا أملك دليلًا يحسم ظنوني بالاتّجاه الصّحيح لها.

* * *

ليس بدافع الواجب، هو الفضول لا أكثر الذي جعلني أسير وراء جنازة فريدة، أراقب الوجوه، في محاولة لمعرفة الغرباء الذين جاؤوا من خارج البلد لحضور العزاء. في المقبرة ازدحمت مئات الباقات من الورد التي وضعت بطاقات أصحابها بشكل يلفت الأنظار ويمكّن الزوّار من قراءتها ومعرفة صاحبها الذي أعلن عن اسمه وبلده وعمله أيضًا!

وجود الصّحفيين قليل، لكنّ الحاضرين كلّهم أخذوا صورًا تذكارية بهواتفهم المحمولة بجانب القبر بل بجانب باقات الورد التي اختفى معظمها بمجرد انسحاب هؤلاء من المقبرة!

وقفتُ بعيدًا أراقب السّيدات المتشحات بالسّواد.. ربّما كان بينهنّ صفية وفضّة ووهيبة وكلّ النّساء اللواتي جاء ذكرهنّ في روايتها. لكنّ المناديل السّوداء الرّقيقة المسدلة على وجوههنّ منعتني من معرفة إحداهنّ! حسب ما ورد من صفاتهنّ في الرّواية.

عرفت يمامة، أوّل مرّة أراها، كانت ترتدي معطفًا خفيفًا من الكروشيه فوق ثوب أسود أنيق وتضع قبعة سوداء انسدل فوقها منديل شفاف من الدّانتيل!

وجود سيدة القطط بجانبها وهي تسندها بكلتا يديها جعلني أتأكد من هويتها. تلك التي نسجتُ صورتها من الحلم وتخيّلتها أحيانًا قصيرة وممتلئة وذات بشرة سمراء، تنغمس في خديها غمازتان عميقتان كلّما ضحكت. وأحيانًا أتخيّلها طويلة ونحيلة وملامحها عادية وصارمة. لم يخطر لي أنّ سيدة بهذا الجمال تقبع وراء نافذتها، لا يراها أحد ولا ترى أحدًا سوى اليمام!

حين استدرت أريد المغادرة اصطدمت بسيدة لم تضع المنديل على وجهها. انخلع قلبي:

- السّيدة وحيدة!
- تعرفني!
- نعم سبق وزرتك في مكتبة الأسد الوطنية حيث تعملين سيدتي، جئتك بتوصية من السّيد كاسر لأجل مساعدتي في بحثي عن مخطوطات تعينني في كتابة أطروحة الدّكتوراه. حضرتك سمحت لي بالوقت الكافي.. أنا ممتن لكِ وليتك تسمحين لي بالتّطفل على حضرتك بزيارة.
- سأرى.
- سأكون ممتنًا لحضرتك، الواقع أن الأمر يتعلق بالسّيدة فريدة، والمكان غير مناسب لفتح حوار هنا.

لم يطرأ على ملامح السّيدة وحيدة أيّ تغيّر ولم يفصح ولو عن قليل من الدّهشة أو الاستغراب أو الفضول، لكنّي تمسكت بالأمل حين قالت:

- سأرى إن كان لديّ وقت قبل السّفر، سأتصل بك.

استدارتْ وابتعدت بضع خطوات لتمسك بيد سيدة وقفت بعيدًا أعتقد أنّها صفية، تأبطت ذراعها ومشتا معًا.

لم تتصل بي السّيدة وحيدة، سافرت - كما قالوا لي - ليلًا في سيارة رسمية يقودها سائق أجنبي الملامح. لم يدهشني تصرفها ولا سفرها في سيارة فخمة، فهي والدة رئيس الوزراء وإن كانت إلى الآن تحافظ على وظيفتها في المكتبة، وكأنّ العمل نوع من الإدمان وربّما التّسلية لقتل الوقت الفائض!

* * *

الفصل الرّابع

لم أنهِ البحث عن ماضي الشّخصيات وكتابة الفصل الثّالث حتّى أمسكت خيوط الحكاية كاملة حين تكشفت الحقائق لي من الحاضر.

استعدت في البداية ما روته لي وهيبة منذ سنوات لأربط النّتائج بالمقدمات. كانت وهيبة الصّندوق الأسود الذي يحفظ أسرار السيّدات اللواتي استدعاهن العميد "أبو فراس" حين كان برتبة عقيد في السّبعينيات من القرن الماضي.

تركت وهيبة الحيرانة وسكنت في العاصمة حين نجح ابنها في الثّانوية العامة ودخل كلية الطّب في دمشق.

لم تجد وهيبة بدًا من مغادرة الحيرانة، ليس بسبب دراسة ابنها في دمشق، بل لأنّ هدم الحمّام ترك أثرًا سيئًا على نفسيتها.

وهيبة التي عاشت سنوات طويلة بين أطياف الماء وأجساد النّساء العارية وأصوات الغناء في ليالي الحنة، لم يعد صوتها يجد مكانًا يتنفس فيه.

لم تكن تستعذب الغناء إلاّ على صوت معزوفة الماء في الأجران، والنّساء ينصتن وسط البخار المتكاثف على الجدران، تلك اللوحة السّائلة تنقل المروج والغيطان إلى وهيبة وتحضر أمسًا لا يني ينبش الجراح ويكويها ويعيد ترتيبها.

حكايتها مع حمدي صاغها "محمّد رشدي" في أغنية، لا تملّ وهيبة من سماعها. كانت تصفه بالعبقري الذي استطاع أن يختصر حياتها وذكرياتها في أغنية، أقول لها العبقرية ليست في غناء رشدي بل في الكلمات، تبتسم وتقول: "صوت

رشدي حمل الكلمات من ريف مصر إليّ، لا يهمني كاتب الأغنية، لولا رشدي ما سمع كلماته بني آدم".

في البرّاني كانت وهيبة تجلس على المصطبة يلتف حول جسدها المئزر، أمامها كأس من الزّهورات ونارجيلة، وبجانبها مسجل صغير، وكاسيت يتيم.. أهدتها إحدى السّيدات كاسيت للست كي تغيّر النّغمة الرّتيبة التي صدّعت بها رؤوس النّساء.. لكنّ وهيبة لم تسمع الشّريط سوى مرّات قليلة عند طلب السّيدات وهنّ في الاستراحة بعد الاستحمام.

* * *

بعد تخرج شكيب من كلية الطّب عُيّن مديرًا للصحة في محافظة ريف دمشق، ثمّ نُقل إلى العاصمة..

وشاءت الصّدفة أن تجمعه بفاتنة بعد مضي تلك السّنوات.

لم تتخيّل فاتنة أن تصادف شكيبًا بعد مضي زمن طويل على رحيلها من الحيرانة. مجرد صدفة عابرة ويجب ألا تتكرر، تعرف أنّ لا خيار لها فيما كُتب عليها، لكنّها تمنّت من أعماقها ألا تراه ثانية، رؤيته خلّفت في قلبها غصّة، كان يعبر الشّارع إلى سيارته المركونة في الطّرف الآخر حين سمع صراخ ابنها، اقترب منها بتلقائية ليسأل عن الأمر:

- فاتنة!

لم ترد، اكتفت بضمّ ابنها إلى صدرها، واعتذرت منه:

- آسفة الولد لا يدرك ما يفعل.

- ابنك؟

هزت رأسها ولم تعقب، السّؤال سخيف لكنّه لم يجد مدخلًا آخر ليعرف أحوالها وأخبارها؛ وكأنّه لم يسأل ويبحث عنها ويتسقط أخبارها من قبل.

توقفا معًا، كلٌّ منهما عاد بذاكرته للّحظة التي نطقت سنية خانم فيها جملتها المشهورة "لست من مقامها".. نفض رأسه مبعدًا الذّكريات المرّة وقال:

- ابني إسماعيل.

لم تنطق هي، لم تكن ترفض ابنها بصمتها بل منعتها غصة كوت حلقها بقسوة، وأوقفت كلّ كلام يمكن أن يشرح طبيعة ارتباطها بهذا الكائن الذي يتشبث بثوبها ويخفي وجهه رعبًا من شيء مجهول.

انتبه أنّ عليه إنهاء هذ الوضع المحرج، مدّ يده مصافحًا، ردّد عبارات الوداع والأمنيات بلقاء آخر، وركب سيارته.

بقيت فاتنة واقفة على الرّصيف تراقبه وهو يبتعد، تلملم شظايا روحها، تضغط كفّ ابنها اللينة بقوة، وتمنع دموعًا احتقنت في عينيها من التّدفق.

لا يستطيع تحديد مشاعره بالضّبط، هل يشعر بالتّشفي، بالارتياح، بالشّفقة؟ فاتنة التي طعنت قلبه بقسوة غير سعيدة في حياتها.. فقدت طفلها الثّالث، آخر أطفالها منغولي! كم يودّ لو يرى ملامح سنية خانم الآن، كيف ستنظر إليه؟ زوّجتها لقريبها الغني ابن العائلة فماذا كانت النّتيجة؟

يعرف أنّ سنية خانم لن تتخلّى عن عنجهيتها، وتفضّل أن يموت أطفال أختها وتحرم من الأمومة وتعيش تعيسة مع زوجها الذي يخونها باستمرار، على أن تتزوجه هو ابن وهيبة العايقة!

في ذلك الزّمن حكى لجدته صالحة عن عشقه لفاتنة، وطلب منها المحافظة على سرّه.

ضحكت جدته وقالت:

- اللي ما بياخد من ملته بيموت بعلته[1].

---

(1) مثل شعبي المقصود منه أن الزواج يجب أن يكون متكافئًا وإلا سيفشل. "الملّة": الطائفة. "العلّة": المرض.

- ماذا تقصدين يا جدتي؟
- يا عين ستك فاتنة وين وأنت وين؟ أهلها مارح يوافقوا على الزّواج.. اصحى، جدك صالح وجدها حشمت آغا، سليلة إقطاع ونسبها عثماني.. افهم يا قلبي..

جده صالح! مما يرويه سكّان الحيرانة عن طرائف جده حكاية تعزّز انتماءه الفكري والاجتماعي.. رآه النّاس فجأة في السّوق حاملًا كيس "قنب" وضع فيه دجاجاته العشر بعد ربط أقدامها بخيطان القنب، أفرغ الكيس ونادى على النّاس يريد بيع دجاجاته، أصحاب الدّكاكين والنّاس الذين اجتمعوا حوله استغربوا الأمر، كيف يبيع دجاجاته وهي غالية عليه، سأله أحدهم مشكّكًا بأنّ مرضًا ما أصاب الدّجاجات، عقد حاجبيه وقال بضيق:

- خيو ما بدك تشتري ورجينا عرض كتافك.

أكّد الزبون:

- رح أشتري، بس بدي أتأكد.
- خيو، القصة وما فيها أني كمشته كمش اليد لديك جيراني ابن الحرام عم يكبس الدّجاجات، وأنا والله ما باكل بيض حرام، هاد زنا خاي مو حلال أبدًا.

سأله الزّبون:

- والديك؟
- لا خيو، مارح بيع الديك، اشتري من حدا غيري.

احتفظ صالح بالدّيك القرباطي لينتقم من دجاجات الجيران، كان يجلس أمام باب الدّار كلَّ عصر ويطلق ديكه في البريّة ويراقبه وهو يدخّن سيجارة قشق ويمتّع ناظريه بمنظره وهو يكبس دجاجات الجيران، يشعر بالنّشوة؛ لقد انتقم منهنّ! تخطر بباله بهية التي كانت تسكن في حي العطارين زمنًا

وراودته عن نفسه لكنّه لم يجرؤ على الصّعود إلى شقتها، فقد كان دائمًا يتحسس جسده الذي يحتفظ بآثار الضّرب على جريمة لم يقترفها وتحمّل نتائجها طيلة حياته.

شكيب لم يلقِ اللوم على جده أو جدته، كان يحبّهما وروحه متعلّقة بوجودهما، لم يشعر بالعار من أحدهما وإن آلمه أن يكونا السّبب في رفض عائلة فاتنة له.

* * *

لم يخبرها أنّه أصبح طبيبًا ومديرًا للصحة، لكنّها سألت وعرفت. وجاء اليوم الذي احتاجت واسطة لإدخال شقيقها المريض "صديقه" إلى المستشفى العسكري، وجاءت تلتمسه ليتوسط لها.

جلسا في ركن معتم من المقهى بعيدًا عن الأنظار، طلب لها فنجان قهوة وله كابتشينو، أشعلت سيجارة بيد مرتجفة، تنهّدت وهي تقول:

- لم أكن أظنّ أنّي سألتقيك يومًا ونجلس في مثل هذا المكان، مثل هذا الأمر كان في زمن ما مستحيلًا.

ابتسم شكيب:

- نعم، معك حق، من كان يظنّ أن يأتي اليوم الذي أحظى به بكلّ هذا النّور والبهاء في حضورك.

مرّت على شفتيها ابتسامة مرّة، بلعت ريقها بصعوبة:

- أمّي كانت تقول إنّك حفيد صالحة.. آسفة لا أقصد سوءًا والله، لكنّ أمّي كانت تعتقد أنّ الوراثة ستلعب دورًا، حذّرتني من التّورط بالزّواج منك.. النّتيجة ستظهر في شكل أولادي.

ابتسم ثانية وقال بثقة وهدوء:

- معك حق، لا يمكن التّغاضي عن الوراثة.

لم يقصد أن يجرح فاتنة ولم يقصد التّلميح إلى ابنها المنغولي، لكنّها انهارت فجأة وبكت بحرقة. ربتّ كتفها وقال:

- آسف حقًّا، أنا لم أقصد، تعلمين؟ جدتي صالحة كانت ملهمتي الوحيدة في هذه الحياة، حظها من الجمال كان معدومًا لكنّ بشاعتها لم تؤثر على روحها، وربّما كانت السّبب في خفة دمها وتقبّلها للآخرين والسّخرية من نفسها.

لم أعرف جدي سوى من حكاياتها، تخيّلته مثل "كركوز" أو هكذا صوّرته جدتي، كان أقرب إلى شخصيات الحكايات المضحكة بهيئته التي أفرطت في وصفها إلى درجة جعلتني أعتقد أنّي التقيت به يومًا. جدتي صالحة كانت متوقدة الذّهن حاضرة الذّاكرة تتقن الوصف وتقليد حركات الآخرين وتحفظ الأغاني الشّعبية والعتابا. أكثر ما يذهلني فيها أنّها كانت مرجعًا حيًّا للنفوس، تعرف الأنساب والعلاقات بتفاصيلها الدّقيقة بين النّاس، حين يُذكر أمامها اسم شخص تعطي المعلومات الكاملة عنه؛ ابن من وتزوج ممن وأنجب وسافر وعمل ومات.. يخيّل لي أنّها أدق من سجلات النّفوس.

حكت لي يومًا أنّ والدها جميل بيك احتال على صالح جدي وورطه في مشكلة فأكل "قتلة حشك ولبك" من أهل الحي، ثمّ راضاه وعفا عنه مقابل زواجه منها.

قالت فاتنة وهي تغتصب ابتسامة:

- ممتنة لكَ أن تفهمت ظروفي.. رحم الله جدتك.

* * *

وسيلة السّباك

تعودت وسيلة على جدران منزلها، النّاس، الأسواق، وطبيعة البلد. والأهم من كلّ ذلك علاقتها الغريبة بعملها.. لا تستطيع أن تتخيّل يومها بعيدًا عن سماعة الهاتف، عن أصوات النّاس وحكاياتهم، عن أسرارهم. هذا عالمها باختصار فكيف ستتركه؟

الإشارات الخفية المبهمة التي بدأ قلبها يلتقطها من "أبو كامل" ساعي البريد، لم تعد في الواقع مجرد إشارات؛ فقد صرّح لها "أبو كامل" أنّه عشقها منذ سنوات طويلة وأخفى مشاعره؛ لأنّها سيدة متزوجة، ثمّ جاء ابنها وسكن معها وكان الحاجز يكبر بينهما كلّما أراد مفاتحتها. الأمر الأهم أنّه لم يجد لديها ميولًا نحوه أو تقبّلًا لأيّ كلمة يقولها لها على سبيل الغزل بشكل جدي أو عن طريق المزاح لذا؛ اعتقد أنّها تحبّ شخصًا آخر أو أنّها حرّمت الرّجال على نفسها بعد موت زوجها.

أرادت وسيلة أن ترفض بتذكيره أنّه متزوج، لكنّه أخبرها أنّ زوجته لا مانع لديها من زواجه بأخرى ما دامت لم تستطع أن تنجب له ولدًا.

اتّخذت القرار الأصعب في حياتها، البقاء في الحيرانة، كتبت لابنها تبارك له تخرّجه من الجامعة وزواجه من زميلته، وتتمنّى له الحياة السّعيدة، وترجو أن يزورها قريبًا.. قالت له "أنا أشبه بسمكة يا صبحي، إن خرجت من الماء سأموت!".

تراوحت مشاعر صبحي أبو الحليوة بين الاستياء والرّاحة، فقد اعترضت زوجته على إقامة أمّه معها، وعرف أنّ إصراره على مجيئها سيصحبه العديد من المشاكل، واستاء لأنّها ستبقى بعيدة عنه.

كبر استياؤه وأصبح غضبًا حين وصله خبرٌ من الحيرانة يقول إنّ أمّه تزوجت "أبو كامل" ساعي البريد!

فوجئ أبو كامل حين دخل منزل وسيلة، لأوّل مرّة، بالغرفة المغلقة. سألها عنها فضحكت وقالت:

- هذا سرّ، لا يجب أن تعرفه كي لا تصيبك اللعنة.

لعنة ماذا؟ تساءل أبو كامل. همست وسيلة "المعرفة لعنة!".

عادت وسيلة في أحد الأيام من عملها لتجد "أبو كامل" في حال غريبة.

لم تفهم سبب تلك النّوبة الهستيرية من الضّحك التي وجدته عليها.. أصيبت بالدّهشة حين رأت باب الغرفة الصّغيرة مفتوحًا.. عشر سنوات ووسيلة تخفي مفتاحها وتدّعي أنّها تضع فيها أشياء غير صالحة للاستعمال بانتظار أن يأتيها ولد، حينها ستفتحها وترمي ما فيها وتخصصها للطفل.

لكنّ وسيلة لم تحمل مما أثار غيظ "أبو كامل" وقهره، وصار يتودد إليها بشتى الوسائل كي لا تتركه.

في بداية زواجهما كان "أبو كامل" يتفاخر بين أصحابه وأمام وسيلة بقدراته الجسدية الخارقة في الفراش، وفحولته التي لا مثيل لها، وكانت الهمسات في أروقة مبنى البريد تصل سمع وسيلة فيحمرّ وجهها خجلًا وترتبك أمام زميلاتها اللواتي يحولن تلك الأحاديث إلى طرائف. مع مرور الوقت صار الحديث يزعجها ويسبب لها النّفور من زوجها حتّى أنّها هدّدته بالطّلاق إن استمرّ في ادّعاءاته الكاذبة وهدّدته بفضحه وإن لم تكن بحاجة لذلك.. فعدم حملها أثار التّساؤلات ومن ثمّ التّعليقات السّاخرة وبعدها صار الأمر مهينًا لها وله.

الجولة الأخيرة كانت في صالح وسيلة، انقلب الهمس إلى إبداء رأي علني، البعض نصحها بإقناع زوجها بالذّهاب إلى طبيب، والبعض نصحها بشيخ يعالج العقم شرقي الجسر ويده فيها البركة.. والجميع يختمون كلامهم بالتحسر على حظها، قلائل كانوا يشفقون على "أبو كامل" وحظه القليل من الدّنيا.

أبو كامل تحوّل مع الوقت إلى نمر جريح يتخبط وسط آلامه ولا يجد طريقة لعلاج نفسه.

لا تعرف وسيلة لماذا كسر زوجها قفل الباب وفتحه؟ ما الذي يشكّ فيه؟ ولماذا انتظر طيلة تلك السّنوات؟ ركضت صوب الغرفة.. كانت النّوافذ مفتوحة والغرفة خالية!

لم تستوعب ما حصل، أين ذهب بالصّناديق؟ صرخت بأعلى صوتها:

- ماذا فعلت يا مجنون؟
- كان يجب أن تخبريني منذ تزوجتك، لماذا أخفيتِ عني الأمر؟ أنا أيضًا أقوم بالمهمة نفسها.. أنتِ المجنونة وليس أنا لأنك تحتفظين بدليل إدانتك! أنا أتخلّص من الرّسائل التي أقرؤها بالحرق وقد خلّصتك من أشرطة الكاسيت بإعدامها.

فتح باب الحمام وناداها:

- تعالي، انظري.

كانت أشرطة التّسجيل تستقرُّ داخل البانيو المليء بالماء!

هذه الحادثة كانت السّبب المباشر لطرد "أبو كامل" من الجنة. طلّقها بالثّلاث وعاد إلى زوجته الأولى.

اكتفت وسيلة بطلب نقله من وظيفته إلى أرشيف دائرة النّفوس، وكان لها ذلك.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

وحيدة الرّيدة

التقيتُ وحيدة صدفة عند الحلاق جاك.. كنت في صالة الانتظار وهي تجلس أمامه، حدّقت إلى المرآة.. لم تتغيّر وحيدة ولم تترك السّنوات بصمتها على ملامحها، ما زالت نحيلة وجميلة، سمار بشرتها رائق، فقط الهالات السّوداء تحت عينيها بدت نشازًا في المشهد العام لصورتها التي في الذّاكرة.

تخلّلت أصابع جاك الماهرة بخفتها المعهودة شعرها الأجعد الكثيف بعد قصه، أدار الشّعرات حول أصابعه المبلّلة، ورأته في المرآة عازفًا يطلق إشاراته الخفية للريح لينسج من نفحاتها لحنًا مبدعًا.. كانت نظراته حيادية لكنّها شعرت أنّ هناك شيئًا ما يخصها، فبعد دخولها الأربعين لم تكن تتخيّل أن يصل أحد إلى فهم طبيعة شعرها بهذا الأسلوب الأنيق والمبهر. لم تبقَ حلّاقة شعر في المدينة الكبيرة لم تزرها بعد أن ملّت طريقة حسنية في قص شعرها. مشكلة حسنية أنّها لا تحبّ التّجريب، ولا تتقن سوى قصّات محددة تحبّها النّساء في القرى، خاصة تلك التي تشبه تسريحة ليلى علوي، والتي لا تتلاءم مع شعر وحيدة.

في اللاذقية كانت مزيّنات الشّعر يتحايلن على شعرها بتكثيف رذاذ المثبت ليحافظ على التّسريحة بقية اليوم، عندما جاءت إلى الحيرانة لم تعد تهتم كثيرًا بالمثبت فاختلاف الطّقس وانعدام الرّطوبة وطبيعة الماء جعلت شعرها أكثر طواعية وليونة، وصار بإمكانها تسريحه على شكل كعكة في منتصف الرّأس أو تجميعه بشبكة من الخيوط الحريرية السّوداء تمنع تشابكه، خضعت مرّة واحدة لاقتراح حسنية بقصه على الطّريقة الفرنسية، وندمت كثيرًا بعد أن رأت وجهها في المرآة:

- صار وجهي أشبه ببطيخة أناناس.

ضحكت حسنية وهوّنت عليها الأمر:

- هذه تسريحة ميراي ماتيو، كلُّ البنات يطلبنها مني.
- البنات اللواتي يملكن شعرًا سبطًا وكثيفًا يا حسنية وليس مثل شعري، اللعنة عليكِ وعلى مشورتك، كيف سأضّبه الآن؟ وكم سأنتظر حتّى يعود إلى طوله الأصلي! اللعنة عليكِ يا حسنية.

ضحكت حسنية مجددًا:

- هناك اختراع اسمه السّيشوار سيحل لك الأمر وإن كنت تحبين أملّسه لكِ.

نبرت وحيدة بضيق:

- لا وقت عندي للسّيشوار، ولا أحبّ معالجة شعري بمواد ضارة.

قالت حسنية بجدية:

- ضعي باروكة إذن، موضتها هذه الأيام، وتستطيعين اختيار الموديل واللون الذي تريدينه.

لم تعلّق وحيدة، وضعت النّقود على الطّاولة وغادرت الصّالون غاضبة.

"من قال إنّ النّساء يتقنّ الأعمال الخاصة بهنّ لا يفهم، الواقع أنّ الرّجال أثبتوا أنّهم أكثر مهارة حتّى في مجال الطّبخ". همست وحيدة وهي تتأمل تسريحتها للمرّة المئة في المرآة.

غادرت وحيدة الحيرانة في بداية التّسعينيات وسكنت مع ابنها في العاصمة، وقيل إنّها وجدت عملًا في مكتبة الأسد. لم ينسها سكّان الحيرانة فقد كان تأثيرها عميقًا في النّاس خاصة التّلاميذ الذين مروا بمدرستها وإن لم تعلّمهم.

* * *

فضّة العرموطية

ارتبطت علاقة فضة ببيروت بنبوءتها عن الحرب التي نُشرت في أكبر الصّحف اللبنانية قبيل الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان عام 1978، أثارت النّبوءة ضجة بما صحبها من قراءة واعية لمصائر نواب وشخصيات سياسية من خلال أبراجهم!

تنافست الصّحف في تقديم العروض لفضة لتكتب الأبراج فيها بشكلٍ دائم، كما تنافست محطات التّلفزة والإذاعة على استضافتها لتكشف ما استتر وراء الغيب.

الإيمان بقدرات فضّة جعل مكانتها في الأوساط السّياسية تتعمّق حدَّ مشاركتها الفعلية في الكثير من الأحداث ودعوتها لحضور أنشطة ومؤتمرات. وكانت المرّة الأولى التي تزور فيها باريس بدعوة رسمية من شخصية مقربة من الرّئيس أراد الاجتماع بها لتقرأ له المستقبل.

كانت حواس فضّة تُستنفر بقوة لتلتقط أنفاس وحركات وسكنات الشّخصيات التي تلتقي بها لتبني عليها النّبوءة، بالإضافة إلى تقرير شامل يصلها عن كلّ دقائق حياة الشّخص وأسراره وخفاياه.

أدركت فضة منذ بداية عملها في مجال التّنجيم أنّها تحتاج مخبرين سريين وعلاقات عامة واسعة لإتمام عملها بشكل يقنع الآخرين بقدراتها الخارقة.

بعد عودتها من باريس دُعيت إلى حفل يضم نخبة من الضّباط ورجال المخابرات ومقربين من القصر الجمهوري.. كانت هي نجمة الحفل، تناولتها ألسنة النّساء بحذر وريبة.

الهمسات المتصاعدة من أفواه النّساء والنّظرات المختلسة لم تضايق فضّة، قبل أن تأتي إلى الحفل كانت تدرك أنّها ستثير زوبعة من التّعليقات والانتقادات والآراء المتناقضة بشأن هيئتها الجديدة.. شهقت إحدى السّيدات:

- أصبحت تشبه دوريس داي، من أين لها كلّ هذا الجمال!

علّقت أخرى ضاحكة:

- رحم الله أيام "يا مدقدق بن عمي(1)"، نعم تشبه دوريس بس شقار على سمار!

شدّت ناهدة يد وهيبة، وسألتها هامسة:

- شغلك؟

ردّت وهيبة:

- لا، عملت ليزر في باريس، بس ما توقعت تكون النّتيجة جيدة بهذا الشّكل.

في زمنٍ ما كان الوشم الذي يزيّن ذقنها يفضح انتماءها للنَّوَر ويحدُّ من اندماجها في المجتمع الرّاقي.. العيون تغمز والسّيدات ينظرن إليها بترفع ويعاملنها بفوقية.. حملت وشمها لعنة حتّى بعد انتشار موضة "التاتو" التي غزت أجساد الصّبايا، فشكل الوشم ومكانه يُظهر بشكلٍ صارخ ما تريد فضة إخفاءه منذ الثّمانينيات عندما سكنت العاصمة.

هي نفسها لم تتوقع هذه النّتيجة المبهرة التي حصلت عليها على يد أشهر طبيب تجميل في باريس، لم تعد بحاجة لطبقات البودرة السّميكة التي تضعها فوق المكياج اللبني اللون لتغطي عيوب بشرتها... صار لون العينين الذي أثار استغراب كلّ من عرفها في الماضي منسجمًا الآن مع شكل وجهها ولون بشرتها.

كان سمارها فاحشًا - كما وصفه بدر يومًا ما وهو يتأملها لأوّل مرّة - لون غير مرغوب ولا يناسب ذوق رجالِ مدينةٍ تتمتّع نساؤها بالأجساد البيضاء الممتلئة والشّعر الأشقر والعيون الملونة.

سألها منصور مرّة:

(1) إشارة إلى أغنية لسميرة توفيق كانت تغنيها فضّة في الأعراس.

- من أين لكِ هاتان العينان، لم أرَ في حياتي امرأة سمراء بعينين خضراوين واسعتين بهذا الشّكل المخيف!

كانتا مخيفتين في وجهها النّحيل وذقنها الرّفيعة الموشومة. الآن أصبحتا فاتنتين في وجه حنطي خمري مدور تزيد تسريحة الشّعر المرتفعة وامتلاء الخدين والشّفتين من جماله.

نبوءات القرن الحادي والعشرين

(قد تأتي النّبوءة بريح الهلاك لذا؛ قرّرتُ ألا أظهر على أيّ شاشة هذا العام فأنا حزينة جدًا ومكتئبة وسيكون من الصّعب عليّ أن أبشّر بشيء، فما سيحدث قبل مطلع القرن بأشهر كارثة حقيقية ستغيّر وجه الشّرق الأوسط برمته).

هذا ما صرّحت به فضة لأحد الصّحفيين رافضة أن تضيف أيّ شيء. لكنّ تسريبًا خطيرًا ظهر في إحدى الصّحف المغمورة يدّعي كاتبه أنّه يعرف "النّجمة المنجِّمة فضّة" معرفة شخصية، وقد باحت له في سهرة خاصة بالسرّ الذي تخفيه عن الكارثة المحتملة، وهي موت زعيم عربي كبير في الصّيف القادم. وسيكون لذلك الحدث تأثير سلبي على السّياسة الدّاخلية للدولة؛ لأنّ خلفه سيكون شابًا ناقص الخبرة لا يملك الحنكة والمقدرة على قيادة الدّولة، بل سيقوده مجموعة عجائز من النّظام السّابق وسيكون لعبة في أيديهم.

نفدت أعداد الجريدة بسرعة الرّيح وانتقلت فجأة لتصبح في مصاف الجرائد الكبرى ولتغزو واجهات محلات بيع الصّحف والمكتبات ولتتصدر طاولات المطاعم والفنادق والمقاهي وعيادات الأطباء. فقد وعد الصّحفي الذي نشر الخبر أن يتابع سلسلة كشف الحقائق المخفية التي آثرت نجمة الصّحف الكبرى "فضة" أن تخفيها عن متابعيها وأوّلها تأكيد خبر مرض الزّعيم بسرطان الدّم. العدد

الجديد خرج في اليوم التّالي يحمل صورة الزّعيم! ما اضطر المخابرات إلى سحب العدد من السّوق وإتلافه. مع هذا بيع منه أعداد كبيرة كافية لانتشار الأخبار بين النّاس.

استُدعيت فضّة بعد يومين إلى مقر الأمن السّياسي، وحقّق معها العميد في جلسة سريّة، خرجت بعد ساعات برفقة مرافقه الخاص، ركبت سيارته وتوجهت إلى جهة مجهولة.

خلال مدّة غيابها توقف قلب وهيبة لثوانٍ عن العمل ونقلت في حالة إسعاف إلى مستشفى الشّامي. ولم يغادرها الخوف وتنهض من سريرها، حتّى سمعت بعودة فضّة.

انتشرت شائعات كثيرة حول اختفاء فضّة، أو اعتقالها، لكنّها ظهرت بعد أيام على الشّاشة الرّسمية في برنامج خاص ارتُجل على عجل باسم "لقاء النّجوم" لتحكي قصة علاقتها بالأبراج والنّجوم، وتؤكد مقولة "كذب المنجمون ولو صدقوا" وتنفي معرفتها بالصّحفي اللبناني "الكّذاب" الذي أراد أن يصبح مشهورًا "على أكتافها!". ثمّ دعت للزعيم بطول العمر، وأكّدت على فكرة الأبدية، لكنّها مرّرت أثناء حديثها تفسيرًا للأبدية يرتبط بالذرية الصّالحة التي ستحكم سوريا لأجيال غير محدودة. فأبدية القائد مرتبطة في بقاء نسله في الحكم.

ربّما وفّقت فضة في طرحها للفكرة التي قرّبتها من الواقع الذي يعرفه المقرّبون من القصر ويدركونه جيدًا لكنّه مع ذلك أثار عليها نقمة الذين يؤلهون الزّعيم ويرفضون فكرة موته، فثارت ضدّها حملة انتقامية هاجمت سمعتها.. ما لبثت تلك الحملة أن تلاشت في العاشر من حزيران حين أُعلن رسميًا عن موت الأبدية!

* * *

ناهدة الآغا

في أوائل الثّمانينيات مات حكمت آغا، كانت ليلة عاصفة من ليالي شباط القاسية، تراكم الثّلج في المساء مع العتمة الشّفيفة.. نور المصابيح في الشّارع يتسلّل عبر النّدى الثّلجي الكثيف ويكشف جزءًا من أشجار الحديقة التي تحجب العابرين عنها. تراجعت ناهدة عن النّافذة وأسدلت السّتائر، واندست في الفراش. منذ زمن تحوّلت علاقتها بحكمت إلى روتين يفتقد الرّوح والحركة، وصار كلّ ما بينهما اعتياديًا ومملًا.. دفعها البرد للالتصاق به أكثر.. حين أغمضت عينيها شعرت بشيء من الحميمية خلقته الذّكريات القديمة للقاءاتهما الحارّة في حديقة المدرسة وعلى الطّريق الجبلي وفي السّيارة، تلك المرّات التي كانت صاعقة الحبّ تكهرب قلبها وتشعله فيحرق كلّ ما حوله. التصقت به أكثر، شعرت أنّه استجاب لمداعبتها، لم تفتح عينيها، أرادت أن تراه في الثّلاثينات من عمره وأرادت أن ترى نفسها في العشرين، كأوّل مرّة رأته فيها عندما دخلت غرفة الصّحة المدرسية وكان هناك مسترخيًا في المقعد الجلدي العريض يرشف قهوته على مهل ودخان سيجارته يمنح وجهه ذلك السّحر الأخاذ.. رائحة العطر عبقت في الغرفة وطغت على رائحة المعقمات التي حرصت المستخدمة "فطينة" على مسح أدوات الغرفة وسطح المكتب بها كلّ صباح.

مدّت يدها إلى الدّرج، أخرجت علبة السّجائر، أشعلت واحدة، أخذت نفسًا عميقًا، نفخته في فضاء الغرفة الدّافئ، وتركت السّيجارة في المنفضة تواصل احتراقها وعادت لتلتصق به. بعد منتصف الليل تسرب البرد إلى جسدها، شدّت الغطاء فوقها، وغطّت رأسها لكنّ البرد أصبح أشدّ، لم تفلح أنفاسها في بث الدّفء في الفراش. استدارت نحوه، تحسست يده، توقف قلبها عن الخفقان، لم تشكّ للحظة أنّه فارق الحياة، مع هذا هزّته بعنف وهي تصرخ كي يصحو، لم يرد.. ارتطم صراخها بالجدران وعاد الصّدى إليها بإيقاع النّحيب البارد. تجمّدت يدها

وهي تتحسس جسده بحثًا عن شيء ينبض من دون جدوى. همست في أذنه، قبّلته، دلّكت ساقيه، جبينه، لكنّ ذلك لم يجدِ نفعًا.

تفاصيل الليلة السّوداء لم تكن مثل سواها، وبقيت لسنوات ترتجف من قسوة بردها كلّما جاء الشّتاء وتساقطت الثّلوج.

لم تمنعها ملابس الحزن والوضع الكئيب الذي وجدت نفسها داخله من التّفكير الجدي في مستقبلها. لا تنكر أنّها أحبته لكنّها الآن حرّة، وعليها أن تستغل حريّتها بالطّريقة التي تحقّق فيها أكبر فائدة لنفسها. العيش في الحيرانة لم يعد ملائمًا لها ولا يحقّق طموحها. ستفعل ما لم يفعله هو، ستحظى بالمقعد النّيابي رغمًا عن كلّ الظّروف.

كانت أوّل سيدة تترشّح للمجلس في هذه البلدة الصّغيرة لكنّها ضمنت النّجاح بدخولها قائمة الحزب وبالدّعاية التي عملتها لنفسها قبل الانتخابات.

* * *

الجوّ العام للبلد فرض نوعًا من الحياة الرّاكدة الكسولة، لم تعد ناهدة تشعر بالإثارة، بعد انتهاء فترتها الثّانية في مجلس الشّعب.

لم يعد لديها عمل، سئمت التّسوق والنّزهات، وصار من الواجب عليها أن تنتبه لمدخولها المادي الذي بدأ بالتّراجع. حتّى زياراتها لصالونات التّجميل خضعت للتقنين، إذ لم يعد هناك في رصيدها ما يكفي لحياة البذخ التي عاشتها في السّنوات العشر الماضية. لجأت لأصدقائها القدامى طلبًا للنصيحة والمشورة كي تستطيع تأمين عمل يدر عليها دخلًا يحميها من الحاجة. قال أحدهم مازحًا: "دورتان في مجلس الشّعب ولم تؤمّني عملًا مربحًا، والله أنتِ نائبة فاشلة".

ابتلعت المزحة بصعوبة، فشلها يكمن في نقطة الغباء الاقتصادي المستحكمة في عقلها. لم تفكر يومًا في كيفية تضخيم ثروتها، فكّرت فقط في كيفية صرفها،

باعت السّيارة التي منحها لها المجلس وذهبت في رحلة إلى الصّين، أملاكها التي ورثتها عن حكمت باعتها واشترت منزلًا متواضعًا في العاصمة. كُثر يظنّون أنّها ثرية والمال يجري بين يديها. لا أحد يصدّق أنّها تطبق المثل القائل "اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب".

الصّديق الذي ألقى النّكتة سألها جادًا:

- لماذا لا تعودين إلى الحيرانة وتعملين هناك مشروعًا تجاريًا، مطعم مثلًا، المطاعم في المناطق الجبلية تدر ربحًا كبيرًا.

دهشت ناهدة، الحيرانة! نسيت هذا الاسم منذ زمن بعيد، لم يعد يربطها بتلك البلدة شيء، تريد البقاء في العاصمة. أخبرها أنّه سيسعى لدى صديق له كي يشاركها في فتح محل ألبسة جاهزة، تسهم بجزء من المال وتدير المحل.

لم تكن الفكرة سيئة نظرًا للوضع الذي تعيشه، كانت تدرك أنّ جمالها لم يعد يعوّل عليه في جذب أصدقاء يدعمونها ماديًا. خطر "أبو فراس" ببالها، شعرت بالنّدم، لماذا قطعت صلتها به؟

تحمّست لفكرة الاتّصال والسّؤال عنه. حين سمع صوتها ضحك طويلًا:

- لم أظن أنّي سأسمع صوتك ثانية، كيف خطرنا على بالك في زحمة العلاقات والصّداقات الجديدة في العاصمة؟

- اللي ما له قديم ما له جديد.

ضحك أبو فراس ثانية، أدرك أنّ ناهدة تريده في أمر وتنتظر الفرصة لمصارحته، سبقها:

- أي ستي.. بماذا أخدمك؟

- أبحث عن عمل.

صدمته العبارة، ناهدة تبحث عن عمل! ماذا حدث للكون؟ انتبه فجأة، العمر يمرّ، لا شكّ أنّ ناهدة لم تعد كما كانت، صحيح أن طموحاتها كبيرة لكنّها أيضًا لا

تتقن انتهاز الفرص بشكل جيد، كلّما جاءتها فرصة تتركها وتركض وراء طموح أكبر. ملاحقتها لأحلام أكبر منها ضيّعت عليها تكوين ثروة تعينها على مواجهة الأيام.

- إن كنت تريدين العودة إلى الحيرانة، تكرمي من عيوني، سأشاركك شخصيًا في مشروع.. إن كنت ستبقين في دمشق سأعطيك توصية لصديق تستطيعين الاعتماد عليه كليًا في أيّ مشروع ستعملينه.

لم تعرف ناهدة كيف تعبّر عن امتنانها لأبي فراس وكيف تشكره.. في المقابل كان هو يتذكّر أيامها، حرارتها، ملمس بشرتها، لقاءاتهما العابرة في شاليه على البحر.. تنهّد بعمق وقال: "أيام!".

هي أيام مرّت وفي يقينه أنها لن تعود، فلم يعد شابًا ولم تعد ناهدة كذلك!

* * *

لم تتوقع ناهدة أن يكون الشخص الذي توسط لديه أبو فراس ليشاركها في مشروعها هو مفتي الدّولة الشّيخ جهاد السّارح! ليست المرّة الأولى التي تلتقي فيها بالشّيخ جهاد فقد جمعهما مجلس الشّعب قبل الآن، لكنّها المرّة الأولى التي تقابله فيها على انفراد وفي مكان عام.

لاحظت اهتمام النّادل بشخص الشّيخ وانتقاءه طاولة خاصة في زاوية من المطعم أحيطت بشبك عرّشت عليه أزهار المجنونة وزهر الياسمين الأصفر والأبيض بطريقة تمنع رواد المقهى من رؤية الجالسين خلفها.

بدأ الشّيخ الحديث:

- قال لي أبو فراس إنّك تبحثين عن عمل، ما رأيك لو تغيّرين فكرتك عن نوع العمل وتسافرين معي إلى حلب. سأعرّفك إلى سيدات المجتمع الحلبي الرّاقي، ستقومين بزيارتهن والتّعرف إليهن عن قرب، المهمة ليست صعبة وممتعة في آن. بإمكانك أن تعتذري فهو مجرد

اقتراح. أرى أنّك أكثر السّيدات اللواتي يصلحن لهذا الأمر لما تتمتعين به من حضور ولباقة وأناقة، وأيضًا تاريخك السّياسي داعم حقيقي لمكانتك. فكري في الأمر واتصلي بي.

أنهى الشّيخ جهاد الحوار وشرب ما تبقى من فنجان قهوته على عجل في اللحظة التي رنّ هاتفه وردّ باختصار أنّه قادم!

غادرت ناهدة المقهى بعده، لم تكن على عجلة من أمرها، شربت قهوتها، دخّنت عدّة سجائر، وفكّرت على مهلها.. تليق بها هذه المهمة، مع أنّها لم تتعوّد أن تعمل مع أشخاص أصغر منها سنًا، لكن يبدو أنّ للعمامة حضورًا مهيبًا يضفي على الشّيخ جهاد عمرًا إضافيًا فيبدو من جيلها، أو هكذا تهيّأ لها!

في حلب وجدت ناهدة بيئة مناسبة لمزاجها، السّهرات والحفلات والسّيدات الثّريات اللواتي يدخّن النرجيلة ويرتدين أفخم الثّياب والمجوهرات.

بدت فقيرة بينهنّ لكنّها دارت الأمر بتصريحاتها المستمرة لكراهيتها للذهب وتفضيلها الفضة المعدن الحميم القريب من القلب، تزيّنه بحجر الفيروز الذي يمنع الحسد ويصدّ العين الشّريرة.

لم تطل إقامتها في حلب سوى سبعة أشهر، مع بداية الصّيف اتصل بها الشّيخ جهاد وطلب منها العودة إلى دمشق لأمر مهم.

التّرتيبات التي اتّخذها الشّيخ لإقامة ناهدة في شقة فخمة بشارع النّيل والعلاقات التي أقامتها تلك الفترة مع زوجات تجار وصناعيين جعلتها تفكّر برفض العودة والبقاء في حلب.

في حلب شعرت أنّها تعيش الحياة التي تستحقها، كلّ يوم تُدعى إلى غداء أو سهرة أو عرس ومناسبات كثيرة لا تتوقف السّيدات عن اختراعها إن لم يجدنها. أحسّت بطعم الحياة طازجًا وحارًّا وغارقًا بكلّ ما تشتهيه النّفس من الطّبخات الحلبية الشّهية والطّرب الحلبي الأصيل.

ذكرياتها عن أوّل حفلة حضرتها في بيت أنيق بحي المحافظة لا تنمحي، طعمها كطبق مأمونية بالقشطة لا يُنسى.. البيت متاهة بالنّسبة لناهدة، حديقة فخمة تحيط به، درج حجري أنيق اصطفت على جانبيه أشجار الجاردينيا، البهو باتساعه يوحي برحابة المكان وثراء أصحابه. غرفة الضيوف غصّت بالتّحف، فوجئت ناهدة بشكلها الدّائري والطّريقة التي فُرشت بها، السّتائر المخملية بلون أزرق شامي فوقها طبقة شيفون مُذهبة، حلفت صاحبة البيت عليها لتجلس في صدر الغرفة على "الكنبة" المدورة، حاذرت وهي تخطو فوق الأرضية المرمر من اصطدام كعب حذائها بالفواصل النّحاسية، تهيّأ لها أنّ الكعب سيعلق وسيختل توازنها وتقع أرضًا وتصبح مادة لسخرية السّيدات! جلست على الكنبة وتنفّست الصّعداء، مرّرت أصابعها على المسامير اللامعة المغروسة في مخمل الكنبة. تأملت الطّاولات المصنوعة من المرمر، ضبطتها صاحبة البيت وهي تطيل النّظر للشمعدان المعتق بالكريستال، قالت بود:

- مقدم، والله لتاخديه.

أرادت تبرئة نفسها:

- لا والله، صحيح أعجبني شكله لكن بالتّأكيد موجود منه في التّلل في محلات البادنجكي.

ضحكت صاحبة البيت ضحكة قصيرة ودودة:

- لا، أنا لا أشتري أشيائي من حلب، كلّ ما ترينه إيطالي، مرمر الأرضية، الطّاولات والتّحف والسّتائر كلّه موصى عليه من إيطاليا.

أرادت ناهدة أن تعلّم على محدثتها، قاطعتها:

- حتّى السّجادة؟

ابتسمت الخانم قائلة:

- لا، السّجادة إيرانية أثرية اشتريتها من استنبول من سوق محمود باشا بمبلغ خيالي. لكنّها تستحق.

صمتت ناهدة وأنقذها دخول بعض السّيدات من متابعة الحديث، عبق الجوّ بروائح عطر شانيل وكاشيرل، وازدحمت الغرفة بالسّيدات اللواتي يرتدين قمصان الحرير وجاكيتات "مارسيليزيه" وتنورات الجريب وكولونات الفوال، وأهم من كلّ هذا الأحذية السّوداء المصنوعة من المخمل، عرفت مباشرة أنّها صناعة "فامينا" ولن تستطيع إحداهن أن تقنعها أنّها أيضًا أوصت عليها من إيطاليا! لكن بإمكانهن أن يدعين ما شئن بخصوص الخواتم والأساور الألماس والبروشات التي تزيّن ملابسهن. حتّى طقم فناجين القهوة يمكن أن تدّعي صاحبة المنزل أنّها أوصت عليه من الصّين؛ خزف أصلي معشّق بالفضة! وكؤوس الماء الكريستال من فرنسا! إنّها باختصار في عالم خيالي من ألف ليلة وليلة.

طلب العودة إلى دمشق كان بالنّسبة لناهدة إقصاءً صريحًا عن الجنّة.

* * *

التّشيّع في الحيرانة

لم يخطر ببال ناهدة أن تعود يومًا إلى الحيرانة، فمنذ رحيلها عنها في بداية الثّمانينيات لم تزرها إلا مرّة في حملتها الانتخابية لعضوية مجلس الشّعب. تعرف أنّ الناس هنا معجبون بها ويمكنها أن تكسب مودتهم بسهولة.. لكنّها تعودت على جوّ العاصمة والمدن الكبرى.

هنا لا يوجد ملاهٍ، والمطاعم القليلة المتناثرة في قمة الجبل تُمنع فيها المشروبات الكحولية ومعظم روادها من العائلات.

القدم الغريبة قليلة، وظهور رجل بصحبة امرأة غريبة فضيحة. وهي تعودت على السّفور ومصاحبة الرّجال وصار من الصّعب عليها أن تضع وشاحًا رقيقًا على رأسها فكيف بالحجاب!

لكنّها الأوامر ثانية، وهذه المرّة جاءتها الأوامر بشكل غامض وسري بطريقة ملتبسة لم تفهم منها المطلوب. قالوا لها فقط أن ترتدي العباءة السّوداء وتضع حجابًا على طريقة نساء الشّيعة في العراق. لم يرقها الأمر، مع هذا كان عليها أن تستقبل نساء وافدات من خارج المدينة في بيتها الذي استأجره لها شخص ما عن طريق شيخ الجبل!

الشّيء الوحيد المريح في عودتها إلى الحيرانة هو موقع البيت المنعزل على الطّرف الجنوبي للجبل، إطلالته السّاحرة على السّهول الخضراء، وأثاثه الفخم.

أوّل الممنوعات الحديث في السّياسة، والاكتفاء بإظهار التّدين والرجوع إلى الله والتّشكيك بالثّوابت التي آمن بها النّاس.

لاقت صعوبة في البداية بإقناع السّيدات في البلدة بمظهرها الجديد، لكن حلقات الدّروس الدّينية التي استضافتها مع تكرار وجودها في مجالس العزاء واستغلال الفرصة لقول كلمة بعد التّعزية، وإنشاد بعض الأوراد جعل الأبواب تفتح لها على مصاريعها، وصارت الدّعوات تأتيها لحضور المناسبات في بيوت البلدة على اختلاف مستوياتها، وسواء كانت المناسبة سعيدة أم حزينة تلقي ناهدة كلمة وتنشد بعض الأغاني الدّينية على إيقاع أغانٍ معروفة. خاصة وأنّ الفتيات كنّ يرقصن في الأعراس على لحن أغنية "صيدلي يا صيدلي" فاستبدلتها بكلمات عن الحبيب المصطفى! ساعدها في مهمتها أنّ البسطاء هنا يحبّون الإمام علي ومؤمنون بمظلومية الحسين ويطلقون اسميهما على أولادهم.

* * *

سمعت ناهدة نحيب "أم كريم" عبر الهاتف، تلعثمت قليلًا قبل أن تقوم بواجب العزاء وأغلقت الخط. تنفست الصّعداء، فهي لا تحبّ القيام بمثل هذا

الواجب الثّقيل لكنّها الأوامر، لماذا يريدها أن تفعل ذلك؟ هي لم تلتقِ أم كريم سوى مرّات قليلة، إحداها منذ سنوات طويلة حين أصرّ المرحوم على دعوتها مع نخبة من أعضاء المجلس إلى منزله في بيت ياشوط.

تذكر يومها كيف لمست أصابعها شعر "كريم الصّغير" وهي تسأله عن اسمه وفوجئت بأنّه يحمل اسم أبيه، ضحكت وقالت لأمّه "إلى هذه الدّرجة تحبين كريم!". ردّت أم كريم بابتسامة واسعة "لا أريد أن يفارقني لحظة واحدة".

لا تنكر أنّه كان ودودًا ومضيافًا وأنّهم قضوا يومًا جميلًا بصحبته، كان متحدثًا لبقًا في السّياسة ومرهفًا حين يتحدّث في الشّعر، دبلوماسيًا في تصرفاته. أعجبت ناهدة بآرائه في ذلك الوقت واعتقدت أنّه يصلح للسياسة.

هذا ما قالته لشيخ الجبل حين التقيا وطلب منها تقريرًا مفصلًا عن الزّيارة. أرادت أن تلمّح إلى شيء أقلقها وهو مراقبة شخصية تعتبر مساندة للنظام السّوري منذ استلام حافظ الأسد للحكم، وهو على حدّ معلوماتها أوّل شخص ألّف كتابًا عن الرّئيس في بداية حكمه، أتبعه بالعديد من الكتب ولا تجد مبررًا لمراقبته وإحصاء خطواته.

وضعت يدها على قلبها لتهدّئ نبضاته السّريعة. أيعقل أن يكون لشيخ الجبل يدٌ في مقتله؟

من المؤكد أنّ ما جرى لم يكن حادث سير كما أشيع، هي على يقين أنّ العمل مدبر، أم كريم تؤكد أنّه فقد السّيطرة على السّيارة ولم يستطع إيقافها، تهيّأ لها في اللحظات التي سبقت فقدانها للوعي أنّ العجلات طارت من مكانها، وأنّ السّيارة اصطدمت بشيء ما. قيل لها إنّها الفرامل!

كان في الدّقائق القليلة السّابقة يُحدّثها عن أحلامه الكبيرة وعن المستقبل وعن... لم يعرف أنّ بينه وبين الموت لحظات فقط.. لم يدرك ولا بحدسه أنّ الثّواني القادمة ستحمله بعيدًا حيث أرادوا له أن يكون.

هي أيضًا كانت تمتلك الحماس ذاته، لم تفكّر أنّ دخوله إدلب واستقطابه لعدد كبير من مثقفيها لينضموا إلى حزبه سيكون بمثابة النّقطة التي فاضت بها الكأس. جولاته في الصقيلبية والسّويداء ومحاولاته استقطاب أطياف المجتمع السّوري طوائف وأديان في كفة ودخوله عش الدّبابير في إدلب في كفة!

عليها أن تتصل بشيخ الجبل، تردّدت في سؤاله، الأفضل أن تلتزم الصّمت فيما يخصُّ استنتاجاتها الخاصة بشأن الحادث:

- أم كريم كانت طبيعية، وذكرت أنّه مجرد حادث، قضاء وقدر.
- أعرف أنّها لن تبوح لكِ بأسرار، علاقتك بها ليست بالعمق الكافي لتتحدّث بثقة، ستقومين بزيارتها في منزلها لتقديم واجب العزاء.. ستقضين اليوم كاملًا هناك، إن لم تتحدّث هي، ستتحدث النّساء المجتمعات في العزاء، أريد صورة دقيقة عما يجري.

قالت بانفعال:

- أنت قلت علاقتي بها ليست عميقة، ولن يكون هناك مبرر للزيارة.
- ستعرفين كيف تقومين بواجبك، ثمّ لا تنسي أنّ المرحوم دعاكِ للانتساب إلى حزبه وأنتِ طلبت مهلة للتفكير.. يعني أمامك الآن فرصة للتعبير عن رأيك بصراحة وكسب ثقة النّساء هناك.

لم ترتح ناهدة للزيارة، لكنّها الأوامر. هي المرّة الثانية التي تسلك فيها هذا الطّريق الذي أطلق عليه أحد أصدقائها في مجلس الشّعب "طريق الأمنيات" أوتوستراد واسع ومريح في القيادة يُشعر المرء أنّه خارج سوريا.. يزيل التّوتر والقلق اللذين يلازمانها حين تقود سيارتها في شوارع العاصمة أو حلب.

تذكر أنّها مزحت مع كريم حين كان يقود سيارته بسرعة كبيرة على الطّريق الجبلي بأنّه يجب أن يهدّئ السّرعة فقال لها "إنّنا في طريق الأمان، هذا الطّريق شُقّ بالرّصاص". حين أبدت استغرابها أخبرها أنّ سكّان القرى استغلوا أحداث

الإخوان المسلمين وصاروا يطلقون الرّصاص عشوائيًا ويدّعون أنّ الإرهابيين يفعلون ذلك، فشقّت الدّولة لهم هذا الطّريق الآمن للوصول إلى قراهم!

ضحكت وقتها وكأنّه قال طرفة.

تفكّر في الطّرفة الآن وهي تقود سيارتها على الطّريق الآمن!

النّظام بإمكانه سحب هذا الأمان في أيّ لحظة، حين شعروا أنّهم فقدوا السّيطرة على كريم اغتالوه، هي على يقين من ذلك، الحادث مدبر وإلاّ لماذا يريد شيخ الجبل معرفة رأي زوجة المرحوم بالحادث إن كان قضاء وقدرًا؟

* * *

حسنية الحلاّقة

قالت صفية بمرح وهي تراقب العمال يعلّقون اليافطة على باب الصّالون "حسنية الحلاقة.. قص ولف – اختصاص تجميل عرائس":

- الآن صار اسمك على مسمى.

ابتسمت حسنية:

- ما زلت خائفة من التّجربة، صحيح عملت دورة في الاتحاد النّسائي، وداومت شهرين في أحسن صالون بالمحافظة، بس الصّراحة ما عندي ثقة بمهارتي.

- التّجريب أصل العلم، بكرة بتشوفي سمعتك لوين رح توصل.

لم يخب فأل صفية، خلال أشهر قليلة طار صيت حسنية بين القرى القريبة والبعيدة وصار صالونها الأشهر في المنطقة واحتاجت فتيات متدربات يساعدنها في العمل. بل لم تعد أيّ عروس في المنطقة تسافر إلى المحافظة لعمل تسريحة ليلة الزّفاف، فقد برعت حسنية في ذلك العمل وصار مرهقًا لها، فلم تعد تجد وقتًا للراحة سوى ساعات قليلة في الليل.

كانت حسنية خائفة من العرض الذي جاءها من زوجة مدير المنطقة، المبلغ الذي تعرضه كبير جدًا على العمل الذي ستقوم به. لكن هي لم تعمل في البيوت من قبل، وسيتطلب منها الأمر نقل العدة. الأمر مربك، لكنّ زوجة مدير المنطقة شجّعتها بالتّلميح إلى الخطيب ابن العميد!

وافقت حسنية على مضض فقد فتحت بابًا لن تستطيع إغلاقه، وستحذو بنات العائلات حذو زوجة المدير وسيطلبنها إلى بيوتهن لعمل تسريحة الزّفاف كي لا يظهرن في الشّارع وشعرهنّ يعلو رؤوسهن بشكل غريب تحت منديل قد يفسد التّسريحة ريثما يصلن إلى البيت.

ابنة مدير المنطقة كانت جاهزة بالثّوب قبل التّسريحة، وكلّما تحرّكت حسنية كانت تحذّرها من لمس ثوبها كي لا يتسخ.

احمرّ وجه حسنية غيظًا وقالت بأدب:

- كان من الأفضل أن ترتدي الثّوب بعد الانتهاء من عمل التّسريحة.

ردّت أمّها:

- الثّوب ضيّق وسيفسد التّسريحة لذا؛ طلبت منك المجيء إلى البيت فمن الصّعب أن تخرج بثوب زفافها وتركب السّيارة وتعود.

أكملت حسنية عملها بصمت وحذر وضيق. وحين انتهت أخذت أجرها وخرجت من دون أن تبارك للعروس وعاهدت نفسها أن لا تتورط بمثل هذا العمل ثانية.

لكنّها لم تستطع أن تفي بالعهد الذي قطعته على نفسها، فقد جاءتها الأوامر العليا بأن تستمرّ في هذا العمل بالتّحديد وأن تكون متعاونة وودودة مع أهل العريس والعروس!

* * *

تعلّمت حسنية الدّرس جيدًا بعد ما حدث لابنها في الثّمانينيات، يومها اتّصل بها العميد في وقت مبكر.

نفضت بقايا النّوم وبلعت ريقها حين سمعت صوته في الهاتف.. كانت تنصت وهي ترتجف، العميد غاضب وهذا فأل سيئ. حاولت أن تستوعب سبب غضبه الحقيقي من مجمل الكلام الذي قاله بصوت عال لكنّها فشلت. قالت برجاء:

- سيادتك لم تحدد لي بالضّبط ما الذي عليّ فعله، أنا أقوم بواجبي على أكمل وجه.

انتبهت حسنية إلى اسم زكّور في الحديث:

- أرسلي في طلبه وتفاهمي معه كي لا أضطر لاستدعائه والتّفاهم معه شخصيًا.

وأغلق الخط.

زكّور! ما الذي فعله؟

كادت حسنية تفقد أعصابها ولم تحتمل تسويف زكّور وعدم حضوره إلى الحيرانة. سافرت إلى حلب، لكنّها لم تجده في المدينة الجامعية، انتظرته طيلة النّهار من دون جدوى، بعض أصدقائه تبرعوا بالسّؤال عنه في الكلية والأماكن التي يوجد فيها...

كانت السّاعة تقترب من العاشرة مساء وقت إغلاق أبواب السّكن الجامعي وهي تنتظر في الغرفة الصّغيرة الخانقة قرب الباب، شباب يأتون ويرحلون، عجائز يُحضرن الطّعام لأولادهن ويرحلن، شابات يسألن عن أشخاص، يجلسن بضع دقائق ويذهبن وهي لا تغادر كرسيها.

جاء رجل الأمن:

- يا حجة سنغلق الأبواب خلال ربع ساعة، على ما يبدو ابنك سينام عند أصدقائه، عليكِ المغادرة.

شيئان ضغطا صدر حسنية وكادت تختنق، عدم تمكنها من رؤية ابنها وكلمة "حجة" التي تفوّه بها عديم النّظر!

بالكاد خرجت من باب الوحدة الثالثة عشرة ومشت في الطّريق المؤدي إلى كلية العلوم، رأت بضعة شباب يدخلون من الباب الرّئيس المؤدي إلى حي الشّهباء. سارت صوبهم، ففوجئ شكيب وهمس:

- خالة حسنية! ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

لم تكن بحاجة لإخباره، فقد علم قبل قدومها بالمشكلة التي وقع فيها زكّور من صبحي حين تشاجر مع رئيس مكتب الطّلبة حول الانتخابات وضربه بالمنفضة فشقّ جبينه ونقل إلى المستشفى.. ورفعت التّقارير به إلى الفرقة الحزبية بالكلية التي رفعتها بدورها للأمن السّياسي تتهمه باجتماعات مريبة مع الشّيوعيين واحتمال أن تكون عضويته في الحزب مجرد تغطية لتجسسه لصالح حزب العمل.

أخبرها أنّه ابتعد عن المدينة خوفًا من اعتقاله أو الاعتداء عليه، وأنّه يقيم مع بعض أصدقائه، وطلب منها العودة إلى البلد ووعدها أن يحضره إليها يوم الخميس بعد انتهاء دوامه.

موجة الاعتقالات التي طالت الكثير من الطّلاب المتهمين بانتسابهم إلى حزب العمل جعلت صبحي ينبّه زكّور إلى ضرورة العودة إلى الحيرانة وأرسل إلى شكيب يخبره أنّه سيسبقه.

لم تبذل حسنية جهدًا في إقناع زكّور بعدم الذّهاب إلى حلب حتى وقت الامتحانات تفاديًا للمشاكل، وشغله العميد بساعات تدريس في ثانوية البنات لمادّة علم الاجتماع السّياسي.

سحره الجوّ في مدرسة البنات، الاحتكاك مع الجنس اللطيف في هذه المرحلة العمرية كان مثيرًا ومليئًا بالمغريات، حدّ أنّه فكّر بامتهان التّدريس والتّخلي عن دراسة الحقوق.

حسنية أمسكت طرف الخيط الذي يمكنها من إبعاد ابنها عن الجوّ المشحون بالكراهية والمؤامرات في الجامعة وعرضت عليه أن تخطب له فتاة بعينها سمعت همسًا من زبائنها عن تعلّقها به وتقوّلات حول علاقة غرامية بينهما، لكنّها جوبهت بالرّفض. والد الفتاة رفض تزويجها وذهب أبعد من ذلك بمنعها من الذّهاب إلى المدرسة. ولم يمضِ أسبوع حتّى أعلن خطبتها إلى تاجر قماش حلبي وتزوجت قبل مضي الشّهر ورحلت إلى حلب!

الصّدمة لم تكن قاسية على زكّور بمقدار قسوتها على حسنية، التي اعتقدت أنّ الزّمن تغيّر وزالت الفروقات بين النّاس، ولم يعد أحد يتمسك بالحسب والنّسب وأصول العائلات. ما آلم زكّور شعور أمّه بالصّغار والخجل بسبب ماضيها الذي أصبح مادة دسمة لأحاديث النّاس من جديد.

هذا ما همست به وسيلة وهي جالسة على كرسي الحلاقة وحسنية تقص لها شعرها بينما تتحدث وسيلة عن موقف والد الفتاة المتعنت. ردّت حسنية:

- ليس وحده، كلّ أكابر البلد لا يزوجون بناتهم إلاّ لابن عائلة من طينتهم.
- ابنك ليس استثناء، لا تاخدي كتير على خاطرك، بكرة بيتجوز ست ستها.. شوفي الدّكتور سرحان خطب بنت أسعد بيك وتزوجها وحط ثقلها ذهب، ابنك أحسن منه بمئة مرّة.

قالت حسنية بحرقة:

- عمر القرش ما غطّى الشّرش[1].

اعترضت وسيلة:

- رح يغطيه، الزّمن تغيّر وإلاّ ما زوّج أسعد بيك بنته لابن معزّل مراحيض!

* * *

(1) المقصود بالمثل أنّ المال لا يغطي الأصل.

لا يمكن للبلدة كلّها أن تتسع لفرحة حسنية، اتصلت بوسيلة لتخبرها أنّ توقعاتها أصابت هذه المرّة، زكّور أخذ الشّهادة العليا، وأصبح نائبًا عامًا وتوّج إنجازاته المبهرة بخطبة ابنة وزير العدل!

ظنّت حسنية أنّ ابنة وزير العدل يجب أن تكون ابنة حسب ونسب وتفوق ابنة أسعد باشا جمالًا ومكانة.

وسيلة قامت بنشر الخبر في البلدة خلال دقائق، البعض جاء إلى صالون حسنية ليبارك والبعض يدفعه الفضول، وحسنية تغاضت عن الهمس المغرض واللمز. كانت مستعدة في تلك السّاعة أن تتصالح مع العالم أجمع، وأن تعتذر لكلّ النّاس حتّى عن ذنوب لم تقترفها. لقد أعطتها الدّنيا أكثر مما حلمت به..

حين تزوجت "قفل الباب" كي لا تهاجمها ضباع البر البشرية، امتلأت باليقين أنّ الدّنيا لا يوجد فيها عدل.. وأنّها ستبقى مظلومة طيلة حياتها.

فيما بعد برّرت كلّ شيء تقوم به بأنّه جزء من حقّها المسلوب. لم يكن "قفل الباب" مريضًا عاديًا مصابًا بشلل نصفي يجعله يمشي بطريقة غريبة ويهتز جسده كلّما وضع قدمه اليمنى على الأرض ورفع اليسرى، بل كان يعاني من بطء في ردود الأفعال أيضًا إثر إصابته الدّماغية في صغره كما أخبرتها شقيقته.

لم يكن رجلًا يُعتمد عليه، لكنّه بالمفهوم الشّعبي ستر وغطاء للمرأة، وهو أهون الشّرين!

لم تتوقع حسنية أن يستطيع "قفل الباب" مجامعتها، فقد كانت يده السّليمة تتشنج عندما تمتدّ إلى جسدها، حتّى اقترح عليها يومًا بكلماته المبعثرة أن تقوم هي بالفعل. لم تفهم حسنية مقصده مباشرة، احتاجت إلى تركيز لربط الكلمات ببعضها وفهم المطلوب كالعادة.

كلّما تذكرت تلك الليلة ينتابها الرّعب، تشرب ماء الورد وتضبط ضربات قلبها وتستغفر الله وتقرأ المعوذتين كي يهدأ جسدها. كيف حدث ذلك؟

بعد تلك الليلة لم ينهض "قفل الباب" من الفراش، اشتدّت عليه الحمى حتّى فارق الحياة بعد شهر في ليلة عاصفة لم يستطع المشيعون إيصال نعشه إلى المقبرة إلا بشق الأنفس، وطارت الحكايات حول جنازته، البعض أقسم أيمانًا أنّ قوة خارقة حملت النّعش بعد سقوطه للمرّة الأولى وأعادته إلى أكتافهم، والبعض تحدّث عن أعداد هائلة من النّاس استقبلت النّعش في المقبرة لم يتعرّفوا إلى أحد منهم، كلّهم غرباء بهيئة جليلة.. وذهب البعض بمخيلتهم بعيدًا حتّى أسبغوا على هؤلاء صفة الملائكة. بعض سكان البلدة كانوا يعتقدون بأنّ "قفل الباب" رجلٌ مبارك في حياته فكانوا يكرّمونه ويتحاشون إيذاءه. بعد وفاته ساد هذا الاعتقاد البلدة كلّها وصار الجميع يتحدّثون عن كراماته التي لا تُحصى والتي لم ينتبه لها سكّان البلدة أثناء حياته! وحدها حسنية التي لم تقتنع بكلّ تلك الخزعبلات، وحدها التي رأت "قفل الباب" عاريًا تحتها، رأت تشنجاته وارتعاشه وأحسّت بجثته الثّقيلة تصبح كومة لحم مترجرج وكأنّه لحم ذبيحة. نهضت مذعورة، سترت جسدها بثوبها، وتأملته بحذر، التّشنجات الغريبة همدت فجأة وأصدر "قفل الباب" شخيرًا هائلًا، ثمّ غاب عن الوعي.

في تلك الليلة العجيبة تلقّت حسنية بذرة زكّور في رحمها ورعتها حتّى تشكّلت طفلًا بائسًا ويتيمًا.

حسنية على استعداد الآن للإيمان بقدرات "قفل الباب" وكراماته ما دام زكّور قد حصد ثمرة تعبها وصبرها ونضالها وحيدة طيلة حياتها.

لكن الإيمان لن يذهب بها حدّ الاعتقاد بتلك الحكايات المروية عن زوجها الرّاحل والتي حولها بعض البسطاء إلى حقيقة ببناء حجرة صغيرة فوق قبره ولفّها بالقماش الأخضر دلالة قدسية القبر وصاحبه.

كانت تبتسم خفية كلّما زارت قبره ووجدت داخل الحجرة بعض الهدايا والنذور. تأخذ تلك الهدايا التي تصلح للاستعمال وتترك الباقي، وهي مقتنعة أنّ هذا الرّزق أرسله لها الله الذي لا يقطع مخلوقًا.

توقفت حسنية عن أخذ النذور وحتّى عن زيارة القبر منذ طار صيت صالونها وأصبحت ثرية. اشترت بيتًا جميلًا على طريق الجبل، وقطعت علاقتها بالماضي.

* * *

زهرية السّعد ووزير الدّفاع مخلص أبو العظام

أوّل مرة بعد مضي ذلك الزّمن تلتقي نظراتهما.. قدّم الوزير بشكل شخصي باقة الورد لزهرية.. ومدّ يده لمصافحتها..

زهرية احتفظت بيدها في جيب معطفها وأومأت لمرافقها ليتناول باقة الورد من الوزير ويضعها فوق القبر.. أعادت نظارتها السّوداء إلى وجهها بعد أن رفعتها للحظات.. حدّقت إليه بلامبالاة وثقة جعلته يضطرب وترتعش يده الممدودة باستجداء!

لم تتقدّم زهرية إلى النّصب التّذكاري، ولم تهتم بالمراسم. في داخلها كان جرح الفقد عظيمًا تفوق على كلّ الإجراءات الرّسمية التي لم تجد حرجًا في تجاهلها.

مرافق الوزير اقترب من مرافقها وهمس في أذنه:

- سيادته يدعو السّيدة لتناول الغداء في مطعم تختاره بنفسها، فهو يعرف أنّها تقيم في فندق وليس لديها معارف أو أقارب هنا.

اقترب المرافق منها وأخبرها برغبة سيادته.

رفعت زهرية رأسها وقالت باختصار:

- أخبر سيادته أنّي متعبة وأريد أن أرتاح في الفندق وسأغادر في طائرة السّاعة الرابعة إلى حلب.. قد يسعفه الحظ بلقائي في فرصة أخرى.. ربّما إن زار الحيرانة سنردّ له الجميل.

أُخبرت زهرية في برقية عاجلة أنّ زوجها قد استشهد في الحرب، قالوا لها إنّ مدافع العدو قد أصابت طائرته حين كان يقوم بمهمة سرية جنوب لبنان.. لكنّ

أحدًا لم يخبرها الحقيقة التي تعرفها جيدًا، لقد اغتيل زوجها أثناء دورة تدريبية أجبر على القيام بها في الجنوب اللبناني. شخص ما وضع عبوة ناسفة في الطّائرة، لم يجدوا جثة ولا أشلاء.. لقد وضعوا تابوتًا فارغًا في القبر تعرف ذلك جيدًا، لم يوافق الوزير على دفن الجثمان في الحيرانة بل كرّم الشّهيد بدفنه في مقبرة الشّهداء في دمشق باحتفال رسمي! لقد كان يحتفل بنصره الوهمي عليها وليس بالشّهيد.

تدرك جيدًا أنّه لا يريد أن تعرف محتويات التّابوت ولا أن تلمسه، يكفيها الاحتفال الرّسمي، يكفي إطلاق اسمه على مدرسة أو شارع لتتذكره الأجيال القادمة.. يكفي أنّه ذهب فداء للوطن.

كان قاسم السّعد من الرّجال الذين فهموا جيدًا لعبة الوطنية والمقاومة وكانت آراؤه المعلنة والمخفية تعرضه للكثير من المضايقات بالإضافة إلى خلافه الشّخصي مع وزير الدّفاع. توقعت زهرية دائمًا أن يكون نصيبه يومًا التّسريح من الجيش، أو الاعتقال بتهمة الخيانة العظمى؛ فلم تكن مخيلتها تتسع لأكثر من هذه الكارثة. أما أن يغتالوه بهذه الطّريقة فذلك ما أصاب قلبها في مقتل.

آخر ما توقعته أيضًا أن تلمح الوزير في قاعة المغادرين في المطار.. هل جاء لوداعها؟

خيبتها لم تكن كبيرة حين لم يقترب منها ولم تصدر عنه أيّ إشارة توحي بأنّه جاء لأجلها. ومع كراهيتها له في أعماقها تمنّت لو حضر لأجلها، لو التفت إليها، لو جاء وألقى التّحيّة وقتها ربّما كانت سترد، لكنّ ردّها سيكون مختلفًا هذه المرّة سيحمل الضّغينة التي رافقتها تسعة وعشرين عامًا.. سيحمل كلّ الحقد الذي حاولت التخلّص منه ولم تفلح.. وسيحمل بعض ذلك الحبّ المراهق الذي عصر قلبها وهي ابنة ثلاثة عشر عامًا حين فتحت أبواب قلبها لأوّل مرّة وخفق له.. له وحده! مخلص أبو العظام ابن بدرية الخيّاطة!

* * *

يمامة 2007

نجاح ديمة في الثّانوية العامة أخرج يمامة قليلًا من حالتها، شاركت ابنتها الاحتفال وأحضرت لها هدية وناقشتها في خيارات الدّراسة الجامعية. حين اختارت هندسة العمارة شعرت يمامة ببعض الخيبة، كانت تريدها أن تدرس الطّب وفي أسوأ الأحوال الصّيدلة، منذ طفولتها حمّلتها يمامة فوق طاقتها في الدّراسة، تذكّرها دائمًا أنّها ستصبح عجوزًا يومًا ما وستحتاج لعناية طبية وستكون هي طبيبتها وعلاجها!

عانت ديمة في مطلع صباها من تقلبات مزاج والدتها ومرضها وكآبتها. أسرّت لي يومًا أنّ أمّها ليست مريضة إنّما تستخدم المرض كوسيلة للضغط عليها كي تتفوق في دراستها وتدخل كلية الطّب، وأنّ ذلك يرهقها نفسيًا وجسديًا حتّى صارت تكره رائحة الأدوية وعيادات الأطباء وأشكالهم. وافقتُ ديمة على جزء مما قالته لكنّي لم أظهر لها ذلك بل حاولت إقناعها أنّ أمّها مريضة فعلًا وأنّها بحاجة إليها فهي ابنتها الوحيدة والقشة التي تجعلها على قيد الحياة. وهي مريضة منذ سنوات فعلًا بدليل الأدوية التي تتناولها بانتظام.

ربّما اقتنعت ديمة بكلامي لكنّ ذلك لم يؤثر على قرارها بدراسة الهندسة وعدم الرّضوخ لرغبات أمّها.. عندها فقط أيقنت أنّ ديمة نجت ولن تورثها يمامة اكتئابها وأوهامها التي تجعلها تعيش حيوات أخرى وترفض واقعها.

أوّل مرّة شعرت يمامة بذلك الشّبه الغريب حين عادت من زيارة طبيب الأسنان، كان ذلك في أصيل أيلولي بارد.. يوم وليلة لم يفارقها الألم ولم تستطع أن تغفو دقيقة. المشاكل المصاحبة للتخدير استمرت أكثر من المتوقع، أربكتها وجعلتها تعتقد أنّ الموت على بعد خطوات منها! الأكل يخرج من فمها، الماء يسيل على جانبيه، فقدت إحساسها بالطّعام ولم تعد قادرة على تناول حتّى الصّلب منه.

استيقظت صباح اليوم التّالي ولم تستطع تناول القهوة، لسعت لسانها، وسالت القهوة على ذقنها ولوثت ثيابها. طرقت بابي والدّموع في عينيها، دخلت من دون كلام، فتحت باب الشّرفة كعادتها ورفعت السّتائر، سحبت الأريكة إلى زاوية تواجه فيها نسمات البحر، ارتخى جسدها على الأريكة بعد دقائق وأغمضت عينيها، حين عدت مع صينية الفطور وجدتها نائمة، وضعت الطّعام على الطّاولة بهدوء وانسحبت إلى غرفة المكتب. سمعت صوتها:

- تعالي، لست نائمة، أحاول ولا أستطيع.

تابعت بعد جلوسي قربها:

- لن أستطيع شرب القهوة بعد اليوم، هي أيضًا فقدت القدرة على تناول الأطعمة السّائلة والسّاخنة قبل موتها بأشهر.. لقد زارتني في اليومين السّابقين.

فتحت فمي مذهولة:

- ما بكِ يمامة، رحم الله والدتك لقد مرّ زمن طويل على رحيلها.
- أنت لا تفهمين.. إنّها هنا، انظري في وجهي جيدًا.. منذ زمن طويل أتحاشى النّظر إلى وجهي في المرآة، صعقت حين رأيتها.. لم تكن أنا بل هي هالة خانم، وكأنّها تركت صورتها في المرآة قبل أن ترحل!

انهمرت دموعها غسلت ما تبقى من ملامح تخصها، حتّى أنا لمست ذلك الشّبه العجيب، والتغيّر في ملامحها، لكنّي حدّثت نفسي أنّ ملامح الإنسان تتغيّر بعد الأربعين، ولا بدّ أنّ والدة يمامة كانت تشبهها حين كانت صغيرة، الآن أصبحت في عمر والدتها حين رحلت. لكنّ الأمر تطور بسرعة عجيبة، ولم يعد مجرد شبه وهلوسة تنتاب يمامة حين ترى صورتها في المرآة.. مرّ أسبوع وهي تعاني من خدر في خدها ثمّ بدأ فمها يلتوي حين تتكلّم، خمّنت أنّ يمامة تعاني من اكتئاب جعلها تشعر بمرض غير موجود، لكنّي لم أصدّق تخميني ورافقتها إلى

عيادة طبيب أعصاب. بعد عدّة مراجعات أسقط في يده وقال إنّها ولا شكّ حالة نفسية. أقنعت يمامة بالذّهاب إلى بيروت لزيارة طبيب نفسي مشهور هناك، رفضت وقالت بحدة "هل تعتقدين أنّي مجنونة؟". شرحت لها أنّي أعرف حالتها جيدًا وأنّ زيارة الطّبيب لا تعني أبدًا أنّي ألصق بها تهمة الجنون، وكي لا تصاب بالحرج إن عرف أحد بأمرها رافقتها إلى بيروت في أوّل زيارة.

بعد متابعة أشهر عادت يمامة إلى سوريا، قليلٌ من التّحسن وكثيرٌ من الخيبة! اتصلت بي تخبرني أنّ الطّبيب أنهى جلسات العلاج وقال إنّها وحدها تملك الحل الذي لا يعني مطلقًا الاعتماد على أدوية الاكتئاب فهي لن تخرجها من الحالة التي تعاني منها ما لم يكن لديها القناعة الكاملة بضرورة الشّفاء والإقبال على الحياة. استسلمت يمامة تمامًا لحالة اليأس، كثيرًا ما تنسى تناول الدّواء، وكثيرًا ما تدخل في حالة ذهول تفقد معها الارتباط بالواقع حولها.

تفاقمت حالتها بعد ذهاب ديمة إلى الجامعة في حلب، في البداية فرضت عليها المجيء كلّ خميس لتقضي العطلة معها، صارت ديمة تتهرّب من الأمر بسبب الطّقس السيئ حينًا وضغط الدّراسة حينًا آخر، وتناقصت مرّات حضورها حتّى صارت مرّة في الشّهر. اضطرت يمامة للسفر إلى حلب كلّ خميس لزيارة ابنتها، وفي كلّ زيارة كانت تعود بحالة نفسية سيئة، وتخبرني أنّ ديمة لا تحبّها وأنّها تحاول التّهرب من لقائها بادعاءات واهية، الدّراسة والمحاضرات!

تطورت حال يمامة إلى الاعتقاد أنّ ديمة تحاول التّخلص منها وتريد موتها.. كانت تهمس في أذني مع أنّنا وحدنا في المنزل "تريد موتي". صرت أخاف بشكل جدي أن يتحول ظنُّ يمامة إلى يقين تفقد فيه السّيطرة على أعصابها وتتهوّر باقتراف فعل جنوني، شدّدت رقابتي عليها خشية أن تنتحر! سمعت عباراتها اليقينية بأنّ العالم لم يعد يستحق أن يُعاش فيه!

* * *

فتحت فائزة الباب وهي تصرخ بعصبية:

- فهمنا، انتظر قليلًا، الدّنيا ما طارت.

نظرت إليه بدهشة وتجمّدت أصابعها على مقبض الباب، قال مبتسمًا:

- مفاجأة، أليس كذلك، من كنتِ تتوقعين حتى وصل صوت صراخك إلى بيت الجيران؟

خرجت من حالة الذهول، لم تفكر أو نسيت تمامًا موقفها الحاسم منه:

- صاحب البيت، اليوم أوّل الشهر، يأتي ليأخذ الأجرة.

- افسحي الطّريق، هل ستتركينني واقفًا هكذا كالشّحاذ أمام الباب؟

ابتعدت من دون رغبة، دخل وأغلق الباب وسار إلى الصّالة، اتّخذ مقعده على الأريكة في الصّدر، خلع حذاءه وتمدّد، وطلب منها كأس شاي قبل الطّعام!

هرعت إلى المطبخ، أشعلت الغاز والدّم يغلي في عروقها.. وضعت الأبريق على النّار، وأخرجت طقم الفناجين الأكروبال، وضعت الفنجان المزيّن بالورد الجوري.. الفنجان الذي طالما أحبّ منظر الشّاي داخله. توقفت قليلًا، ما الذي تفعله؟ هل حقًّا تصنع الشّاي له؟ هل استقبلته في بيتها؟ كيف يحدث ذلك؟ ألم يطلّقها منذ سنوات قبل سفره؟ كيف تسمح له بالدّخول وكأنّه غادر البارحة؟ أعادت الفنجان إلى مكانه، أطفأت موقد الغاز. عادت إلى الصّالة وجلست على كرسي خشبي قرب الباب، تنحنحت، نظر إليها:

- أين الشّاي؟ ثمّ أنا جائع ماذا طبختِ اليوم؟

قالت بمرارة:

- الطّبخة نفسها التي كانت على النّار عندما غادرت المنزل منذ خمس سنوات.

ضحك ضحكة مجلجلة، انتفض جسدها غضبًا على إثرها، أرادت أن تتماسك وتطرده، لكنّ صوتها اختفى، قال:

- انهضي وأحضري الشّاي كفاكِ قلّة عقل.

أرادت أن تسخر منه، أن تفرغ شحنة الغضب المتراكم في روحها خلال خمس سنوات من الغياب، لكنّها ببساطة لم تجرؤ. لبّى جسدها الأوامر من دون اعتراض، أحضرت الشّاي، ووضعت القدر على النّار، انتقامها الوحيد كان الملوخية.. تعرف كم يكرهها!

ناداها من الصّالة:

- فائزة أغلقي الباب، وإلا جئت ورميت طعامك من الشّرفة.

أغلقت باب المطبخ وجلست على الأرض وانخرطت في البكاء. لماذا جاء؟

صحت على صوت باب الدّار ينغلق بقوة، ظنّت أنّه غادر، مسحت دموعها وتنفست الصّعداء. فوجئت بابنتها سالمة تندفع كعاصفة مجتاحة المطبخ، رمت حقيبتها وقالت بغضب:

- لماذا سمحتِ له بالدّخول؟ أليس هو الذي تركنا من أجل امرأة أخرى؟

- اخفضي صوتك، عيب، هو والدك على كلّ حال.

- لا، ليس والدي، إن كنت لا تعرفين معنى الأب أشرح لكِ.

- أرجوك، لا أريد فضائح أمام الجيران.

- هذا ما يهمك فقط، الجيران والنّاس والأقاويل، أمّا مشاعرنا نحن وما نعانيه فتلك أمور ثانوية لا تعني لكِ شيئًا.

بكت بشدّة لم يكن في يدها شيء آخر تفعله. سمعت صوته يناديها. ابنتها قالت بغضب:

- اذهبي إليه، ظنّ أنّي حلوة، تصوري لم يعرفني!

توقفت فائزة قليلًا:

- ربّما لأنّك تشبهين جدتك أخطأ في اسمك، غير معقول ألا يعرفك. الله يرضى عليكِ، اجلسي معه دقائق فقط وسيذهب، لن نستقبله ثانية، أعدكِ.

أرادت أن تسأله عن كاملة، هل أنجبت له الذّكر الذي سيحمل اسمه؟ هل تخلّص من عقدة البنات؟ لم تفه بكلمة، مرّت الدّقائق ثقيلة وقاسية وهي تنتظر أن يستأذن ويذهب، لكنّه أبدى رغبته في البقاء بانتظار عودة بقية البنات من المدرسة. لا تستطيع منعه من رؤية بناته، لا تستطيع منعه من دخول بيته، لا تستطيع فعل شيء.

لم تتوقع أن يعرض عليها العودة إلى عصمته، خفق قلبها بشدّة، تذكرت أيامهما معًا عندما كانت تعمل ليل نهار لتأمين أجرة البيت ومصاريف البنات ومصروفه الشّخصي أثناء تفرغه للحصول على الماجستير والدّكتوراه.

ابنتها البكر سالمة أبدت رفضها وانزعاجها، الأصغر حلوة لم تهتم أبدًا أمّا الصّغيرة تحيّة فرحّبت بوجوده، كانت سعيدة بركوبها إلى جانبه في سيارة الجيب الكبيرة، أرادت أن ترى زميلاتها في المدرسة أنّ والدها رجل مهم وغني وأفضل من آبائهنّ.

طيلة سنوات غيابه كانت تعاني من نظرات الشّفقة والاستصغار في عيون صديقاتها اللواتي يأتي السّائق لاصطحابهنّ إلى البيت أو تحضر أمّهاتهنّ الأنيقات أو آباؤهن وهي تنتظر على الرّصيف في البرد حينًا وفي الحرّ حينًا ريثما تأتي شقيقتها الكبرى من مدرستها البعيدة لترافقها إلى البيت.

عودته كانت تعني الدّفء والأمان وانتقال السّلطة من يد شقيقتها سالمة التي تُعنّفها دائمًا على أتفه خطأ تقترفه. سالمة التي تشبه والدها في الطّباع، لكنّها مرتاحة للتعامل معه أكثر من سالمة، فهو ليّن معها، لم يعاقبها على تدني علاماتها في

الدّراسة، ولا على تأخرها في السّهر أمام التّلفزيون، ولا على ذهابها مع صديقاتها في نزهة.. كلّ الأمور الممنوعة أصبحت متاحة في حضوره.

والدتها أيضًا أصبحت أكثر لينًا، وأقلّ عصبية، وأجمل هيئة، انخفض صوتها وصارت تبتسم باستمرار! لقد لمس بعصاه السّحرية كلّ الأشياء في المنزل ومنحها البهجة والجمال.

حلوة التي تحمل اسم جدتها لم تكن تهتم لحضوره أو غيابه، لم تشعر بالتّغيرات الطّارئة على المنزل، ولم تغيّر أسلوبها في الحياة بوجوده. لم تجلس معه سوى مرّة واحدة عندما عاد مع أمّها من المحكمة بعقد زواج جديد! باركت لهما بفتور ودخلت غرفتها.

المشكلة الأصعب التي واجهته كيفية التّعامل مع حلوة التي تأتي بصحبة صديقتها روعة يوميًا، وتغلق باب غرفتها بالمفتاح وتطلب عدم إزعاجها؛ لأنّها تريد التّركيز في دروسها! غالبًا ما تتأخر روعة، وتعلن حلوة أنّها لن تدع صديقتها تذهب ليلًا وستأخذ إذنًا لها من أمّها لتنام عندها. تتناولان وجبة العشاء في وقت متأخر، ويبقى النّور مضاءً في الغرفة حتّى الفجر!

شعر أنّ الوضع غير مريح، لكنّه لم يجرؤ على مفاتحة ابنته بالأمر، هي فتاة وصديقتها تنام عندها، تدرسان معًا وتذهبان معًا إلى المدرسة، أراد أن يسأل فائزة عن سلوك حلوة وميولها، لكنّه استصعب الأمر.. فائزة ليست الأم الذّكية التي يمكنها أن تفهم طبيعة العلاقة بين ابنتها وصديقتها، وهو رجل غاب عن أسرته سنوات طويلة وحين عاد رأى بناته قد كبرن وصارت لهنّ حياتهن الخاصة بعيدًا عنه. يشعر أنّه مجرد ضيف لا يحق له أن يناقش أيّ أمر يخصهنّ لذا؛ حاول جذب الصّغيرة واحتوائها بطريقة تؤهله للسيطرة عليها مستقبلًا. هي فقط التي سيمارس عليها دور الأب بكلّ أبعاده، أمّا سالمة فيشعر أحيانًا أنّها ندٌّ له في كلّ شيء ويمكنها أن تتحوّل إلى عدو في لحظات. أيّ أمر تافه ينطق به قد يحدث انفجارًا في البيت لا

يستطيع لملمة شظاياه. سالمة تشعره أحيانًا أنّ الذّكورة فيها أقوى من الأنوثة، أورثته الشكّ في طبيعة جسدها الخشن وصوتها الصّارم ونبرتها الحادة وقسوتها وتدخينها العلني أمامه. كأنّها نسخة منه! بل هي كذلك فعلًا يرى فيها نفسه في مطلع شبابه.. فقط تلك الكوفية التي تتلثم بها في بعض الليالي وهي خارجة من البيت أثارت قلقه، أين تذهب؟ ومع من؟ أراد مراقبتها لكنّه فشل، لم يستطع متابعة خطّ سيرها إلى نهايته ولو مرّة واحدة، أحسّ بالعجز مع شكوكه أنّها تلتقي رجلًا ربّما يكون عشيقها، أو... تمنّى لو كان مخطئًا وكانت سالمة تذهب إلى صديقاتها ولا تريده أن يعرف وجهتها فتتركه دائخًا في الشّوارع بحثًا عنها.

كانت تبتسم وهي تصعد الحافلة أمامه وهو لا يعرفها بالزي الذي تخفّت به، تهمس لنفسها "ليشرب من الكأس التي جرّعنا إياها وهو غائب".

* * *

في ليلته الأولى مع فائزة بعد ذلك الغياب حاول أن يكون متعاونًا وبطيئًا ولينًا، لكنّه استنفد قواه بسرعة ولم يستطع السّيطرة على نفسه. تمنّى لو يستطيع إخبار فائزة بمشاكله الشّخصية، أن يبوح لها بما في قلبه - كما فعل منذ عشرين عامًا - بكلّ صراحة وأن يحكي لها تفاصيل علاقته بكاملة. لا يثق بشخص غيرها.. هي التي ساندته في البداية وتركها، فانتظرته. المرأة التي أحبّته كما هو ولم تسعَ لتصنع منه رجلًا على مقاس أحلامها كما فعلت كاملة. فائزة التي ترضى بالقليل الذي يهبه لها وكأنّه منحة وكرم من الآلهة، سعادتها أن ترضيه بأيّ شكل يريده، ليست متطلبة جنسيًا مثل كاملة ولا تنتقد أداءه.. وهو على ثقة أنّه إن غاب عنها دهرًا لن تفكّر برجل غيره وستسكت جوعها وتخرس رغباتها.

لأجل ذلك عاد إليها، لم يستطع أن يحقق شرط السّيادة في البيت مع كاملة، ولا شرط السّيادة في الفراش، كاملة لا تكتفي به.. كاد يرى الحقيقة بعينيه

لكنّ كاملة لم تدعه يفعل، سبقته وأخبرته بكلّ صفاقة أنّها على علاقة جنسية بالضّابط المسؤول عن تعيينه ملحقًا ثقافيًا في السّفارة السّورية بفرنسا. قالت له بوضوح:

- كلّ شيء له ثمن، لا تظنّ أنّ مؤهلاتك هي التي جعلتك تحظى بمنصبك في السّفارة، كثيرون من أمثالك يخدمون النّظام بإخلاص ولا يحظون سوى بلقب مخبر.. اللقب الذي تستحقه بجدارة. لكنّك وصلت إلى ما أنت عليه بجهودي أنا. لولا هذا الجسد لم تستطع تخطي عتبة السّفارة.. ولن تستطيع مستقبلًا أن تحظى بأيّ منصب آخر.. إن كنت تحتاج لخادمة وامرأة غبية ترضى بالفتات وتغض النّظر عن أدائك السيئ في الفراش يمكنك العودة إلى فائزة.. أنا أقدّم لكَ صفقة عادلة. ولن أمنحك هذه الفرصة ثانية إن لم تستغلها.

الصّفقة الحقيقية التي لم تفصح عنها كاملة جعلته يرضى بالصّفقة المعلنة. ماذا لو عرفت فائزة أنّه لم يعد إليها لأنّه يحبّها ولأنّها أم بناته كما ادّعى؟ حجته بحماية البنات وتأمين مستقبل جيد لهنّ كذبة فاقعة اللون وسمجة، الوحيدة التي أدركتها ابنته سالمة! انتظرت وجوده وحيدًا في الصّالة وخاطبته بصراحة فجة:

- تستطيع أن تضحك على أمّي بكلمتين، لكنّ الأعذار التي عدت بها ليست مقنعة، بالتّأكيد لم تطلّق كاملة، وهذا يعني ببساطة أنّك جئت برغبتها هي. أنا لا أعترض ما دامت أمّي سعيدة بوجودك.. لكن أريدك أن تفهم أنّ سالمة أذكى من الضّحك عليها بعواطف الأبوة المهترئة. عواطفك البالية احتفظ بها لنفسك. وأرجو أن نعقد صفقة على غرار صفقتك مع كاملة. ارفع يدك عن تحيّة لأسكت عن وجودك في البيت. لن أقبل أن تربي أختي.. يكفي تجربتي معك. ويكفيك المرأة التّعيسة

التي تظنّ أنّ ظلّ الرّجل أفضل من ظلّ الحائط.

المعركة الحقيقية بدأت الآن والحل الأمثل لها أن يتخذ القرار الأوّل بنقل عائلته إلى العاصمة، ربّما يساعده تغيير البيئة المحيطة بهنّ على التقرّب منهنّ.

* * *

حدّق شكيب إلى الدُّمل البشع وقال بهدوء:

- حقن الكورتيزون هي الحل الوحيد، ستساعد على انكماش التّليف.

هذا الحل التّعيس يشعره بالكآبة، كلّ هذا التّطور في العلم ولم يستطع العلماء اختراع دواء مناسب لمرضه؟ لا يريد أخذ حقن الكورتيزون، لا لن يأخذها. سمع كثيرًا عن آثارها السّيئة، نظر إلى نفسه في المرآة.. كلّ ما يحمله هذا الوجه من شناعة برأي الآخرين نتيجة لما فعلوه به.. كان على يقين أنّ الحشرات أيضًا تآمرت معهم ليصاب بهذا المرض الذي يذكّره دائمًا بثأره. لن ينسى ذلك اليوم في الثمانينيات؛ خيّموا عند النّهر، استيقظ قرب الفجر على حكة شديدة خلف أذنه، أحسّ بوخز شديد وحرقة، نهض وسار إلى الضّفة، غسل وجهه وخلف أذنيه، لم تتوقف الحكة، لا شكَّ أنّ حشرة لدغته. ما نوع تلك الحشرة التي سبّبت له هذا الألم والحكة!

تدريجيًا أحسّ بمخالب لحمية تنبت مكان الحكة، تحوّلت لكثرة الحك إلى ندبة بشعة المنظر.

استشار الطبيب حين بدأت الكتلة خلف أذنه تكبر.. أخبره أنّه مرض يدعى تليف الجروح، وهو تجمّع للأنسجة الليفية تحت جرح أو خدش، أو وخز حشرة، يتلوث المكان وينتج عنه المرض.

لم يهتم كثيرًا بالأمر لكنّه تكرّر في ذراعه إثر جرح بسكين المطبخ. تطوّر الحك والوخز إلى ندبة أخرى أثّرت على حركة ذراعه. وصف الصّيدلاني له المضادات الحيوية، تناولها فترة وأهملها حين شعر بتحسن.

حرارة الصّيف لا تطاق، البحر، الجميع يسبحون وهو يجلس وحيدًا مع ندبه المشوّهة.. نادوه لينزل إلى البحر، أبدى أسفه لعدم معرفته السّباحة. ناداه جهاد

- الأمر بسيط، تعال، سأعلّمك أم أنّك تخشى أن يرى أحد جسدك..

ضحك البقية، وشعر هو بسكين تغوص في ضلوعه.. دائمًا تصيب سهام جهاد هدفها حتّى وإن لم يقصد.

في الزّيارة الثّانية، قال شكيب باستغراب:

- كيف صبرت على نفسك إلى هذا الوقت، لقد تأخرت جدًا في العلاج، الكورتيزون لن يفلح في القضاء على التّليف، سنلجأ إلى الحل الأخير وهو الكي بالتّبريد، لكن يجب أن أنبّهك يا دكتور أنّ الجلد مكان الكي سيفقد لونه، يمكننا أن نستخدم الليزر مع الحقن الموضعي بالكورتيزون الخيار لك.
- أريد رأيك، أنت الطّبيب، أيّهما أفضل.
- الكي طبعًا.
- إذن، ليكن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

الضّابط المسؤول عن تعيينه قال له بالحرف:

- شرط بسيط أنت تقدر عليه بالتّأكيد صديقتي كاملة تليق بك، أنت بحاجة لزوجة تشرّفك في المجتمع الرّاقي أظنّ زوجتك لا تصلح لمرافقتك إلى السّهرات ولا تسيير الصّفقات

ستسافر كثيرًا وتحضر ندوات واجتماعات في الغرب والشّرق، طبعًا تفهمني.

قال بغصة:

- هل عليّ أن أطلقّها؟

- أنت حرّ، ذلك ليس مهمًا، أعرف أنّ زوجتك تقربنا من ناحية أمّها، لكنّها غير لائقة اجتماعيًا.. كاملة ستقوم بكلّ المهام الدّبلوماسية وهي سكرتيرة ناجحة وذات قبول في الغرب، ستكون سعيدًا معها أنا متأكد من ذلك.. لن تطول مهمتك في باريس ومكانك في الجامعة سيبقى محفوظًا لحين عودتك.

في باريس كان قائمًا بالأعمال لكنّ حدوده تقف على تسيير معاملات فقط حتى لقّبته كاملة في سهرة ماجنة وهي تضحك "حامل الختم".. وما تبقى بيد كاملة!

لم تسمح له في البداية بالنّوم في غرفتها.

أول مرّة سمحت له بولوج فراشها كانت بعد خذلان فظيع عاشته مع عشيق فرنسي قضى معها بضعة ليال في شاليه على الشّاطئ في مدينة كان. جاء في الوقت المناسب، رآها بعينيه، لكنّه تجاهل الأمر، عرف بفطرته أنّ المطلوب منه أن يكون مجرد واجهة لكاملة التي تعرف ماذا تفعل! بيدها تقارير السّفارة عن المقيمين في فرنسا خاصة الطّلاب.

كانت ترافقه إلى مبنى السّفارة، تجلس مكانه، ويجلس على كرسي أمام الطّاولة. تملي على الموظفين ما تريده، تعطي تعليمات دقيقة، ثمّ تغادر المبنى وتترك له فرصة يغتنمها بالجلوس على الكرسي وإغماض عينيه ليحلم بالمكانة التي اغتصبتها!

* * *

عاد أخيراً!

لأوّل مرّة يسير في ممرات الكلية ولا يرى أحدًا في طريقه، الوجوه شائهة الملامح، الأجساد تتحرّك كأنّها أشباح في مقبرة، رفعته النّشوة أقدامًا عن الأرض، أحسّ أنّه يستطيع بقبضته أن يحوز هذا الفضاء من حوله.

سمع تهنئة الطّلاب، لم يتوقف ليتحدّث إليهم.. أراد أن يكتفي بذاته هذا الصّباح.

دخل غرفته، جلس وراء المكتب، جاء المستخدم حاملًا القهوة، أمره بوضعها على الطّاولة وإغلاق الباب خلفه.

تأمل الجدران، المكتبة الصّغيرة، المكتب، الكرسي، أدوات الكتابة ومنفضة السّجائر والدّورق الزّجاجي المليء بالزّهور، تأملها بضيق، من الغبي الذي أحضرها؟ تحسّس جيبه، أخرج علبة السّجائر، شمّ السّيجارة بعمق.. أشعلها، نفث الدّخان، وأغمض عينيه، سمع صوتها يقرع رأسه ويوبخه: "حاج تدخن، آخرتك متل أبوك حشّاش ورح يقتلك الدّخان". دائمًا تصرُّ حلوة على تذكيره بنهاية وخيمة لحياته، كانت في حياتها مثل البومة لا ترتاح إلا في الخرائب.. اللعنة، لماذا تقطع عليه لحظات السّعادة هذه؟ ولماذا ربطت مصيره بكنية زوجها الحشّاش؟ اللعنة عليهما.

خرج من الغرفة، وقف وراء النّافذة في الرّواق الطّويل، أرسل نظراته عبر النّافذة إلى ساحة الكلية.. الحركة واضحة لعينيه، الأصوات خرساء، فيلم صامت يجري هناك.. لا يهمه منه شيئًا، قبل سنوات كان يقف في تلك السّاحة ينتظر مرور فريدة تحت المطر في الجوّ العاصف شتاءً، تحت الشّمس الحارقة في شهر حزيران، في الرّبيع الدّافئ، وفي الخريف الباكي.. كانت تقف هناك تحت شجرة زهر العنقود، تقطف الأزهار وتأكلها، جرّب مرّة بعد ذهابها أن يفعل ذلك، قطف زهرة وأكلها. أغمض عينيه "أيّ جنون!".

عاد إلى الغرفة، دخل أحد الطّلاب حاملًا بيده أوراق حلقة البحث لمادة النّقد، ووضعها على الطّاولة:

- أنهيت البحث دكتور، أرجو أن ينال رضى حضرتك.

ابتسم.. الطّالب مهذب يستحق علامة جيدة، لكنّه لن يمنح العلامات هكذا بشكلٍ مجاني، يجب أن يشعر الطّلاب أنّ الحصول على العلامة أصعب مما يتخيّلون، سياسته في التّدريس ستكون مختلفة يجب أن يعرف الطّلاب حدودهم ويلتزموا بها وإلا ستضيع هيبته!

* * *

الفصل صفر

مقتل يمامة

حين اكتشفتُ الواقعة لم أصدّق أنّ يمامة انتحرت كما جاء في تقرير الشّرطة والطّب الشّرعي. لا يمكن ليمامة أن تنتحر على الرّغم مما عرفته عن مرضها وظروفها الصّعبة والكوارث التي مرّت بها. قد يبدو للناظر من الخارج أنّ نهاية سيدة مثلها لن تكون إلا بالانتحار، لم تحتمل المصائب المتعاقبة على رأسها؛ الفقد والوحدة والدّمار، فالتمست حريّتها بالموت. تحليل مقنع! لكنّ ما رأيته بعينيّ يثبت أنّ يمامة قُتلت حتّى لو اتفق أهل الأرض على وصف ما حدث لها بأنّه انتحار.

لقد كان القفص مقفلًا من الخارج عليها وقد شنقت نفسها بطوقٍ مُزيّن بريش اليمام!

كانت يمامة - كما جاء في رواية فريدة - تجمع الرّيش المتساقط من اليمام على شرفتها، تثقبه بإبرة رفيعة وتصنع منها لوحات وتزيّن به الصّدف والعظام لتصنع منها إكسسوارات..

حين روت فريدة وقائع اعتقال يمامة ذكرت حوارًا دار بينها وبين الفتاة "الشّبيحة" تحكي فيه أنّها لا تحبّ الأقفاص وأنّ الحبس أصعب من الموت!

آخر طوق صنعته يمامة من خيوط القنب المتينة وزيّنته بالرّيش والخرز كانت تضعه حول عنقها وتريه لفريدة لأخذ رأيها..

- أظنّه طويلٌ بعض الشّيء.

ضحكت فريدة:

- يكفي لقتل امرأة هشّة مثلك.

لاحظت امتقاع وجه يمامة وانسحاب اللون من بشرتها، رأت كيف زاغت عيناها ودار رأسها وكيف أمسكت مقبض الباب بيدها تجنبًا للسقوط، لماذا قالت فريدة تلك العبارة!

ما الذي خطر ببالها، ماذا تعني؟

لم أجد تفسيرًا في روايتها!

لفت انتباهي حين قرأتُ ضبط الشّرطة أنّهم ذكروا تردد يمامة على سوق الحدادين وطلبها من الحداد "أبو معروف" أن يصنع لها قفصًا يتسع لحيوان ضخم لم تذكر إن كان قردًا لكنّ الحداد ظنّ ذلك.

زرت الحداد أبا معروف في محاولة لمعرفة الحقيقة.. لم أحتج لأساليب ملتوية لاستنطاقه فهو ثرثار بطبعه، شربتُ معه كأس الشّاي وروى لي خلال دقائق نصف أخبار البلد ولما عرف أنّي أقيم في البناء الذي تملكه فريدة خانم رحمها الله ضرب كفًا بكفٍّ وقال:

- خسارة، كانت ست بمئة رجل، وأختها جليلة وكمان يمامة، الرّحمة لأرواحهن. ولو أنّ الرّحمة لا تجوز على روح المنتحر.

سألته باستغراب:

- من انتحر؟

بدت الدّهشة على وجهه:

- ما قلت من شوي أنّك ساكن ببناية السّت فريدة؛ كيف ما خبرت أن أختها يمامة انتحرت؟

- خبرت، لكن يا أبا معروف هل تصدق هذه الحكاية؟

صفن قليلًا:

- بيني وبينك شكّيت، بس يا أخي مارح أفهم أكتر من الشّرطة، هم قالوا انتحرت، خلص يعني انتحرت.
- لكنّهم قالوا أنّك أنت من أخبرهم وقد اشترت القفص من عندك.
- أعوذ بالله، أنا ما قلت، صح اشترت من عندي، فصلّت لها القفص مثل ما طلبت، وأجت رفيقتها يوم الاثنين أخدته بس يا أخي والله ما شفت بعيني وما بشهد زور.
- من رفيقتها؟ الشّرطة تقول إنّها هي التي أخذت القفص من عندك.

تراجع أبو معروف بكرسيه للخلف في حركة دالة على الفزع:

- يا أخي الدّنيا فيها موت وحيا، الله يستر على حريمنا، الحقيقة الله لا يكتبني من الكاذبين بعمري ما كذبت، هي لا جاءت ولا شفت وجهها، رفيقتها جاءت وطلبت القفص، قال السّت يمامة وصّت على حيوان ورح يجي بالشّحن، سألتها كلب؟ قالت "أكبر" ضحكت: "قرد؟". ضحكت هي كمان وقالت: "بيجوز غوريلا". وأنا هيك قلت للشرطة ما بزل[1] عليك ولا بكلمة والله شاهد.

صرت أراها في أحلامي تركض هاربة من وحش يلاحقها، تدلف القفص الحديدي، تتكور على نفسها، تحيط رأسها بيديها، ترتجف ويدٌ مجهولة تمتدُّ إلى عنقها تسحب الطّوق ببطء، تشده بقوة، تجحظ عينا يمامة وترتخي يداها ويرتطم رأسها بالقضبان.. اليد تغلق باب القفص، وتضع القفل، تسحب المفتاح منه، وتختفي!

إحساسي ينبئني أنّ هناك علاقة غامضة بين مقتل فريدة ويمامة، أعتقد بما يشبه اليقين أنّ القاتل واحد وأنّ الرّواية التي كتبتها فريدة هي السّبب!

* * *

(1) تعبير شعبي يعني "لا أكذب".

الفصل الخامس

الثّورة، الحيرانة، والحصار
2011

مع بداية حصار الحيرانة من مداخلها الثّلاث بالدّبابات ودخول الجيش السّوري واقتحامه للبيوت وتفتيشها واعتقال بعض الشّباب ومقتل آخرين على يد القنّاص المتمركز في الجبل.. نشطت حركة النّزوح إلى حلب.

وظهر محمّد في حياتي من جديد!

لم تكن أسعار البيوت قد ارتفعت في حركتها الجنونية حين استأجرتُ بيتًا في حي المحافظة لثلاثة أشهر بمئة ألف ليرة. مع هذا لم أكن أنوي أن تطول إقامتي هناك فالأسعار لا تناسب الدّخل الذي يأتيني من كتابة المقالات واضطرني للسحب من مدخراتي. جرس إنذار أخطرني أنّ الوضع لا يمكن أن يستمرّ على هذا النّحو وعليّ أن أجد مكانًا آخر في الرّيف أستطيع أن أخفض فيه مصروفي إلى النّصف بما يتواءم مع دخلي.

على صفحات التّواصل الاجتماعي التي كانت نافذتي الوحيدة على العالم رأيت صورته، شعره الأشيب، نظارة سميكة الزّجاج وبشرة سمراء باهتة، تحت الصّورة اسمه "القاضي والنّاشط الحقوقي محمّد الشّوكاني، مقيم في ألمانيا" وصورة الغلاف كتب عليها بالخط الثّلث "بانتظار الموت خنقًا أو ذبحًا أو غرقًا أو حرقًا أو تحت التّعذيب، يعيش الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج".

خط محمّد كان مميزًا، ما زلت أحتفظ بدفتر أشعاره المحكية، وما زلت أشمُّ فيها رائحة القرفة والهال، وأرى شمسًا لا تغيب وأصيلًا يتنفس رائحة الينابيع البكر، كما كتب لي يومًا وهو يصف قريته.

ليس لجمالية الشّعر وحده احتفظت بدفتر محمّد ورسالته اليتيمة التي أرسلها لي بعد علمه أنّي وافقت على خطبة صلاح. حسمت الرّسالة ترددي وجعلتني أفسخ الخطوبة وألتمس النّسيان في الغربة.

لماذا صدّقتُ ما جاء في رسالته وقتها من دون تحرٍّ للحقيقة؟ كنتُ أنتظر من يدفعني بعيدًا عن ورطة الزّواج وفعلت تلك الرّسالة.

لم أفكّر في جعل صلاح شخصية رئيسة في روايتي، حاولت جاهدة طيلة عشرين عامًا أن أنسى ملامحه وكأنّه لم يمرّ في حياتي أبدًا. لكن ما عرفته عنه مؤخرًا جعلني أغيّر رأيي، أخرجت رسالة محمّد ثانية من صندوق الأسرار وقرأتها:

(الغالية فريدة:

كنتُ قد أقسمت له على كتمان سرّه وفعلت، لكنّك أغلى عندي من الحفاظ على العهد والصّداقة التي لم يعد لها معنى الآن فقد أصبحت مجرد ذكرى بعيدة وباهتة.

لا أريدك أن تظنّي أنّي أستغل الموقف لأخبرك أنّي ما زلت أحبّك، وسأبقى ما حييت وأنتظر، ولو بعد أن يطحننا الزّمن بعجلاته، أن تردي على سؤالي الذي شهدت عليه أشجار الحديقة العامة وشوارع حلب وكلية الآداب.

أعتذر للإطالة.. الهدف من رسالتي أن أخبرك أنّ صلاح كان يتعالج عند طبيب نفسي سأكتب لكِ اسمه وعنوانه لتتأكدي من صحة ما سأرويه لكِ. أنا الذي نصحته بالعلاج ورافقته إلى الطّبيب، تذكرين حين أحرق لوحاته كلّها واصطحبتك لزيارته؟ كانت نصيحة الطّبيب الذي أخبرني أنّ العلاج بيدك وأنّك تستطيعين مساعدته على الخروج من أزمته، لكنّي يومها رفضت طلبه بإحضارك إلى العيادة

ليخبرك بنفسه. صلاح كان يعاني من مشاكل جنسية منشؤها نفسي - كما قال الطّبيب - بسبب ما عاشه في طفولته، ربّما تعلمين أنّ صلاح ابن عائلة ريفية وعاش طفولته وسط عدد كبير من الأولاد، أهمله أهله ونشأ معتمدًا على نفسه منذ الصّغر.

كان في العاشرة حين تعرّض للاغتصاب من فتيان القرية في البساتين البعيدة والذين هدّدوه بالقتل إن باح بسرهم لأحد.. الحادثة تبدو طبيعية وتحدث لكثيرين من الأطفال في القرى والمدن، الغريب فيها أنّ صلاح صار يستلذُّ بذلك الفعل ويطلبه وأنّ الفتيان ساوموه على فعلهم به بأن يحضر لهم إحدى قريباته من القرية، كانت الفتاة ابنة خاله تكبره بثلاث سنوات، استطاع استدراجها كي تذهب معه عبر البساتين إلى بيت عمتها حيث اختفى الفتيان بين أعواد الذّرة وكمّموا فم الفتاة واختطفوها. لم يقترب من المكان الذي أخذوها إليه فقد انتهت مهمته هنا.

الفتاة لم تكن غبية عرفت دوره في اختطافها واغتصابها رغم ذلك لم تجرؤ على البوح بالأمر واختارت أن تبقى من دون زواج، لكنّ شقيقها الكبير أجبرها على قبول عريس من أصدقائه، ولم تستطع الرّفض حين واجهها أخوها برغبته في عرضها على طبيب للتأكد من عذريتها... وُجدت جثتها وقد لفظها النّهر على الشّاطئ بعد أيام من خطبتها!

الحبيبة فريدة

اسمحي لي بهذا النّداء لمرّة واحدة.. سأبقى في انتظارك.

المحب محمّد).

غادرت الصّفحة وقلبي يخفق، ترددت في الكتابة إليه مع أنّي أتحرّق لأقول له "أما زلت تنتظر جوابي؟". أبعدت الفكرة من ذهني واعتبرت الأمر مراهقة متأخرة، ونسيته بعد أيام!

دغدغت مشاعري لفترة فكرة النّزوح إلى تركيا، معظم أصدقائي زيّنوا لي الأمر على أنّه حل جيد وسهل ومريح وسيمنحني الهدوء المنشود لإكمال كتابة

رواياتي من دون ضغوطات. غامرت بما تبقى معي من نقود وسافرت إلى أنطاكية، أقمت عند عائلة من معارفي في مكان جميل يطلّ على العاصي، التّوقيت كان رائعًا، الأمطار في نيسان وصوت المياه الهادرة في النّهر والجبال الممتدة أمامي على مدّ النّظر والتّفاح الأخضر والقهوة.. أشياء بسيطة وعادية فتحت لي أبواب المخيلة على مصراعيها، ليس هذا فقط بل وجدتني في المكان الذي وُلدت فيه فضة، قصدت العرموطية، لم تكن كما وصفتها لحلوحة ونادرة، فقد تغيّرت ملامح المكان تمامًا، لكنّ السّوريين هناك أطلقوا على المكان اسم "حارة الحرامية"!

منحتني أنطاكية الدّفء والهدوء لأشهر حتّى بدأت أشعر بالتّوتر من إقامتي الطّويلة عند معارفي والحنين إلى منزلي في الحيرانة، كلّ ما حولي جميل لكنّه يدفعني بعيدًا عنه. لبيت نداء الرّوح.. وتركت جزءًا مني في أنطاكية التي لم تشعرني بالغربة أبدًا وعدت إلى الحيرانة.. وجدت يمامة وجليلة هناك لم تغادرا البلدة كما فعلت بقية نساء رواياتي، اللواتي تفرقن بين حلب ودمشق.

* * *

حلب 2012 المهمة الجديدة

تعبت ناهدة من التّبدلات التي فرضت عليها حتّى تاهت عن شخصيتها الحقيقية، في تلك الأمسية المرعبة التي اضطرت فيها لعبور المنطقة التي يسيطر عليها قنّاص الرّاموسة تصارعت في رأسها الرّغبات، وكان الخوف سيّدًا لا يمكن مناقشته.

فكّرت بجدية أن تقوم بالتّحايل على شيخ الجبل وألا تغادر حلب الجديدة أبدًا، لكن ماذا لو كان يراقبها؟

الشكّ من جديد يمدُّ حربته ويغرسها في رأسها، تصحو مغتسلة بعرقها، لا تستطيع السّيطرة على رعشة يدها، تدخل المطبخ، تحضّر فنجان قهوة وتخرج إلى

الشّرفة، تجلس في الأرجوحة وتغمض عينيها، تكاد تغفو على حلم يعيد إليها صورة حلب قبل أعوام من الآن حين جاءتها بشخصية الشّيخة فاطمة. غرقت للحظات في حلم الفطور الدّسم، الشّعيبيات والمأمونية السّاخنة والقشطة، أطاح صوت إطلاق رصاص بغفوتها، الصّوت قادم من ساحة الجامعة، اهتزّ جسدها، هل يعقل أن يطلق الرّصاص على مظاهرة طلابية!

حتّى هذه اللحظة تعودت ناهدة أن تكّذب كلّ ما تسمعه، أن تسدّ أذنيها عن القنوات المغرضة وتمنع نفسها من متابعة صفحات معارفها القدماء الذّين تحولوا إلى المعارضة. هي متأكدة أنّ كلّ معارض مشروع حرامي وانتهازي يريد فقط الاستيلاء على السّلطة وفي أضعف الأحوال الاستفادة ماديًا من الأزمة التي يتعرّض لها البلد. هم جزء من المؤامرة الكونية على حياة الرّئيس وسلام الوطن.

ما يحدث يثير ريبتها، باتت تخشى من أفكارها، النّفس أمّارة بالسّوء، ونفسها تحدّثها بأشياء قد تخرجها من دائرة الطّاعة العمياء.

خبطت جبهتها بقبضة يدها.. صرخت بقوة كي تسمع الصّوت بكلّ جوارحها "إياكِ واللعب بالنّار، ليذهب الجميع إلى الجحيم، المهم سلامتك وأمانك.. والأمان في الطّاعة".

هدأ قلبها قليلًا وهي تشرب كأس الليمون الرّابع لهذا المساء. عليها أن تمتنع عن التّفكير، أن تتسلّح بالهدوء، أن تمتنع عن رؤية ما يجري كي لا تفكّر فيه. التّفكير، اللعنة، لماذا يفكّر الإنسان؟

اعتادت ناهدة أن يفكّر الآخرون عنها، لم تجد نفسها في مأزق قبل الآن إلا ووجدت شخصًا ناصحًا بقربها يرشدها إلى الطّريقة التي تتخلّص فيها من مأزقها.

تشعر بالقرف.. رائحة البالة المنبعثة من قماش ملابسها تثير الغثيان.. وهذا الحجاب الأخرق الذي لا تعرف كيف تثبته على رأسها.. شعرها الذي التصق بجلدة رأسها وأثار شهوة الحك لديها يتمغنط ويتشعث كلّما نزعت الحجاب

لتغرس أظافرها في جلدة رأسها حتّى ينبجس الدّم منها. ضحكت وهي تتذكر مشهد التّلاميذ في ابتدائية الحيرانة حين كانت تفتش رؤوسهم لا شكّ أن القمل زار رأسها وترك الصئبان تسرح فيه حتّى استحوذ عليها هوس الحك بهذه الطّريقة.

لا مكان للاستحمام وسط هذه الفوضى العارمة وهذا العدد الكبير من النّازحين الذين يغصُّ بهم فندق بارون.. في الماضي حلمت وهي تقرأ رواية آغاتا كريستي "جريمة في قطار الشّرق السّريع" أن تأتي إلى فندق بارون وتنام ليلة في غرفة آغاتا وتسافر في القطار وتزور لندن. وعدها حكمت بذلك مشجعًا إياها على القراءة.. لكنّها لم تتابع، كانت تلك الرّواية العمل الوحيد الذي قرأته طيلة حياتها! أجواء الفندق في الليل عندما تنقطع الكهرباء تغصُّ بالرّهبة والحذر، مع أصوات البكاء المكتومة لأطفال يرفضون النّوم ويطلبون الطّعام وأمُّهات نزقات يُشعرن ناهدة بالأمان، وتخرج من أروقة التّاريخ الغامضة التي تهيمن على جوّ الفندق بأثاثه وردهاته وغرفه التي ضمّت بين جدرانها يومًا الكثير من المشاهير؛ من الملك فيصل إلى روزفلت ولورنس العرب وكمال أتاتورك إلى هنانو والقوتلي وعبد الناصر.

الشّيخ جهاد أخبرها أنّ الأمر لن يطول سوى يومين لكن مرّ أسبوع حتّى الآن ولم تأتِ الصّبايا اللواتي وعد بمجيئهن لإنقاذها من هذا الوضع المأساوي الذي سيثبت لهنّ أنّها الشّخص المناسب ليكون صلة وصل بين الشّباب في المناطق السّاخنة.

صارت تخشى مجموعة البنات اللواتي كُلّفت بمراقبتهن والاجتماع بهنّ، فقد وجدت نفسها تنساق إلى أحاديثهن وتشاركهن أفكارهنّ وتعبّر عن رأيها بكلمات تصدمها.. صارت تخاف من ناهدة المختبئة داخلها والتي تظهر فجأة في تلك الاجتماعات لتتحدّث كما تفعل ريم وسحر ونازلي وسهى.. فتيات جامعيات مثقفات ومنفتحات، إحداهما كردية والثانية أرمنية، تجاوزن القوميات والطّوائف واجتمعن على رأي واحد ومطلب واحد: الحريّة والسّلام.

لماذا يرفض الآخرون في الطّرف الآخر منح هؤلاء الفتيات والشّباب ما يطالبون به؟

كادت ناهدة تعاني من الانفصام، لماذا زجّها شيخ الجبل في هذه المهمة العويصة؟

المهمة السّابقة كانت أسهل بكثير.. التّعامل مع الشّباب أمر صعب لا تتقنه ناهدة وحين تجد نفسها قد أتقنت الدّور جيدًا تخاف أن لا يكون ما تقوم به مجرد دور تقمّصها.. تخاف أن تصبح مثلهنّ وتفقد السّيطرة على نفسها!

* * *

قتل للتجربة، إدلب 2012

صرخت الحاجة آمنة بصوت مجروح:

- طلّقني.

بدا الصّوت غريبًا ونشازًا، وصل أذنيه ضخمًا وآمرًا، إيقاع الصّوت كان غريبًا على أذنه لم يسمعه من قبل، للوهلة الأولى أحسّ بخشوع، ثمّ حلّ الفزع مكان الدّهشة ووجد نفسه غائصًا في الأريكة وكأنّ حجمه تقلّص وصار طفلًا مهزومًا يبحث عن ذراعين تضمّانه وتعيدان إليه الهدوء، ذراعي أمّه، وربّما ذراعي صفية!

حدّق في الشّاشة مجددًا، أراد أن يتأكد أنّ الصّورة حقيقية وليست خدعة.. رآه ينزف، رآه يتلوى على الأرض، ولا أحد يتقدّم لإنقاذه.

هاتفه يرن، هاتف المنزل الأرضي يرن، هاتف زوجته يرن، وهواتف أخرى.. يعلو الرّنين ويصمّ أذنيه، لا يعرف من أين تأتي تلك الأصوات.. رجالٌ يدخلون الصّالة، الحاجة آمنة تستقبلهم سافرة الوجه.. الحاجة آمنة ترتدي عباءة سوداء وتلقي أوامرها بفتح الغرف ونزع السجاد من الأرض، تتراكم الكراسي البلاستيكية، رجال غرباء يدخلون منزله ويخرجون وهو يحدّق إلى الفراغ. ما الذي يحدث؟

هاتفه لا يتوقف عن الرّنين، يُخفض الصّوت ويرميه بعيدًا. الهاتف الأرضي لا يتوقف عن الرّنين، يمدُّ يده، يرفع السّماعة، يسمع الصّوت على الطّرف الآخر:

- يجب أن تحضر فورًا، لا نريد أن يستغل أعداؤنا الأمر، يجب أن تظهر على الشّاشة وتوجه كلمة للنّاس.

النّاس؟ من يكونون؟ الذين قتلوه أم الذين تفرجوا على موته البطيء ولم يفعلوا شيئًا؟ لمن سيوجه كلمته؟ ماذا سيقول؟

الحاجة دخلت ثابتة الخطوات، قالت باختصار:

- موفد من القصر الجمهوري ينتظرك في الخارج.

نهض يجرّ قدميه وعمامته تكاد تسقط، ركض أحد تلاميذه الواقفين بالباب، عدّل وضع العمامة، قبّل يده، ومسح دموعه. كانت فرصة ليختبر الدّمع، أهو حقيقي؟ كيف يبكي النّاس؟ هذا الفتى لماذا يبكي؟ هل كان يحبّ ابنه أكثر منه؟ هل يعقل أن يبكيه وهو لم يستطع ذرف دمعة واحدة؟

الضّابط الشّاب قاد السّيارة على مهل، تنحنح وقال بهدوء:

- البقية في حياتك شيخي، الرّجال يُعرفون في الشّدائد وأنت قدوتنا. الرّائد عزيز يتوقع منك موقفًا حاسمًا تخرس فيه موجة التّشهير التي بدأها المعارضون على مواقع التّواصل مُتهمين النّظام بقتل ابنك.

لم يعلّق، ما زال يعوم في لجة غامضة، تسحبه رمالٌ متحركة نحو الأسفل، يغوص في بركة الدّم، يبرز وجه عزيز يبتسم، يعرف جيدًا أنّه القاتل، يعرف أعداءه جيدًا، لكنّه مرغم على تجاهل الأمر وكأنّه لم يحدث، وكأنّ سيارته صدمت قطة شاردة.. دهسها ومضى في طريقه..

الدّماء العالقة بعجلات السّيارة أزالتها مياهٌ تجمّعت في الطّريق إثر المطر. العجلات غاصت في الطّين ثمّ تيمّمت بالتّراب.. وخرجت بريئة من الجريمة!

استقبله الرّائد بابتسامة لم يحاول إخفاءها نظرًا للموقف الحزين، قال بالبرود المعروف به:

- لقد كتبنا لك الكلمة التي ستلقيها في صلاة الجنازة وستنقل على الهواء مباشرة عبر الشّاشات الرّسمية والخاصة، ستنقلها محطات أجنبية أيضًا.. أتمنّى أن تكون ثابتًا، صبّر الله قلبك. نحن متأثرون من الحادث، وسنضرب الجناة بيد من حديد.. بل ضربناهم وانتهى الأمر، الصّواريخ من معمل القرميد والمسطومة تصلي بنارها البلدات المحيطة بالجامعة، لا تقلق شيخي لقد انتقمنا له. ركّز الآن فيما ستقوله للناس، كلمتك مهمة جدًا.

يدرك أهمية كلمته، كما يدرك أنّ أمانه الشّخصي متعلّق بها. استبعد في مرّات كثيرة أن تطاله أيديهم ما دام لا يحيد عن السّراط الذي خطّته يد العدالة الإلهية المتمثلة في رأس النّظام. لكنّه الآن لا يضمن أن يضحوا به في سبيل غاية ما ليست غامضة بالتّأكيد فقد اتّضح كلّ شيء أمامه ولا يملك الاختيار، لقد خاض في دم ابنه، ولا سبيل للعودة. عليه أن يحفظ بدقة ما كُتب في الخطاب الذي سيتوجه به للناس الذين ينتظرون التّمسح بعباءته والحصول على البركة.

فاجأته صورة الحاجة آمنة حين اعتلى المنبر، صوتها تضخم وخرج من مكبرات المسجد "أنت قاتل، أنت قتلت ابني، لن أعيش معك بعد الآن، طلّقني" هزّته العبارة، وانمحت الكلمات التي حفظها عن ظهر قلب. ارتج عليه.. تنحنح، بدأ بالسّلام، حاول القبض على الأفكار الهاربة، أحنى رأسه ووضع كفه على عينيه في محاولة لاستدرار الدّمع لينقذ نفسه من الورطة الكبيرة.. الشّاب الواقف إلى يمينه أخذ الميكرفون وبدأ الكلام نيابة عن الشّيخ الذي سقط أرضًا وتجمّع حوله عدد كبير من تلامذته ساعدوه في الوصول إلى غرفة جانبية.. غسلوا وجهه بماء

الورد، وانتظروا حتّى استعاد وعيه وقواه، وضع أحدهم ورقة كتب عليها الخطاب في يده، ضغط عليها وهمس:

- شيخي اقرأ من الورقة.. هم يصرّون على أن تخاطب النّاس الآن، لقد أوقفوا البث ريثما تستجمع قواك.

نهض وهو يتمتم "لتكن حربًا ضدّ الإرهاب إذن" سمع صدى همسه بأذنيه.. تردّد في أرجاء المسجد، علا تصفيق من جهة ما، مرّت وجوهٌ تبتسم لا يعرفها، وطارت كلماته في الفضاء كرصاص انهمر بلا توقف ورأى جسد ابنه في النّعش وقد فاضت الدّماء من جوانبه، تدفقت على الحواف، شكّلت ساقية، سارت صوبه وشعر بحذائه يصدر بقبقة غريبة ويدفع الدّماء خارجه.

حمل تلميذه المرشات الكبيرة وأفاض على النّعش ماء الزّهر ورشّ كفوف الحاضرين، مسح الجميع وجوههم، اللون الأحمر القاني صبغ جميع الوجوه. الكلّ شارك في حفل القتل التّجريبي لإثبات الولاء الخالص لسيد الوطن.

دخل البيت، رمى عباءته وعمامته ونادى الحاجة آمنة. لم يسمع ردًا، انتبه فجأة أنّ الكراسي اختفت، كما اختفى أثاث الصّالة، فتح أبواب الغرف، الجدران عارية والأرضيات تراكم عليها بقايا أوعية فارغة، كراتين ممزقة وزجاج محطم.

لم يتساءل عن شيء، أغلق الأبواب بهدوء، خرج من المنزل، ركب سيارته وأمر السّائق:

- خذني إلى البيت الصّيفي في دُمّر.

* * *

روضة الورّاق /2013/

كانـت تفاصـل البـائع علـى ثمـن الكوسـا المحفـور والبقـدونس المفـروم والخضار المشكّلة الجاهزة للطبخ حين شعرت بيد تربِّت كتفها وصوت يهمس:

- لا أكاد أصدّق! ما الذي فعل بكِ ذلك؟

التفتت روضة لتجد وحيدة تنظر إليها باستغراب وفتور. اغتصبت ابتسامة وقالت:

- وحيدة؟ ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟ منذ متى وأنتِ في دمشق.. يا الله ما هذه الصّدفة الجميلة! لم أتوقع أبدًا أن نلتقي بعد هذه السّنوات.

لم تكن روضة تقصد ما قالته فهي لم تكن ترغب في لقاء وحيدة وقد نسيتها تمامًا ونسفت كلّ ما يربطها بالماضي ورضيت بحاضرها وتصالحت مع نفسها. أعادت وحيدة السّؤال بشكل أوضح:

- ماذا حدث لكِ؟ متى تحجبتِ؟ ما هذا الزي الذي ترتدينه؟ لا، الحكاية تحتاج إلى جلسة وفنجان قهوة.

ارتبكت روضة، لم تكن على استعداد للتحدث عن حياتها أمام أحد، لكنّها تدرك جيدًا أنّ وحيدة لن تتركها وستعرف ما تريد؛ لذا استسلمت لقدرها ووافقت على دعوة وحيدة إلى فنجان قهوة في بيتها. علّقت بعد جلوسها:

- ظننت أنّك في زيارة لدمشق.

- لا، أنا أقيم هنا، تستطيعين زيارتي متى تشائين في أيام العطل، أين تسكنين؟

- في قدسيا.

- بعيدة، لماذا اخترت هذه المنطقة؟

لم تجد روضة ما تقوله، لقد كذبت، فلا تريد أن تعرف وحيدة مكان سكنها، وأول شيء خطر ببالها أن تختار منطقة سكنية بعيدة كي لا تفكر وحيدة بزيارتها. نهضت إلى الشّرفة، تأملت الشّارع وابتسمت:

- بيتك جميل، لكن كيف استطعت الحصول عليه، البيوت في شارع بغداد غالية على ما أعتقد.
- بعت بيت أمّي في الحيرانة وكلّ ما أملك كي أبقى قريبة من ابني.

اعتذرت روضة بأنّ عليها أن تذهب كي تطبخ، نزلت الدّرج مسرعة ونسيت حقيبتها، سمعت وحيدة تناديها وهي تعبر الشّارع وتشير إلى الحقيبة.

ما زاد ارتباكها نظرات وحيدة التي تفصح عن معرفتها التّامة بما تخفيه روضة.

لم تكن مصادفة تلك التي جمعتهما في سوق التنابل في الشّعلان، كانت وحيدة على علم بكلّ التّفاصيل التي أرادت روضة إخفاءها منذ غادرت الحيرانة حتّى الساعة. تقرير كامل وضعه المسؤول أمام وحيدة وطلب منها متابعة الأمر وإن اقتضى أن تدخل إلى عرين القبيسيات عن طريق روضة فلتفعل.

ظنّت روضة أنّها تخلّصت من وحيدة حين وصلت إلى بيت "معلمتها" ودخلت المطبخ.. كان عليها أن تنظف البيت وتحضّر الغداء وتعتني بالحديقة وتغادر قبل مجيء زوج معلمتها، فهي تعرف العقوبة التي يمكن أن تنزل فوق رأسها إن خالفت التّعليمات.

رن الهاتف في منزلها حين خلعت ملابسها وتمدّدت على السّرير بعد عمل يوم شاق.. كانت وحيدة على الطرف الآخر، قالت بلهجة حاسمة:

- يجب أن أراكِ ثانية لأمر مهم.

* * *

الانفجار الأوّل

كلية الهندسة حلب/ الثّلاثاء 2013/1/15

فريدة

لا أستطيع تصنيف هذا اليوم ولا أعرف ماذا أطلق عليه، هل يمكن لأمّ أن تصف مشاعر فقدها لأغلى ما تملكه في الوجود؟ كنت على وشك الانهيار وأنا أسند يمامة ونبحث بين الأشلاء عن رائحة ديمة. يمامة تؤكد أنّها ذهبت إلى الكلية في الصّباح، ودّعتها وطلبت منها أن تدعو لها لتجتاز الامتحان، كانت فرحة حدّ شعورها بأنّها ستطير، قالت لي منذ أيام:

- لا يمكنك أن تتصوري يا خالة كم أنا سعيدة، كم أحبّه! أشعر أنّي لا أمشي على الأرض، لا أصدق متى سينتهي الامتحان ونتزوج.

لم تعرف ديمة أنّ بإمكاني تخيّل مشاعرها بل بإمكاني أن أعيشها، وعشتها يومًا عندما كنت في سنها.

الرّيح تعصف حاملة غبارًا ذرّ في عينيّ دخانًا وشلّ حركة جسدي. تراخت يدي وارتعشتُ بقوة، للحظات كنتُ أُمنّي نفسي أن تكون ديمة كاذبة، لا يوجد امتحان هذا اليوم، وخرجت للقاء حبيبها ولم تأتِ إلى الجامعة. مرّ أمام عيني المشهد حيًّا كما عشته في الثّمانينيات. لكنّ كثافة اللون الأخضر لأشجار السّرو في الحديقة الملاصقة للجامعة تلاشت من مخيلتي بلحظة، من الصّعب الحفاظ على الوهم وأنا في ساحة يكسوها رماد المجزرة وتتناثر بقايا بشر في أنحائها.

إنّهم بشر! طلاب في عمر الزّهور، شباب امتلأوا بالحلم.. ديمة بينهم. ديمة هنا..

يقرع الصّوت رأسي بمطرقة من حديد تسحق الأمنيات والأوهام.

يمامة تتأبط ذراعي، وأنا بالكاد أحافظ على جسدي كي لا أترنّح وأسقط أرضًا.. ساقاي لا تحملانني، تهتزان وترتجفان، وخطواتي المتعثرة تطيح بجسدي كلّما لمحت مزقة من جسد أتخيّل أنّه جسدها.

من يسند من؟

كنّا كشراعين مهترئين وسط العاصفة، أحدهما يلطم الآخر من غير وعي.. أخيرًا صحوت على صرختها.. أفلتت يمامة يدي وركضت..

حدّقتْ بفردة الحذاء، جمدت نظرتها لدقائق.. لم تكن دهرًا، للحظات سمعتْ زغاريد تقتحمها من مكان بعيد ورأتْ ديمة مقبلة بثوب تخرجها، يتقاطع مع خطواتها ظلّ شاب نحيل أراد يومًا أن يكون ابنها.. ترى ملامحه جيدًا، تدرك بما يشبه اليقين أنّ عينيها ليستا لها، إنّهما عينا ديمة زرعهما الانفجار في مقلتيها.. تراه ويخفق قلبها.. الظلّ اسودّ فجأة وتضاءل، رفعت رأسها قليلًا وحدّقت إليه من فوق كتف ابنتها كان محترقًا بأكمله.. تذكر كيف بكته قبل أيام وكيف وضعت صورته المتفحمة غلافًا لصفحتها الشّخصية على الفيس بوك.. وكيف أُغلقت الصّفحة لنشرها تلك الصّورة! هزّتني الحقيقة بقوة.. "ديمة لم تكن في بيت الشّاب، الشّاب قُتل تحت التّعذيب حرقًا منذ أيام.. استيقظي يا فريدة".

أستيقظ؟ ممَّ؟

ساعدتني يدٌ قوية على النّهوض. شخص ما احتضنني، شخص ما رافقني إلى سيارة مركونة قريبًا من الرّصيف، جاهدت لأعرف من يكون ولم أستطع! امرأة تظهر في المشهد.. ربّما هي يمامة!

كان وجهها جافًا! لم تعد قادرة على البكاء منذ ثلاثة أيام وهي تبحث عن بقايا ابنتها في محيط الجامعة على الرّغم من معرفتها أنّ البقايا دفنت كلّها في قبر جماعي ولم يبقَ منها سوى فردة الحذاء!

جاءت ديمة، لم تضحك عيناها كما كانتا قبل أشهر، مكانهما استقرّت فجوتان بنيتان عميقتان.. لا بريق.. قلت لها: "ستكونين أجمل عروس"..

ابتسمت بخجل: "المهم أن يراني كذلك".

أنا أراهما بوضوح.. في تابوتين متجاورين، تتزاحم الورود لعناقهما.. الدّمع يحرق مقلتيّ "حتّى التّابوت صار حلمًا يا ديمة، حتّى التّابوت يا عين خالتك لم يحظَ منكِ بوداع وعناق أخير".

لماذا لا نموت موتًا عاديًا، موتًا نبيلًا مكلّلًا بالورد والأضاحي يفرش المودعون دربه بالرّيحان والدّعاء والاستغفار؟

النّافذة مغلقة في غرفة يمامة، أسراب الحمام تدور وتعود تحطّ على السّور، تنقر الزّجاج، تهدل بحزن.. ويمامة غارقة في السّواد المهيمن على غرفتها.

بعد أسبوع رأيتها تفتح النّافذة، تضع الماء والحب، تغلقها، وتخرج من المنزل..

كلّ يوم تغيب ساعات وتعود معفّرة بالتّراب.

تبعتها هذا الصّباح، رأيتها تدخل المقبرة، هناك في زاوية بعيدة جلست قرب قبر احتشدت حوله أصص الزّرع والزّهور وشتلات الأشجار. طالت جلستها وهي تقرأ القرآن، لجأتُ إلى غرفة الحارس، وسألته عنها. ابتسم وقال:

- كان الله في عونها، قبل أن أعرف قصتها من تحرياتي الخاصة ظننتها مجنونة.. جاءتني منذ شهر تطلب مني حفر قبر لابنتها، وقمت بحفره وصنعت الشّاهدة كما طلبت وانتظرت أن تأتي بالجثة، جاءت ليلًا، وكانت تحمل لفافة صغيرة لم يكن معها أحد دفنتها وأهالت التّراب، وجلست تبكي بحرقة، ثمّ جاءت في الصّباح مع صاحب المشتل كما ترين جعلت المساحة جنينة صغيرة، المساحة كلّها حول القبر اشترتها وأوصتني أن أحفر قبرًا لها أيضًا. لقد نبشتُ القبر بعد رحيلها لأعرف

ماذا وضعت فيه. الصّراحة كنت خائفًا، تعلمين الوضع غير مُطمئن، خشيت أن تكون دفنت سلاحًا أو متفجرات.

قلت بلهفة:

- ماذا وجدت؟

- فردة حذاء!

* * *

جليلة – سيّدة القطط – الحيرانة

كانت صباح تغني "الحليوة فين" تحرّكت السّتارة قليلًا وأفسحت لنسمات المساء الدّافئة مجالًا لتغمر الغرفة بعبير ذكريات لا تفارقها، تلك النّوافذ الموغلة في دهريتها تُخزِّن القُبل الحارّة وتُرَاكِم المشاعر المضطربة، يتعشّق بخشبها المتآكل، تراقبه وترسل زفرات محترقة كفحم نارجيلتها، كم مرّة فكّرتْ بتجديد لونه لكنّها خشيت أن تخنق كلماتها وأنفاسها وقبلاتها وحكاياتها تحت طبقة الطّلاء وتنمحي الحكايات التي حفظتها ذاكرة الخشب وتذهب أدراج الرّياح!

أربعون انقضت وهي تعتقد أنّه سيمرُّ يومًا في الحي وستخبره النّافذة عن أربعةَ عشر ألفًا وستمئة أصيل رحل وأم كلثوم تغني "سهران لوحدي".

حين توفيت أمّها فتحت صندوق عرسها، أخرجت الجهاز الذي خاطته رتيبة خانم عند أفضل الخياطات في حلب بانتظار سعيد الحظ الذي سيأتي خاطبًا ابنتها. أبدت احتجاجها مرارًا على تصرّف أمّها وأخبرتها أنّ الثّياب ستؤول إلى الزّبالة وفي أفضل الحالات ستجعلها خرقًا لتنظيف النّوافذ، لم تقتنع أمّها بأنّ ما تفعله فألٌ سيء على جليلة سيمنع الخطّاب من طرق بابها، فقد أوكلت للدّلالة أمر البحث عن عريس مناسب لجليلة.

حدّقت جليلة في الأثواب والأحذية، ماذا فعلت أمّها بها؟ لا تشمّ سوى رائحة النّفتلين، تتغلغل في صدرها وتكاد تخنقها.. قرّبت الثّوب الأسود من جسدها، كم كانت ستبدو جميلة فيه قبل الآن بعشرين عامًا لو أنّ الخاطب الوحيد الذي طرق بابها ذهب ولم يعد!

وضعت بجانبه الفستان الليموني والبصلي والزّهري والفستقي والأحمر والأبيض.. سبعة أثواب على عادة العرائس في حلب.. يبدّلن في العرس أثوابهنّ ويرتدين الأبيض قبل وصول العريس.

أخرجت فساتين الخروج.. الفساتين التي عشقتها وطلبت من الخيّاطة أن تفصلّهن على شكل أثواب فاتن حمامة في فيلم موعد غرام. همّت بأن ترتدي الثّوب المقلّم، كان أجمل الأثواب التي ارتدتها فاتن في رأيها، المرحومة أمّها كانت تعشق فاتن حمامة وتقول إنّها توحمت عليها أثناء حملها فجاءت جليلة نسخة منها. رمت الثّوب.. أيّ قهر تعيشه! هل كانت أمّها عمياء لشدّة هوسها بفاتن حتّى ظنّت أنّها تشبهها!

ظهر قعر الصّندوق، حدّقت إلى البقجة الملفوفة هناك منذ سنوات طويلة، مدت يدها، وأخرجتها..

حذاء بني مموج من الفيروميكا، ثوبٌ بنيٌ غامق من دون أكمام، كنزة صوفية برتقالية اللون، قبعة من الصّوف باللونين البني والبرتقالي..

رأت نفسها تتزحلق على الثّلج، جاء العيد في كانون الثّاني والثّلج يملأ الطّرقات، كانت في الحيرانة في زيارة لأقاربها، تذكر كيف التقت جدها في الطّريق صباح العيد وسلّمت عليه فاستغرب شكلها وقال لها إنّه ظنّها أمريكية!

كيف تزحلقت وغاصت في الطّين وهي تحاول النّزول من الأرجوحة الخشبية.. تشعر بأثر تلك الدّموع الآن على خديها.. برد ينخر عظامها.. البرد له

طعم آخر في هذه السّن، لم يعد ذلك البرد اللذيذ المشحون بالرّغبة في اللعب وأكل الثّلج الممزوج بشراب الكرز أو دبس العنب.

البرد..

طوت الثّياب، وضعتها في البقجة، جلبت كيس زبالة أسود كبيرًا، وضعت فيه كلّ ذكرياتها، وركنته خلف الباب بانتظار مرور الدّلالة أم ديب لتأخذه إلى فتاة محتاجة.

تهاوت على الأريكة، تشعر بضعف عام، الأهم من ذلك شعورٌ مؤلم بالوحدة والضّعف والفراغ.

لماذا لا يصدّق أحد أنّها هشة ومتعبة ويمكن أن تنهار؟ ما معنى أن تقول لشخص يقف على حافة الكآبة مترجحًا بين موت يتخيله وأفكار سوداء تصوّر له البقاء حيًّا يوازي الجحيم "أنتَ قوي وتستطيع التّغلب على محنتك".

إنّه جحيم التّفاصيل الصّغيرة التي لا يدركها سوى من عاشها وربّما تكون تلك التّفاصيل المنقذ من التّفكير العميق بالقضايا المهمة.

ماذا لو أثبتت لهم أنّها مثلهم تتعثر وتقع، تغرق في شبر ماء، تمرضها هبّة ريح، تجرحها نسمة باردة؟ ماذا لو تنازلوا قليلًا ورأوا قلبها كما هو، صغيرًا ونازفًا ومتعبًا، ماذا لو رأوا أنّها بحاجة إلى الكراهية والغضب والنّرجسية والأنانية، حاجتهم إلى الحبّ والتّسامح والإيثار؟

كثيرًا ما فكّرت أن تدع نفسها للتيار وتستسلم لكلّ ما يجتاحها من مشاعر سلبية نكاية بهم قبل نفسها، ليفجعوا قليلًا بخطأ اعتقاداتهم، وليدركوا أنّ النّفس البشرية لا تُؤطّر بنظريات.

هشةٌ كتلك القطط التي تركض وراء سيارتها، تتمسح بأقدامها حين تنزل وتجلس القرفصاء في الشّارع، تفتح لفافات الورق وتطعم أقربها بيديها ثمّ تفرغ باقي الطّعام وتدخل منزلها.

من الشّرفة تراقب تجمّع القطط، تحدّق إلى المخلوقات الصّغيرة مثلها.. كائناتٌ تبحث عن الحبّ والأمان والطّعام.

منذ الحادث الأليم في طفولتها وهي تتجنب النّظر في المرآة.. وتكتفي بعلامات الاستغراب على وجوه النّاس حين يحدّقون إلى وجهها وتبتسم. تبتسم للقط الزّيتوني القابع في روحها تاركًا أنفه الصّغير الأفطس يحتلّ وجهها، فتبدو بعينيها الملونتين الغريبتين وشعرها الأملس الأحمر، أقرب إلى قطة صغيرة، كثيرًا ما تحسست أنفها بأصابعها لتتأكد من وجوده.. كانت تخشى أن تستيقظ يومًا لتجد وجهها من دون أنف! قال لها سائح أجنبي ذات صيف:

- أنتِ مدهشة، تملكين كاريزما مؤثرة.

التقط لها العديد من الصّور احتفظت بإحداها.. تلك التي تحمل فيها ثلاث قطط بلون الكراميل.. عيونها زرقاء مضيئة.

لا تدري ما الذي جعلها تخبره بأنّ شكل أنفها يحرجها ويخيفها أحيانًا، ربّما لأنّ البوح للغرباء لن يشعرها بالحرج مستقبلًا إن التقت بهم ولن ينتشر السرّ بشكل يؤذيها ويزيد من وحدتها، قال لها:

- ليست الأشياء المثالية هي الأشياء الجميلة بالمطلق، العيوب تمنح الأشياء جمالها؛ لذا عليكِ أن تحبي أنفك هكذا، هو من يمنح وجهك خصوصيته.

تلك الكلمات بلسمت روحها لزمن انقضى بسرعة حين عادت النّظرات العابرة المُحدِّقة إلى ملامحها تؤذيها من جديد.

بعد موت ديمة اكتشفت جليلة أمومة مدفونة في أعماقها انبجست فجأة كنبع ماء، وصار سكّان الحيرانة يرونها كلّ يوم تحمل رفشًا صغيرًا ودلو ماء وغراسًا لأشجار متنوعة تزرعها قرب القبور التي تحمل أسماء إناث توفين في سن صغيرة..

لم تمضِ سنة على وفاة ديمة حتّى اخضرّت مقبرة الحيرانة وعبقت رائحة الأزاهير وغطّت أغصان الزّيزفون قبر ديمة وقامة جليلة القابعة عند الشّاهدة تقرأ القرآن على الأرواح الهائمة قربها.

* * *

نضال ابن حلوة الشّخشرلي، حلب، 2013

تكرار المنام جعله يشعر بالاختناق حتّى بعد صحوه وشرب الماء الذي لم يعد حلًّا كافيًا مع الحبوب المهدّئة.. صار بحاجة لزيارة الطّبيب لكن ماذا يقول له؟ هل يحدّثه عن تلك الأيدي التي تشكّل حبالًا وتلتفّ حول عنقه محاولة خنقه؟ هل يقول له إنّ الدّماء التي تسيل منها تغرقه فيشعر بالاختناق! لا، لن يفعل، ببساطة سينصحه بزيارة طبيب نفسي، سيشمت به كلّ من حوله وأولهم زوجته.. لن يفعل.. سيتغلب على الأمر.

هذا الصّباح رافقه الكابوس إلى الجامعة، حين نزل من سيارته وركنها تحت الشّجرة رأى بوضوح اليد الجميلة لطالبته معلّقة هناك على الأغصان، عرفها من الخاتم الزمردي الذي كانت تتباهى به دائمًا.

تجاهل المنظر حين رأى الطّلاب والدكاترة يسيرون بهدوء ولا مبالاة صوب الباب الدّاخلي وكأنّهم لا يرون شيئًا!

بالتّأكيد هو الوحيد الذي يرى هذا الكابوس.

جاءه المستخدم بفنجان القهوة، راقب من طرف خفي الطّلاب الواقفين ببابه بانتظار أن يسمح لهم بالدّخول لمناقشة ما كتبوه في حلقة البحث.

رشف قهوته ببطء متعمد، أغمض عينيه قليلًا وما لبث أن فتحهما فزعًا، الأيدي المدماة تلاحقه هنا أيضًا، نهض لينظر خارج الباب، لم يجد أحدًا، لقد غادر الطّلاب المكان!

اليد التي رآها على الشّجرة ولوّثت قميصه، الحجر الزّمردي في الإبهام يسحق عينيه، لقد كانت طالبة شقية ومهملة لكنّها جميلة تدير رأس أكبر أستاذ في الجامعة بخفة فائقة، كثيرًا ما سخر منها في المحاضرات لكنّها لم تسكت على سخريته يومًا، كانت تنتقم منه بسخرية مشابهة خارج القاعة وتجعل زميلاتها يضحكن على أشياء لا يعرفها ويدرك أنّها تخص شكله أو ملابسه!

يدها العالقة في الشّجرة تحاصره في منامه وصحوه، يدٌ أخرى كثيرًا ما تمنّى أن يقطعها.

اليد التي كتبت بقلم فحم على جدران الكلية "يسقط الخائن العميل الدّكتور المزيف نضال الكلب".. تشتبك يدُ الشّاب بيد الفتاة، تنضم إليهما يدٌ ثالثة، لا يعرف صاحبها، كادت الجلطة تودي بحياته حين فتح أوراق الامتحانات ووجد تلك الورقة فارغة، خالية من الاسم والرّقم الجامعي وكُتب في الصّفحة الأولى "زمن حلوة الشّخشرلي".

حاول جاهدًا أن يعرف صاحبها من التّدقيق في الخطّ ولم يفلح، الأوراق كاملة العدد وهذه الورقة دُسّت داخل الأوراق.. يدٌ ما وضعتها، قد تكون يد أحد المراقبين، قد يكون زميل له في الكلية، أحد طلابه القدامى، أو المستخدم، من يا تُرى كتب تلك العبارة؟

أيعقل أن يكون حسام؟ الطّالب المهذب الجميل، يذكره جيدًا قبل الانفجار بدقائق كان في السّاحة، سلّم عليه عندما نزل من سيارته، ثمّ أخفاه الانفجار!

حسام كان يهتم بالتقاط صور له في المحاضرات ووضعها على صفحته في الفيس بوك، حتّى بعد اختفائه نشرت صور على صفحته وقميصه ملوث بالدّم. كيف نشر حسام تلك الصّور وأين هو؟ لم يجد أحد جثته، يقال إنّه أصبح أشلاء، لم يحزن الدّكتور نضال عليه وأغاظه أن تنشر صورته على صفحة حسام وقميصه ملوث بالدّم.. خفّ غيظه حين قرأ بعض ما روّجت له صفحات مؤيدة من أنّه كان

يحاول إنقاذ الجرحى من الطّلاب حين التقطت له تلك الصّورة التي انتشرت على جميع الصّفحات بسرعة البرق.

أحد المعلّقين على صفحة حسام كتب: "وجاؤوا على قميصه بدم كذب".

المشهد يتكرّر أمام عينيه، ركن سيارته في الزّاوية، كانت النّيران تشتعل في أماكن عدّة، طلاب متحمسون يحاولون إنقاذ الجرحى وإبعاد المصابين.. الشّظايا المتناثرة أصابت طلابًا بعيدين عن مركز الانفجار. بأم عينه رأى جثثهم المتفحمة.. ارتعش جسده وانتفض قلبه بقوة.. لا يعلم لمَ خانته قواه، ولا كيف غافلته عواطفه وأخذته على حين غرة. كاد يتقيّأ، وقف بعيدًا يراقب المشهد، الطّلاب المسعفون، والجرحى، والقتلى الذين تناثرت أجسادهم قطعًا ارتقت على الأشجار في أطراف السّاحة. انتبه فجأة إلى قميصه، آثار دماء عليه! من أين؟ تطلع حوله، لا يوجد جثة قريبة.. رفع رأسه ليجد يدًا تشبثت بغصن الشّجرة، ابتعد عنها بحركة تلقائية. لمعت الفكرة في رأسه فجأة.. الآن.. جاءت فرصته، يجب أن يثبت لكاسر ومن يرأسه أنّ لا أحد سواه يصلح لمنصب الوزارة..

الآن عليه أن ينتهز الفرصة التي جاءت تسعى على قدميها...

* * *

نضال السّجّار 2014 حلب

التبس عليه الأمر لثوانٍ، ثوانٍ قليلة كادت تقلب كيانه وتطيح بثوابته، عليه أن يركّز تفكيره جيدًا، أن يبعد عن ذهنه كلّ ما من شأنه التّشويش على قناعاته. أبعد عينيه عن النّافذة، تأكد أنّ الباب مغلق بالمفتاح من الدّاخل، غاص في كرسيه الدّوار ثانية.. عليه أن يخرج من هذا الفخ، يشعر أنّ أسنانه الحادة اقتربت من عنقه، لن يطول الأمر، عليه أن يضغط باتجاه نقله إلى العاصمة، لماذا يؤخرون ترفيعه، لقد وعدوه أكثر من مرّة أن يعيّن في منصب أعلى في العاصمة أو...

حسنًا ليتصل بكاسر ويذكّره بوعده.

كاسر لا يردّ على الهاتف، في العادة يتصل هو في وقت لاحق، سينتظر.. دخل المستخدم:

- دكتور، رئيس القسم يقول تفضل إلى مكتبه عندكم اجتماع.

رئيس القسم!

إلى متى سيبقى مضطرًا لرسم الابتسامة على وجهه وتملقه في الاجتماعات؟ شعر بالنقمة على كاسر؛ كان بإمكانه أن يضعه في هذا المنصب ولم يفعل، قال له "أحضِّرك لمنصب أفضل" مهما كان المنصب أفضل فهو يطمح لهذا فقط، لا لشيء سوى أن يرى رئيس القسم الحالي يقف في حضرته مرتبكًا راسمًا على وجهه ابتسامته نفسها، يريد أن يراه يتملّقه، يمدحه، يناديه "حضرتك، سيادتك". لو أنّ ذلك يتحقق ولو ليوم واحد، سيفرغ ما تراكم في قلبه عبر السّنوات الماضية التي اضطر فيها لقبول قرارات رئيس القسم من دون اعتراض، تدريسه في جامعة دير الزور والذي يعتبره نفيًا وإبعادًا.. ومن ثمّ الحسكة.. لماذا لا يعطيه ساعات في إدلب مثلًا؟

أحلامه أن يصبح على رأس الهرم الثّقافي، مديرًا للمركز الثّقافي بحلب، رئيسًا لفرع اتحاد الكتّاب، رئيس قسم اللغة العربية في الجامعة، أو عميد الكلية، لماذا لا يضعه كاسر في منصب العميد!

كلّ المؤامرات التي حاكها في مكتب وزيرة الثّقافة السّابقة فشلت وانقلبت ضدّه. لكنّ "طاقة القدر" - التي تنبأت بها يومًا حلوة الشخشرلي - انفتحت له وعيّن في منصب كان من ضمن الأحلام المستحيلة!

* * *

بدرية الخيّاطة، حلب، الدّرب الأحمر 2015

النّزوح الثّاني

الظّروف في الحيرانة خاصة بعد دخول الفصائل المسلحة إليها ونزوح الموالين لسيد الوطن إلى اللاذقية وحماه وضعاها أمام خيارين؛ إمّا الذّهاب إلى حماه – وهو أمر لا تحبّه بحكم الغموض الذي يلف المدينة والنّازحين إليها وتاريخ الأخوان الدّموي فيها – أو العودة إلى حلب.

اختارت حلب، هنا لن تحتاج إلى التعرّف إلى المدينة واكتشافها ومحاولة التّأقلم مع البشر وعاداتهم والشّوارع.. حلب الرّحم التي خرجت منها تعود إليها الآن بعد زمن طويل من الغياب محمّلة بذاكرة تحتشد فيها الرّوائح الجميلة لحاراتها وأسواقها ومحلاتها وحدائقها، وحميمية أماكنها التّاريخية. لكنّ صدمتها كانت كبيرة حين لم تتعرّف ذاكرتها على الأماكن ولم تستنشق الرّوائح المعتادة ولم ترَ عرائش الياسمين الأصفر على أسوار البيوت تبشّر بالرّبيع.. كلّ شيء تغيّر، هل أخطأت الاختيار!

الطّريق الحجري، حجارته الصّغيرة الرّمادية، أعشاب نبتت بين الرّكام، البيت الخامس على اليسار لم يبقَ منه شيء، البيت الخامس على اليمين صمدت نافذته في الطّابق الخامس، اتكأت على جدار واطئ من البيت المهدم، راقبت نافذته، لأوّل مرّة ترى غرفته العارية من الدّاخل لا إطار للنّافذة ولا شبّاك.. فتحة في الجدار، فتحة في السّقف، والرّيح تعصف وتهزُّ أركان البقايا الصّامدة.

على اليمين كان بيته، بعده بمئة متر كان بيت أبيها.. من نافذته سمعت لأوّل مرّة وجيب قلبها يرافق أغنية "جفنه علّم الغزل، من فيلم الوردة البيضاء".. الوردة الوحيدة التي رماها على نافذتها في زمن بات بعيدًا كحلم.

جلست على حجر كبير وتأملت الخراب حولها.. أرسلت الرّيح أوّل النّسمات، سفّت الغبار، غمرها شعور بالاختناق.. نفخت بقايا الغبار من أنفها ومسحت وجهها

بمنديل ورقي، تنهدت بقوة، رأت رجلًا يستند إلى عكازه قادمًا من بين الخرائب، لحظات مشى خلالها بحذر قبل أن يتطوّح جسده فجأة ويسقط. سارت نحوه ببطء.. تأملته بدهشة.. كان ساكنًا، يده تقبض على رغيف خبز ووجهه يحمل ظلّ ابتسامة.

أين رأت هذا الوجه؟

فاجأها النّاس القادمون من الخرائب، حملوا الرّجل، وابتعدوا، بقيت واقفة وصوتٌ يقرع رأسها بقسوة "ترحموا على جاركم الطيّب موسى الأكتع المعروف بالحميماتي".

الجار الطيّب! موسى! هل كبرت إلى هذه الدّرجة؟ هل يُعقل أنها الآن عجوز مثل هذا الرّجل المحمول على الأكتاف إلى مثواه الأخير!

هل مرّ كلّ ذلك الزّمن بسرعة البرق؟ كأنّه البارحة! هي على يقين أنّه كان البارحة واقفًا على السّطح بعد منتصف الليل بانتظارها.. هي على يقين أنّ موسى لم يبرح السّطح بعد، والحمام يحلّق عاليًا، يقبض على طيره المفضّل، يقبّله مرّات عديدة وينظر نحوها، يقبّل عنقه، ويشير إلى عنقها..

كان ذلك البارحة ليلًا، حين صعدت إليه ممتلئة بالشّوق والرّغبة، كان ذلك البارحة حين تركها وهرب!

البارحة منذ خمسين سنة وأكثر!

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

الذاكرة الحية في وضع ميت كارثة.

فريدة، الحيرانة 2016

مات منذ أيام الشّاعر الذي أرسل لي قصائده عبر أثير مونت كارلو بصوت حكمت وهبي.. كلّما أردت إحراق رسائله أتراجع.. تفاصيل تلك الأيام ما زالت حارّة وطازجة وكأنّ الحبر الذي كُتبَ به لم يجف بعد!

على الصّفحة الأولى من ديوانه الأول كتب لي:

"قطرة ندى صغيرة ثملة على حافة الفجر

أنا، غيابٌ شاسع يقرض بأسنانه الحادة عمري، أنتِ".

ما الذي دفعني لكتابة هذه الرّواية المقصلة؟ إنّه هو، أخي الذي خرج ليقول في لقاء تلفزيوني على الملأ "ادعوهم لآبائهم". حين سألته المذيعة عن رأي الشّرع الإسلامي في قضية التّبني والنّسب. اتصلتُ هاتفيًا في مداخلة لأسأل الشّيخ مفتي الجمهورية إن كان يجرؤ على تطبيق الحديث الشّريف على أخته التي لم يعترف بوجودها، فقُطع الاتّصال قبل أن أكمل سؤالي، واعتذرت المذيعة للمشاهدين بوجود خلل أدّى إلى قطع الاتّصال وتابعت الحوار!

يومها بدأ الخدر يغزو أصابع قدمي، لم تمضِ سنة حتّى انتشر في قدميّ، أن تمشي بقدمين مخدرتين فتفقد تواصلك مع الأرض، أن تحتاج إلى حذاء فيه إسفنج مضغوط ليخفف الوخز عن قدميك أثناء المشي، ذلك يؤدي بك للعيش خارج المكان، ارتباط الإنسان بالأرض يأتي عبر قدميه؛ هذا ما آمنت به دائمًا، فإن فقد ذلك الارتباط ستتحول ذراعاه إلى أجنحة، تلك الفكرة خطرت لي أثناء جلوسي ساعات طويلة أراقب الفضاء خلف النّافذة.

رقصة العمى المجنونة التي تمارسها السّنونو وهي تنطلق كسهام مصوبة إلى لا شيء فتتقاطع مع بعضها بعشوائية وترتطم بزجاج نافذتي وهي تزعق.. هي الأقرب إلى روحي، فكثيرًا ما أشعر بتلك الفوضى العارمة تكبّلني وترميني لأحوم بشكل جنوني..

يهدهد جنوني سربٌ من الحمام يمرّ بدلال في فوج مُنظّم، ترن الخلاخيل في أرجله مع صوت رفرفة الأجنحة المتموجة. إنّها الموسيقا، الإلهة الأم للبشرية التي ترفد الكائنات بالجمال المطلق، موسيقا الحمام الدّمشقي الذي اشترته يمامة من بائع ادّعى أنّه جاء به من دمشق متخلية عن المبلغ الزّهيد الذي تحصل عليه من ترجمة الأفلام إلى اللغة التّركية.

عندما يقتلني الحنين إلى زمن المشي في الشّوارع المبتلة بالمطر ألجأ إلى الأفلام القديمة بالأسود والأبيض، أعيد مشاهدة المسلسلات القديمة عبر اليوتيوب..

أهرب عادة من مشاهدة مقاطع الفيديو التي توثق لجرائم مستمرة بحق الأبرياء من المدنيين، أمر على العناوين ولا أجرؤ على فتحها ومشاهدتها، أحيانًا أجبر نفسي على مشاهدة الفيديو للحصول على معلومة تساعدني في كتابة الرّواية كما حدث حين شاهدت فيديو مقتل الطّبيب "حسام الدّين الصّالح" كان الأمر صادمًا وشديد الوقع على نفسي على الرّغم من عدم معرفتي بالطّبيب. فقد صدّقت ما كتبه محمّد الشّوكاني في رسالته لي ولم ألجأ إلى الطبيب حسام للتّأكد من المعلومات التي تخص مرض صلاح!

فجأة ظهر أمامي على اليوتيوب ذلك الخبر الصّاعق في فيديو سيئ التّصوير، فتحته ويدي ترتعش مدفوعة بعنوانه الصّادم: "الجماعات الإرهابية تقتل سالمة ابنة وزير الثّقافة".

* * *

مقتل سالمة

طلب من السّائق أن يقود بأسرع ما يمكن حتّى أنّه ارتكب عدّة مخالفات وكاد يصطدم بحافلة تابعة لروضة أطفال..

ازدادت ضربات قلبه حين وصل باب الفيلا متجاوزًا الحديقة ولم يرَ الحارس ولا الكلب! لا شكّ أنّ "كاملة" طلبته لأمر جلل، ليس من عادتها أن تستدعيه بل تتصرف بما تراه صحيحًا في حال عدم وجوده، ودائمًا كانت قراراتها نافذة ولا مجال للتراجع عنها.

لأوّل مرّة تنهض "كاملة" لاستقباله، زاد توجسه، سألها بقلق:

- ماذا حدث؟
- اجلس أولا.

أطاع الأمر وانتظر أن تبدأ الحديث فهو يعرف أنّها قد تغضب إن استعجلها الجواب، وقد تمتنع عن الكلام. ناولته سيجارة وأشعلت أخرى لها، نفثت الدّخان وهي تجلس جانبه على غير المعتاد، قالت ببطء:

- في النّهاية كلّنا مصيرنا الموت.

جحظت عيناه وجفّ ريقه وانفلتت الكلمة بصعوبة من شفتيه:

- مَنْ؟

قالت بالهدوء نفسه:

- سالمة.

وكأنّها تشير إلى موت قطة متشردة، أضافت:

- الأمر معقد، عليك أن تنصت جيدًا وتنفذ التّعليمات، لا أريدك أن تفهم كلامي على أنّه تهديد بل مجرد نصيحة، دع الأمر طي الكتمان حتّى عن أمّها إن استطعت، الأفضل أن تدفنها بصمت.
- لمَ؟
- الصّراحة، تعليمات أمنية وصلتني مع الجثة.

لسعته لهجتها أراد أن يصرخ، أن يجهش بالبكاء أن يعبّر عن غضبه، لكنّه أدرك أنّ ذلك ممنوع أيضًا وعليه أن يتعامل مع الأمر بحياد وكأنّ القتيلة ليست ابنته. لم يكن مهيّأً لمثل هذه المصيبة، لكنّه توقعها منذ حذّرته كاملة من تصرفات ابنته وأخبرته أنّها تخرج في المظاهرات، وعلى الرّغم من لثامها فقد عرفها أحد رجال الأمن، ونبّهته أنّ عليه أن يجبرها على إغلاق صفحتها على الفيس بوك.

لم تستوعب كاملة أنّه لا يملك أيّ سلطة على سالمة تمامًا كما لا يملك سلطة عليها! كما لم يستوعب هو كيف تمّ اعتقالها، وكيف ماتت.

همست كاملة بطريقة مستفزة:

- إذا عرفت فائزة بموتها يُفضّل أن تخبرها أنّ الإرهابيين قتلوها ورموا جثتها في النّهر، وأنّها تتحمّل مسؤولية ذلك لأنّها لم تعرف كيف تربي ابنتها، وأنّك مضطر لإخفاء نبأ موتها، كي لا تلصق بك تهمة تعاونك مع الإرهابيين.
- كيف أخبرها بهذا؟
- أفضل من معرفتها الحقيقة لأنّك وقتها ستحمل مسؤولية مقتل ابنتك، اختر أنت.

في هذه اللحظة شعر أنّه شخص آخر هل حقًّا يشبه "كاملة"؟ نعم، هذه الحقيقة التي يحاول الهرب منها الآن. في كلّ المواقف التي مرّ بها سابقًا كان يتعامل مع موت الآخرين كما تتعامل "كاملة" الآن مع موت ابنته!

* * *

الانفجار الثّاني

انفجار ضخم هزّ الحي بأكمله.. أسرعت سيارات الإسعاف لنقل الجرحى من المكان، وطوّق رجال الأمن مداخل الحي، وخلال ساعات لم يبقَ أثرٌ لبشر في الشّوارع القريبة.

على مواقع التّواصل نشر نشطاء الخبر مختصرًا وغامضًا "كانوا ثمانية ويقال إنه كان بينهم رئيس الوزراء". تداولت الصّفحات الخبر وانتشر كالنّار في الهشيم، حوّره البعض وضاعف الرّقم وذكر وجود شخصية أمنية ذات مستوى رفيع كانت المستهدفة من التّفجير، وذكر آخرون وجود شخصية دبلوماسية كبيرة من بلد عربي شقيق.

علّق أحدهم: ليس مهمّا كم كان عددهم، المهم أن يكون الأمر حقيقة فقد تعودنا كذب الأخبار حتّى في أحوال الطّقس!".

نقل آكاد الجبل[1] الخبر - كالعادة - على صفحته عن أكثر الأسماءِ مصداقيةً والذي قال: "كانوا ثمانية وتاسعهم كلبهم!".

* * *

(1) المحامي محمود عيسى: سوريٌّ حر خصّص صفحته على الفيس بوك لأخبار الثورة ونقل منشورات الآخرين وتوثيقها بشكل انتقائي.

الثّمانية

صفية الرّيَدْةُ

تقدّمت السّيدة صفية بخطوات حذرة نحو البوابة المحاطة برجال الأمن.. حرصت أثناء سيرها على توازن جسدها كي لا يخونها الكعب العالي الذي لم تتخلَّ عنه حتّى بعد وداعها لعامها السّبعين منذ أمد لا تريد أن تتذكره. لمست شعرها بأصابعها المرتجفة لتتأكد من ثبات التّسريحة التي لم تغيرها منذ ثلاثة عقود عندما أقنعها "جاك" أنّها التّسريحة المثالية لشعرها وشكل وجهها.

اطمأنت إلى شكلها، نقّبت بعينيها عن شخص يسهّل مهمة دخولها إلى المستشفى، انتقت شابًا وسيمًا يقف بجانب البوابة بعيدًا عن العسكر المنتشرين في أرجاء المكان.. ابتسمت له، وقبل أن تنطق بكلمة حاول إبعادها بحزم: "يا أمّي ممنوع دخول أيّ شخص". ابتسمت ثانية، أخرجت بطاقتها بهدوء وناولته إياها. نظر في البطاقة وقال: "انتظري قليلًا لأسأل".

عاد بعد دقائق وقدّم لها ذراعه، وكزته برفق، ابتسم قائلًا: "اللي ما بيعرفك بيجهلك، أرجو أن تعذريني يا سيدتي، أنا عبدٌ مأمور". نظرت إليه طويلًا وقالت همسًا: "حاشا لمثلك أن يكون عبدًا، مثلك لا يليق به إلاّ السّيادة والسّلطة".

ناولته بطاقتها وطلبت منه أن يتصل بها لاحقًا.

وصلا باب الغرفة رقم اثنين، عقد حاجبيه بما يتلاءم مع الموقف الحساس وقال: "هنا يرقد يا سيدتي، أرجو أن تكوني حذرة وألا تحاولي دخول الغرفة الزّجاجية.. إنّها تعليمات الأطباء". صمت لحظات وأضاف: "والأمن".

نظرت إلى سريره، لفّها سكون التبست فيه مشاعرها، مشاعر أمّ أرضعت وربّت، ومشاعر امرأة خُذلت وأُبعدت وموُرس عليها العنف والإرهاب. لا تستطيع تحديد مشاعرها في هذه اللحظة، همست وغصّة عتب في حلقها: "لماذا يا جهاد؟ لماذا يا بني!".

وحيدة الريّدةُ

وصلت "وحيدة" بعد صفية بدقيقتين.. اعتادتا ذلك منذ زمن بعيد؛ الفارق بين كلّ عمل تقومان به دقيقتان فقط! ليس وهمًا ما تخيلتاه يومًا من أنّهما تنتميان إلى رحم واحدة على الرّغم من أنهما لم تستطيعا إثبات ذلك! وحيدة مختلفة تمامًا عن صفية بالشّكل والطّباع لكنّهما عاشتا ظروفًا قاسية متشابهة. التقيتا في الحيرانة، ثمّ افترقتا، ولم يخطر ببال إحداهما أنّهما ستلتقيان يومًا في مثل هذا الظرف والمكان.

الشّاب الوسيم الواقف عند البوابة لاحظ وصول وحيدة وعرفها فورًا، فقد تلقّى تعليمات من جهات عليا بانتظارها وتسهيل دخولها إلى الغرفة رقم واحد. الأرقام كانت تعني الكثير لوحيدة، فقد سعت طيلة حياتها أن تكون الرّقم الصّعب في أيّ عمل تقوم به، كما حرصت أن تتميّز عن كلِّ السّيدات في أيّ مجتمع تدخله. هالها أن تلمح صفية في آخر الممر وهي تهم بدخول الغرفة رقم اثنين، للحظات لم تضبط مشاعرها المتناقضة، الفرح واللهفة؛ الغيظ والغبطة؛ كيف تصل صفية قبلها؟

لماذا هي هنا؟ هل يعقل أنّ ابنها أيضًا كان في الاجتماع! ألهذا الحد تتشابه أقدارهما؟ لم تستطع ضبط نبرة صوتها العالية وهي تنادي صفية: "حازم هنا يا صفية!".

لا تدري إن كان حلمًا أم كابوسًا؟ أم هي الحقيقة التي أرادت أن تقتنع بها منذ رأت صفية للمرّة الأولى.

هناك رابط خفي بين رغباتها وماضيها الذي لا تتذكره. تلك البقعة السّوداء الغامضة التي تنمحي عندها الذّكريات ويبدو كلّ شيء مشوشًا وغير حقيقي. عدا الدّمية البلاستيك التي تحتفظ بها كدليل على وجود ذلك الماضي الغامض. اقتنعت أنّ الصّورة الصّحيحة وجود جدة كانت برفقتها في سوق بيروت وأنّها لم تكن وحدها، كانت معها فتاة شقراء!

أحضرت جدتها لهما علبة فيها دميتان من البلاستيك، ممرضة وطبيب، أحبّت أن تأخذ الممرضة، الطّبيب كان شخصًا مُنفّرًا على الرّغم من ملابسه البيضاء والسّماعة العالقة في أذنيه ونظارته التي تخفي تحتها حدقتين جامدتين لم يتقن الصّانع توزيع اللون فيهما فبدتا حولاوين لكنّهما تتركان انطباعًا بأنّ صاحبهما طيب! أمّها قالت لها: "الممرضة لشقيقتك".

زي الممرضة المثير هو ما لفت نظرها، البالطو الأبيض ذو الكسرات عند الخصر الدّقيق، الشّعر الأشقر والإشارب الأبيض المعقود إلى الخلف والعينين الخضراوين!

أحسّت بالضّعف تجاه العينين والشّعر الأشقر، كانت تردد "مثل شعر البنت الأخرى!". لماذا لا تأخذ تلك البنت الطّبيب وتترك لها الممرضة الشّقراء؟ ألا يكفيها أنّها أجمل منها بشعرها الأشقر وعينيها الخضراوين؟

جدتها وعدتها بأن تأخذها معها إلى بيروت في الصّيف وتشتري لها دمية أخرى..

كانت بيروت الغامضة والتي لا تشبه مدينتهم حلمًا بالنّسبة إليها، لم تفكّر يومًا أنّه سيتحقق وسيكون سببًا في تغيير مسار حياتها وسلخ تلك الأشياء الجميلة لتصبح مجرد ذكريات. البيت الواسع، الياسمينة المتكئة على السّور الخارجي، أصص الزّرع، أولاد الحي، التّفاصيل الحميمة ليومها بدءًا من الفطور الذي تعدّه جدتها، إلى السّرير والخزانة والجاردينير وطنبر الماء وحلوى التّفاحية وغزل البنات. الوجه الوحيد الذي بقي مشوشًا ولم تحفظه ذاكرتها عندما كبرت وجه والدها! لكنّها الآن تحمل يقينًا بداخلها أنّ صفية هي شقّها التّوأم.

* * *

حازم الكويّس رئيس مجلس الوزراء

لم يستبعد حازم أن يكون الشّيخ جهاد وراء تحريك قضية الفساد ضده؛ لذا نصب له هذا الفخ ليجعله مضغة في أفواه النّاس، معارضين ومؤيدين. يدرك جيدًا أنّ هذا لن يقلّل أسهمه عند السّلطة، ولن يؤدي إلى عزله أو اعتقاله - كما يتمنّى - لكنّه سيتسلّى بالسّخرية منه ومن جبته وعمامته ومن أتباعه ومن الدّين الإسلامي. كثيرًا ما تناقل مخبروه فتوى الشّيخ بتكفيره بسبب علمانيته، لم يعلن الشّيخ جهاد السّارح على الملأ موقفه من حازم، ولم يترك حازم الفرصة له ليعرف ما يدبّره في الخفاء. البغضاء بينهما ذات تاريخ عصي على الفهم، يدرك الشّيخ على نحو غامض أنّ حازم عدوه، ويعرف حازم يقينًا أنّ إزاحة الشّيخ من السّاحة السّياسية يحقّق له مكاسب معنوية على الأقل.

التفت حازم وجهاد في اللحظة نفسها ليقولا شيئًا توقف في حلقهما حين طلب مقدم البرنامج صعود لجنة التّحكيم إلى المسرح لإعلان النّتيجة.

نهض الشّيخ متعثرًا بجبته وقد شحب وجهه، وضحكة حازم العالية تخترق أذنيه وتستقرّ بقلبه كرصاصة. رشقه أحد الوزراء بتعليق ناري أحدث وشيشًا في سمعه، ودارت الدّنيا حوله ومال جسده في حركة خرقاء فسارع النّادل لمساعدته في تجاوز الطّاولات والصّعود إلى المسرح.. علّق حازم بصوت سمعه كلُّ الموجودين في الصّالة: "الشّيخ أسكره الجمال" وضحك الجميع مشجعين رئيسهم على المضي في مرحه وسخريته.

ارتبك الشّيخ وهو ينطق اسم فيرونيكا التي اختارها لاعتلاء عرش الجمال، وتقدّمت هي بدلال وقبّلت خدّه وسط عاصفة من التّصفيق.

انشغل حازم بالتقاط صور للشّيخ، ونجح في جعل صورة فيرونيكا تبدو وكأنّها تحتضن الشّيخ جهاد. شارك الصّورة مباشرة على صفحته الشّخصية في الفيس بوك، وقبل أن تنتهي الحفلة حصلت الصّورة على ألف تعليق وآلاف اللايكات!

* * *

فضّة العرموطية

وصلت فضة بعد عدّة دقائق وهي تتأبط ذراع ضابط من فرع مخابرات المنطقة، كان بكامل أناقته، يحمل في يده عصا من الأبنوس اعتاد حملها حين يكون في زيارة رسمية.. هرع الشّاب ليفتح البوابة، وانحنى باحترام وبقي مطرق الرّأس حتّى بعد أن تجاوزه الضّابط والسّيدة فضة. قالت بصوت مرتجف: هل يعقل أنّه مات، لا أصدق، البارحة كلّمني في الهاتف، ووعدني أن يزورني يوم الجمعة، وطلب مني أن أطبخ له "غمّة"[1] وسجق، قال لم يذق هذه الأكلة منذ سنوات، مشتهي عليها يا قلبي!".

ابتسم الضّابط العجوز وقال بثقة:

- اطمئني، سينجو، ابنك أقوى من الموت، كم مرّة تعرّض للاغتيال! كم مرّة كان في مواقع القصف، حتّى القناص لم يستطع اصطياده!

ضحك وكأنّه قال نكتة، نظرت فضة إلى وجهه، وتساءلت "من هذا؟". لأوّل مرّة تتساءل عن ماهية هذا الشّخص الذي صاحبته لمدّة ثلاثة عقود، لماذا هي بصحبته؟ أليس هو أيضًا أحد هؤلاء القتلة؟ فاجأها السّؤال! غشاوة سميكة انزاحت عن عينيها فجأة، رأت عينيه بوضوح، فهمت نظراته، كفّه الضّخمة المزينة بخاتم فيه فص من العقيق الثّمين، النّياشين التي تزيّن صدره كأنّها شواهد قبور من ماتوا بالبراميل المتفجرة التي أمر هو وأمثاله برميها على الآمنين في بيوتهم على أيدي طيارين قتلة.

شهقت: "قتلة".

انتبه للكلمة، تحفز، قطّب حاجبيه، سألها بجفاء: "من تقصدين؟". ارتعشت:

- هؤلاء الذين قتلوا ابني.

---

(1) رأس الغنم يسلق وتصنع منه فتة مع المقادم.

هزّها بيده:

- ابنك لم يمت، هذا فأل سيء، لا تتفوهي بكلمات غبية.

أرادت أن تقول: "الغباء أن أبقى مغمضة العينين" لكنّها سيطرت على أعصابها، وخنقت الكلمات في حلقها.

فتّوح الأحمد سليمان وزير الإعلام، الشّاوي كما يلقّبه النّاس...

اللقب الذي التصق به منذ طفولته بسبب ملامحه الفظة السّمراء، كانت السّيدات يسألن أمّه: "من أين أنجبتِ هذا الشّاوي وأنتِ بهذا الجمال، لا شكّ أنّه ليس ابنك". فترد أمّه باستهتار ولا مبالاة: "يشبه أهل أبيه، كلّهم شوايا". لم يكن يعرف معنى الكلمة مع إدراكه أنّ السّيدات يتقصدن إيذاء مشاعره والغمز والتّلميح لشيء غامض يخصّ أمّه التي تتجاهل الأمر بلامبالاتها المعهودة، أو هكذا كان يظن. عندما كبر عرف أنّ أمّه لم تكن لا مبالية أبدًا وأنّها كانت تخنق عبراتها وتحبس دمعها حتّى تصل البيت وتنفرد بنفسها في الحمّام وتبكي وتصرخ أحيانًا وتكلّم نفسها ثمّ تخرج وقد استحمت، تدخل غرفتها تتدثر وتنام!

حين أصبح رجلًا عرف أنّ ردّ أمّه على السّيدات كان يحوي في طياته إهانة متعمدة لهنّ، بسبب ذكرها لأهل أبيه، فقد كانت تردّ تهمة "الشّاوي" إلى نحر السّيدات وتطعنهن حيث أردن السّخرية منها.

فتّوح أصغر وزير في المجلس، استطاع الوصول إلى هدفه بأقصر الطّرق. بالتّأكيد لم يكن ذكاؤه السّبب الذي أوصله إلى الوزارة ولا قدراته الخارقة بل نسب أبيه، وقرابته لشيخ الجبل.

مجرد ذكر اسمه كان يثير الرّعب في نفوس النّاس، وعرف فتّوح كيف يستغل قرابته تلك في الجامعة والمنتديات والدّوائر الرّسمية وفي الوصول إلى المنصب الذي يحتله الآن!

* * *

حسنية الحلّاقة

لم تؤمن حسنية طيلة عمرها أنّ هناك عدلًا في الوجود حتّى صار ابنها زكّور وزيرًا للعدل، يومها تغيّرت نظرتها إلى الحياة والنّاس، وتصالحت مع نفسها ومع هؤلاء الذين صاروا ينظرون إليها باحترام مبالغ فيه، أو على الأقل هذا ما شعرت به!

اليوم تعيد النّظر في قناعاتها، فالحياة تسلبها بقسوة ما أعطتها إياه بسخاء، اليوم تقف وحيدة ومخذولة يخنقها القهر والتّرقب، تمضغ الذّكريات المؤلمة وتبصقها على عتبة المستشفى وفي وجوه هؤلاء الذين سلبوها النّعمة والفرحة والأمل.

لم يقترب أحد لمنعها من الدّخول ولا لمساعدتها في اجتياز الحاجز الضّيق، جسدها يهتزّ، يتمايل، يترنّح، وتكاد تقع في اللحظة التي تقترب فيها وسيلة وتسندها.

منظره خلف الزّجاج والدّم يخترق الشّاش ويصبغ مساحة الرّؤية لديها بالأحمر القاني جعل قلبها ينتفض بين ضلوعها، صرخت بكلّ قوتها، اجتمع حولها أطباء وممرضون حاولوا تهدئتها وإبعادها عن الغرفة، ساعدتها وسيلة في الجلوس أمام الباب وضمّت رأسها بين ذراعيها، ربتت كتفها وتمتمت: "ليس وحده يا حسنية، لستِ وحدكِ، كلّنا في مركب واحد".

لم تسمع حسنية، لم تهتم لمشاركة وسيلة لها في المصير، رأت الكون كلّه يتآمر عليها ويسلبها كلّ ما تملك، كانت دائمًا تقول لهنّ: "الأولاد خير استثمار في الدّنيا، وقد وهبني الله أكبر ثروة حين منحني زكّور، هو الذي سيحمي كبرتي ويكون عكازي وسندي في الشّيخوخة وليس المال!".

الغصة التي لم تفارق حلق زكّور طيلة حياته لم تدفعه لتغيير مبادئه التي ربّته عليها حسنية الحلّاقة، المثال الحي للإرادة والكفاح. كان على يقين أنّه لا يوجد عدالة في الوجود.

زكّور أوّل الواصلين إلى الاجتماع، لاحظ كثافة الوجود الأمني وكثرة الحواجز، أخذ الجندي بطاقته وطلب منه فتح صندوق السّيارة الخلفي، شعر بالاستياء لكنّه انصاع للطلب، يعرف أنّه لا يستطيع الاحتجاج، التّفتيش لأجل سلامته وسلامة الآخرين، تخيّل والجندي يفتش السّيارة أن يجد فيها شيئًا مريبًا، انقبض قلبه، أعداؤه كثر، وكارهوه أكثر، وهو يتوقع أن ينصبوا له فخًا ويتسببوا في اعتقاله أو اغتياله. كريه هذا الأمر، كريه ما يحدث..

يدرك ذلك جيدًا بل يعرف من وراء كلّ هذا، منذ يومين في حفل انتخاب ملكة الجمال رأى في عيني حازم مصيره، حازم لا يخفي مشاعره أبدًا ويصرّح بها أحيانًا ناسفًا توقعات من حوله، هو صانع المفاجآت وسيد من يحيك المؤامرات ويدير المكائد، لا عجب وأمّه وحيدة!

انطلق بسيارته أبطأ مما يفعل بالعادة، عليه اجتياز حواجز أخرى، وتقديم نفسه لحراس البوابات جميعهم قبل العبور إلى المبنى كي يتأكدوا من شخصيته.

وصل باب القاعة، فوجئ بوجود شخصية أمنية على مستوى رفيع، شيخ الجبل لا يكون عادة في اجتماع وزاري، هذا يعني أنّ الأمر ليس بيد حازم هذه المرّة وأنّ المخابرات دعت إليه من دون الإعلان عن الجهة.

توافد الوزراء، كانوا يدخلون بصمت ويلقون التّحية بأصوات منخفضة. شعر زكّور للمرّة الثّانية بانقباض في صدره. قلبه يحدّثه بكارثة، لكن الأمر خرج من يده، لم يعد يستطيع التّصرف، ليته اتّخذ قرارًا بالتّخلف عن الاجتماع وليأتِ الطّوفان.

انكمش في جلسته وهو يراقب قامة حازم الطّويلة تسدّ باب الصّالة، ووجهه المكفهر ينبئ عن كارثة قادمة. لم ينهض ليسلّم عليه، أدار وجهه، بقي شخص واحد ويبدأ الاجتماع. الجميع ينتظرون قدوم شكيب وزير الصّحة، فاجأته صورة من الماضي، شكيب يهبط التّل، وهم ينتظرونه في الملعب، شكيب يصرُّ على أن يلعب في قلب الهجوم، وحازم يريد أن يضعه حارس مرمى!

* * *

وهيبة العايقة:

كانت تسير ببطء وذهنها شارد بآخر مكالمة وصلتها من شكيب، أخرجت هاتفها من حقيبتها، فتحت رسائل الواتس أب، الرّسالة الغامضة تخز قلبها، لم تفهم ماذا يريد، بالتّأكيد هو لا يجرؤ أن يخبرها بما يريده، لإدراكه أنّها قد تتعرّض للتفتيش في أيّ لحظة أثناء وجودها في القصر.. الثّقة التي تمنحها لها زوجة الرّئيس لا تعفيها من وضعها تحت المراقبة مثل باقي النّساء والرّجال الذين يعملون في القصر. قد تتميّز قليلًا عنهن بأنّها تدخل الأماكن المحرّمة الخالية من الكاميرات، والتي تستطيع أن تلتقط أنفاسها داخلها وتترك لوجهها حريّة التّعبير عن مشاعرها. باقي الوقت ستكون حريصة على ارتداء قناعها المحايد وضبط مشاعرها حسب رغبة السّيدة الأولى.

السّيّدة العجوز لم تكن ترتاح لوجودها في القصر، وهذا سبب كافٍ لتشبث السّيدة الشّابة بها مع أنّها كانت توجه لها الكثير من الملاحظات والانتقادات، وتفضّل أحيانًا أن ترعاها إحدى الفتيات الأجنبيات اللواتي يعملن مع وهيبة. في البداية كانت تفضّل الأمريكية، ثمّ صارت تميل إلى الفتاة الرّوسية الجميلة التي عملت مؤخرًا في الصّالون.

منذ سنوات كانت ابنة الرّئيس الأب تستدعيها مع طاقم الصّالون كاملًا لتعتني بشعرها وجسدها. ولم تكن السّيدة الأم تبدي انزعاجًا، بالعكس لقد سمحت لها مرّة أن تدخل حمّامها الخاص، تمنّت يومها لو كانت تستطيع العمل وهي مغمضة العينين، خافت أن يخونها لسانها وكان خوفها في محله، فقد استطاعت فضة أن تخضعها لجلسة اعترافات مع فنجان قهوة، حدّثتها خلالها عن كلّ ما تراه أثناء وجودها هناك.

لا تعرف وهيبة إن كانت السّيدة الأولى العجوز ذكية لدرجة أدركت معها أنّ وهيبة لم تصن لسانها وسرّبت معلومات وأحاديث سمعتها في القصر،

أم أنّ كراهيتها لها كانت فقط لطائفتها وجنسيتها بحكم ما حدث لزوجها في مصر يومًا ما!

انخفضت جرعة الحذر من دمها وهي تردّ على رسالة شكيب بتسجيل صوتي تطلب منه أن يزورها اليوم مساءً أو يعطيها موعدًا لزيارته.

لم تكن صحة وهيبة على ما يرام، قدّمت التماسًا للسّيّدة الأولى كي تعفيها من مهامها منذ شهرين، ونظرًا لحالتها الصّعبة فقد منحتها اليوم إجازة قصيرة كي تذهب إلى باريس للعلاج.. وجاء خبر التّفجير ليلغي كلّ مخططاتها.

ساعدتها بدرية كي تصل إلى غرفته، دخلت معها، نظرتا معًا من خلف الزّجاج، كلُّ شيء ساكن سكون الموت.. الموت الذي يجب أن يزورها هي.. سالت دموعها بغزارة، سال أنفها، مسحته بكمها، ناولتها بدرية منديلًا ورقيًا، مسحت دموعها هي الأخرى، اتكأت عليها وخرجتا إلى الممر. جلبت لها كرسيًا، واستندت إلى الحائط وأغمضت عينيها..

تمتمت وهيبة بآيات قرآنية قصيرة لم تكن تحفظ غيرها، أعادتها وكرّرتها حتّى غفت ومال رأسها صوب صدرها. هزّتها بدرية برفق، لم تستجب، نادت على الممرضة والطّبيب، جسّ نبضها وأمر بنقلها إلى غرفة وإسعافها فورًا.

قال ببرود:

- ضغطها مرتفع جدًا، ربّما لم تحتمل الصّدمة.

شهقت بدرية:

- دكتور عندها سكر و...

لم تكمل، ابتعد الطّبيب بسرعة ولم يسمع ما قالت!

لأوّل مرّة تشعر بدرية بمرارة الفقد تتشبث بحلقها "هل يعقل أن يموت شكيب ومخلص وتتركها وهيبة وتعود إلى الدّنيا كما جاءت!".

* * *

بدرية الخيّاطة

بدرية الوحيدة بين الثّمانية التي تتمتع برشاقة وصحة عجيبتين تظهرانها أصغر من عمرها بعشرين سنة على الأقل فمن يراها يظنُّ أنّها في السّتين من عمرها، حافظت طيلة حياتها على وزنها وبشرتها، ولم تستخدم مساحيق التّجميل قط، فقد وهبها الله بشرة خمرية اللون وعينين لا تحتاجان كحلًا وشعرًا سبطًا كثيفًا لونه بني فاتح تخلّله شيب خفيف، لم تقم بصبغه أبدًا وقصّته على شكل تسريحة الملكة إليزبيث. لم تغيّر زي ملابسها منذ الثّمانينيات، ميلها للملابس الضّيقة القصيرة والأحذية ذات الكعب الرّفيع العالي، والحقائب ذات الحجم الصّغير أعطاها شكل نجمة سينمائية خارجة من أفلام الأبيض والأسود. وحتّى اللحظة وعلى الرّغم من أنّها اعتزلت مهنة الخياطة إلا أنّها تخيط ملابسها بنفسها فالسّوق لم تعد تحتوي على طلبها!

خرج الطّبيب من غرفة ابنها، أخبرها أنّ شظية أصابته وحالته مستقرة.

مُخْلص أبو العظام وزير الدّفاع

المشهور بين الجنود الذين يخدمون عنده بـ "مُكسّر العظام"، بسبب أسلوبه الذي يعاقب فيه الجنود وإن كانت مخالفتهم تافهة وأحيانًا بسبب مزاجه السيئ فقط!

التّخلص من العيب الجسدي المحتمل كان هاجسه الدّائم، حبة صغيرة في أنفه يمكنها أن تفتعل أزمة نفسية تدفعه لزيارة الطّبيب، ابن عمه في متناول اليد حتّى بعد أن صار وزيرًا للصحة، يوقظه أحيانًا في منتصف الليل ليسأله عن احتمال إصابته بمرض سمع أو قرأ عنه ما دام تاريخ العائلة الطّبي مليء بالأمراض المعدية والتّشوهات الخلقية.

ضاق شكيب به ذرعًا، مع هذا تحمّله إكرامًا لبدريّة التي اعتنت به كثيرًا في طفولته حتّى ظنّ الغرباء أنّها أمّه ونُسِب إلى وهيبة بالخطأ.

ينطقون اسمه خطأ، أمّه سمّته "مُخلِّص" لأسباب تخصها، لكنّ الجيران استصعبوا لفظ الاسم فنادوه مُخْلص، وفي المدرسة كذلك، وأزيلت الشدّة عن اللام في اسمه مع الوقت. وحدها بدريّة لم تنسَ أصل الاسم، ووحدها التي تناديه به. حين تطوع في الجيش راسمًا هدفه في الوصول إلى منصب وزير الدّفاع ضحكت بدرية، لم تكن تتخيّل أنّ ذلك سيصبح حقيقة يومًا ما، وظنّت أنّ المخلّص لن يستطيع إيذاء ذبابة فكيف يصبح وزيرًا للدفاع!

بعد تقلّده المنصب زارها برفقة بعض الضّباط وحارسه الشّخصي، قبّل رأسها وطلب أن تباركه وتبارك ما سيقوم به.

يومها ارتعشت واصفرّ لونها، رأت في عينيه شيئًا رهيبًا، رأت بوضوح ما سيقوم به، وسمعت بوضوح ما أطلقه عليه النّاس فيما بعد "لقد أصبح مخلِّصا، لم يُبقِ بشرًا ولا حجرًا".

بعد الغداء والاحتفال بشرب النّبيذ البيتي الذي تجيد بدرية تخميره وصنعه..

صافحها الضّباط، شدّوا على يديها، وطلبوا مباركتها، كانوا في طريقهم لعمل خطير.. لم يقل مخلص سوى هذه الكلمات "عمل خطير لمصلحة الوطن، ستفخرين بابنك يومًا وبتضحياته من أجل وطنه، لم تخطئي بتسميتي مُخلِّصا".

أكّدت له بدرية أكثر من مرّة أنّه لن يصاب بتلك الأمراض التي يهجس بها، لكنّها لم تخبره قط بالسّبب، لم تقل له إنّه يحمل اسم "أبو العظام" في الأوراق الرّسمية، لكنّ نسبه الحقيقي لا أحد يعرفه غيرها.

* * *

وسيلة شيخ الكار السّبّاك

شهقت حسنية وهي تتأمل وسيلة "أنتِ؟". ابتسمت وسيلة بصعوبة وهي تقول: "كما ترين!".

نطقت الاثنتان "صبحي!" "زكّور!". وانخرطتا بالبكاء.

كلّ الوسائل التي اتبعتها وسيلة في حياتها كي تصنع من ابنها صبحي شخصية قيادية مهمة في البلد والدّولة انهارت في لحظة وصولها باب غرفته في المستشفى ورؤيتها جسده ملفوفًا بالشّاش بأكمله وكأنّه كفن!

صبحي الذي كثيرًا ما هرب منها وأمضت الليالي في انتظار عودته، يهرب ويعود حين لا يجد ملجأ سوى حضنها. تعرف أنّه يكذب ومتأكدة أنّه عاد؛ لأنّه أفلس، تتغاضى وتعطيه كلّ ما جمعته في غيابه.

اكتشفت فيما بعد أنّ حسنية كانت تأويه وتخفي الأمر عنها، كان يدرس مع زكّور، ينام عنده، يأكل من طعام حسنية ويعاقب أمّه بتكريس ظنّها أنّه يذهب إلى "شطحا" ويصرف نقودها على "الحجيات" هناك، ويلعب القمار، كان يعزز لديها الخوف والقلق الدّائم عليه بتأكيد فكرتها السّيئة عن تصرفاته، ثمّ جرّب أن يفعل ما تظنّه به حين أصبح في الجامعة!

مخاوف وسيلة ارتبطت بتاريخها الشّخصي الذي سعت جاهدة لطمسه ونسيانه؛ كي لا يؤثر على حياة ابنها ومستقبله، ظنّت في فترة ما أنّها نجحت، وأنّ ابنها لم يعرف عنها شيئًا. لكنّ معاملته لها حين أصبح في الثّانوية العامة وتلميحاته التي تزرع الشّكّ في قلبها حول ما يعرفه بالضّبط، ومن أين عرفه، كانت كافية لتعتزل وسيلة النّاس وتبتعد عن كلّ ما يثير الشّبهة في نفسه.

منذ يومين طلب لقاءها بعيدًا عن المنزل وعيون أولاده وزوجته، كانت خائفة ومرتبكة وكأنّها ذاهبة إلى موعد غرامي لأوّل مرّة، لم تدرك مباشرة أنّ تلك

الدّعوة على الغداء في المطعم الفخم كانت بداية لتخلّص ابنها من آلامه التي سبّبها الاحتفاظ بالسّرّ طيلة تلك السّنوات.

لماذا اعترف؟ ولماذا اختار هذا التّوقيت بالذّات؟ هل كان يشعر بأنّ أجله دنا وعليه أن يسامح أمّه ويعتذر منها ويعترف لها بكلّ شيء؟

صبحي أبو الحليوة وزير الاقتصاد.

كان عليه مراجعة الطّبيب هذا الصّباح لكنّ الرّسالة التي وصلته تؤكد على ضرورة حضوره الفوري ومن دون تأخير لأهمية الاجتماع. لم يكن لديه فكرة عن المجتمعين ولا الأمر الذي يجتمعون لأجله، اتصل بحازم ليفهم، هاتفه مغلق!

منذ يومين كانوا جميعهم في حفل اختيار ملكة الجمال في طرطوس وعادوا إلى العاصمة معًا، بالتّأكيد فكرة الاجتماع الطّارئ وراءها أمر خطير.

اعتاد صبحي أن يستفتي قلبه في كلّ أمر، وقد حذّره بشدّة هذه المرّة، انقبض، وتقلّصت عضلاته، شعر بتشنج في أمعائه وارتعاش في يده اليسرى، أوقف السّيارة قرب صيدلية ونزل مسرعًا.

الصيدلي طمأنه وحثه على زيارة طبيب لعمل تحاليل ليتأكد إن كان ما يحدث له حقيقيًا أم مجرد وهم، أضاف مبتسمًا:

- سيدي هذا بسبب ضغوطات العمل ولا شكّ، لا أظنّها بوادر جلطة كما تعتقد.

سيصاب بالجلطة حتمًا قبل أن يفهم ما يحدث، هذا ما همس به لنفسه وهو يقود سيارته ثانية باتّجاه شارع النّصر.

اتّصل بأمّه: "وسيلة أريد أن أراكِ، ما رأيك أن أدعوك للغداء في مطعم الكمال، لا تتعبي نفسكِ، اجهزي، سأمرّ وآخذك بسيارتي". لماذا اتّصل بها؟ لم

يعرف سبب تصرفه، شعور عميق طافح بالمودّة اجتاحه فجأة، شعور ذكّره بطفولته، بحضنها الدّافئ، ببحثه عنه، موجة حنين طاغية، اعتقد أنّه سيتخلّص منها ويرتاح بمجرد رؤية أمّه.

لم يخطط لإخبارها بشيء، لكن حين رآها تدخل المطعم بملابسها الضّيقة الملونة وقد وضعت مكياجًا ثقيلًا وتعطرت، خفق قلبه: "أما زالت وسيلة تعتقد أنّها شابة؟ لماذا لا تعترف أنّ الزّمن تجاوزها وأنّ عليها الظّهور بمظهر الجدّة الرّزينة، لكن ما هو شكل الجدّة الرّزينة؟ تلتبس عليه الأمور أحيانًا فلا يعرف إن كان يكره ظهور أمّه بهذا المظهر أم يحبُّه لشبهه بسيدات الغرب اللواتي يتزيّن بعد وصولهن إلى سن الشّيخوخة! زوجته الأجنبية ترى في أمّه مثالًا للمرأة الجميلة من دون ابتذال، القوية من دون تسلط، والقريبة من القلب من دون تزلف. كان يتمنّى أن يرى أمّه في هذه السّن بغطاء رأس أبيض وملابس رمادية اللون، تضع نظارة على عينيها وتمضي الوقت في التّسبيح وقراءة القرآن، لكنّه لم يجرؤ يومًا على عرض فكرته أمام أحد، سيتهمونه بالرّجعية والتّخلف، وسيفقد مصداقيته بين معارفه الذين يطلقون عليه لقب علماني.

جلست وسيلة على استحياء، ابتسمت وهو يقبّل يدها ورأسها، نطقت بصعوبة "الله يرضى عليك". قال متلعثمًا:

- تعلمين يا وسيلة؟ كثيرًا ما خطر لي في شبابي أنّك لستِ أمّي فقد كنت أشعر بميل غريب إليكِ يتجاوز منطق البنوة، كيف سأشرح لكِ؟

بهتت وسيلة من هذه البداية الغريبة في الحديث، قالت:

- لأجل ذلك تناديني وسيلة دائمًا؟

ابتسم:

- ليس تمامًا، أحبّ موسيقا اسمك، وأشعر بحميمية كبيرة حين أناديكِ به. ماذا تأكلين؟

تغييره للحديث لم يكن بهدف إنهائه، فقد أفاض صبحي وأفرغ كلّ ما في قلبه، وخرجت وسيلة وهي تبكي، وظلّ الطّعام على الطّاولة باردًا ومخذولًا.

ركبت سيارة أجرة وعادت إلى منزلها.. تساءلت بحرقة: ما الذي جعلها تقبل دعوته؟ منذ جاءت إلى العاصمة بعد استقالتها من عملها وهي تعيش على هامش الحياة في مدينة تأكل أبناءها ويسيطر عليها الغرباء الذين كانت منهم يومًا. تشعر بالحنين أحيانًا للعودة من حيث جاءت، ليس إلى الحيرانة فقد قطعت كلّ صلة لها بها منذ عشر سنوات حين قرّرت المجيء إلى العاصمة لتبقى قريبة من ابنها. تريد العودة إلى مسقط رأسها ولا تعرف سببًا لذاك الحنين الذي فاجأها منذ بداية الثّورة. صارت تضيق بالعاصمة، بشوارعها بناسها بأسواقها، حتّى الهواء الذي تتنفسه تشعر به ثقيلًا وملوثًا..

ربّما هو حنين للتغيير، للشعور بالحياة، لقد همّشتها العاصمة وصارت أيامها متشابهة باهتة بلا ملامح.. الصّباح لا يحمل شروقه إلى شبّاك بيتها، والمساء يبتعد بظلاله من دون أن يلقيها على شرفتها، والليل طويل لا نهاية له! أحيانًا تلعن وحيدة وأمّها اللتين أبعدتاها عن تلك الجبال وتركتاها تخوض مستنقعات من الكراهية والعزلة لا نهاية لها.

* * *

ناهدة الآغا إسماعيل

وصلت ناهدة في المساء متأخرة عن موعدها يومًا كاملًا!

وقفت أمام الغرفة رقم سبعة، حدّقت السّيدات المتجمعات عند النّافذة في آخر الممر بها، تهامسن، ولوحن بأيديهن. تقدّمت منهن بخطى بطيئة، تردّدت في إلقاء التّحية من بعيد، كانت بحاجة لبعض الوقت كي تلتقط أنفاسها وتفهم ما جرى قبل أن تراه!

صافحتها صفية، ووحيدة، ولـم تتقـدّم فضّـة، بقيـت قـرب النّافـذة المفتوحـة، أومأت برأسها تحيّة مختصـرة مـن دون ابتسـامة. تبرّعـت بدريـة، وشـرحت لناهـدة تفاصيل الحـادث كمـا سـمعتها مـن الشّـاب المسـؤول عـن الأمـن ومـن الطّبيـب المشرف على الضّحايا.

تماسكت ناهدة، لم تكـن المـرّة الأولـى التـي تـذوق طعـم الفقـد فيهـا. قالـت ببرود: "إذن لا يوجد مبرر لوجودنا هنا، لماذا تقفن هنا مكبلات بالعجز والقهر؟".

كنّ بحاجة لمثل هـذه الـدّعوة للخـروج مـن مـأزق الانتظـار والتّعـب. قـرّرت ناهدة عدم الدّخول: "لا داعي لرؤيته، لن يعرف شيئًا ما دام في طريقه إلى المـوت، وربّما يكون قد فارق الحياة فعلًا!

* * *

منذ وصلتها الرّسالة الغريبة على الواتس آب وقلبها يرتجف. لماذا لم يتصـل من هاتفه؟ ما معنى تلك الرّسالة الغامضة؟ منذ سنوات لم تـأتِ إلـى دمشـق، طلبه كان واضحًا ومحددًا "لن تغادري حلـب، سـآتي إليـكِ كلّمـا دعـت الحاجـة". لمـاذا الآن؟ ماذا يعني هذا التّوقيت؟

الأسئلة الكثيرة منعت النّوم عن عينيها طيلة يوم وليلة قضتهما في الطّريق إلـى دمشق. شيء ما لم تشعر به منذ سنوات طويلة أقلقهـا وجعـل قلبهـا يخفـق بشـدّة، تلك الحالة سيطرت عليها ليلة كاملة حين مات حكمت في سريرها، لم يهـدأ قلبهـا إلاّ عندما رأتهم بعينيها يهيلون عليه التّراب، حينها تنفّست بارتياح، وتخلّصـت مـن ذلك الخوف المريب الذي لم تجرّبه من قبل.

الآن قلبهـا يخزهـا بالطّريقـة نفسـها، تـراه المـوت؟ لكنّـه كتـب لهـا؟ سـاورها الشّكّ، يمكن لأيّ شخص أن يكتب الرّسالة ويدّعي أنّه هو مـا دام لـم يرسـلها مـن رقمه الخاص بالإضافة إلى طلبه الغريب أن لا تتصـل بـه. تعـرف أنّـه يحتـاط كثيـرًا

لدواعٍ أمنية، وهو عذره الحاضر دائمًا، ومع هذا خالفت التّعليمات واتّصلت برقمه الخاص، ردّ المجيب الآلي بأنّ الهاتف مغلق أو خارج نطاق التّغطية!

مجرد التّفكير بالعودة إلى دمشق أربكها، ليست فكرة المرور على الحواجز، ولا الطّريق الطّويل بل المجهول الذي ينتظرها هناك فقد رفض أن يخبرها أيّ تفاصيل بشأن استدعائها، أهي مهمة جديدة؟ ألم تعد مهمتها في حلب ذات نفع بعد سيطرة النّظام عليها مرّة أخرى؟ أم أنّ الأمر لا يتعلّق بعملها بالمطلق؟

لم يكن أمر المرور بالمناطق المحرّرة بالنّسبة للشيخة فاطمة - كما تُعرف بين مريديها - أمرًا مقلقًا، المزعج بالنّسبة إليها المرور على حواجز النّظام فليس بإمكانها استبدال ملابسها على الطّريق!

قرّر السّائق المبيت في الاستراحة القريبة من حمص بسبب ما حصل على الحواجز السّابقة من اعتقال بعض الشّباب من الرّكاب وإهانته وضربه من دون سبب، أخبر الرّكاب أن يتدبروا أنفسهم فهو لا يريد تعريض حياتهم للخطر بالقيادة ليلًا.

في الصّباح اجتمع الرّكاب في مطعم الاستراحة. وتوزعوا حول الطّاولات بانتظار الفطور.

وضعت العجائز أيديهن على أفواههن ليكتمن دهشتهن حين رأين الشّيخة فاطمة تخرج من حمّام الاستراحة وقد خلعت عباءتها وحجابها وبدت في ثوب ضيق قصير وعلى كتفيها وشاح بنفسجي. الرّجال حدّقوا لدقائق بعيون متعبة ثمّ تشاغلوا عنها بأمورهم الخاصة.

جلست خلف طاولة منعزلة وطلبت فطورها، أخرجت علبة الدّخان من حقيبة يدها، أشعلت سيجارة وراحت تتأمل الحديقة الواسعة من خلف الزّجاج.

النّادل جاء مسرعًا، وضع أمامها صحن فواكه ومنفضة سجائر خاصة وقنينة ماء بارد وكأسًا نظيفة وابتسم: "سيأتي الفطور حالًا".

من الواضح أنّها زبونة المحل وهي التي اقترحت على السّائق الوقوف في هذه الاستراحة تحديدًا التي تبعد عن الطّريق العام مئات الأمتار، لكنّها مميزة فعلًا بخدمتها وهدوئها وجمال المنظر المحيط بها.

عُرفت ناهدة بعدّة أسماء حسب الظّرف التّاريخي الرّاهن الذي تعيشه، فكُنيت بأمّ الحسين في الفترة الأخيرة، لكنّها حافظت في المحافل الرّسمية على كنية زوجها الأوّل مقترنة بكنية عائلتها التي لم تتأكد إلى الآن من انتمائها الحقيقي إليها.

في هذه اللحظة الحرجة فكّرت ناهدة في الاسم الجديد الذي ستحمله في حال وفاة صاحبها، المهم أنها لن تعود إلى حلب!

شيخ الجبل، رئيس فرع الأمن العسكري، عشيق ناهدة الآغا إسماعيل

لم يكن شيخ الجبل يثق بأحد من مخبريه وإن استمع إليهم وأخذ تقاريرهم على محمل الجد، لكنّه بصفة شخصية يَحْذرهم، تتناهبه الشّكوك حول ازدواجية ولائهم، الوحيدة التي لم يشكّ يومًا بولائها المطلق ناهدة الأغا، ضحت بالمنصب الوزاري والزّواج من شخصية مهمة في الدّولة والعيش برفاهية في باريس وفضّلت أن تبقى تحت جناحيه في شخصية الشّيخة فاطمة، شخصية لا تناسب أهواء ناهدة ولا تلائم مزاجها، لكنّها أبدعت في تمثيلها حدّ أنّه صدّق تبتلها وعزلتها وتدينها!

عيونه رصدت الحفل منذ يومين وقدّمت تقارير متضاربة عن الأجواء العدائية التي سادها التّوتر بين الوزراء، لم يكن هذا الاجتماع لأجل ذلك، بل جاء بأوامر عليا من القصر الجمهوري، مع هذا وضع شيخ الجبل في اعتباره الحديث عن الثّارات الشّخصية التي تسود جوّ مجلس الوزراء والتي لا تصبّ في الصّالح العام للدولة في هذا التّوقيت الصّعب الذي تمرُّ به البلاد.

أخيرًا وصل وزير الصّحة وهو يلهث، اعتذر عن التّأخير بكلماتٍ عشوائية وهو يتأمل وجوه الحاضرين. نظر إلى عينيّ زكور، بادله قلقه، جلس بجانبه وهو لا يستطيع السّيطرة على رعشة يده. همس زكّور في أذنه "أنت مريض؟".

قبل أن يرد سمع صوت شيخ الجبل:

- أجّلوا الأحاديث الشّخصية، لا وقت لدينا.

هزّ زكّور رأسه، أغمض عينيه ورأى فجأة الهدف الذي أدخله في المرمى.

في اللحظة ذاتها هزّ الانفجار أركان الصّالة. تسابق الجميع إلى الباب، وصل زكّور وشكيب إلى الدّرج الخارجي، ورأيا بأعينهما المشهد المرعب لسيارة شكيب وهي تنفجر وتشتعل فيها النّيران وتتطاير الشّظايا.

هدف

وسكن كلُّ شيءٍ حولهما.

* * *

تاسعهم:

في طريقهن إلى خارج المستشفى تلبية لدعوة ناهدة مررن أمام الكلب، نظرن جميعهن إلى الغرفة التي رابط أمامها، همست فضّة: "الله يرحمك يا حلوة، الحمد لله متِّ قبل ما تشوفيه بها الحالة".

صرخت بدرية بقرف: "أبعدوه عني، أبعدوا الكلب.. الكلب..".

كان الكلب يثير الرّهبة في نفوس الأطباء والممرضات والزّوار فيتجنبون المرور قربه، يسرعون الخطى وقلوبهم تضرب بعنف. سأل أحدُ الأطباء مُستخدمًا مرّ بجانبه:

- من الذي سمح بدخول الكلب؟ هذا مستشفى وليس حديقة حيوان!

خانته شجاعته بعد هذه الكلمات وأحبّ أن يتراجع عنها، فمن الواضح أنّ دخول الكلب إلى المستشفى وبقائه أمام غرفة سيده على تلك الصّورة جاء بأوامر عليا. داهمه القلق، ماذا لو ثرثر المستخدم أمام رئيس المستشفى بما سمعه منه أو كَتبه في تقرير للمخابرات؟ بالتّأكيد سيجد نفسه خارج المستشفى مطرودًا كأبسط عقاب له على جرأته!

حصر تفكيره فيما سيقوله لو استدعي للتحقيق بشأن افترائه على الكلب.

اهتزّ رئيس المستشفى في مقعده وهو يستمع للمستخدم، انفعل، واحتقن وجهه حتّى كادت عروقه تنفجر.. لم يعقّب بكلمة.. هو لم يسمح بدخول الكلب، لا بدّ أنّ هناك جهات أعلى منه أرسلت الكلب إلى المستشفى.

تساءل بصوت خفيض:

- أمام أيّ غرفة يجلس الكلب؟

ردّ المستخدم وهو يتخذ هيئة خاشعة:

- أمام الغرفة رقم ثمانية، غرفة الدّكتور نضال وزير الثّقافة سيدي.

تطلّع رئيس المستشفى في الملفات الموجودة أمامه على شاشة الكمبيوتر، لم يترك استغرابه يظهر على وجهه، عرف فورًا من أين جاءت الأوامر للسماح بدخول الكلب، فلم تكن علاقة "كاملة" زوجة الوزير برئيس فرع المخابرات العسكرية سرًّا، كلُّ الأوساط الرّاقية في العاصمة تعرفها، تجرّأت بعض الصّفحات الغامضة على مواقع التّواصل ونشرت صورًا تجمعهما في أماكن عامة، علّق البعض تحت الصّور "ما دامت في ضوء الشّمس فليس هناك ما يريب!". بالنّسبة إليه لن يغامر بطرد الكلب، وسيغض الطّرف عمّا قاله الطّبيب فليس الوقت ملائمًا لخسارة أفضل أطباء المستشفى. أومأ للمستخدم آمرًا إياه بالخروج موحيًا أنّ الأمر أصبح مسؤوليته الخاصة.

اقترب المُستخدم من الطّاولة همس لمدير المستشفى بضع كلمات عن شكل الكلب وما رآه من دهشة الزّوار الذين حدّقوا إليه بذعر وما سمعه من تعليقاتهم.

شحب وجه المدير، هذه المرّة خانته قواه، التقط ابتسامة المُستخدم الظّافرة وكأنّها تشير إليه شخصيًا بتهمة التقوّل على حضرة الكلب.

* * *

قبل الانفجار

جهاد السّارح ابن صفية الرّيدة بالرّضاعة، وزير الأوقاف

كانت السّهرة تغص بالفتيات الجميلات، وكزه حازم: "لماذا لا تشرب يا شيخي، أم أنّك تريد الشّرب من نهر الكوثر؟".

بالكاد تبسّم، لم يتركه حازم فصبّ له كأس بيرة، وقال: "هذه مصنوعة من الشّعير شيخي، ليست حرام، الله في كتابه العزيز حرّم الخمر، ما عداه لم يأتِ ذكره في القرآن، بعدين شوف البغل وزير الاقتصاد شرب سطل بيرة ولسه ما سكر".

جحظت عيناه وأعياه الرّد فدارى عجزه بضحكة مبتسرة بالكاد كشّر عن ناجذيه وأطبق شفتيه بسرعة.

شعر بثقل العمامة فوق رأسه. استأذن ليذهب إلى الحمّام.. خلع العمامة والجبة، غسل وجهه، توضأ، ونظر في المرآة: "ما الذي أتى بي إلى هنا؟". دخل وزير العدل، ربتّ كتفه: "من زمزم شيخي". ابتسم: "بصحبتك إن شاء الله".

لم يكن يطيق صحبة زكّور، عُرِف عن زكّور حين كان قاضيًا أنّه لا يرتشي وإن اضطر للحكم في قضية غير مقتنع بها يتملّص بطريقة ما من حضور الجلسة، ولم يدرك أحد السرّ وراء احتفاظ النّظام به على رأس عمله ومن ثمّ منحه منصب وزير العدل مع أنّ سلفه كان جشعًا وسافلًا إلى درجة ضج منه القضاة

والمحامون، وأصبحت سيرته مضغة في أفواه المستخدمين في القصر العدلي والمحاكم على مستوى القطر. نشأة زكّور الرّيفية وبساطته وطيبة قلبه كانت مثار إعجاب البعض وتعجبهم فهو لا يصلح إطلاقًا لمنصب وزير! وهذا ما جعله مُعرّضًا للسخرية والتّندر وأيضًا تجنّب الجميع دعوته إلى الحفلات أو المناسبات الشّخصية، ولم يفهم أحد ما الذي جاء به إلى هذا الحفل ومن دعاه؟ دخل التّواليت فتنفس وزير الأوقاف الشّيخ جهاد السّارح الصّعداء، أعاد وضع عمامته على رأسه، ارتدى جبته، وقصد غرفة جانبية ليصلي العشاء.

تزاحمت الصّور والأفكار في رأسه أثناء الصّلاة، منذ أربعة عقود وإلى الآن لا يعرف كيف تسيطر الشّياطين على حواسه وتمنعه من أداء الصّلاة بشكل صحيح! يضطر معه لسجود السّهو أو إعادة الصّلاة. سمع صوت صديقه بدر: "الصّلاة ركعتان شيخي، إحداهما ركعة سهو!". وكأنّه حين يقول الله أكبر يغلق باب غرفه الرّوحية ونوافذها ليحسب ويحاسب ويراجع ويتذكر ويفعل ذهنه مالا يفعله في أوقات الاسترخاء والرّاحة "اللعنة على الشّيطان"..

الشّيطان يسكن في التّفاصيل، تفاصيل الرّكوع والسّجود، يتغلغل بين الكلمات فيحرفها عن مقصدها. تُرى هل صلّى ركعتين أم ثلاث؟

شدّ وزير العدل السّيفون في الحمّام، سمع الصّوت، تخيّل شكل زكّور في الحمّام، هاجمته روائح كريهة وصورة فتحة التّواليت، ووضع معدته السيئ، وبقايا طعام البارحة وصورة ابنه غارق بدمه وصورة فريدة وصفية..

لماذا تأتي صفية إليه كلّما استطاع نسيانها وإبعادها عن ذاكرته؟ أهو الحليب الذي صنع كريات دمه وغذّى جسده الصّغير في طفولته؟

لا بل هو الشّيطان لا يريده أن يتابع صلاته بنفس صافية. ومن أين يأتي الصّفاء وضجيج الوزراء والضّباط يقتحم الغرفة ويطغى على تمتماته بسور القرآن القصيرة؟

سلّم على يمينه ويساره، ونهض مغادرًا.. قبل أن يصل الصّالة ارتطم بوزير الثّقافة صديقه القديم.. (كان منظره غريبًا وهو يخلع قميصه ويجفف عرقه. حاول أن يبتسم وأن يعتذر لسماحة المفتي.. نظر في المرآة ولعن الزّمن.

الجوّ لم يعد يسمح بارتداء قمصان بأكمام طويلة، الصّيّف الفضّاح حمل إليه ما لم يكن في الحسبان، تلك النّظرات المتسائلة القلقة من منظر البقع الباهتة في ذراعه وباطن كفه.. حتّى أنّ البعض كان يجفل حين يصافحه، انتبه جيدًا لوزير الدّفاع كيف أخرج من جيبه منديلًا ورقيًا مبلّلًا بالكلونيا ومسح يديه بعد مصافحته. تمنّى تلك اللحظة لو كان مرضه معديًا.. لشوّه وجوه الوزراء جميعًا، وجوههم بالتّحديد، تخيّلها من دون لون، باهتة كالجبس.. ضحك في سرّه وهو يرسم وجوههم بدقة كما كان يفعل في طفولته حين يرسم وجوه أعدائه بالطّباشير على جدران المراحيض العامة ويغرس وسط العينين سهامًا).

حين دخل الشّيخ جهاد الصّالة كانت فيرونيكا تعرض ثوبًا قصيرًا يكشف عن فخذيها وعيون الوزراء والضّباط الجاحظة تحدّق بمفاتنها وأيديهم تقرع الكؤوس. ناداه حازم: "تعال شيخي، تعال جنبي، هذه الجنة وتلك الحور العين، هل تعجبك ناتاشا أكثر أم فيرونيكا.. شخصيًا يعجبني اسم الثّانية وشكل الأولى لو كنت مكانك لن أستطيع الاختيار أيّهما ستكون ملكة الجمال".

بهت الشّيخ جهاد، تمتم:

- ما علاقتي أنا بالموضوع؟
- كيف ما علاقتك، ألم يخبروك أنّك عضو في لجنة التّحكيم؟

خفق قلبه بقوة:

- لجنة التّحكيم! قلْ كلامًا آخر.

* * *

نضال ابن حلوة الشّخشرلي، وزير الثّقافة

هذا الصّباح أحبّ أن يمارس رياضة المشي في حديقة الفيلا، راودته أحلام وأمنيات، فكّر أن يكتب لها، وألغى الفكرة بسرعة، فكّر باستدعائها عن طريق صديق زوجته للتحقيق، لم تعجبه الفكرة، ماذا لو عرض عليها مدير مكتبه أن تحيي أمسية لمناقشة روايتها الأخيرة؟ حسنًا هكذا بإمكانه إحراجها وإخراجها عن صمتها، وإجبارها على مدح السيّد الرّئيس وإعلان ولائها الصّريح له. وربّما يستطيع أحد الصّحفيين بذكاء أن ينتزع منها اعترافًا بضرورة التّطهير والتّغيير الدّيمغرافي للبلد.

ابتسم لنفسه، مغرمٌ بأفكاره العبقرية. أحسّ بشيء غريب، تطلّع حوله، لم يجد الكلب.. لم يسمع صوت زوجته تناديه.

منذ زمن ليس ببعيد تعوّد على اصطحاب الكلب في نزهته الصّباحية حول الفيلا قبل أن تُحضِّر فائزة له كوب الحليب بالنّسكافيه والسّيجار الكوبي وعلبة الحلو الحلبي المصفوفة بأناقة مفرطة داخل صندوق خشبي من الموزاييك الدّمشقي.. لم يكن يستطيع تناول قطعة منها منذ أصيب بالسّكري، كلّ يوم يعيد رصف القطع، يستبدلها بأخرى، يتفنن في جعل "البلورية" تحيط "بسوار السّت" على شكل جناحين يحيطان بعصفور مصاب بطلقة في الصّدر، والرّصاصة قطعة البقلاوة!

كان على يقين أنّ حواسه صارت تخونه خاصة السّمع واللمس، نصحه الطّبيب بسماعات يضعها بشكل مخفي داخل أذنيه تنبهه إلى مخاطر الطّريق أثناء قيادة سيارته، وتعينه على سماع المناقشات التي تدور في الاجتماعات الضّخمة في الكلية. لم يصبر على ذلك سوى بضعة أشهر فقد لاحقته صفارات الإنذار المزعجة وصوت الطّائرات المروحية المتأرجحة تحت ثقل البراميل، وصرخات أمّهات همدت أجساد أطفالهن للتوّ تحت تأثير الكيماوي القاتل.

زوجته "كاملة" اقترحت عليه فكرة اقتناء كلب يقوم بمهام السمّاعة ويحميه عند الحاجة حين رأت معاناته من الكوابيس ليل نهار بفعل تلك الأصوات الغريبة التي تتسرب من السمّاعة وكأنّها خارجة من آلة تسجيل.

أعجبته الفكرة، ورأى نفسه يشبه مشاهير الممثلين الأجانب الذين يصرّون على اصطحاب كلابهم والتّرفيه عنهم، حتّى لو اضطروا لإيقاف التّصوير.. زوجته قالت مازحة حين رأت الكلب: "سبحان الله كم يشبهك!". لم يستطع ضبط نفسه فامتدت يده بحركة تلقائية وقبض على معصمها بقسوة جعلتها تتراجع إلى الخلف متملصة من قبضته وقد اكفهرّ وجهها. انتبه مباشرة إلى أنّه تجاوز حدّه، رسم على شفتيه شبه ابتسامة توحي بالاعتذار لكنّ زوجته المستاءة لم تسكت على الإهانة ونظرت إلى عينيه نظرة متوعدة، أدارت ظهرها ودخلت غرفتها.

لم تسمح له بالدّخول إلى غرفة النّوم ليلًا على الرّغم من محاولات الاعتذار والتّذلل وباقات الورد والهدايا التي أحضرها لها، كلّ جهوده ذهبت هباءً.

ليلتها كتب على صفحته الشّخصية في الفيس بوك عدّة منشورات أرفقها بصور مشاهير مع كلابهم.. ثمّ جاءه الفرج حين رأى صور عشرة مشاهير مقرونة بصور الكلاب التي تشبههم، فنقل تلك الصّور إلى صفحته وكتب تحت الصّورة التي يظهر فيها بوتين مع قرينه الكلب "سبحان الله كم يشبهني!". عندها سمع صوت المفتاح يدور في القفل وتدفقت رائحة العطر الباريسي الفاخر من غرفة النّوم.

* * *

كان الجوّ حارًا في غرفته المنعزلة التي اعتاد المكوث فيها حين تغضب زوجته الأولى "فائزة" وتمنعه من النّوم على سريرهما.. الحرارة كالمعتاد أثارت

الحساسية في جلده، وظهرت البقع الحمراء الكريهة الرّائحة.. تلك الرّائحة التي لا يشمّها أحد سواه؛ لأنّه الوحيد الذي يعرف مصدرها! استعمل المرهم الأجنبي الذي اشتراه بمبلغ خيالي قياسًا لأثمان الدّواء المحلية التي فشلت في علاج تلك البقع والتّخفيف من الألم، شعر ببعض الرّاحة..

ارتمى على السّرير الواسع من دون أن يغيّر ملابسه، هنا في غرفته الخاصة تتلاشى كلّ المحظورات، حين يغلق الباب ينفصل كليًا عن عالم زوجته الخاضع لقوانين صارمة منذ سكنا الحي الرّاقي؛ صار لها سائقها الخاص وخادمتها وحلّاق شعرها، واستبدلت أصدقاءها، وقطعت كلّ صلة لها بالماضي. هو أيضًا لا يريد أن يربطه شيء بذلك الماضي لكنّه يغرق أحيانًا داخل مستنقع الذّكريات المرّة، يغوص فيها عميقًا فيجد نفسه في مواجهة الذين حاول جاهدًا التّفوق عليهم وسحقهم بكلّ السّبل المتاحة لديه من دون جدوى.

اليوم واجهه الماضي حين دخل المكتبة يسأل عن كتابه الأخير الذي أعاد طباعته بعنوان مختلف مع بعض الإضافات والتّعديلات كي يجد لنفسه طريقًا إلى القرّاء من جديد.. كان يأمل في الانتهاء من رواية بدأ كتابتها منذ حصوله على الدّكتوراه قبل عشرين عامًا.. لكنّه فشل في إنجازها وكان يعلّل النّفس بأنّه سيفعل يومًا حين يجد الوقت المناسب فقد كانت أعباء العمل تثقل ذهنه وتطغى على أيّ أفكار أخرى.

الحيلة الصّغيرة التي قام بها للظهور ثانية على السّاحة الأدبية جدّدت الأمل في نفسه بإنجاز العمل الرّوائي بعد أن صار لديه الوقت الكافي ليهتم بنفسه.

عُرِض على الرّف الأوّل عدّة نسخ من "أرض الظّلال" بتشكيل جميل يلفت نظر الزّبائن.

تردّد في شراء الرّواية لكنّ صاحب المكتبة الذّكي حمل نسخة وقدّمها له بابتسامة ذات مغزى، وقال: "هدية مني". لم يستطع رفض الهدية، حاول أن يقول

شيئًا يثبت لزميله القديم - الذي اختار أن يبتعد عن كلّ الوظائف المتاحة بعد حصوله على الشّهادة الجامعية واختار هذا العمل - إنّه لا يهتم لها؛ لأنّه على يقين أنّها روائية فاشلة ورواياتها تافهة، لكنّ صاحب المكتبة كان أسرع منه حين ذكر له أنّ الرواية مرشحة لجائزة البوكر وأنّ تقييمها ضمن أفضل مئة رواية لهذا العام يكفي للاطلاع عليها.

ابتلع الكلمات وشكر صاحبه ووعده بقراءتها. في الواقع كان يحث نفسه على قراءة الرّواية ويفشل.. ليس سهلًا عليه أن ينسى واسمها ينبت بين الكتب في كلّ مكان، يتحوّل إلى قنبلة تنسف في لحظة كلّ الجدران الإسمنتية المسلحة التي بناها بينه وبين الماضي البعيد، تفقأ عينيه وتمدّ لسانها باستهزاء "أنا الذاكرة التي لا تموت".

رمى الرّواية جانبًا، وأغمض عينيه طويلًا، كان يفكّر بجدية في المشهد الغرائبي للكلب السّلوقي الذي رافق أبا نواس من اليمن إلى بغداد ومات بعد أن لدغته أفعى في إحدى رحلات الصّيد مع صاحبه!

المشهد كما رسمته في روايتها لوحة ساحرة لم يسبق له أن قرأ شيئًا مشابهًا، الأكثر إثارة بالنّسبة إليه ذلك الدّمج المعجز بين شخصية البطل وشخصية أبي نواس.. يذكر تمامًا تلك التّفاصيل المربكة للمحاضرة التي تحدّث فيها الدّكتور محمّد أستاذ الأدب العباسي عن تلك المعركة، لا يمكن أن ينسى أسئلتها وإجاباتها وحماسها في الدّفاع عن رأيها حتّى أحرجت الدّكتور وأخرجته عن طوره فاتّهمها أنّها تريد لفت أنظار الطّلاب إليها وأنّ تنورة قصيرة كفيلة بذلك بدل أن تتعب دماغها الصّغير في نقاش لا جدوى منه! تنفّس بصعوبة وهو يهمس: "أفعى رقطاء!".

ترك الرّواية ونهض إلى حوض الاستحمام، وضع رأسه تحت الدّوش لدقيقتين، لم يستطع الماء البارد أن يعيد إليه توازنه.. ماذا فعلت تلك الغبية؟

لم يكن ينوي يومًا أن يقرأ لها، لكنّه الآن يشعر بالنّدم لأنّه لم يفعل ذلك منذ سنوات، على الأقل كان يستطيع تدارك ما يحدث الآن.. إنّه المقصود في الرّواية.. هو.. لا أحد يستطيع فهمه ووصفه بتلك الدّقة، لا أحد يعرف تلك الأحداث التي حكت عنها سواه، هو من باح لها بكلّ شيء.. كانا في جلسة سمر عند النّهر الكبير، كانت في حالة يأس وقهر وكان مثلها! علاقة الحبّ الفاشلة التي انتهت بالفراق كانت حديث الزّملاء جميعًا وكان يرجو أن يستغل الوقت ليكون مسيحًا مخلّصًا لكنّ قلبها كان مغلقًا وحياديًا وصعب المراس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

عاد أدراجه إلى الفيلا بحثًا عن الكلب، رأى زوجته في الشّرفة غاضبة، قالت وعيناها تحدّقان إلى السّور: "نضال.. الكلب".

الهنيهة التي فصلت بين الكلمتين وأوحت بفعل محذوف قد يكون "خذ، أو انتبه، أو أطْعِم" أو أيّ فعل آخر، لم تلغِ شعوره أنّها أرادت وبقصدية تامة أن تشتمه، لم تكن ممن يقتصدون في استخدام اللغة! مع هذا التفت صوب السّور، رأى الكلب وقد علق ذيله بين الأسلاك، ركض بكلّ قواه وهو يصرخ بالحارس، جاء الحارس مسرعًا، خلّص الكلب من المأزق ووضعه أرضًا برفق، وتراجع إلى الخلف منتظرًا الأوامر!

زفر بضيق وأمره بالابتعاد، لم تكن المرّة الأولى التي تناديه فيها كاملة بهذه الطّريقة، ولم تكن وحدها من يفعل!

* * *

البرقية كانت مختصرة وواضحة "اجتماع عاجل لمجلس الوزراء عليك أن ترأسه وتوضح بعض الأمور التي ستسير عليها خطّة الدّولة لهذا العام، على المجلس الالتزام بها. كُنْ صارمًا لا مجال لأيّ خطأ في التّنفيذ".

أشعل الشّمعة داخل الصّحن الفضي الكبير، الصّحن الهدية، المناسبة التي لن ينساها أبدًا حفلُ الثّقة بتتويجه رئيسًا لجهاز المخابرات العام.

أحرق البرقية والظّرف المختوم بالشّمع الأحمر الذي حمله موفدٌ من القصر الجمهوري. حدّق مليًا إلى الدّخان المتصاعد من الصّحن الفضي، تهيّأ له للحظات أنّ نارًا ضخمة اندلعت من الباب وكتمت أنفاسه، شعر بالاختناق فجأة، هناك أمر لا بدّ سيحدث، أمر خطير، لم يخطئ حدسه قبل الآن في معرفة مكمن الخطر، لكن البرقية صادرة عن القصر الجمهوري! ستفشل محاولاته كلّها في تجنب الكارثة القادمة إن كانت ريحها تهبّ من هناك. ليس هذا فقط بل غير مسموح بتجنب الكارثة!

تردد للحظات في النّهوض، لمَ لا يلجأ إلى أصدقائه الرّوس؟ لكن لا يوجد وقت كافٍ، مع هذا اتّصل بأحدهم في قاعدة حميميم، خطّه مشغول، أعاد الاتّصال، الهاتف خارج التّغطية، اللعنة، ما هذا الحظ؟ ترك تسجيلًا صوتيًا يطلب فيه السّماح له بزيارة القاعدة في أقرب فرصة عن طريق استدعائه في مهمة.

* * *

(كان يومًا عصيبًا بكلّ المقاييس بالنسبة لرئيس فرع المعلومات صلاح السّيد، أوصل الملفات السّرية إلى القصر، طُلب منه أن يستدعي اللواء "شيخ الجبل" رئيس فرع المخابرات العسكرية لمقابلة شخصية مع الرّئيس. لم يتأكد إن

كان قابل الرّئيس أم لا، مهمته كانت إحضاره بصفة شخصية، وكان يعلم نوع المهمة التي ستوكل إليه فهو الذي خطّط وحدّد المكان والزّمان والوسيلة واختار الضّحايا بعناية!

اللواء - وكما جاء في التّقارير التي اطّلع عليها - كان متهمًا بالخيانة العظمى، شاع في القصر أنّه يلتقي بأجانب روس في اجتماعات مريبة، تزامن ذلك مع إشاعات في الخارج روّجت لها صحف أجنبية أنّ القرار الدّولي العام فيه اتفاق خفي على تنحية الرّئيس واختيار رئيس آخر من الطّائفة العلوية تتوافق عليه جميع الأطراف. التّخلي عن الرّئيس صار كابوسًا رزح تحته القصر لأشهر كان البحث جاريًا عن الشّخص الذي ستختاره القوى الخارجية بدلًا منه، ويبدو أنّ اللواء كان أكثر شخص يحمل تلك الخصائص التّوافقية لما يحظى عليه من جذب للأطراف السّنية وعلاقته بامرأة سنية كانت دليلًا على محاولاته الخفية لاستمالة الطّائفة عن طريقها!

القضاء على الرّئيس فيه إرضاء للأغلبية واختيار شيخ الجبل فيه طمأنة للطائفة، القصر أخذ قرارًا بنسف تلك المخططات قبل أن تتأكد الشّائعات وتصبح واقعًا!

الكارثة كانت بعد التّفجير وليس قبله.

فقد وصلته تقارير جديدة بأنّ الشّخصية الأمنية المهمة غادرت البلاد بطريقة سريّة على متن طائرة عسكرية روسية من قاعدة حميميم وأنّها ستمضي أشهر التّدريب والتّحضير في موسكو، تزامن ذلك مع زيارة بوتين للقاعدة العسكرية في المطار).

* * *

الفصل صفر

الرّوائي عبد السّلام أمين

اختفت جليلة من الحي!

لم يهتم أحد لغيابها سوى القطط التي تصرّ يوميًا على الاجتماع في التّوقيت الذي كانت جليلة تضع فيه الطّعام أمام منزلها. بعد أيام من اختفائها صارت القطط تمرّ ببطء، تتوقف للحظات، تموء بحزن، وتمضي.

الخيط الوحيد لمعرفة مكان جليلة أن أتبع القطط، كان يومًا حارًا والسّماء مليئة بالغبار! أمر مريب أن يعبق جوّ المدينة بالغبار وهي على مقربة من البحر والجبل، كثافة الأشجار فيها كافية لبقاء الجوّ نقيًا ونظيفًا.

اشتريت لفافة من اللحم ووقفت قرب البناء في المكان الذي كانت تضع فيه سيارتها، لم ألبث سوى دقائق وبدأت القطط تأتي من جميع الاتجاهات. فتحت اللفافة ووضعتها أرضًا، القطط الجائعة لم تتعامل مع الطّعام بالطّريقة الأنيقة التي اعتادت عليها أيام جليلة!

هجمت ونشب عراك وارتفع صوت مواء شرس، إحداهن نحيلة بعينين رماديتين وقفت بعيدًا وهي تموء بصوتٍ واهن.. هزّت ذيلها وابتعدت. أثارني الأمر؛ لمَ لمْ تقترب من الطّعام؟ فضولي جعلني أتبعها، خطواتها صارت سريعة، تجاوزت الشّارع العام الواصل إلى الجبل ودخلت حرش الصّنوبر، منذ زمن بعيد لم ألمح إنسانًا يدخل الحرش الواقع تحت أقدام شرفتي العالية...

دخلتُ وراءها.. صار من الصّعب عليّ اللحاق بها بعد أن اجتازت أماكن تشابكت أغصان الأشجار فيها وعلت الأعشاب الشّوكية اليابسة.

الضّوء تلاشى بعد مدّة قصيرة.. حجبته الأشجار الكثيفة! دلفت أخيرًا إلى فسحةٍ من الواضح أنّ شخصًا ما قد أزال منها الأعشاب ومهّد التّربة وجعلها صالحة للجلوس.. صخرات متناثرة ورماد في سرير حجري بجانبه أغصان يابسة مرتبة، ودلو ماء وحقيبة رحلات طويلة أُخرج منها خيمة لم تنصب وبقيت مفتوحة. في داخلها موقد غاز صغير وعدة قهوة وكتاب ونرجيلة وفي كيس نايلون حبات بطاطا وكستناء ومكسرات.

خمّنت وقلبي يخفق أنّ تلك الأشياء تعود لجليلة خانم، لم أشك لحظة أنّها لشخص آخر.. أشياؤها هنا، أين تكون؟

بدأت أضطرب، الخواطر السّيئة هاجمتني.. هل يعقل أنّها؟

سمعت صوت رنين هاتف جعلني أقفز من مكاني، تحسست جيبي، أخرجت هاتفي، لم أجد أيّ إشعار!

نقّبت في كيس الرّحلات لم أجد شيئًا.. عاد الهاتف للرنين، أنصتُّ جيدًا، حدّدت جهة الصّوت وتبعته. على بعد أمتار وجدت حقيبة يد نسائية صغيرة وأنيقة، فتحتها.. الهاتف هناك قد خرس صوته. أخذته وحاولت فتحه، طلب مني كلمة السّر! اللعنة كيف سأعرف كلمة سر الهاتف؟

التّصورات والسّيناريوهات التي في رأسي صبّت كلّها في اتّجاه واحد.. شخص ما تبع جليلة إلى هنا وقتلها! شخصٌ ما يراقبني! الخوف جعلني أندفع في طريق العودة.. اكتشفت حين انفلت جسدي من أسر الحرش أنّ هاتفها ما زال في يدي.

أمضيت الليل في محاولات فاشلة لمعرفة كلمة سر الهاتف.. حين غفوت أوّل الفجر رأيت في منامي عينين رماديتين تومضان في العتمة، انتبهت من غفوتي على صوت مواء حزين عرفت أنّه لم يكن خارج الحلم!

في رواية فريدة أماكن كثيرة تتحدّث فيها عن أختيها، فجأة برز أمام عيني مشهد دفن القط الزّيتوني وتعلّق جليلة به. نعم لا بدّ أنّ كلمة السّر "القط الزّيتوني"!

فتح الهاتف من أوّل محاولة، ظهرت صورة لوجه القطّ الرّمادي وعيناه تومضان! معظم الصّور في الاستوديو كانت للقطط ولمدينة حلب القديمة.. داخلها ملف لوحات، لم تستطع جليلة فكّ الارتباط بالمدينة العريقة التي وُلِدت ونشأت فيها وربّما عاشت أجمل سنوات عمرها في شوارعها وأزقتها.

لم أستطع التّعرف إلى وجهٍ واحد من تلك الوجوه التي تحتل الصّور ذات الحواف الصّفراء المكسرة والممزقة، صور بالأبيض والأسود تبدو المدينة فيها في الخلفية مدينة أخرى.. معظم الصّور في شارع واسع أنيق، العابرون في الصّورة يرتدون ملابس فاخرة تدل على الثّراء. إنّه شارع بارون!

بحثت ثانية، لا يوجد في الهاتف أيّ خيط يجعل ظنوني حقيقة. اتصالات من أرقام لا أعرفها، الأسماء في نوافذ الواتس آب لا تنبئ عن شيء، جميع المحادثات محذوفة!

بالصّدفة وقعت يدي على أيقونة الملفات وانفتح أمامي نهر من الرّوايات والكتب وملفات الورود..

لفت انتباهي أحدها، من السّطر الأوّل عرفت أنّها مذكرات كتبتها جليلة وأخفتها بين ملفات الكتب. الملف طويل عنونته بـ "نوستالجيا" آثرت ألا أذكر منه سوى فقرتين.

* * *

كانت أيام امتحانات أذكر ذلك وكأنّه يحدث أمامي الآن..

أخذ جهاد وسادة خفيفة وغطاء مدّه في الحديقة جانب شجرة الجاردينيا ونام.. يومها رفض أن يتناول طعام الإفطار معنا، اكتفى بجرعة سوس وحبات

تمر، الغريب أنّ والدي حين ذهب ليصلي التّراويح في جامع الرّوضة لم يوقظ جهادًا ولم يكلّمه حين عاد!

رأيت رتيبة خانم تنزل الدّرجات بلهفة وتقف قرب رأسه، حدّثته لدقائق لكنّ جهادًا أدار ظهره وغطّى رأسه بالشّرشف، عادت رتيبة بحال سيئة لا يمكن تفسير ملامح وجهها، لم أعرف إن كانت غاضبة أم مقهورة؟ الأصوات المكتومة في غرفة النّوم المغلقة الباب تنبئ بكارثة توشك أن تقع. ما حدث كان مخيبًا لتوقعاتي فقد خرجت أمّي من الغرفة وهي ترتدي ثيابها الأنيقة، غادرت المنزل وصفقت الباب خلفها!

لم يغادر أبي الغرفة حتّى حين ارتفع صوت أديب الدّايخ بالابتهالات من مئذنة جامع الرّوضة حاملًا معه نسمات الغرب الباردة.. كانت روحي ترتجف، خرجت إلى الشّرفة وناديت جهاد، لم يرد.. توقعت أن ينهض ليتسحّر ويذهب إلى الجامع، من عادته ألا يفوّت في رمضان صلاة الفجر في المسجد..

أضواء البيوت في الشّارع العريض أضيئت، وحركة النّاس السّريعة في المطابخ بدأت، اقترب موعد الآذان الأوّل وجهاد على وضعه لم يتحرّك!

كان يقول لي اللون الأخضر في مئذنة جامع الرّوضة يسحبني بخفة إلى عالم غير مرئي فيه جنة عدن، أنهارٌ وحوريات، وسكينة مطلقة. كنت أضحك وأمازحه: "ستقتلك فريدة لو عرفت أنّك تحلم بالحور العين". يرد ساهمًا: "لا يمكن.. كلّهن يحملن ملامحها".

حسدت فريدة كثيرًا ثمّ غبطتها على تعلّق جهاد بها وتحوّل كلّ ذلك إلى شفقة ممزوجة بالفجيعة التي لم أحتملها ولا أعرف كيف احتملتها فريدة، يومها عرفت أنّ بنات عبد الرحيم أفندي منذورات للفقد والغياب والكوارث بغض النّظر عن أمّهاتهن!

لم أعرف ذلك مباشرة بعد زيارة فريدة لنا، حكاه أبي لي وهو على فراش الموت. عندما دخل الصّالة ورآها جالسة قرب جهاد دارت به الدّنيا،

لم يعرف كيف انتزع نفسه من عتبة الغرفة وكيف استطاع عبور الشّرفة ونزل الدّرج وتجاوز الحديقة وركب سيارته وقادها في اتجاه "المسلمية"؛ وعى أخيرًا ما حدث حين أقفر الطّريق وقلّ الشّجر ووجد نفسه قد غادر حلب ولم يعرف وجهته.

أوقف السّيارة على حافة طريق زراعي ونزل منها.. تأمل العتمة الزّاحفة وشعر بيد قاسية تقبض على حنجرته وتعتصرها بقوة.. وجد نفسه في مواجهة ماضيه دفعة واحدة!

أدركَ أنّ الصّدمة ستكون قاسية على قلب ابنه.. كيف سيخبره؟ بل كيف سيواجه رتيبة! لم تكن أبوته لفريدة ورطته الوحيدة، فقد سبق وتورط بالزّواج من ابنة خالته "هالة" والدة يمامة.

كانت صفية على وشك أن تضع حملها حين علم بحمل هالة، لكن الخبر الصّاعق جاء من أمّي التي أخبرته أنّها خضعت للعلاج على يدي طبيب مشهور وأنّها حامل!

* * *

في الخميس المصادف لأوّل أيار الماضي طلبت مني فريدة أن أشتري عدّة شواء من المول، أبديت استغرابي مصحوبًا باستفسار عن السّبب، فأخبرتني أنّها دعت صديقًا قديمًا إلى الغداء وأنّها تعتمد عليّ في اختيار المكان في الهواء الطّلق وتحضير الطّعام.

لم أكن أحبّ أن يشاركني أحد المكان الخاص بي لكن كرمى لعيني فريدة ولإحساسي بأهمية الضّيف بالنّسبة إليها شاركتها مكاني الخاص في الحرش.

لا أعرف من الذي طلب من الفتى الذي يعمل في المطعم مساعدتي في تهيئة المكان ونقل الأغراض من السّيارة وإعداد منقل الفحم للشواء.. هذا الأمر ضايقني حدّ شعوري باستباحة خصوصياتي كما ضايقني الضّيف. لم أرتح له مع علمي أنّه كان أحد أصدقاء أخي أيام الجامعة وأيضًا كان أحد عشّاق فريدة. كنت واثقة أنّها لا تحمل له أيّة مشاعر خاصة، ومع هذا أحسست بالغيرة عليها ليس لأنّي لا أريدها أن تعيش قصة حبّ أو ترتبط برجل بعد هذا الزّمن لكن لسبب خفي، أنا نفسي لم أدركه، يرتبط بهذا الرّجل الصّديق!

حاولت الابتعاد ما أمكن عن جلستهما متجنبة الخوض في أيّ نقاش ولأترك لهما فرصة للحديث، مع هذا التقطت أذناي أشياء ربّما لم يكن عليّ سماعها لأمر يرتبط بي وليس بفريدة، هي أرادتني معها أي أنّها لن تخفي عني السّبب في هذا اللقاء، لكنّي لا أريد أن أعرف شيئًا ولا أن أكون طرفًا في قصّة تخصها...

ما سمعته كان يخص لوحة اختلفا على تصنيفها ربّما ورواية اختلفا على نشرها.

الرّواية بالتّأكيد كانت لفريدة، صديقها طلب منها بطريقة مهذبة أن تحذف بعض ما جاء فيها؛ لأنّه سيعرّضها لكارثة.

استطعت تلطيف الجوّ بإحضار الشّواء.

- تذوقيه فريدة، أليس جيدًا؟

شعرت أنّ اللقمة وقفت في حلق فريدة مع هذا ابتسمت وناولت صديقها سيخ اللحم السّاخن، ودعته إلى المائدة.

كانت المائدة تحوي كلّ الأصناف التي أحبّها من المشاوي والمقبلات. أثنى الضّيف على الطّعام وغادر بعد أن شرب كأس شاي على عجل.

انقبض قلبي حين أصرّت فريدة على طباعة الرّواية من دون تعديل أو حذف. حاولت التّدخل خوفًا عليها بعد عودتنا، لكنّها أصرّت على موقفها.

* * *

لـم تنتـهِ الرّوايـة عنـد التّـاريخ الـذي جمـع بطلاتهـا في حـي بحثيتـا في نهايـة أربعينيات القرن الماضي، فقد أرفقت فريدة فصلًا في النهاية أشارت إلى ترددها في جعله من صلب الرّواية أو هامشًا يوضّح بعض ما التبس فيها!

تناول الهامش حياة لحلوحة وماضيها بالتّفصيل ولقاء فريدة بها عام 2012 بالصّدفة حين لجأت إلى منزل لا تعرفه أثناء الاشتباكات.

ما جاء في هذا الفصل يستحق أن يكون في صلب الرّواية، لكنّي سأكتفي بذكر آخر السّطور التي كشفت فيها لحلوحة السّرّ الذي خبّأته طيلة حياتها.

(لا يمكنني تجاهل الحقيقة الصّادمة التي عرفتها بعد أيام من لقائي مع لحلوحة، هذه المرّة تعمّدت المرور في الزّقاق والتّوقف أمام بابها ولم تجبرني القذائف على ذلك.

أنصتُّ جيدًا، وصلني صوت رجل يتكلّم معها، ويعدها أنّه سيأتي لها بما تحتاجه بعد صلاة العشاء.. ابتعدت بسرعة قبل أن يفتح الباب وعدت أدراجي كما لو أنّي قادمة من أوّل الزّقاق للتوّ.. رأيته يخرج، أمسك يديها، قبّلهما وربتّ عليهما، واستدار ليصبح في مواجهتي..

منصور!

آخر شخص يمكن أن يخطر ببالي. كان شخصًا غامضًا شخصيته حيّرت سكّان البلدة حين جاءها لاجئًا في منتصف السّبعينيات، لكنّه استطاع كسب السكّان بخدماته ومحاولته أن يكون ودودًا مع الجميع.

ابتسمتْ لي وقالت بصوت واهن:

- تفضلي، منصور أحضر لي قهوة، يمكن أن نشربها سويًا.

لم أتردد هذه المرّة، لم أفكّر برائحة الغرفة الخانقة بل لم أشمّها! قلت: "يسرّني أن أشربها معك". ثرثرت كثيرًا، لأوّل مرّة في حياتي أقول كلامًا غير مترابط وأفكارًا حمقاء لا مغزى لها. ابتسمتْ ولم تقاطعني.. وجدتني فجأة أعاني عجزًا

فاضحًا عن متابعة الحديث.. رشفت القهوة ببطء، مع هذا لم يصمد الفنجان طويلًا ولم يتبقَّ أمامي سوى أن أشكرها وأغادر. قالت فجأة:

- أعرف أنّك لم تكوني تعنين كلَّ هذا الكلام الذي قلته أثناء شرب القهوة، هناك سؤال محدد ترغبين بطرحه عليّ، لكن ما أعرفه أكثر بكثير من الجواب على سؤالك. أنت تكتبين رواية وقد نبشتِ ماضي السّيدات اللواتي كنّ يومًا صديقاتي، جميعهن يعرفن أنّي متُّ وأعتقد أنّ بينهنّ من يهمك أمرها يا فريدة.

عاهدت نفسي أن لا أبوح بسرّ لبني آدم، لا أعرف ما الذي يجعلني أقول لكِ الآن ما أعرفه يا بنيتي.

فتحت فمي دهشة، قبل أن تنطق لحلوحة بأيّ سرّ لقد اتّضحت الرّؤيا لي منذ لحظات عرفتها من نبرة الحنان في صوتها، عرفتها من ارتعاش النّبرة الهادئة واليد الجميلة التي استراحت فوق كتفي للحظات ثمّ سحبتها لتمسح دمعة غافلتها.

هل ما قالته لحلوحة حقيقي؟

لا أريد أن أصدّق ما قالته رغم يقيني أنّها الحقيقة عارية من دون رتوش وتجميل. أنا ابنة صفية شق التوأم وحيدة.. ابنتا عائلة من طرابلس من أقارب لحلوحة!).

وضعتني هذه الحقائق في مأزق، لم يكن يهمني في هذه اللحظة سوى معرفة قاتل الأخوات الثلاث.. وأيقنت أنّي سأجده في الرّواية.

أعدت قراءتها بهدوء، توقفت عند المشهد الذي التقط صلاح فيه صورًا لفريدة في كنيسة الشّيباني،

الصّورة التي رسمها فيما بعد وهي تنحني على الدّرابزين وظلّ الزّيزفون منح وجهها غموضًا وسحرًا، اللوحة التي صنّفها النّقاد كأفضل لوحة رسمت في العصر الحديث بأسلوب دافنشي في رسم الظّلال!

تذكرت أنّي رأيتها في مكان ما قبل أن أجدها على هاتف جليلة، نعم رأيتها في مجلة "الحياة التّشكيلية"... صلاح السّيّد!

لم يعد ممكنًا أن أعود إلى بيت السّيّدة فريدة لأتأمل ثانية تلك اللوحة التي نقشت على خشب باب غرفة الزّهور.. صلاح السّيّد!

من المعلومات التي استطعت الحصول عليها خلال يومين من البحث وسؤال معارفي اتّضح لي أنّ صلاح السّيّد "رئيس فرع المعلومات" هو الشّخص الذي ذكرته فريدة في روايتها، مهندس التّفجير المرتبط بالقصر مباشرة!

هو الشّخص الذي يعرف يقينًا الشّخصية التي غادرت إلى روسيا وقد أوكلت إليه مهمة تصفيتها!

وهو الشّخص الذي دعته فريدة إلى حفل الشّواء ولم يتفقا حول أمرين: اللوحة والرّواية!

لم يفتني ما ذكرته فريدة من أنّ صلاح عرض عليها إقامة علاقة جنسية معها ثمّ تراجع عن ذلك وزعم أنّه ليس مبتذلًا إلى هذا الحد وأنّه كان يريد معرفة ردّ فعلها فقط!

كان لا بدّ لي أن أتأكد من هذه القرائن بدليل مادي أثبت من خلاله أنّ صلاح السّيّد هو القاتل.

لن أستطيع بعد الآن استنطاق الأموات، لقد رحلت السيّدات الثلاث ودفن سرّ مقتلهن معهن. لكن هناك إشارة صغيرة جليلة ذكرت الفتى العامل في المطعم، وقالت إنّها لا تعرف من دعاه لمساعدتها في نقل المائدة والأغراض الخاصة إلى الحرش مكانها الخاص الذي تختلي فيه بنفسها، المكان الذي قُتلت فيه. ذلك الشّاب النّحيل صاحب العينين العميقتين والنّظرات التّائهة.. شاب يتعاطى المخدرات ولا شكّ!

* * *

عدت إلى الحرش..

لا شكّ أنّ الفتى سيعود إلى مكان جريمته بحثًا عن هاتفه الذي وجدته هناك ولم أعرف صاحبه. كما توقعت، حين لمحتني قادمًا اختبأ خلف الأشجار.

ناديته:

- أتبحث عن هذا؟

ارتعد الفتى ووقفت الكلمات في حلقه، أراد الهرب فخانته ساقاه، أوقفته:

- أنت من قتلها، لكن لماذا؟ إن قلت لي سأتركك وشأنك.

انفلت الفتى محاولًا الهرب ثانية، قبضت على ذراعه بقوة:

- سأسلّمك للشرطة إن لم تخبرني الحقيقة.

- بعرضك والله مالي علاقة، لم أقتلها هي وقعت فوق الصخرة وتهشم رأسها.. أردت فقط أن أخيفها لتقول لي أين تخفي الرّواية، سيدي لم يطلب مني قتلها، طلب فقط إحضار الرّواية.

- من سيدك؟

- لا أستطيع إخبارك، سيقتلني.

- إذن أخبر الشّرطة من يكون ربّما يخرجك من السّجن.

- لا أرجوك..

- صلاح السّيّد؟ هو، أنا أعرف كلّ شيء، ولم أخبر الشّرطة عنك، أردت التّأكد فقط.

انهار الفتى وبكى:

- لم أشأ قتلها والله. سيدي قال إنّها تعرف مكان النّسخة الورقية من الرّواية فقد كانت مقربة جدًا من أختها، وكان لقاؤهما الأخير بحضورها.

- وفريدة؟ ويمامة.

- فريدة هي التي صرخت وهدّدتني حين رأتني وأنا أمسح ملفات الرّواية من الكمبيوتر، لقد ضبطتني متلبسًا، وعرفت ما فعلته، وتوقف قلبها ووقعت قبل أن أخنقها، أقسم لك أنّها ماتت بشكل طبيعي. أمّا يمامة فلست القاتل.. أقسم لك.

صدّقته.. مقتل يمامة مختلف تمامًا، إنّه يشي بأسلوب امرأة، وأيضًا صديقة تأمن يمامة لها، لا شكّ أنّها جربت القفص من باب المزاح، واستغلت المرأة الأخرى تلك اللحظة فقفلت الباب عليها وخنقتها.. لا شكّ أنّها التي أحضرت القفص من عند الحداد.

لم أستغرب حين علمت من مصدر ثالث كان لا بدّ من اللجوء إليه لتكتمل الصّورة أنّ صلاح عرض الزّواج على فريدة بعد أن عرف الجميع بحقيقة قرابتها لجهاد، وأنّه حاول أن يتقرّب منها حتّى أنّهما اجتازا خطوة مهمة وأعلنا خطوبتهما أمام الأصدقاء المشتركين، لكنّ فريدة هربت بعد ذلك من دون مقدمات إلى الكويت، وأرسلت اعتذارًا لصلاح عن ارتباطها به، وأقرّت في رسالتها أنّها غير مهيئة نفسيًا وعاطفيًا للزّواج ولا تصلح لتأسيس أسرة وإنجاب أولاد.

أخبرتني حورية أنّ صدمة صلاح كانت قوية جدًا بعد صدمته الأولى عندما أحرق لوحاته. وأنّه اختفى بعد ذلك من عالمهم ولم يعرف أحد منهم عن أخباره شيئًا!

هل قالت فريدة الحقيقة في رسالتها؟

الرّسائل! نعم الرّسائل، يلزمني فقط شخص يخترق بريد فريدة الإلكتروني.

* * *

ما عرفته من خلال بريد فريدة كان صادمًا لدرجة أصابتني بالشّلل التّام، لم أعد أستطيع التّفكير، همت طويلًا على وجهي في الجبل، دخلت الحرش وجلست في الفسحة التي وجدت فيها أشياء جليلة.

هنا جلس صلاح السّيد لآخر مرّة مع فريدة وساومها على روايتها، هنا استرجعا ما كان بينهما في الماضي واحتفظ كلٌّ منهما بمشاعره الحقيقية وأسراره.

ما عرفته فريدة كان أكثر بكثير مما تخيله صلاح، لقد ساومها على رواية كتبتها عن الماضي فزعًا من أشياء بسيطة لا تشكّل خطرًا على أحد. أم تراه اخترق بريدها أيضًا؟

النّهاية

ركبت السّيارة مغادرًا الحيرانة...

"حربي رشاش في الأجواء".. تكررت العبارة من خلال القبضة اللاسلكية الملقاة على المقعد بجانبي، نصحني صديقي النّاشر ألا أتحرّك من دونها كي أستطيع اختيار الطّريق الآمن أثناء عبوري المناطق المحرّرة - كما يسميها الإرهابيون - عبر الواتس آب اتصلت به وأخبرته أنّي غادرت الحيرانة وسأكون في دمشق قبل ظهر الغد؛ فأنا لا أنوي قيادة السّيارة في الليل، سأنام في استراحة حمص. سألته:

- قرأتَ الرّواية؟
- مدهشة، لكن لي بعض الملاحظات عليها سنناقشها حين تأتي، عبد السّلام، هل تسمعني؟
- لديّ فصل إضافي "الفصل صفر" تريث بإرسالها إلى المطبعة، اضطررت لكتابته على ورق، ستكون الأوراق عندك فور وصولي.
- عبد السّلام.. هل تسمعني؟ أجب...

المراصد تعلن "حربي في الأجواء" أخفِّف السّرعة، أنتبه للصوت المنبعث من القبضة اللاسلكية.. "حربي رشاش باتّجاه الحيرانة.. يرجى أخذ الحذر.. تجاوز المعرة.. وصل جرجناز.. الحربي يغيّر اتجاهه، قصد الطّريق الدّولي.. الإخوة في المراصد انتباه، الإخوة... انتباه...

فجأة انقطع البث
لم أعد أسمع شيئًا
صوتٌ بعيدٌ وغامض لسيارات فرق الدّفاع المدني القادمة من عمق النّفق.

* * *

ملحق أخير

رجل من الدّفاع المدني:

حين وصلت إلى مكان القصف كانت السّيارة محترقة بالكامل وقد قذف الانفجار محتوياتها بعيدًا قبل احتراقها.. بقايا جثة، قبضة لاسلكي، حقيبة سفر، وحافظة طعام!

في الحقيبة أوراق تخص الجثة.. لا يوجد فيها ما يدل على هوية صاحبها سوى تلك الأوراق التي تحوي - فصلًا من رواية - كما ذكر كاتبها مع أنّ الأسلوب أقرب لتقرير مكتوب للمخابرات أو ربّما كانت تلك الرّسائل منسوخة فعلًا من بريد إحداهن!

الفصل صفر

لم تكن عملية اختراق الإيميل صعبة، قضيت ليلة كاملة في قراءة ما جاء في رسائل فريدة ولحسن حظي أنها لم تكن كثيرة واقتصرت على عدّة أسماء مما سهّل مهمتي.

الحلقة المفقودة كانت في رسائل صبية تحمل اسمًا مستعارًا من الواضح أنّ علاقتها بفريدة لم يمضِ عليها زمن طويل.

المربك أنّي قبل أن أنقل الرّسائل إلى الهارد اختفت فجأة! شخص ما اخترق البريد ومسح الرّسائل كافة. ارتجفت خوفًا؛ هل يعقل أن يكتشف أمري؟ نشف

الدّم في عروقي وأنا أرى إشعارات تصل هاتفي من النّاشر وحين أفتح نافذة التّواصل معه عبر الواتس آب لا أجد شيئًا!

مؤكد أنّي مراقب، لقد اكتشفوا أمري، لا شكّ أنّ الفتى أخبر صلاح السّيد بكلّ شيء.. اللعنة كيف غفلت عن ذلك؟

لم أجد طريقة أفضل من تدوين ما أتذكره من الرّسائل على ورق قبل مغادرتي الحيرانة.. ذلك أفضل كما اعتقدت، صرت على ثقة بأنّ إيميلي مراقب أيضًا وأنّ بإمكان فرع المعلومات اختراق جهازي المحمول وأنا لا حيلة لي بخبرتي البسيطة.. ولن ألجأ لأحد لحماية جهازي، صرت أشكّ حتّى في نفسي!

الرّسالة الأولى

فريدة

تعلمين كم أكره الألقاب لذا؛ لم أستطع مناداتك بعزيزتي أو صديقتي أو أستاذة! لأنّ هناك لقبًا واحدًا ترفضينه ولا أستطيع التّخلي عنه.

... علمت أنّك ستنشرين رواية قريبًا تتناولين فيها حياة السّيدات اللواتي تركن حي العاهرات قبل إزالته بمدة قصيرة وما آل إليه حالهن. ليس ذلك مهمًا بالنّسبة إليّ، أنتِ حرّة في كتابة ما تقتنعين به، لكنّي أحببت تنبيهك بحكم العلاقة التي ربطتنا يومًا وتملّصتِ منها إلى عدم ذكر أسماء حقيقية في الرّواية كما فعلت صديقتك حورية. للعلم بالشّيء فقط، اسم حورية عُمِّم على المطارات والنّقاط الحدودية مع الدّول المجاورة فما كتبته عن صديقنا نضال وأمّه في روايتها غير لائق وسبّب بلبلة له ولنا.

مع خالص حبي

صلاح.

الرد:

الأستاذ المبجّل اللواء صلاح السّيد

لن أسألك عن الطّريقة التي عرفت فيها تلك المعلومات فهي تقريبًا باتت معلومة لديّ بعد أن عرفت "وظيفتك" الحالية.

أنت أكثر النّاس معرفة بي ومتأكدة أنك على يقين أنّي لا أخضع للتهديد ولا أهتم لآراء الآخرين ولا أبدّل قناعاتي. وإن كنت تظنّ العكس فأنت واهم، ولم تعرف فريدة جيدًا.

تحياتي واحترامي.

فريدة

لم أقصد تهديدك يا غالية، كما لم أقصد استفزازك، فقط وضعت الحقائق أمامك، لكن يبدو أنّ الأيام لم تغيّرك فعلًا، ما زلت تتمتعين بالمزاج النّاري الذي يقتلع قلبي من مكانه ويطير صوابي.

الأفضل لنا نحن الاثنين أن نلتقي ونتحدّث كي نمنع الالتباس وسوء الفهم الذي تورطنا الكتابة به..

أرجوك وافقي..

سآتي إلى الحيرانة الأسبوع المقبل.. سمعت أنّ جليلة تسكن قربك، سأكون أكثر وضوحًا، أحبّ أن أتناول الغداء معك في المكان الذي تختلي فيه جليلة بنفسها.. زرته مرّة منذ سنوات، المكان رائع، يومها مررت تحت شرفتك ورأيتك تسقين الزرع وتدندنين أغنية عبد الوهاب "يا ورد مين يشتريك" كم كان صوتك رائعًا! وكم احتجت للشجاعة كي أتقدم وأطرق بابك وخانتني شجاعتي.

ما زلت أحبّك.

من الواضح أنّ قلب فريدة لان قليلًا؛ لأنّها وافقت على زيارة صلاح لها وربّما كانت موافقتها لأمر في نفسها أرادت معرفته أو التّأكد منه أو إخفاءه!

ما كتبته فريدة وكتبه صلاح من رسائل معظمه كان عاديًا يتناول ذكريات عن المرحلة الجامعية، لكن السّطور أخفت بين حروفها فخاخًا نصبتها فريدة حينًا للإيقاع بصلاح ونصبها هو أحيانًا لاستدراجها للبوح بأسرار تعرفها عن سكّان الحيرانة أو أصدقائها وعائلتها.. فريدة كانت ذكية لم تتورط بأيّ إجابة تدينها بل كانت تجيد المناورة والتّهرب بدبلوماسية.

لم أكن معهما في الحرش لكن ما كتباه في الرّسائل أفشى تفاصيل لقائهما.. المثير لم يكن في رسائل فريدة لصلاح ولا في رسائله إليها بل في رسائل من فتاة لم أعرف من تكون وربّما لم تعرفها فريدة. مع هذا كانت الصّندوق الأسود لصلاح، وتركت ذلك الصّندوق لفريدة بكلّ ما يحتوي عليه من حقائق صادمة وقاسية على قلبها.

جاء في رسالة الفتاة:

أستاذة فريدة

كان بودي التّعرف إليكِ ولقائك، وقد ترددت طويلًا في إرسال الملفات المرفقة إليك، ما دفعني لإرسالها استحالة اللقاء بك، لا أريد وضعك في مشكلة، حاولي التّخلص من كلّ الملفات بعد قراءتها..

محبتي واعتزازي.

يبدو أنّ فريدة لم تشأ أن تستمع لنصيحة الفتاة بحذف الملفات لأنّها حصلت على دلائل ووثائق إدانة لا أعرف بالضبط كيف كانت تنوي استخدامها. أتخيّل كم

من الألم عاشت عندما رأت تلك الصّور؟ الصّور وحدها كارثية، يبدو أنّ صلاح لم يجد طريقة ينتقم بها من فريدة سوى رسمها بطريقة أفرغ فيها كلّ القبح الموجود في نفسه.. لم تكن صورًا عارية فقط بل أظهرت فريدة في وضعية الجارية والعبدة والسّحاقية، رسمها عاهرة مازوشية تتمرّغ على أقدام رجل يحمل في كلّ اللوحات وجه صلاح السّيد!

أتساءل كيف استطاعت تحمّل ما رأته وقرأته!

الفتاة الضّحية كتبت رسالة أخرى لفريدة بعد شهر تخبرها فيها أنّها استطاعت أن تنفد بجلدها وصارت في أوربا مع علمها أنّ بإمكان صلاح السّيد أن يصل إليها عن طريق أذرعه الأمنية المنتشرة في القارة العجوز على شكل لاجئين.. لكنّها قامت باتّخاذ إجراءات أمان ترجو أن تحميها منه.

عزيزتي الأستاذة فريدة

لطالما حلمت وأنا أقرأ رواياتك أن ألقاك يومًا وأشرب معك فنجان قهوة ونتحدّث كصديقتين، لا تستغربي أنا لا أعترف بالفارق الزّمني في العمر بيننا، فالعلم ألغى المسافات والحواجز وجعل العالم حقًّا قرية صغيرة.

سأحكي لكِ وأنا أبعد عنك مسافة طويلة يختصرها الإنترنت بل يلغيها تمامًا عن علاقتي بصلاح السّيد فقط؛ لأني على يقين أنّك تعرفين التّفاصيل الأخرى في حياته.

تعرفت إليه من خلال الفيس بوك، لم أشك أنّه يستخدم اسمًا مستعارًا كان يضع لوحات رائعة بعضها رسمها هو كما أشار، لوحات عن الطّبيعة والورد يكتب تحتها أشعارا رقيقة. أرسل لي طلب صداقة وقبلت، تحدّث معي على الماسنجر، في البداية كان متحفظًا ولبقًا وغالبًا يناديني "ابنتي" حين أشرت أنّي أتضايق من هذا اللقب وأحبّ أن يناديني باسمي، قال إنّه لا يستطيع أن يلغي فارق السّن بيننا ولا

يريد أن ينسى أنّ هناك ثلاثين سنة تفصلنا في العمر! والأهم أنّي أذكّره بابنته التي لم يرها منذ كانت في الرابعة من عمرها فقد احتفظت بها أمّها الروسية بعد انفصالهما وعودته إلى سوريا. لم أسأله ماذا كان يفعل في روسيا، اكتفيت بمعرفة أنّ ابنته بعيدة ولا تعيش معه وأنّه مطلق.

أعترف أنّي في غمرة إعجابي بثقافته وحضوره الطّاغي لم أفكّر بفارق السّن بل عشقت شعره الأبيض الكثيف وصوته الحنون الدّافئ الأقرب إلى الهمس.. لم أكن أعلم شيئًا عن مهنته، كنت أظنّ أنّه رسّام فقط وربّما اقتنعت أنّه شاعر أيضًا واعتبرت التّفاصيل الأخرى الخاصة شيء فائض عن الحاجة لا أريد معرفته.

في لقائنا الأوّل أخذني إلى مزرعة في خان العسل، لا أستطيع أن أصف لكِ شعور البهجة الذي غمرني وأنا أسير في طرقات الحدائق، إنّها الجنة على الأرض، أطعمني بيده، قال لي كلامًا لم أسمع مثله ولم أقرأ في ديوان الغزل العربي.. كنتُ حواء التي أغوت آدم وشعرتُ بهيبة السّلطة تنزاح ليخرج منها رجل هش وضعيف ورقيق حدّ الثّمالة.. عشتُ معه أيامًا من الرّومانسية الخالدة.. قدّسته؛ لأنّه لم يقترب من جسدي ولم يتصرّف معي بطريقة مبتذلة.

الأمر الوحيد الذي ضايقني أنّنا لم نكن بمفردنا، على مقربة منا يقف حارس شخصي وعند الباب يقف السّائق وفي غرفةٍ عند المدخل تسكن عائلة تعتني بالمزرعة، قامت المرأة بخدمتنا طيلة الوقت.. كنت أخشى أن يراني هؤلاء معه، لكنّه طمأنني بأنّ هؤلاء لا يرون إلا ما يريده هو!

لا أخفيك، تلك العبارة جعلت قلبي يرتعش! لم يمضِ على تعارفنا سوى أشهر حتّى لم أعد أستطيع مفارقته، أهو العشق؟ صديقتي المقرّبة التي تحفظ سرّي قالت إنّه رجل سلطة مخيف وهو يستغل براءتي وسذاجتي وعدم خبرتي.

ابتعدت عنها وتخاصمنا، لم أكن على استعداد لسماع أيّ شيءٍ مخالف لأحاسيسي، كنت مهيّأة للذهاب بعيدًا في العلاقة مهما كانت النّتائج حين أخبرني أنّه يحضّر لي مفاجأة!

المفاجأة كانت زيارتي لمكتبه! حيث أعلن لي حبّه وطلبني للزواج، وافقت وأنا مذهولة، شعرت أنّي مفرغة تمامًا من إرادتي، لم أتردد لحظة مع علمي أنّ الزواج منه له محاذير كثيرة أولها تخلي أهلي عني. كنت متشوقة لأكون بين يديه في مكان مغلق لوحدنا.. تخيلت شكل البيت والأثاث وحلمت بالأطفال والاستقرار والأمان والسّفر، هاجمتني الأحلام من كلّ حدب وصوب وتركتها تسرح وتمرح في مخيلتي حتّى هاتفني وطلب مني المجيء إلى المكتب في العاشرة ليلًا من يوم الخميس المصادف منتصف تشرين الثاني 2017.

وخزني قلبي للحظة، تجاهلته وذهبت مع السّائق الذي أرسله لي.

المكان كان هادئًا وغارقًا في العتمة، أشعل السّائق مصباحه اليدوي وأنار لي الدّرجات الخارجية للمبنى وهو يرافقني إلى الباب، ضغط الزّر وفتح الباب آليًا، ناولني المصباح، في اللحظة التي أخذته منه وقع الضّوء على وجهه، لمحت عينيه خطفًا كان فيهما آثار دموع، أنا على يقين أنّه نظر إليّ متضرعًا أن لا أدخل، تمتم "الله معك".. تجاهلته ودخلت!

خفق قلبي بقوة وهو يضمني بعنف ويقبّلني، شدّني إلى الدّاخل، أوقف سيل الأسئلة التي تدفقت على لساني وهو يجرّني ويدفعني صوب الأريكة، فتح كمبيوتره المحمول واتّصل عبر السّكايب بأشخاص يعرفهم أحدهم كان الشّيخ الذي كتب عقد الزّواج والآخران كانا شاهدين على العقد! كنت مذهولة من كلّ ما يجري لم أتحقق إن كان ذلك صحيحًا لكنّه أكّد لي أنّه صحيح وقانوني.

فتح بابًا مخفيًا في الجدار، ظهرت غرفة غريبة فيها سرير لا ينتمي لأحلامي وأدوات غريبة لم أفهم سرّ وجودها في البداية حتّى بدأت حفلة تعذيبي.

لم يكن زواجًا بل اغتصاب بشهادة شهود.. لم تكن معاشرة بل حفلة تعذيب، قال لي: "كلّما كان صراخك أعلى كانت لذتي أكبر فانظري كيف ستثبتين لي أنّك تحبينني يا بنيتي".

مع كلّ العذاب الذي أذاقه لي لم أفقد حواسي وانتباهي، كنت على يقين أنّ هناك أشخاصًا يشاهدون ما يجري، شعرت بحركة ما وراء السّتائر.. حين أغمي عليّ من الألم تركني، لم أجده حين صحوت.. كان هناك امرأة ملثمة لم أرَ سوى عينيها لكنّي أستطيع ببساطة التّعرف إليها الآن إن صدفتها في أيّ مكان، أدخلتني إلى الحمّام واعتنت بجروحي وأحضرت لي طعامًا ولم تنبس بكلمة، أنا أيضًا لم أتحدّث إليها، عرفت أنّها لن تتكلّم وأنّ المكان مراقب بالكاميرات.

كان عقلي يعمل بسرعة وتنظيم ودقة على كيفية الخروج من هذا المكان، قبل كلّ شيء كان عليّ إثبات ولائي وحبي له بالطريقة التي يريدها مهما تحملت كي أستطيع الخروج من القبر الذي سجنني داخله.. الأمر كان في منتهى الصّعوبة لكن لم يكن لديّ خيار..

خلال أشهر صارعت لأقنعه أنّي أحبّ ما يفعله وأنّ ذلك يمتعني أكثر مما يمتعه، نفّذت كلّ ما طلبه مني واكتشفت خلال ذلك الوقت أنّ داخلي عاهرة جَوهَرها الألم فأتقنت تلك الفنون البذيئة التي طلبها مني.

حين فكّ قيودي عرفت أنّه امتلك الثقة بأنّي صرت عبدة له وأنّي سأبقى جاثية عند قدميه حتّى يمل مني ويطردني أو يأمر بتصفيتي.

نعم، التّصفية أمر بسيط وهي نهاية كلّ فتاة يقيم معها علاقة، هذا ما عرفته حين اطلعت على الملفات التي سأرفقها مع الرّسالة القادمة لتري بعينيكِ كلّ شيء.

بعد كلّ ما مرّ بي صعقتني تلك المعلومات التي قرأتها في الملفات والصّور التي رأيتها.

عرفت لحظتها أنّي نجوت، وأن ما جرى لي لم يكن شيئًا أمام ما جرى للأخريات، لم يكن صلاح السّيد ساديًا فقط وعنيفًا، كان عاجزًا جنسيًا لم يستطع طيلة تلك الشّهور أن يعاشرني ولم يفعل معي ما فعله مع الأخريات حتّى تساءلت هل كان يحبّني حقًّا!

اكتشفت بين الصّور صورة لابنته، صعقتني الصّورة كانت تشبهني كثيرًا ربّما لهذا السّبب لم يتركني صلاح السّيد لكلابه كي يغتصبوني ويحتفظ بصوري عنده كما فعل مع الأخريات.. لكن كيف كان يناديني "ابنتي" ويصرّ على ذلك ويريد معاشرتي بالقوة! فكرت أنّ ذلك الشّبه كان من حظي وأنّه كان العائق الذي أصابه بالعجز أمامي.

جاءت فرصتي للهرب من المبنى حين انهالت عليه قذائف الهاون من جهة لا أعرفها، سمعت حينها الحركة في الخارج؛ كان المكان في حالة فوضى مع هذا لم أفقد تركيزي للحظة ولم ترعبني القذائف، كنت على ثقة أنّ الموت حين يجيء سيكون رحيمًا ولن يساوي ما عشته من عذاب خلال الأشهر السّابقة، الأبواب كانت مفتوحة فقد هربت المرأة الموكلة بالعناية بي لا تلوي على شيء..

كمبيوتره ما زال مفتوحًا في غرفة المكتب، لم يكن لديّ الوقت الكافي لفتح أي ملف فككت الكمبيوتر ببساطة وأخرجت الهارد وضعته في جيبي وغادرت المبنى، كنت أعرف أنّ البقاء في المدينة مخاطرة، أخذت سيارة أجرة إلى المحلق ومن هناك قصدت الرّيف الغربي، المرور على الحواجز كان مخاطرة لكنني توفقت بسائق ذكي ومغامر ويعرف الطّرق المؤدية إلى روما.. ربّما خطر لكِ أنّ السّائق الذي أقلّني كان سائق صلاح السّيد نفسه! حين

توقفت سيارته بقربي في الطّريق الخاوي والرّيح تصفر بقوة نشف الدّم في عروقي، ظننت أنّ صلاح عرف مكاني وأرسله خلفي.. حين نزل من السّيارة لمحت في عينيه آثار الدّموع. قال لي: (كانت مثلك تمامًا صغيرة وجميلة وطالبة جامعية، كانت في كلية الطّب، وكنّا ننتظر تخرجها حين رآها وأمرني بإحضارها إليه من أجل سؤال فقط.. بعدها لم تخرج من الغرفة المظلمة سوى جثة. كنت على يقين حين نقلت إحدى الجثث إلى المقبرة أنّها هي لكنّي لم أجرؤ على النّظر داخل الصّندوق.

كانت مهمتي محددة، أحضر الفتيات إليه، وأعيدهن في صندوق إلى حارس المقبرة. تبعتك حين خرجتِ من المبنى، لم أشأ أن أكلّمك هناك كي لا تخافي وكي لا ينفضح أمرك. الحمد لله على سلامتك، ربّما اليوم سأنام مرتاحًا لأنّي استطعت إنقاذ روح بريئة.. وربّما ستكون نومتي الأبدية).

وضعني السّائق عند أقارب له في "سرمدا" ريثما استطاع الاتفاق مع مهرّب لإدخالي إلى تركيا.

كنت أتساءل وأنا أتصفح ملفات الفتيات اللواتي قُتلن تحت التّعذيب وأقرأ ما كتبه صلاح السّيد بنفسه في ملف خاص عن ذكريات طفولته وشبابه وعلاقته بكِ "هل كنتِ تعرفين ماضي صلاح السّيد؟". حين علمت أنّكما ارتبطتما بعلاقة خطوبة قصيرة قبل سفرك إلى الكويت، خطر لي أنّك ربّما عرفت شيئًا من ماضيه حتّى فسخت الخطوبة وهربت.. "الهرب" هي العبارة التي آلمت صلاح كثيرًا على ما يبدو حين كتب عن حبّه وتعلقه بكِ وعن العهد الذي أخذه على نفسه بأنّه سيصل إليكِ يومًا ويجعلك تركعين عند قدميه كما صوّركِ في لوحاته. اعذريني على وقاحتي لكنّي أعتقد أنّ العجز الذي أصاب صلاح كان سببه انكساره أمام جسدك حين لم يحصل عليه في الواقع.

عزيزتي الأستاذة فريدة

أرجو منك للمرّة الثّانية أن تحذفي كلّ ما أرسلته لكِ، لا شكّ أنّه سيخترق بريدك، إن كنت تودين الحياة حاولي مجاراته في طلبه بحذف كلّ ما يشير إليه في روايتك..

أتمنّى ألا تكون تلك الرّواية سببًا في تصفيتك.

محبتي الخالصة.

زهرة الصّبّار.

* * *

استنبول/ شباط/ 2021

صدر للمؤلفة

1. جذور ميتة/ مجموعة قصصية/ دار سعاد الصباح/ 2001/ (جائزة سعاد الصّباح).
2. نساء بلا هديل/ مجموعة قصصية/ الرياض/ 2004/ (جائزة مجلة لها).
3. امرأة في المحاق/ مجموعة قصصية/ دار نوفا/ الكويت/ 2012.
4. جبل السّماق/ رواية/ الجزء الأول "سوق الحدادين"/ دار فصلت/ حلب/ 2004.
5. ذاكرة الرّماد/ سوريا/ 2005/ دار الحوار/ سوريا.
6. جبل السّماق/ رواية/ الجزء الثاني/ الخروج إلى التّيه/ سوريا 2006/ دار العوام (جائزة المزرعة - سوريا).
7. المعراج/ رواية/ دار العوام/ دمشق/ 2006.
8. عين الشمس/ الدار العربية للعلوم ناشرون/ بيروت/ 2009/ (القائمة الطّويلة لجائزة البوكر).
9. غواية الماء/ رواية/ الدّار العربية للعلوم ناشرون/ بيروت/ 2010.
10. مدن اليمام/ رواية/ الدّار المصرية اللبنانية/ مصر/ 2012.
11. لمار/ رواية/ الدّار العربية للكتاب/ مصر/ 2013.

12. لعنة الكادميوم/ رواية/ دار روايات/ 2016.

13. الشارع 24 شمالًا/ رواية/ منشورات ضفاف/ بيروت/ 2017.

14. سلم إلى السّماء/ رواية/ منشورات دار جامعة حمد/ الدوحة/ 2019.

15. القمصان البيضاء/ رواية/ دار موزاييك تركيا/ 2020.

16. كتاب الظّل/ رواية/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ سلسلة إبداعات عربية/ القاهرة/ 2020.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بنات لحلوحة

ابتسام تريسي

الزّمن الذي لم تعشه فتيات لحلوحة معها ولم تذكره نادرة الشّريف في مذكراتها سقط من ذاكرة المدينة وغمره النّسيان. كنت طفلة صغيرة في ذلك الوقت لكنّي أملك ذاكرة حيّة حدّ اعتقادي أنّي تكوّنت من ذاكرة الآخرين ولم آتِ إلى الدّنيا من رحم أمّي.

المدينة بملامحها البريئة في ستينيات القرن الماضي تشكّل حصارًا على روحي، تفرض نفسها عليّ أثناء النّوم والصّحو، أسير في شوارعها لأؤكد لنفسي بقاء تلك الملامح وثباتها، أنسف الأبنية الكرتونية المتطاولة إلى السّماء، أعيد الخانات إلى أسواقها القديمة، أُرجع الدّكاكين ووجوه أصحابها، أراجيح العيد الخشبية، روائح الخضار والفاكهة الطّازجة، وروائح تحميص القضامة وبذور عبّاد الشّمس وروائح اللحم بعجين؛ مياه السّواقي التي تقسم أزقتها إلى طرفين للسير أيام المطر، أعيد الأسواق إلى سابق عهدها وأعرّج على بساتين الخس والفول الأخضر والخيار، ألوّن الأشجار، أعيد بهاء الجامع الكبير، وحين أطمئن إلى أنّها هي وأنّني ما أزال طفلة، أعود إلى البيت... أصعد الدّرج، ألتقط أنفاسي أمام الباب، أدخل غرفتي، أسدل السّتائر، أضيء القنديل وأجلس لأكتب، تسبقني عبارات أبي وهو يعلّمني وضعية الحروف على السّطر بخطّ الرّقعة.

telegram @soramnqraa

ISBN: 978-9948-471-22-6
9 789948 471226

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.